

الأطلس المصور لمكة المكرمة والمشاعر المقدسة

الطبعة الثانية

ح دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

دارة الملك عبدالعزيز. مرزا، معراج نواب أحمد

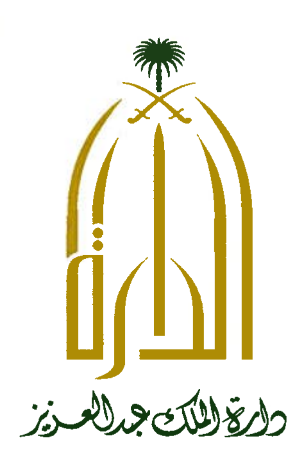
الأطلس المصور لمكة المكرمة والمشاعر المقدسة / معراج نواب أحمد مرزا؛ عبدالله صالح شاووش. ـ ط ٢ ـ الرياض، ١٤٢٧هـ

٢٤٠ ص؛ ٣٦ × ٢٩ سم

ردمك: ٧ ـ ٧٠ ـ ٩٧٤ ـ ٩٩٦٠
١ ـ مكة المكرمة ـ خرائط ٢ ـ الأطالس الجغرافية ٣ ـ السعودية خرائط أ. شاووش؛ عبدالله صالح (مؤلف مشارك) ب. العنوان

ديوي ٩١٢,٥٣١٢١   ١٤٢٧/١١٥٥

رقم الإيداع: ١٤٢٧/١١٥٥
ردمك: ٧ ـ ٧٠ ـ ٩٧٤ ـ ٩٩٦٠



الأطلس المصوّر
لمكّة المكرّمة والمشاعر المقدّسة

من القرن الخامس حتى الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري

تأليف

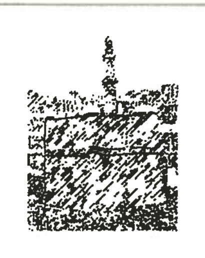
د. معراج بن نواب مرزا

د. عبدالله بن صالح شاووش

طبع على نفقة خادم الحرمين الشريفين
الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود رحمه الله



تقديم



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الله ﷻ قد فَضَّلَ بعض الأمكنة على بعض، فخصها بالتشريف، ومن هذه البقاع المباركة مكة المكرمة التي تضم بين جوانبها المسجد الحرام الذي قال فيه النبي ﷺ:(لا تُشَدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى). وفيها يؤدى الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج، وتتجه نحوها أفئدة المصلين من المسلمين في كل مكان.

وقد لقيت تلك الأماكن الطاهرة عناية واهتماماً على مرِّ التاريخ الإسلامي الطويل، تمثلت في الاهتمام بتوسعة المسجد الحرام ليشمل المصلين والطائفين وطلبة العلم. ولقيت الكعبة المشرفة ببنائها وكسوتها وبابها عناية مماثلة، إلى جانب الاهتمام بمقام إبراهيم وبئر زمزم والمطاف وغيرها.

وقد ضم هذا الأطلس مجموعة كبيرة من الرسوم والصور التي تحكي قصة التطور الذي لقيه المسجد الحرام والمشاعر المقدسة على مر التاريخ الإسلامي الطويل، معتمداً على الرسم والصورة التي تفصح بأبلغ عبارة، وتنطق بأصدق مقالة عن واقع تاريخي لم نشهده، فنقلته لنا تلك الصور والرسوم كما كان؛ ليبقى ماثلاً للعيان على مر الزمان.

وقد تناول هذا الأطلس ما توافر من رسومات وصور للمسجد الحرام والمشاعر المقدسة في مكة المكرمة مبتدئاً بالرسومات الإسلامية القديمة التي يعد أقدمها رسم يعود إلى ما قبل سنة ٤٨٦هـ. كما ضم الأطلس رسومات الغربيين وأوصافهم للمسجد الحرام والمشاعر المقدسة، من مثل: باديا ليبلخ، وبوركهارت، وبيرتون.

ومع نهاية القرن الثالث عشر الهجري بدأت تظهر الصور الفوتوغرافية لمكة المكرمة، وقد حوى هذا الأطلس مجموعة من الصور الفوتوغرافية العثمانية، وصور محمد صادق الذي زار مكة المكرمة خمس مرات أو أكثر، قام خلالها بتصوير المسجد الحرام والمشاعر المقدسة.

ومع مطلع القرن الرابع عشر الهجري سجل الأطلس ظهور أول مصورين من مكة المكرمة، ومنهم عبدالغفار بن عبدالرحمن. كما برز في تلك المدة احتراف بعض المصورين لبيع الصور المكية التي لقيت رواجاً واسعاً بين الحجاج والمعتمرين، لتنتشر بعد ذلك في أرجاء العالم الإسلامي حيث تتلهف القلوب قبل العيون للاكتحال من جلال تلك الأمكنة الطاهرة والبقاع المقدسة.

وقد نطق الأطلس بأصدق عبارة وأوضح معنى بما لقيه المسجد الحرام والمشاعر المقدسة من عناية فائقة من بداية عهد الملك عبدالعزيز – رحمه الله – الذي وطد الأمن، ووحد الشتات، وجمع الفرقة، ونشر الألفة، ومدَّ البنيان، وجعل الحرمين الشريفين قرة عينه، ومحط همته واهتمامه، لإراحة الحجاج والمعتمرين، ولتقديم الوفاء وكريم العطاء لأقدس البقاع وأطهر الأمكنة.

وتناول الأطلس بعضاً من مظاهر العناية التي لقيها المسجد الحرام والمشاعر المقدسة في عهد الملك عبدالعزيز وأبنائه من بعده، مثل: صناعة الكسوة، وتجديد باب الكعبة المشرفة، ونصب المظلات ورصف الأرضيات للوقاية من لهيب الشمس المحرقة، وإضاءة المسجد الحرام، وتوسعة الشوارع المحيطة به، وتوفير المياه، وتنظيم المواصلات وطرق الحج، كل ذلك وغيره أوضحته الصور الناطقة بالعناية المخلصة.

تقديم



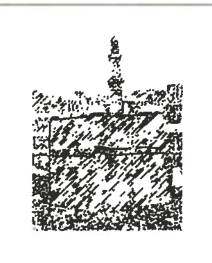
وتضمن الأطلس التوسعة الكبرى للمسجد الحرام، وهي توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز – رحمه الله – التي شملت إلى جانب ذلك: تجديد بناء الكعبة، وتنظيم المشاعر المقدسة وتطويرها إلى كل ما يهيئ للحجاج والمعتمرين الراحة والأمان لأداء نسكهم بخشوع وتعبد صادق. وختم الأطلس بالإشارة إلى مشروع آخر من مشروعات الخير المقامة في مكة المكرمة وهو وقف الملك عبدالعزيز للحرمين الشريفين الذي وضع حجر أساسه خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز – حفظه الله – في شهر رمضان ١٤٢٣هـ الموافق نوفمبر ٢٠٠٢م

ولما لهذا الأطلس من قيمة علمية، وأهمية ثقافية، وصلات روحانية تشرفت دارة الملك عبدالعزيز بتنفيذه ونشر الطبعة الأولى منه على نفقة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود – رحمه الله – ليكون في متناول المهتمين، ورعاية المؤرخين؛ ولتظل الصور والرسومات خالدةً في الذاكرة، متعلقةً بوشائج الوجدان، عصيةً على جحافل النسيان.

وبعد صدور الطبعة الأولى من هذا الأطلس تلقتها أيدي القراء والباحثين بالقبول والرضا – بحمد الله – حتى نفدت جميع نسخه المطبوعة، وهذا ما جعل الدارة تعيد طباعته مرة أخرى، مضيفة إليه عدداً من الإضافات المهمة. وقد طبعت هذه الطبعة أيضاً بنفقة كريمة من ناشر العلم ومكرم العلماء، خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله رحمة واسعة، وتابع له الأجر الجزيل بعد وفاته لقاء حرصه على نشر العلم النافع، وبذل العطاء لأهله بكل سخاء.

وتتقدم الدارة بالشكر والامتنان لصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز، رئيس مجلس إدارة الدارة على عنايته بما يخدم تاريخ الوطن والأمة، ولصاحب السمو الملكي الأمير عبدالعزيز بن فهد بن عبدالعزيز رئيس ديوان رئاسة مجلس الوزراء وزير الدولة عضو مجلس الوزراء على دعمه وتشجيعه لهذا العمل العلمي. كما تتقدم الدارة بالشكر لكل من أسهم في تنفيذ هذا العمل من بحث وجمع وتصميم ومراجعة وإنجاز وطباعة.

دارة الملك عبدالعزيز
الرياض ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م



مقدمة الطبعة الثانية

نحمد الله تعالى على توفيقه ونصلي ونسلّم على حبيبه المصطفى ﷺ،

لقد سعدنا بعزم دارة الملك عبدالعزيز على إصدار طبعة ثانية من الأطلس المصور لمكة المكرمة والمشاعر المقدسة، و لم تكن المدة بين الطبعتين كافية لعمل مراجعة شاملة للنصوص والصور، واكتفينا بإجراء بعض التصويبات الطفيفة وأضفنا فصلاً جديداً عما شهدته مكة المكرمة بعد صدور الطبعة الأولى عام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م) فشملت أول زيارة لخادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود لمكة المكرمة بعد توليه الحكم لمتابعة مشروعات تطوير مكة المكرمة والمشاعر المقدسة، وترؤسه لمؤتمر القمة الإسلامي الاستثنائي الثالث بجوار بيت الله الحرام.

وفي الختام نتوجه بشكرنا وتقديرنا إلى صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز آل سعود رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز، والأستاذ الدكتور فهد عبدالله السماري، أمين عام دارة الملك عبدالعزيز لدعمهم وجهودهم لإخراج هذه الطبعة الثانية، وكما سبق أن أشرنا في مقدمة الطبعة الأولى فإن مثل هذا العمل يحتاج مع مرور الأيام إلى تحديث مستمر، لذا نتقدم بدعوة كل المهتمين بالشؤون المكية أن يتفضلوا بتزويدنا بملحوظاتهم وآرائهم مع جزيل شكرنا وتقديرنا لهم سلفاً، آملين أن يكون هذا الأطلس سجلاً مصوراً لما تشهده العاصمة المقدسة والمشاعر من تطور مستمر.

د. معراج بن نواب مرزا   د. عبدالله بن صالح شاووش

مكة المكرمة ١٥ ربيع الأول ١٤٢٧هـ الموافق ١٣ إبريل ٢٠٠٦م

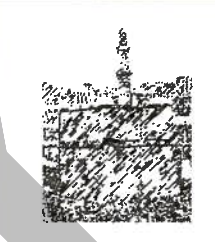
مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبدالله ورسوله الأمين سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

اهتم المسلمون بالحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة أكبر اهتمام من الناحية الدينية والتاريخية منذ فجر الإسلام، وباتساع رقعة البلاد الإسلامية وصعوبة طرق المواصلات حاول الكثير من المسلمين منذ القرن الخامس الهجري إعطاء تصور لرفاقهم الذين لم تساعدهم الظروف لأداء الحج، لشكل المسجد الحرام والمشاعر المقدسة، كل حسب وسائله الفنية وإمكاناته المتاحة، ومن ثم تم رصد كثير من التطورات التي شهدها المسجد الحرام والمشاعر عبر التاريخ عن طريق الرسم اليدوي، حتى دخول عهد التصوير الفوتوغرافي وتوافر وسائله للرحالة والمسافرين، فظهرت أول مجموعة من الصور عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م)، ثم توالى المصورون المختلفون، واتسع نطاق نشر الكتب والمجلات التي تضم الصور الفوتوغرافية، ولحسن الحظ أن المدينة المقدسة قد شهدت عدداً من التطورات منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وتم تسجيل كل ذلك من قبل الرحالة والحجاج الزائرين والمصورين المحليين.

إلا أن هذا الموضوع كان في حكم الندرة، حتى بزغ فجر العهد السعودي الزاهر، فأصبح التسجيل بالصور أكثر يسراً وأوسع مجالاً وأكثر انتشاراً، فتم تغطية الأحداث والمشروعات المهمة التي شهدتها مكة المكرمة والمشاعر المقدسة، وغيرها من المدن. لذلك كان تركيزنا في هذا الأطلس في العصور السابقة للعهد السعودي على شخصيات المصورين ونوعية صورهم وربط محتواها بالتطورات العمرانية وشرحها، أما المدة التالية حيث كثر المصورون فإن الاهتمام بشخصية المصور أصبح قليلاً، وأصبح التركيز منصباً على الأحداث المتدافعة وتطوراتها.

مُقدّمة



لقد ظهر في الآونة الأخيرة عدد من الأطالس والألبومات الخاصة بمكة المكرمة أو الحرمين الشريفين أو التي تغطي جميع أنحاء المملكة، لكنها لا تهتم بتفاصيل الصور القديمة وربطها بالتاريخ، فلم تشرح المواقع و لم تشر إلى المعالم إلا بشكل مجمل. وبفضل الله تيسر لنا سد هذه الثغرة وتم شرح الصور والرسومات وربطها بوقائع التاريخ المكتوب. ولا بد من الإشارة إلى أن حجم التطورات التي مر بها بلد الله الحرام في ربع القرن الماضي أصبح من الضخامة والتوسع بحيث يحتاج إلى مؤلفات خاصة مستقلة ترصد كل ناحية من نواحي التطور، لذلك ارتأينا أن يضم أطلسنا هذا إلمامة سريعة بأبرز الأحداث في السنوات الأخيرة كي نعطي القارئ فرصةً للمقارنة.

ولا شك أن عملنا هذا يحتاج مع مرور الأيام إلى تحديث دائم لوجود فرص للحصول على مزيد من مجموعات الصور أو الوثائق التي قد يكشف عنها في المستقبل.

وهنا ملحوظة مهمة هي أن بعض الصور التي ننشرها قد لا تكون من الجودة التي يبحث عنها مخرجو الكتب المصورة الحديثة التي تعتمد على الاستعراض، ذلك أن عملنا في جوهره توثيق تاريخي مصور، وهذا ما يقع في قلب اهتمامات دارة الملك عبدالعزيز التي قدمت دعمها المشكور لإنجاز هذا العمل وتنفيذه وتبنيه ضمن مشروعاتها العلمية المتعددة وبخاصةً الدعم المادي الذي قدمته والمواد النادرة التي أتاحتها، فجزى الله القائمين عليها خير الجزاء، ونخص بالشكر صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض، رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز على دعمه ورعايته لمثل هذه المشروعات العلمية المهمة، والدكتور فهد بن عبدالله السماري أمين عام الدارة على مبادرته التي شجعت على تنفيذ العمل وتذليله جميع الصعوبات ومتابعته المتواصلة.

ونود أيضاً أن نخص بالشكر سعادة الدكتور عويد بن عياد المطرفي الذي تفضل بقراءة مسودة النص مبدياً الكثير من ملحوظاته القيمة وتصحيحاته التاريخية واللغوية، وكذلك الأستاذ أنيس بشير شودري الذي تفضل أيضا بقراءة أجزاء واسعة من هذا الكتاب وأبدى ملحوظاته الدقيقة خاصة في تفاصيل الصور الفوتوغرافية، وسمح لنا بالإفادة من مجموعته النادرة.

وتجدر الإشارة إلى أننا لسنا راضين كل الرضا عما قمنا به من جهدٍ لأنه جهد المُقِل وغير المتخصص المتفرغ، إلا أنها كانت رغبة منا في زيادة المعرفة بهذا الموضوع الشيق وأملاً في تكامل خبرة المعايشة مع متعة الهواية وفائدة المعرفة، وما أمتعها من محاولة على الرغم من كل ما فيها من تقصير، فقد عشنا أياماً وساعات جميلة في زيارة بعض المراكز البحثية المحلية والعالمية أو مخاطبة بعض المتاحف والمكتبات العالمية إضافة إلى تقليب صفحات المراجع والكتب والمجلات العربية والعالمية بحثاً عن رسمة أو صورة نادرة لمكة المكرمة والمشاعر المقدسة. فلقد كانت النية صادقة والهدف نبيلاً. لذلك كله نستسمح القارئ الكريم على ما قد يجده من نقصٍ أو قصور، سواء في البحث التاريخي أو في معلومات الصور، لأن النقص من سمات البشر والكمال لله الواحد الأحد.

د. معراج بن نواب مرزا   د. عبدالله بن صالح شاووش

مكة المكرمة ٤ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ الموافق ٢ أغسطس ٢٠٠٣م



مكة المكرمة في أعين الرسامين المسلمين

١



أولاً- أقدَم رسم إسلاميّ معروفٍ للمسجد الحرام:

يوجد أقدم رسم إسلامي معروف للمسجد الحرام حتى الآن على لوح من المرمر أبعاده ١٥ × ٣٣ سم بمتحف بغداد، وقد نقل من على جدار "مسجد إبراهيم" الموجود بالموصل، وقد انكسرت أجزاء من الطرف العلوي الأيسر والأيمن منه، ويتكون النقش من ثلاثة إطارات: العلوي على شكل نصف دائرة، والأوسط مربع به رسم المسجد الحرام، والسفلي مستطيل به كتابات. وقد أكد فينشننزو ستريكا، (V.Strika)، في بحثه الذي ألقاه في الندوة العالمية الأولى التي نظمتها كلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض عام ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م)، حول مصادر تاريخ الجزيرة العربية[١] أن هذا اللوح يعود تاريخه إلى نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

وقد استند ستريكا في حكمه على أن هذا الرسم أقدم الرسوم التي وصلتنا حتى الآن عن المسجد الحرام، بمقارنة ما ورد في اللوح من أن المسجد بناه إبراهيم الجراحي، إلى ما حققه الباحث أحمد صوفي حول هذه الشخصية، وتوصل إلى أنه هو الأمير إبراهيم ابن قريش الجراحي، المعروف أيضاً باسم "أبو سليم العقيلي". وهو آخر حكام أسرة العقيلي الذين حكموا الموصل من عام ٣٨١ إلى ٤٨٦ هـ (٩٩١-١٠٩٣م)، وقد توفي عام ٤٨٦هـ (١٠٩٣م).

وأشار ستريكا في بحثه إلى أن الدراسات التي قام بها إتنجهاوسن، وأوتو دورن وإردمان حول الرسوم الإسلامية القديمة لم تجد أي تمثيل للكعبة المشرفة قبل بداية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، ثم يؤكد ستريكا أن لوحة الموصل هذه هي أقدم من ذلك، ويشير إلى الاختلاف الظاهر في شكل مباني المسجد الحرام في هذا الرسم عن الرسوم التي ظهرت في القرون التالية، فالأروقة لا تظهر عليها القباب، بل هي ذات أسطح مستوية. والمعروف أن السلطان سليم الثاني هو الذي جدد أروقة المسجد الحرام بالكامل، وأزال السقوف الخشبية، وشيد القباب، وما يظهر في الرسم منطبق على ما جاء في وصف ابن جبير للمسجد الحرام في رحلته المشهورة التي قام بها في نهاية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). وربما يظهر الرسم مقامات الأئمة، وقد كانت في بداية استحداثها في القرن الرابع الهجري – كما يصفها ابن جبير – محاريب من الحجر، أي لم يكن عليها قباب.

ويلفت ستريكا النظر إلى أن الرسامين في ذلك الوقت لم يكونوا يهدفون إلى تصوير شكل الإنسان أو شكل المباني بأبعادها الحقيقية، بل كان القصد فقط لفت النظر إلى أبرز المباني ذات القيمة الروحية، وعدم التقيد بالأبعاد والارتفاعات الفعلية القائمة.

ويوضح الرسم الكعبة المشرفة في وسط المربع الذي تظهر في أطرافه أروقة المسجد الحرام. ويظهر في رسم الكعبة الحجر الأسود والباب، وحِجْر إسماعيل، ويلحظ أن الرخامتين اللتين تشيران إلى قبري إسماعيل وأمه هاجر داخل الحجر قد أوضحها الرسم بلون غامق. وتظهر في الرسم إلى يسار الكعبة ثلاث قباب، يرى ستريكا أنها تشير إلى قبة مقام إبراهيم وقبة زمزم وقبة سقاية العباس، ولا يعتقد أن القبة الثالثة تشير إلى قبة الفراشين لأنها أقل أهمية.

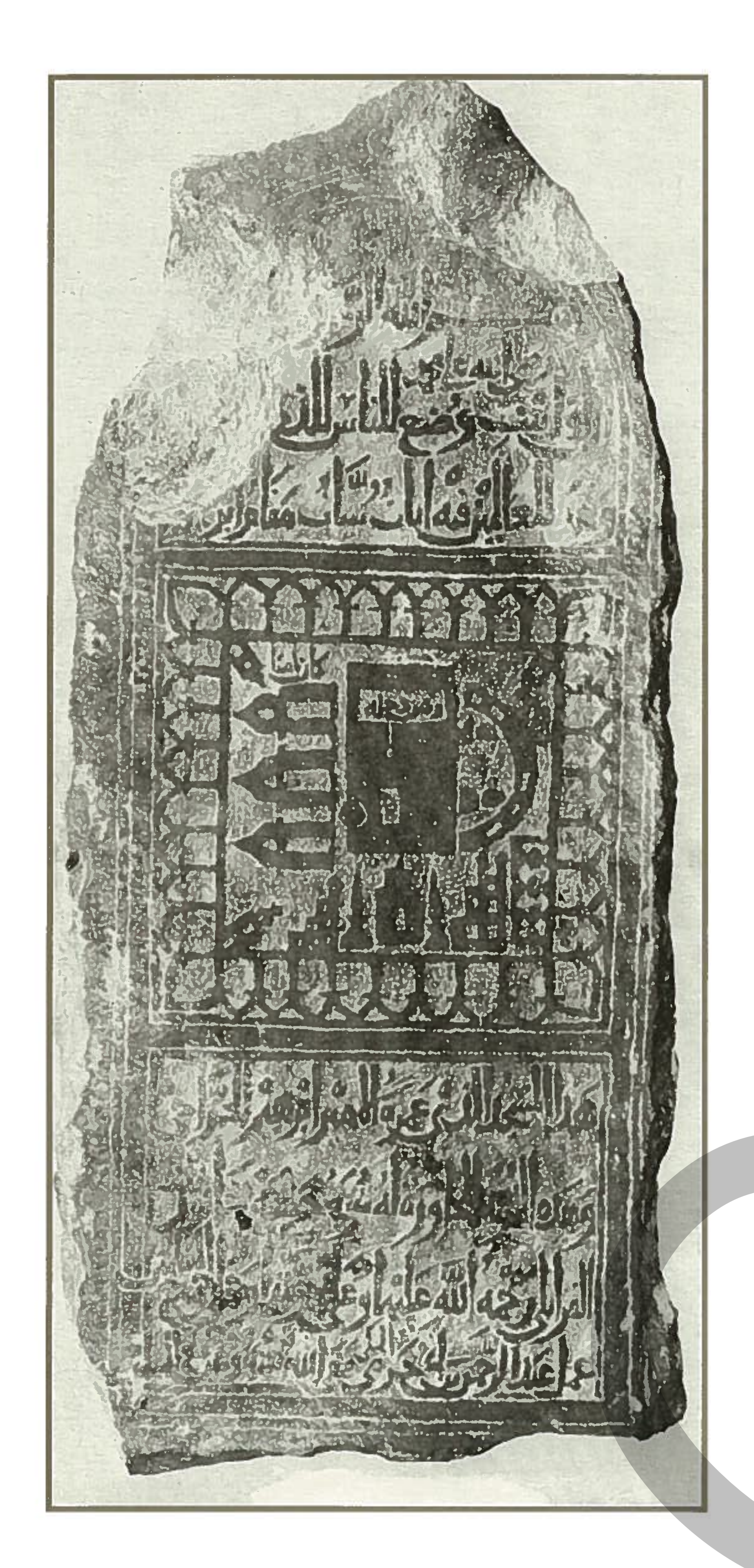
ويرجح ستريكا، أن ما يبدو من أشكال في الجهة السفلى من الرسم يبين – من اليمين إلى اليسار بالترتيب – المعجن (الحوض)، والمنبر، وباب بني شيبة تحيط به منارتان، ثم المدرج المستخدم للصعود إلى الكعبة.

لكننا نرجح أن القباب الثلاث التي إلى يسار الكعبة تشير إلى قبة زمزم وقبة العباس وقبة الفراشين؛ لأن القبة الأخيرة موجودة من العصر العباسي، وقد عمرها الخليفة الناصر (تولى ما بين ٥٧٥ – ٦٢٢هـ/١١٧٩-١٢٢٥م) وتشير الرسوم السفلى إلى محاريب المقامات، ثم المنبر ثم مقام إبراهيم وعلى جانبيه قوائم باب بني شيبة، دون إظهار قوس العقد حتى لا يتداخل مع لون كسوة الكعبة الداكن، كما تظهر في أركان المربع – بلصق الأروقة – ثلاث منائر، هي منارة باب العمرة، ومنارة باب الوداع، ومنارة باب علي، كما نلحظ أن النحات الذي نقش هذه اللوحة هو عبدالرحمن المكي، وهذا مما يرجح أنه كان من سكان البلد الحرام.

[تبين الصورة الرئيسة إلى اليسار ما يعتقد أنه أقدم رسم للمسجد الحرام عرف حتى الآن. نقش في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). وتبدو فيه الأروقة في الجوانب الأربعة. تعلوها سلسلة من العقود عليها سقف مستو. وفي وسط الرسم تظهر الكعبة المشرفة وفيها الحجر الأسود والباب ثم حجر إسماعيل. وتظهر فيه الرخامتان اللتان تشيران إلى قبري إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر. وكتب على الكعبة الآية القرآنية (ومن دخله) وظهرت بقية الآية إلى اليسار (كان آمناً) وتبدو إلى يسار الكعبة قباب زمزم والعباس والفراشين. كما يبدو أسفل الكعبة من اليمين محاريب المقامات. والمنبر ثم مقام إبراهيم وحوله قائمتا باب بني شيبة ثم المدرج الخاص بالصعود إلى الكعبة. و تبدو ثلاث منائر في أطراف الأروقة الداخلية.

وتبين الصورة المصغرة اللوح الرخامي كاملاً. وقد كتب فوق مربع المسجد الحرام. في السطر الأول "بسم الله الر....." وفي السطر الثاني "وصلى الله على محمد". وفي السطر الثالث: (إن أول بيت وضع للناس للذي.....). وفي السطر الرابع (وهدى للعالمين). وفي أسفل مربع المسجد الحرام. كتب في السطر الأول "هذا المسجد الذي عمره الأمير إبراهيم الجراحي". وفي السطر الثاني "وهذه المقبرة المجاورة له. تربة حسني خاتون". وفي السطر الثالث "بنت القرابلي رحمة الله عليها وعلى......الجميع". وفي السطر الرابع "عمل عبدالرحمن بن أحر....مي المكي....الله......"].

١- الأنصاري (١٣٩٩هـ). الجزء الأول. القسم الإنجليزي. ص ١٤٥-١٤٨.





ثانياً - الرسومُ الإسلاميَّة للمَسجد الحَرَام مُنذ خمسَة قرُون:

نشرت الأستاذة زيرين ثانندي، المختصة في متحف طوب قابي بإسطنبول، دراسة بمجلة الدراسات التركية[٢] عن رسوم الحرمين والمشاعر، وقد استعرضت ٢٤ رسماً وردت في مخطوطات مختلفة توجد في متحف طوب قابي خلال أربعة قرون ونصف. وقام الأستاذ أحمد رجب محمد علي، باستعراض صور المسجد الحرام ومكة المكرمة في المخطوطات الإسلامية والمرسومة على البلاط أو الخشب أو السجاد أو الجص[٣]، لكنه لم يذكر أماكن وجودها ليسهل الاستدلال عليها. ومن جهة أخرى توجد في المكتبة البريطانية بلندن تحت رقم MS. Add 27566 "لفافة حج" رسم فيها المسجد الحرام في القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري)، وهذه اللفافات كان يقتنيها الحجاج - فيما يبدو - تذكاراً لمناسبة أدائهم فريضة الحج. وهناك في المتحف البريطاني رسوم أخرى عرضت بعض صورها بقاعة الفن الإسلامي بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية التي افتتحت في الرياض عام ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م)، وأصدر المركز بهذه المناسبة دليلاً خاصاً عن هذا المعرض بعنوان "وحدة الفن الإسلامي".

من الواضح إذن أن القرون الخمسة السابقة شهدت ظهور الكثير من رسومات المسجد الحرام والحرم المدني، ومن المحتمل وجود الكثير من الرسومات الأخرى في أرجاء العالم الإسلامي.

ونقدم أولاً عرضاً سريعاً للرسوم التي وردت في المخطوطات، تليها الرسوم على البلاط ثم على الخشب والسجاد والجص.

أ - في المخطوطات:

١ - رسوم لمنازل مكة المكرمة في مخطوط باللغة التركية تأليف نصوح سلامي عام ٩٣٣هـ (١٥٢٧م)، ويوجد بمتحف طوب قابي برقم ٥٩٦٤.

٢ - رسوم عديدة للمسجد الحرام والأماكن الأثرية والمشاعر والمدينة المنورة، في مخطوط باللغة الفارسية بعنوان "فتوح الحرمين" ومؤلفه محيي الدين كلشي (لاري)، وهو نظم يصف رحلة المؤلف إلى الديار المقدسة، وتوجد منه نسخة في متحف طوب قابي تعود للعام ٩٤٧هـ (١٥٤٠م)، ونسخة أخرى بمكتبة مكة المكرمة برقم "٦٦/ تاريخ"، نسخت عام ٩٥٧هـ (١٥٥٠م)، بقلم سيد علي الحسني، ونسخة بدار الكتب المصرية برقم ١٦٥٦.

٣ - رسوم للمسجد الحرام والمشاعر والآثار في مخطوط باللغة التركية بعنوان "وكالة نامة الحج" تاريخه ٩٥١ /٩٥٢هـ (١٥٤٥م)، ويوجد بمتحف طوب قابي برقم ١٨١٢.

٤ - رسوم عديدة للحرمين والمسجد الأقصى والآثار بمكة المكرمة والمدينة المنورة وردت في مخطوط لمؤلف مجهول بعنوان "شرح شجرة الإيمان وإحياء الحق وقرة العيون"، ويوجد بمتحف طوب قابي برقم ٣٥٤٧، ويعود إلى منتصف القرن العاشر الهجري/منتصف القرن ١٦م.

٥ - رسم للكعبة والمناسك في مخطوط بمتحف برلين برقم ٢٩٢٣، من منتصف القرن العاشر الهجري.

٦ - رسم المسجد الحرام. ورد في كتاب "دليل مكة والمدينة" والموجود بالمتحف البريطاني، ويعود تاريخ نسخه إلى عام ٩٩٠ هـ (١٥٨٢م)، ويضم الصور نفسها التي وردت في مخطوط "فتوح الحرمين".

٧ - رسم الحرمين، ورد في كتاب "جواهر الغرايب"، ذكره إدوارد بيني في كتابه عن الرسومات والمخطوطات التركية الصادر بإسطنبول ١٩٧٣م، ويعود تاريخ الرسم إلى أواخر القرن العاشر الهجري (أواخر القرن ١٦م).

٨ - رسم للحرم المكي وحوله الفيلة، يصور هجوم أبرهة. ورد في كتاب "سيرة النبي ﷺ"، والموجود بمتحف طوب قابي بإسطنبول، وتاريخ نسخه ١٠٠٣هـ (١٥٩٣م).

٩ - رسم المسجد الحرام، يعود إلى ما بين عام ١٠١٢ و١٠٢٦هـ (١٦٠٣ و١٦١٧م) وقد ورد في مخطوط تركي بدون عنوان، ذكره أيضا إدوارد بيني.

١٠ - رسوم لبعض الأماكن في الحرمين، باللغة التركية بعنوان "فضائل مكة والمدينة" وتاريخه ١٠٩٥هـ (١٦٨٣م)، ويوجد بمتحف طوب قابي برقم ١٤٢٤.

١١ - رسم المسجد الحرام، في كتاب "دلائل الخيرات" ومنه نسخ عديدة في العالم منها نسختان في متحف طوب قابي، نسخت الأولى عام ١١٢٠ هـ (١٧٠٨م) وهي برقم ١٠١٨، والثانية عام ١٢٠٢هـ (١٧٨٨م)، وهي برقم ١٤١، ونسخة بمتحف قصر المنيل بالقاهرة نسخت عام ١١٨٩هـ (١٧٧٥م)، ونسخة بمكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة، مجموعة عارف حكمت، نسخت عام ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م)، ونسخة بمكتبة القدس.

١٢ - رسم للمسجد الحرام، يعود إلى عام ١١٥٨هـ (١٧٤٥م)، ورد في مخطوط تركي بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

١٣ - رسم المسجد الحرام، ورد في مخطوط لمناسك الحج، يوجد بمتحف طوب قابي برقم ١١٦ ويعود إلى القرن الثاني عشر الهجري (١٨م).

١٤ - رسم المسجد الحرام، يعود إلى عام ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م)، ورد في مخطوطة للمصحف الشريف بمتحف قصر المنيل بالقاهرة.

١٥ - رسم المسجد الحرام، يعود إلى عام ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م)، ورد في مخطوطة للمصحف الشريف بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

٢- Zeren Tanindi, Islam Resminde Kutsa Kent Ve Yore Tasvirle; J. of Turkish Studies, Vol. 7, p.407-437.

٣- أحمد رجب محمد علي. "المسجد الحرام بمكة ورسومه في الفن الإسلامي".



[لفافة حج تعود إلى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، توجد في المتحف البريطاني، تبين الكعبة المشرفة، وحولها دائرة المطاف، وحجر إسماعيل، والمعجن الملاصق للشاذروان أسفل باب الكعبة، والمقامات وفي أسفل الصورة من اليمين: المزولة، والمنبر، ومقام إبراهيم وتحته باب بني شيبة وبجواره المدرج، والمبنى المقام على بئر زمزم، وقبة الفراشين، وقبة سقاية العباس، وقد ظهرت أسطح أروقة المسجد مستوية بدون قباب؛ لأن القباب أنشئت في القرن التالي، وقد جعل الرسام في أركان الصورة أربع منائر بدلاً من خمس ولم يرسم زيادة باب إبراهيم ولا باب الزيادة، وقد جعل فوهة الميزاب إلى أعلى بدلاً من أسفل!، وتظهر على الأروقة إطارات حمراء دلالة على أبواب المسجد الحرام دون توضيح عدد عقود كل باب. وقد جاء في العقد الثمين للفاسي (ص ٢/١١٠). أن محمد بن إسحاق الخوارزمي كان يكتب صفة الكعبة والمسجد الحرام ويهديها إلى أناس بالهند. وقد توفي عام ٨٢٧هـ (١٤٢٤م). فلربما يكون هذا الرسم من عمله].



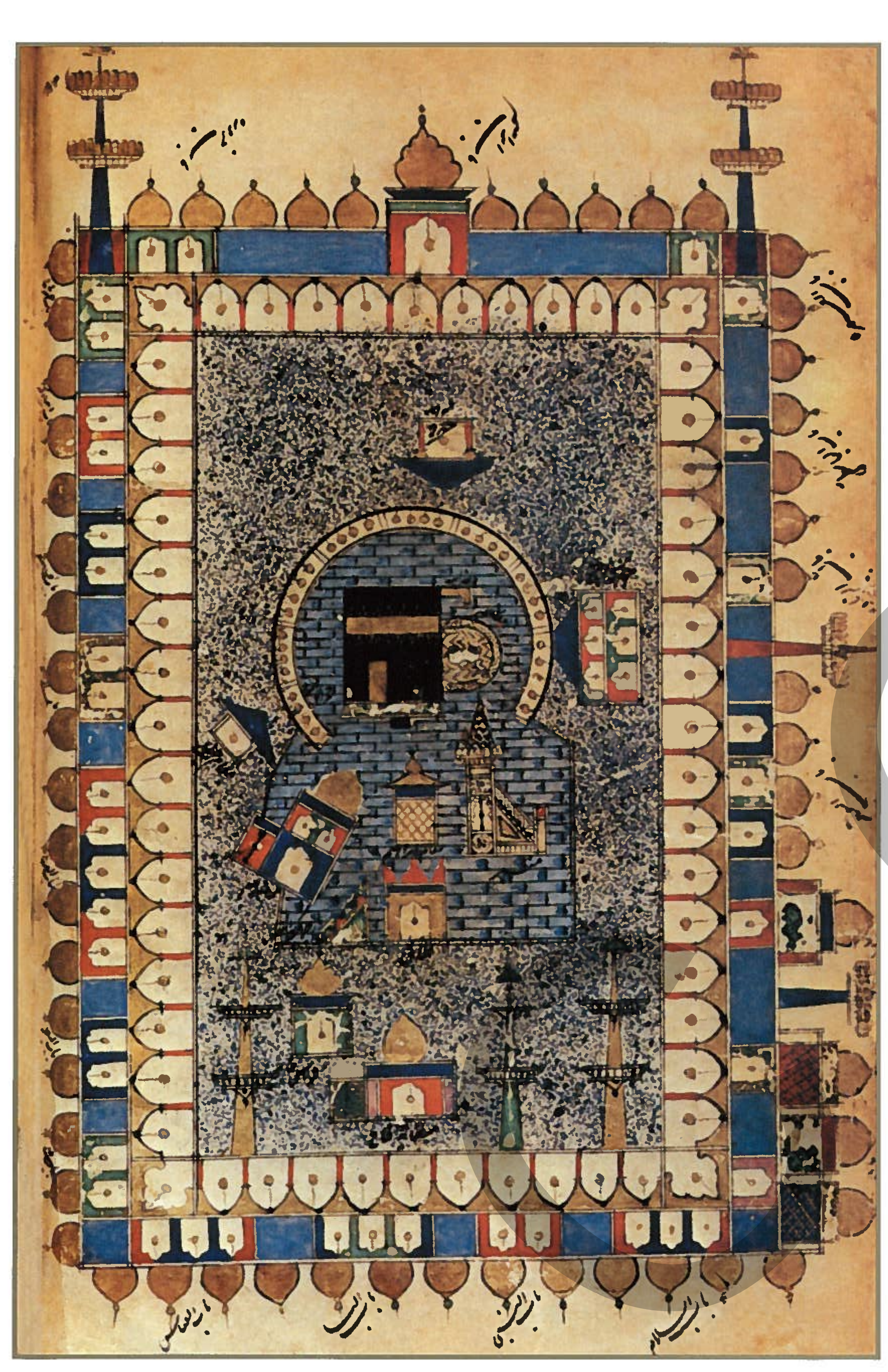


◄ [إلى اليمين: رسم للحرم الشريف، يعود إلى القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي). نشر في كتاب "الهندسة عند المسلمين أصولها وتطورها". تأليف ج.ت. ريفوارا باللغة الإنجليزية، ونشرته مطبعة أكسفورد عام ١٩١٨م. ونقله جيرالد ديقوري في كتابه "حكام مكة". المنشور عام ١٩٥١م، ص ٦٥. وهو رسم مطور عن الرسم السابق. و قد بينت الكعبة المشرفة يحيط بها الشاذروان، ولم يظهر المعجن، ولا المدرج الخاص بالصعود إلى الكعبة. كما بينت بوضوح المدارس السليمانية الأربع بقبابها الواقعة بين باب الدريبة وباب الزيادة. وقد بناها السلطان العثماني سليمان عام ٩٧٥هـ (١٥٦٧م). مما يؤكد أن الرسم يعود إلى أواخر القرن العاشر الهجري(١٦م) كما نلاحظ أن هذا الرسم قد استدرك المواقع التي أهملت في الرسم السابق، مثل زيادة باب الزيادة وزيادة باب إبراهيم، ومنارتي باب السليمانية وباب الزيادة. كما صحح عدد فتحات بابي الزيادة والقطبي (الندوة)].

◄ [في الصفحة المقابلة، الرسم الأول إلى اليمين: رسم ملون من مخطوط "فتوح الحرمين" (٩٥٧هـ/١٥٤٣م). نسخة مكتبة مكة المكرمة، ويلاحظ أن الكعبة المشرفة تتوسط الصورة ويظهر تحت بابها "المعجن"، ولا يوضح الرسم الشاذروان، وظهر إلى اليمين حجر إسماعيل وميزاب الكعبة، وحولها دائرة المطاف والقناديل التي تعلق بها. كما يوضح الرسم أمكنة المقامات الأربعة، والقبة المقامة على بئر زمزم، والمنبر ومقام إبراهيم وباب بني شيبة، وقبتي السقاية والفراشين. وأوضح الرسم أروقة المسجد الحرام وقد تدلت منها المصابيح. وقد ظهر في الرسم خمس منائر، وأهملت منارة باب الزيادة، أما منارة باب السليمانية – وهي السابعة – فقد أنشئت حوالي ٩٧٥هـ أي بعد تاريخ الرسم. لكن الرسام أهمل رسم زيادة باب إبراهيم وزيادة باب الزيادة دون إهمال أبوابهما. وأوضح الرسم الأبواب الرئيسة للمسجد الحرام بعدد فتحاتها الصحيحة وعليها العقود. في ما عدا أن الرسم أخطأ في عدد فتحات باب الزيادة فوضعها اثنتين بدلاً من ثلاث، ووضع باب الندوة (القطبي) فتحتين بدلاً من واحدة. وربما حصل الخطأ من الناسخ، كما نلاحظ، أن أسماء الأبواب فيها عدد من الأخطاء، فمثلا وضع باب أم هاني في مكان باب البغلة، ووضع باب العباس في مكان باب النبي، ووضع باب الندوة (القطبي) إلى شرق باب الزيادة والواقع أنه إلى الغرب، وبالطبع لم تظهر قباب المدارس السليمانية الأربع لأنها أنشئت مع منارة باب السليمانية عام ٩٧٥هـ (١٥٦٧م)].

◄ [في الصفحة المقابلة، الرسم الثاني إلى اليسار، رسم ملون دقيق، يدل على فن راق نشره غلام علي في كتابه "دليل مكة والمدينة" الذي ألفه عام ٩٩٠ هـ وقد ظهرت الكعبة المشرفة يحيط بها حجر إسماعيل والمنبر ومقام إبراهيم وباب بني شيبة والمبنى المقام على زمزم ثم قبة الفراشين وقبة سقاية العباس، كما يظهر مقام الحنفي والمالكي والحنبلي. ونلحظ أن المؤلف قد ذكر أبواب المسجد الحرام، لكنه أزاح باب العمرة إلى الرواق المجاور كما أزاح باب علي أيضاً ووضعه في الرواق الجنوبي الشرقي، كما نلحظ أن المؤلف أضاف باباً بين باب النبي وباب العباس أسماه باب النساء.

وقد نشرت الصورة في كتاب "وحدة الفن الإسلامي" الذي أصدره مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بمناسبة معرض الفن الإسلامي بالرياض عام ١٤٠٥هـ].



با وجود دامنش آویخته عالمی هم در جیب جهان بنیخته



ب - رسوم المسجد الحرام على البلاط:

١ - رسم المسجد الحرام، من القرن العاشر الهجري (١٦م)، مجموعة بناكى في أثينا.

٢ - رسم المسجد الحرام، من عام ١٠٠٩هـ (١٦٠٠م)، في مجموعة ديفيد بالدانمارك.

٣ - رسم المسجد الحرام، عليه عبارة صاحب الخيرات محمد آغا، ويبدو أنه هو الذي كلف الصانع أحمد بعملها، من عام ١٠٧٤هـ (١٦٦٣م)، ويوجد بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

٤ - رسم المسجد الحرام، من عام ١٠٧٧هـ (١٦٦٦م)، بمتحف فكتوريا وألبيرت بلندن.

٥ - رسم ضخم للمسجد الحرام على ٤٨ بلاطة، من عام ١٠٧٧هـ (١٦٦٦م)، بمتحف طوب قابي.

٦ - رسم ضخم للمسجد الحرام على ٦٠ بلاطة من عام ١٠٨٧هـ (١٦٧٦م)، بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

٧ - رسم المسجد الحرام على بلاط يتوسط محراباً، يعود إلى أوائل القرن الثاني عشر الهجري (أواخر القرن ١٧م)، بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

◄ [إلى اليسار صورة بلاطة من الخزف عليها رسم للمسجد الحرام - في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة - صنعت عام ١١٣٩هـ (١٧٢٧م). ونلحظ أن الرسام قد حاول رسم الصورة بشكل شبه مجسم، وبدت المنازل المحيطة بالمسجد الحرام على الطراز المعماري العثماني، بخلاف الطراز السائد في مكة المكرمة. وعلى الرغم من أن الرسم قد أظهر المسجد الحرام وزيادتي باب إبراهيم وباب الزيادة، ووضع الشاذروان حول الكعبة، إلا أنه وضع الحطيم في الجهة المعاكسة ولم يوضح باب الكعبة، ووضع مقام إبراهيم والمنبر خارج إطار المطاف، وجعل بئر زمزم مستقلاً عن قبة زمزم (المقام الشافعي)، ووضع باب الصفا بجوار باب السلام، وبدت حول الكعبة المقامات الأربعة إلا أن الرسام أخطأ في رسم المقام الحنبلي بوضعه قريباً من المقام الحنفي. وقد ظهر في الرسم المشايات التي تربط أروقة المسجد الحرام بساحة المطاف. كما ظهرت القباب المقامة على الأروقة. ثم أضاف الرسام في أعلى اللوحة، إلى اليمين، مسجد إبراهيم (نمرة)، وعلى اليسار جبل عرفات، وبينهما جبل أبي قبيس، وجبل ثور وجبل النور، يليها رسم لأعلام الحرم].



٨ – رسم المسجد الحرام وحوله بيوت مكة المكرمة، من عام ١١٣٩هـ (١٧٢٧م)، بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وهي من عمل محمد الشامي الدمشقي.

٩ – رسم المسجد الحرام وحوله بيوت مكة المكرمة على بلاطة، من عام ١١٥٠هـ (١٧٣٧م)، بجامع حكيم أوغلو علي باشا بإسطنبول.

١٠ – رسم المسجد الحرام، من عام ١١٥٧هـ (١٧٧٤م)، على ١٢ بلاطة في سبيل عبد الرحمن كتخدا بالقاهرة.

ويشير الدكتور محمد مصطفى، مدير متحف الفن الإسلامي بالقاهرة سابقاً، في مقالة له[٤] إلى أن أغلب الفنانين المسلمين لم يراعوا المنظور في رسومهم، فعلى سبيل المثال تظهر أروقة المسجد الحرام وكأنها إطار يحيط بصحن المسجد. كما يشير الأستاذ أحمد رجب محمد علي[٥]، إلى أن الرسوم المذكورة في الغالب لم تلتزم الأبعاد الصحيحة لأجزاء المسجد الحرام، كما لم تلتزم بإظهار الأجزاء الأقل أهمية، مثلاً عدد الأبواب أو القباب أو عدد المشايات التي تربط الأروقة بالمطاف. ومما تجدر الإشارة إليه أن البعد عن الدقة ناتج من أن كثيراً من الرسامين صنعوا رسومهم تقليداً لرسم سابق أو أوصاف يتناقلها الحجاج، كما أن ناسخي المخطوطات حينما يكتبون نسخة جديدة فإنهم يقلدون الرسوم السابقة، ومن ثَمَّ فإن الرسم الجديد يكون عرضة للزيادة أو النقص.

◄ [إلى اليسار: رسم آخر من كتاب "فتوح الحرمين" (٩٥٧هـ/١٥٤٣م) يبين بالتفصيل مشعر عرفات حيث ظهر في الجانب الأعلى مسجد نمرة، وأعلام حدود عرفات، وظهر في أسفل الصورة جبل الرحمة، وفي أعلاه المشعل الضخم الذي كان يستخدم علماً للموضع، وعلى يمين الجبل مخيم المحمل المصري، وعلى يساره مخيم المحمل الشامي].

٤- د. محمد مصطفى، مجلة المصور المصرية، عدد خاص بالجزيرة العربية، صدر في شوال ١٣٧٥هـ (مايو ١٩٥٦م)، ص ٦٤-٦٥.

٥- أحمد رجب محمد علي، مرجع سابق، ص ٢٧٩.

جـ - رسوم المسجد الحرام على الخشب والسجاد والجص:

١- رسم المسجد الحرام على الجدار الجنوبي بخانقاه شيخو بالقاهرة، من القرن العاشر الهجري (١٦م).

٢- رسم المسجد الحرام على جدار منزل الست وسيلة بالقاهرة، من عام ١٠٧٤هـ (١٦٦٤م).

٣- رسم المسجد الحرام على الجدار الشرقي لمنزل قايتباي بالقاهرة، من القرن الحادي عشر الهجري (١٧م).

٤- رسم المسجد الحرام على سجادة صلاة، من القرن الثاني عشر الهجري (١٨م)، بمتحف برلين.

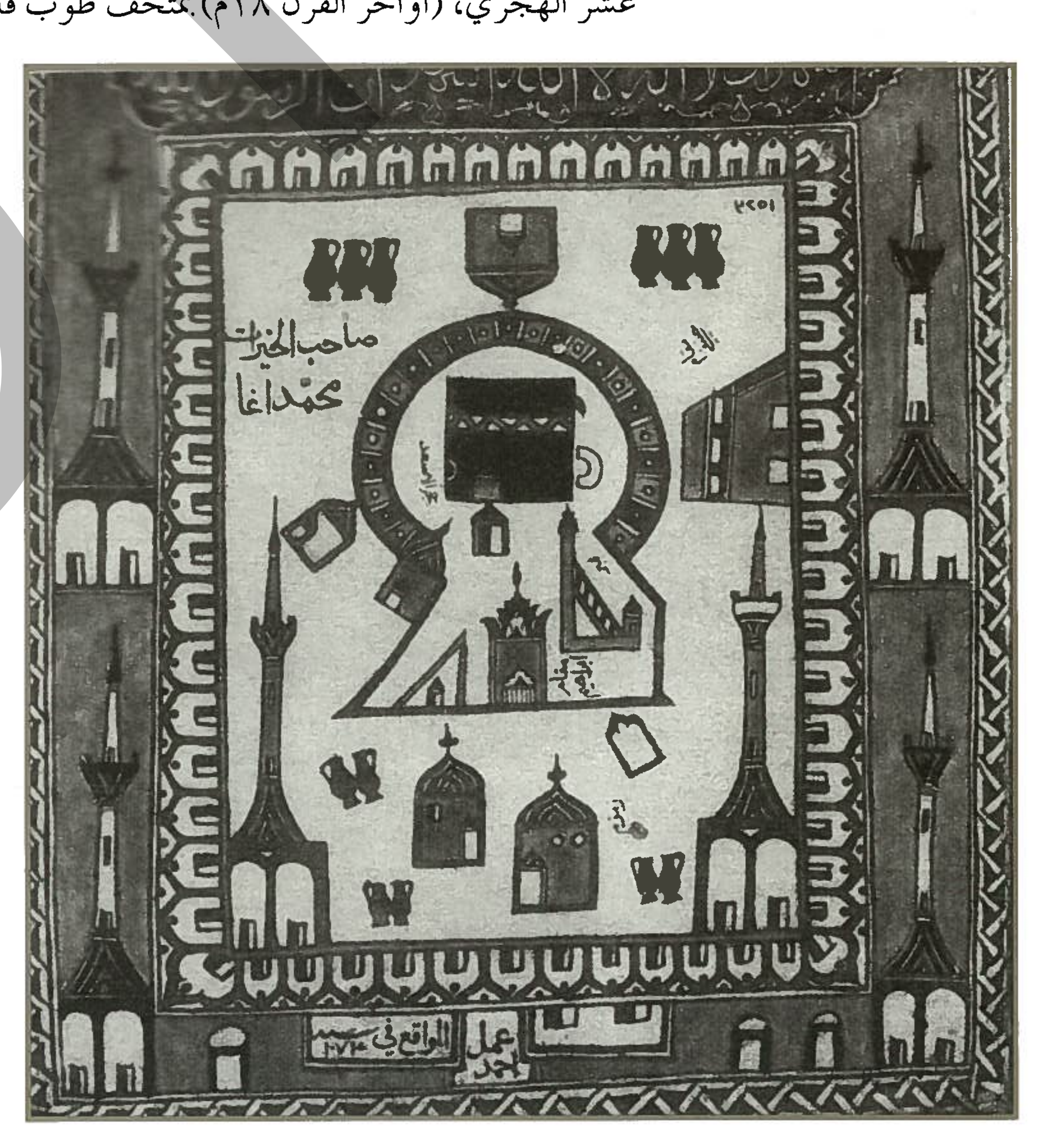
٥- رسم على غطاء خشبي لبوصلة، من منتصف القرن الثاني عشر الهجري، (منتصف القرن ١٨م)، بمتحف طوب قابي.

٦- رسم المسجد الحرام على جدار منزل علي كتخدا بالقاهرة، من عام ١١٩٠هـ (١٧٧٦م).

٧- رسم المسجد الحرام وبيوت مكة المكرمة وجبالها على لوحة خشبية، من أوائل القرن الثالث عشر الهجري، (أواخر القرن ١٨م) بمتحف طوب قابي.



◄ [رسم ملون للمسجد الحرام والبيوت المحيطة به، شبه مجسم، ازدانت أطرافه بزخرفة رائعة، رسم في إحدى نسخ كتاب دلائل الخيرات عام ١٢٥١هـ (١٨٣٥م)، الموجودة بمكتبة جامعة إسطنبول برقم ٥٥٥٩. تظهر المسجد الحرام تتوسطه الكعبة المشرفة وحجر إسماعيل وباب بني شيبة والمقامات وقبتا العباس والفراشين، وتبين الأروقة بقبابها، إلا أن الرسام أغفل مقام إبراهيم والمشايات. وقد ظهرت خارج المسجد الحرام، عقود الصفا والمنازل المحيطة، كما ظهر في أعلى الرسم مسجدان إشارة إلى المشعر الحرام ونمرة].



► [رسم ضعيف الدقة للمسجد الحرام، على بلاطة من الخزف في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، صنعت عام ١٠٧٣هـ (١٦٦٣م). وظهر باب الكعبة قريباً من أرض المطاف، ووضع باب بني شيبة بعيداً عن موضعه، ووضعت قبتا سقاية العباس والفراشين بعيداً عن موقعهما. كما أن الرسم لم يعتن بوضوح بأسماء أبواب المسجد الحرام، دون التدقيق في عددها، وظهرت ست منائر وأهملت منارة باب العمرة].



ثالثاً - رسم المسجد الحرام في كتاب صورة عامة للإمبراطورية العثمانية عام ١١٩٢هـ (١٧٧٨م):

أصدر أغناطيوس مرادجي دوسون[٦] موسوعة ضخمة تضم جميع تفاصيل القواعد التي تقوم عليها الدولة العثمانية، ونظمها الإسلامية، إلى جانب عدد من الرسومات، منها اللوحة رقم ٥٤، وهي رسم شامل يُبيِّن جبال مكة المكرمة وأحياءها بما فيها المسجد الحرام، والمشاعر المقدسة، ويقول المؤلف: إن رسومه منقولة عن رسم لفنان تركي سبق أن زار الحرمين عام ١١٩٢هـ (١٧٧٨م)، ولذلك فإننا عددنا هذه الرسومات لفنانين مسلمين. ويعتقد الأستاذ كارني جيفن[٧] أنه توجد رسوم شاملة (بانورامية) للحرمين، سبقت كلاً من نيبور ودوسون لم تكتشف بعد. ويلحظ أن رسم مكة المكرمة لدى دوسون يختلف عن تلك الرسوم التي نشرت في كتاب كارستن نيبور "وصف جزيرة العرب"، الذي سنتحدث عنه في الباب الثاني الخاص برسومات الغربيين.

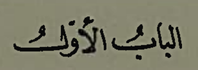
ونعود إلى رسم المسجد الحرام والمشاعر لدى دوسون ونلحظ أنه يعطي تصويراً دقيقاً إلى حد بعيد للمسجد الحرام بجميع محتوياته ملتزماً بالأبعاد الصحيحة إلى حد ما، ثم رسم المواقع المهمة داخل مكة المكرمة وخارجها دون الالتزام بجهتها الصحيحة، ونلحظ على الرسم ما يأتي:

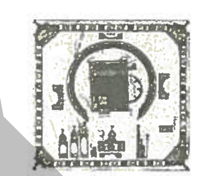
١ – وضع اسم باب بني شيبة لباب السلام، بينما وضع موقع باب بني شيبة على يسار مقام إبراهيم، ووضع المنبر على يمين مقام إبراهيم بعيداً عن موقعه الأصلي.
٢ – صوّر الرسام ضلعاً واحداً لرواق زيادة باب إبراهيم ووضعه في مكان باب الوداع، ووضع اسم باب الوداع في مكان باب إبراهيم.
٣ – يوضح الرسم القباب المميزة للمدارس السليمانية (٥٨)، لكنه جعلها ثلاثاً بدلاً من أربع.
٤ – رسم باب علي بعقوده الثلاثة، وسماه باب الصفا.
٥ – وضع قبة سقاية العباس مكان قبة الفراشين التي أطلق عليها اسم قبة الشمعدان.
٦ – ظهر في الرسم المبنى المقام على بئر زمزم، وسماه "سبيل عام"، و لم يذكر أن المقام الشافعي يوجد في الدور الأعلى لمبنى البئر.

ويبدو أن دوسون هو الذي قام بشرح الصورة بناء على وصف الحجاج الأتراك، فلم يتنبه إلى زمزم ولا إلى الدكاكين على طرفي شارع المسعى، ولا إلى المواقع التقريبية لأمكنة مشاعر الحج. وترك تسمية بعض المواقع مثل مسجد عائشة بالتنعيم على الرغم من ظهوره في أعلى الصورة. ووضع رقم ١٣ للميلين الأخضرين في المسعى على عقد باب العباس، و لم يشر إلى أن الميلين الأخضرين قد أوضحهما الرسام بالقناديل الضخمة المعلقة على اليمين وعلى الشمال عند بدايتهما، قبل باب علي، وعند نهايتهما عند باب العباس. وعلى أي حال فإن هذا هو أول رسم قريب من الواقع. وربما يعود عدم وضع المواقع في مواضعها الصحيحة إلى رغبة الرسام في إظهار شكل المواقع فقط، أما أسماء الجبال في الشرح المرافق للرسم فكثير منها غير صحيح (انظر شرح الرسم).

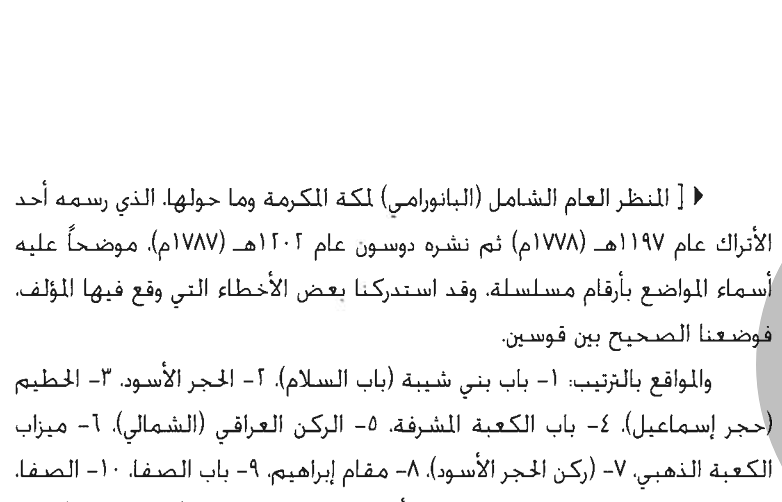
٦- D'Ohsson, Agnatios, Tableau Général de l'Empire Othoman.
"صورة عامة للإمبراطورية العثمانية". في سبعة مجلدات. وقد ولد دوسون في إسطنبول عام ١٧٤٠م (١١٥٣هـ). وهو من أصل أرمني. واشتغل مترجماً في القنصلية السويدية في إسطنبول. وكان له نشاط سياسي للدفاع عن حقوق الأرمن في الإمبراطورية العثمانية. ثم سافر إلى فرنسا عام ١٧٨٤م (١١٩٨هـ) وظل بها إلى عام ١٧٩٢م (١٢٠٦هـ). وهناك ألف كتابه الضخم. وبدأ في إصداره باللغة الفرنسية عام ١٧٨٧م (١٢٠١هـ). ثم عاد إلى إسطنبول بعد اندلاع الثورة الفرنسية. لكن السلطات العثمانية لم ترتح لنشاطه السياسي. فسافر إلى فيينا ثم باريس حيث أدركته المنية عام ١٨٠٧م (١٢٢٢هـ) قبل اكتمال طبع كتابه. فقام ابنه – واسمه إبراهيم قسطنطين – بإكمال الطبع.

٧- Carney Gavin, J. of Turkish Studies, Vol. 12, 1988, p. 15.


الباب الأول







[المنظر العام الشامل (البانورامي) لمكة المكرمة وما حولها، الذي رسمه أحد الأتراك عام ١١٩٧هـ (١٧٧٨م) ثم نشره دوسون عام ١٢٠٢هـ (١٧٨٧م)، موضحاً عليه أسماء المواضع بأرقام مسلسلة، وقد استدركنا بعض الأخطاء التي وقع فيها المؤلف، فوضعنا الصحيح بين قوسين.

والمواقع بالترتيب: ١- باب بني شيبة (باب السلام). ٢- الحجر الأسود. ٣- الحطيم (حجر إسماعيل). ٤- باب الكعبة المشرفة. ٥- الركن العراقي (الشمالي). ٦- ميزاب الكعبة الذهبي. ٧- (ركن الحجر الأسود). ٨- مقام إبراهيم. ٩- باب الصفا. ١٠- الصفا. ١١- المروة. ١٢- بطن الوادي. ١٣- الميلين الأخضرين. ١٤- جبل منى (جبل الصابح). ١٥- مسجد إبراهيم (في عرفات). ١٦- جبل عرفات. ١٧- بطن الوادي (صعيد عرفات). ١٨- جبل الرحمة. ١٩- مزدلفة. ٢٠- جبل قزح. ٢١- موقع منى. ٢٢- جمرة العقبة. ٢٣- محلات يتم فيها ذبح الأضاحي. ٢٤- محلات حلق الحجاج رؤوسهم. ٢٥- مسجد الخيف. ٢٦- المحصب. ٢٧- باب الوداع. ٢٨- مدرج الكعبة. ٢٩- سبيل عام. ٣٠- بركة الشامي. ٣١- بركة المصري. ٣٢- قبة الشمعدان. ٣٣- قبة العباس. ٣٤- مقام الحنفي. ٣٥- مقام الشافعي. ٣٦- مقام المالكي. ٣٧- مقام الحنبلي. ٣٨- منبر الخطيب. ٣٩- جبل أبي قبيس. ٤٠- جبل جزل. ٤١- جبل عبدالله. ٤٢- جبل ثبير. ٤٣- جبل شريف. ٤٤- جبل ثور. ٤٥- جبل منشية. ٤٦- جبل لعلع. ٤٧- جبل خندمة. ٤٨- جبل هندي. ٤٩- محل شق القمر. ٥٠- جبل حراء. ٥١- جبل النور. ٥٢- مصلى إبراهيم. ٥٣- مقبرة الأشراف (مقبرة المعلاة). ٥٤- مقبرة خديجة (أم المؤمنين). ٥٥- قصر الشريف (مطل على الحرم قرب باب الصفا). ٥٦- منزل الملا (رئيس القضاة). ٥٧- مسجد مراد الثالث. ٥٨- المدرسة السليمانية. ٥٩- مدرسة قايتباي. ٦٠- سكن دهلي باشا. ٦١- سكن الأئمة. ٦٢- حمام عام (حمام القشاشية). ٦٣- سوق عامة (سويقة). ٦٤- بستان قَاضي مكة المكرمة].



رابعاً - رسُومَاتُ أيّوب صَبري للمَسجد الحَرام عام ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م):

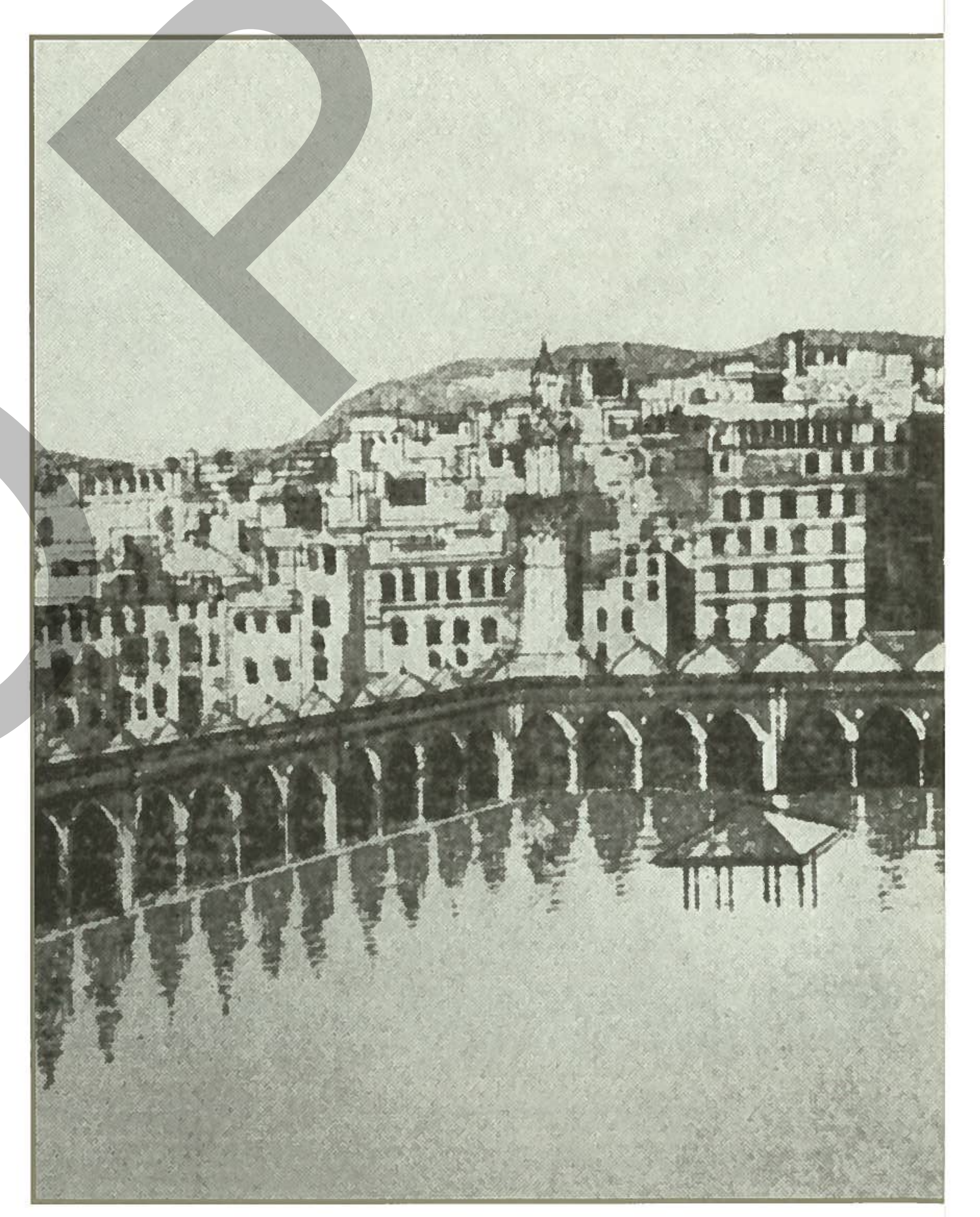
كان أيوب صبري ضابطاً في البحرية العثمانية، وقد سافر إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وقضى بها مدة طويلة وعاد ليحمل رتبة أمير لواء، ثم تولى التدريس في مدرسة البحرية في إسطنبول، وقد صدر كتابه الضخم «مرآة الحرمين» في ثلاثة مجلدات باللغة التركية، الأول بعنوان فرعي "مرآة مكة" وطبع عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م) ويتكون من ١٢٠٠ صفحة، مقسمة إلى ستة أبواب وفي كل باب عدد من الفصول شملت الأحداث الدينية والتاريخية والجغرافية والاجتماعية. والمجلد الثاني "مرآة المدينة"، وصدر عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م)، وتزيد صفحاته عن المجلد الأول قليلاً. أما المجلد الثالث فعنوانه الفرعي "مرآة جزيرة العرب"، وصدر عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) في حوالي ٣٠٠ صفحة.



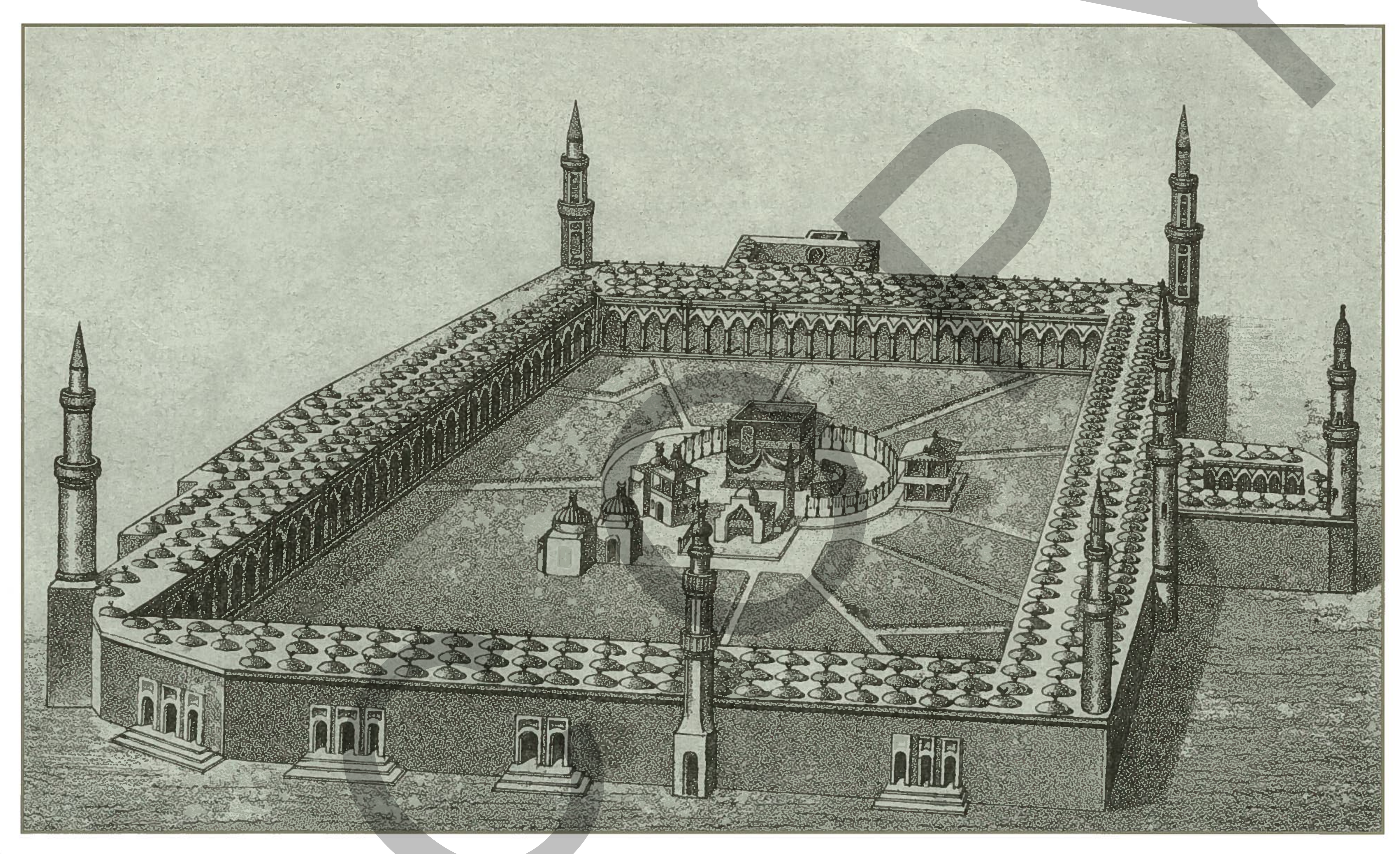
ونلحظ أن الكتاب قد تم تأليفه عام ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م) أي قبل ثماني سنوات من وصول محمد صادق، الضابط المصري الذي التقط صوراً فوتوغرافية للحرمين عام ١٢٩٧هـ. لذلك فإن المؤلف لم يدخل الصور الفوتوغرافية في كتابه، واعتمد على الرسومات فقط لأن التقاط الصور وتظهيرها لم يكن من السهل عمله إلا بمعمل ضخم متنقل (راجع الملحق الخاص بتاريخ التصوير الفوتوغرافي في نهاية هذا الأطلس).

وقد حلّى أيوب صبري كتابه بعدد من الرسومات، ولا نعرف إن كانت من عمله هو، أم استعان بفنانين أتراك في عهده، أم أنه اختارها من رسومات سابقة. ويحتاج الأمر إلى دراسة النص ممن يعرف اللغة التركية، ونلحظ أيضاً أن بعض الرسومات المنشورة ليست دقيقة؛ لأنها لم تراعِ الأبعاد الحقيقية، وربما أضافها المؤلف بغرض إعطاء فكرة لقارئ النص فقط، بينما يعطي بعضها الآخر صوراً دقيقة، كما أنه انفرد لأول مرة بنشر رسم دقيق لحادثة تهدم الكعبة المشرفة إثر السيول الجارفة التي داهمت المسجد الحرام عام ١٠٣٩هـ (١٦٣٠م).

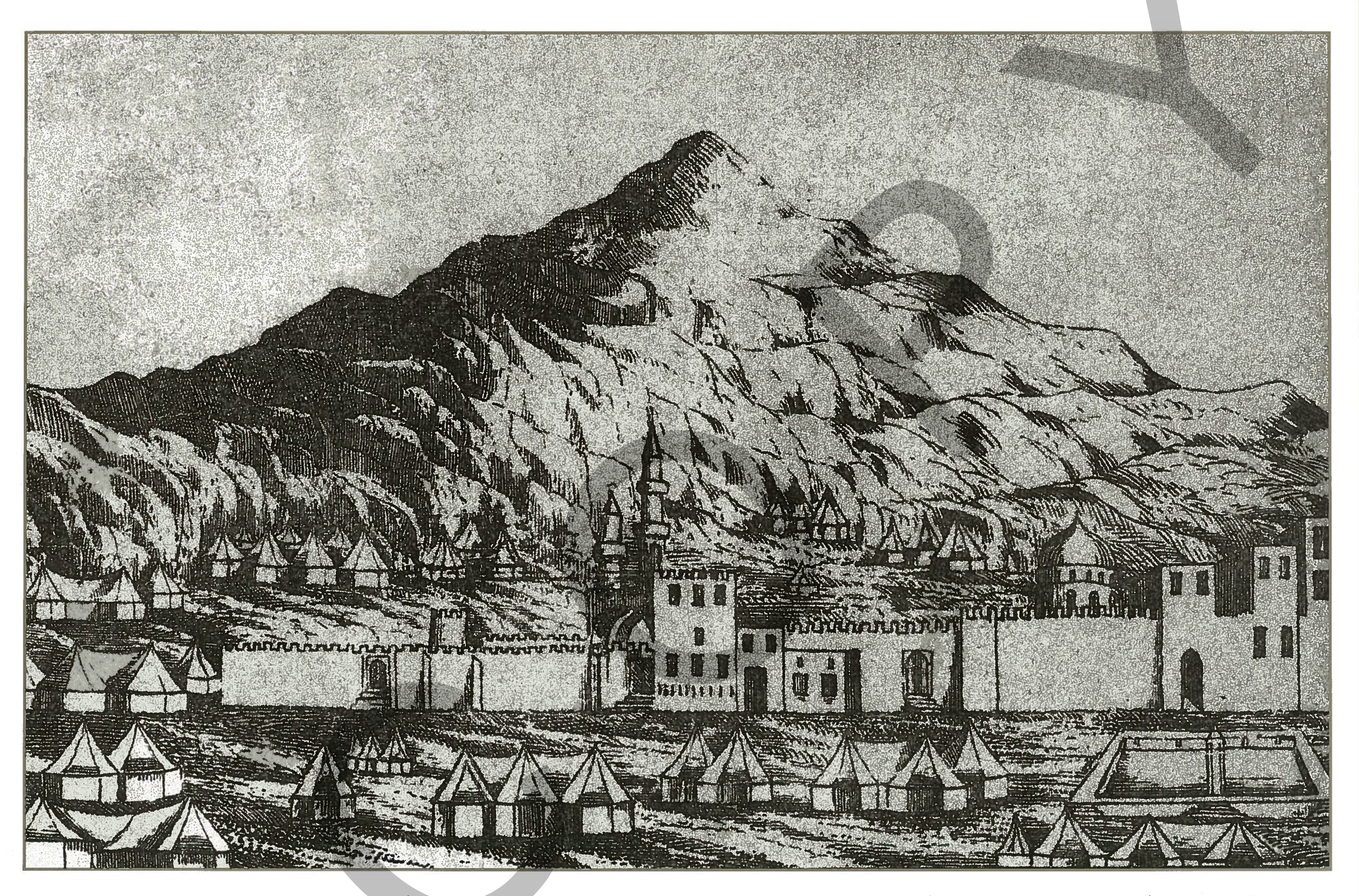
ولحسن الحظ فإن مؤلف أيوب صبري قد ترجم إلى العربية ونشرته دار الآفاق بالقاهرة عام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م).



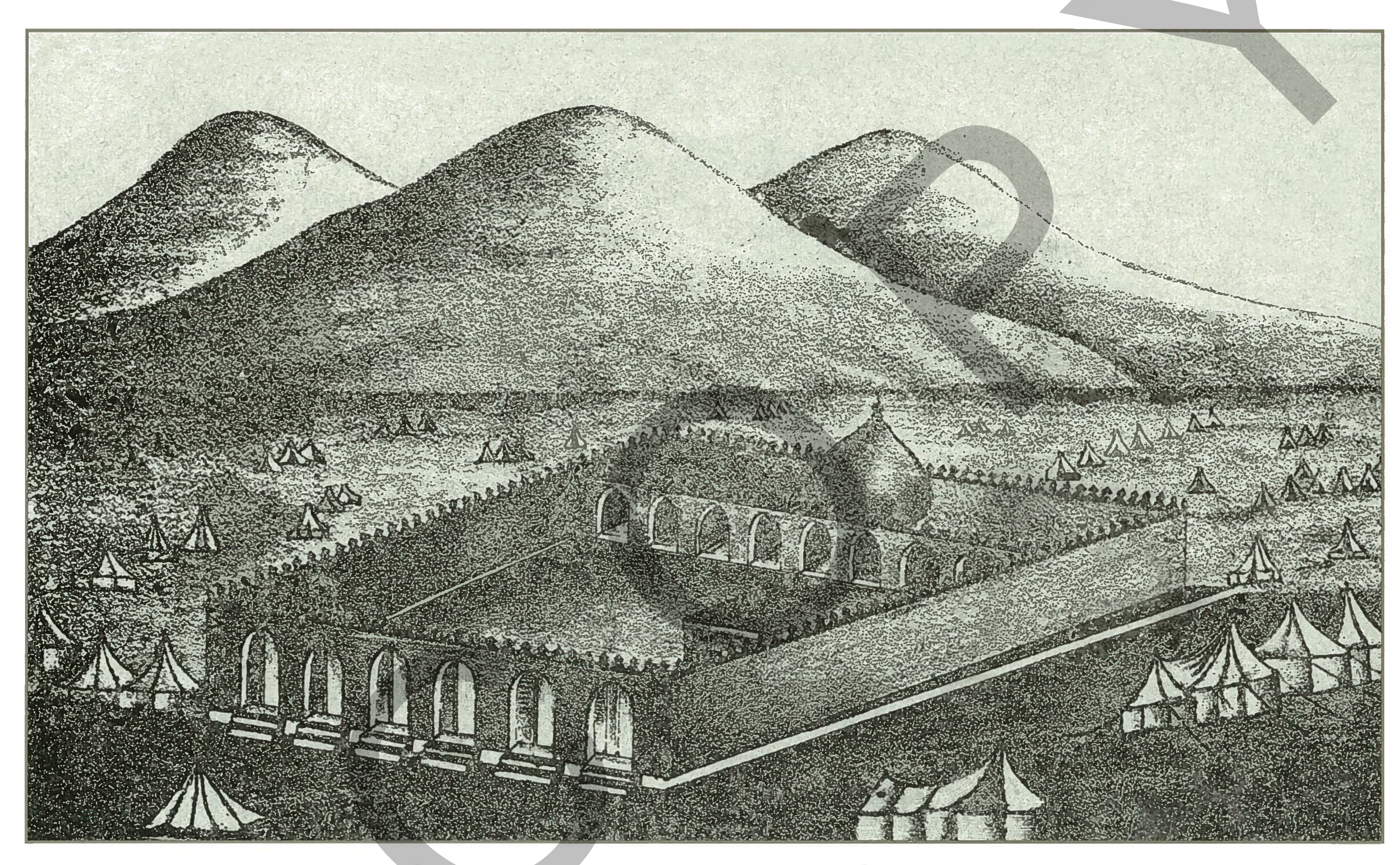
◄ [الرسم المعبر الذي نشره أيوب صبري في كتابه "مرآة مكة المكرمة" لحادثة سقوط الكعبة المشرفة عام ١٠٣٩هـ وقد استلهم الرسام هذه الحادثة الخطيرة من النصوص التاريخية التي تركها لنا ابن علان الصديقي في كتابه المخطوط "إنباء المؤيد الجليل" فقد ذكر أن الأمطار بدأت في الهطول صباح يوم الأربعاء ١٩ شعبان ١٠٣٩هـ (٣ أبريل ١٦٣٠م). واشتدت بين صلاتي الظهر والعصر. واستمرت الأمطار إلى الليل. وقد ملأت السيول أودية مكة المكرمة وشعبها وداهمت المسجد الحرام. ووصل ارتفاع الماء في المسجد الحرام إلى منتصف جدار الكعبة المشرفة. وبلغ في الأروقة إلى طوق القناديل. وقد جرفت السيول الكثير من الأنفس والأمتعة. حيث قدر عدد الوفيات بحوالي ألف نفس. وفي صبح يوم الخميس فتحت سراديب باب إبراهيم التي هي مجاري مياه المسجد الحرام. وخرج الماء منها إلى أسفل مكة المكرمة. وبعد عصر يوم الخميس (٢٠ شعبان) انهار الجدار الشامي (مما يلي حجر إسماعيل) للكعبة المشرفة وبعض الجدارين الشرقي (وفيه الباب) والغربي. وسقطت درجة السطح. وقد أمر السلطان مراد الرابع بإعادة بناء الكعبة. واستغرق الاستعداد للبناء ثمانية أشهر. ثم شرعت أعمال البناء الجديد يوم السبت ٢٥ جمادى الأولى ١٠٤٠هـ (٢٨ ديسمبر ١٦٣٠م). وتم البناء خلال ثلاثة أشهر. حيث ألبست الكعبة المشرفة ثوبها الجديد يوم الجمعة غرة شهر رمضان ١٠٤٠هـ (٤ أبريل ١٦٣١م). ونلحظ أن الرسام وإن كان دقيقاً في رسمه لسقوط الكعبة المشرفة. وبقاء الركنين. الأسود واليماني. إلا أن المباني المحيطة بالمسجد الحرام قد استوحاها من واقع الرسومات المتوافرة في عهده. أي أواخر القرن الثالث عشر الهجري. ولا تمثل الواقع كما كان زمن سقوط الكعبة المشرفة].



▲[رسم للمسجد الحرام، وقد تخيل فيه الرسام المسجد مجسماً وعزله عن المباني المحيطة به، وقد ظهرت الزيادتان، والأروقة بقبابها مع المنائر السبع كما ظهرت أبواب المسجد الحرام من الناحية الشرقية بعدد فتحاتها الصحيحة، والتزم الرسام بالأبعاد الصحيحة فأعطى انطباعاً لحقيقة الحال]. (أيوب صبري، مرآة الحرمين)



▲[رسم آخر من مرآة الحرمين لأيوب صبري لمسجد الخيف ووادي منى. ويبدو في أسفل الرسم مخيمات الحجاج. وإلى اليمين حوض للسقيا. وتمتد مخيمات الحجاج إلى خلف مسجد الخيف ونلحظ أن رسم المسجد قريب من الواقع لكن الجبل خلفه لا يمثل الواقع بدقة].



▲[رسم آخر من مرآة الحرمين لأيوب صبري يبين مسجد نمرة بعرفات، ونلحظ أن الرسام لم يكن دقيقاً، فقد رسم المسجد بدون مئذنة، كما رسم مخيمات الحجاج داخل حدود عرفات وخارجها، علماً بأن الجهة القبلية من المسجد تقع خارج حدود عرفات].





٢

مكة المكرمة
في أعين الرسامين الغربيين



رحلات الأوروبيّين إلى الدّيار المُقدّسة:

من المعروف أن الرحالة الغربيين قد دخلوا إلى الأراضي المقدسة تحت أسماء إسلامية، ولعل أولهم هو لودفيك فارثيما أو (بارثيما) الذي أطلق على نفسه اسم الحاج يونس المصري، وهو إيطالي دخل مكة المكرمة عام ٩٠٨هـ (١٥٠٣م)، وقد نشرت أخبار رحلته أولاً في ميلانو بإيطاليا عام ١٥١١م ثم ترجمها "ريتشارد إيرن" إلى الإنجليزية عام ١٥٥٥م ونشرها في لندن، ثم أعاد ترجمتها ج. و. جونز ونشرتها جمعية هاكليوت بلندن عام ١٨٦٣م بعنوان "رحلات لود فيكو دي فارتيما في مصر وسوريا والجزيرة العربية الصحراوية والعربية السعيدة ثم في بلاد الفرس والهند وأثيوبيا ما بين ١٥٠٣ ـ ١٥٠٨م"، وقد ترجمت إلى اللغة العربية بعنوان رحلات فارتيما: الحاج يونس المصري.

ويتضح من سياق قصة رحلته حسبما أوجزها "أغسطس رالي"[٨]، أنه غادر دمشق في ١١ إبريل مع قافلة الحج الشامي إلى المدينة المنورة، ومنها إلى مكة المكرمة حيث وصلها بعد أربعين يوماً تقريباً، ودخلها في ١٨ مايو. لكن مضاهاة هذا التاريخ بالجداول الفلكية تؤكد أن رحلته العاجلة إلى الأراضي المقدسة كانت عام ١٥٠٤م وليس ١٥٠٣م كما يتبادر من الرواية، وبذلك يتضح أنه دخل مكة المكرمة في الثالث من شهر ذي الحجة عام ٩٠٩ هـ (١٨ مايو ١٥٠٤م) وغادرها بعد عشرين يوماً أي في الثالث والعشرين من شهر ذي الحجة. وقد دهش فارثيما لكثرة الناس ووفرتهم خلال موسم الحج، وقدر منازل مكة المكرمة بستة آلاف منزل، إلا أن وصفه لمكة المكرمة والحج لا يدلان على جدِّيَّتِه[٩]. وهناك أيضاً قصة مملوك ألماني يدعى "جوهان وايلد" جاء مع سيدة إلى مكة المكرمة عام ١٠١٥هـ (١٦٠٧م)، لكن قصته لا معنى لها وغير دقيقة، وقد نشرت عام ١٠٢٢هـ (١٦١٣م) في ألمانيا. وفي عام ١٠٥٠هـ (١٦٤٠م)، صدر كتاب يحكي قصة الفرنسي "فنسنت لابلانك" الذي زعم أنه زار مكة المكرمة عام ٩٧٥هـ (١٥٦٨م)، ولكن القصة تبدو غير واقعية[١٠].

وتلا ذلك الإنجليزي "جوزيف بيتس" الذي استعبد في الجزائر، ثم زار مكة المكرمة مع سيده عام ١٠٩٠هـ (١٦٨٠م)، وقد وصلها في شهر رمضان وظل بها أربعة أشهر. وبعد ذلك أعتقه سيده، لكنه ظل معه في طريق العودة إلى الجزائر، ثم عاد إلى إنجلترا عام ١١٠٤هـ (١٦٩٣م) ليروي قصته في الأسر ورحلته إلى مكة المكرمة. وقد صدر كتابه عام ١١١٦هـ (١٧٠٤م) بعنوان "قصة حقيقية ومخلصة للديانة والأخلاق المحمدية"، ومن الواضح أن كل من زار مكة المكرمة من الأوروبيين حتى ذلك الوقت لم يكن على درجة من العلم والثقافة؛ لذلك تزخر قصصهم بالخيالات، ولا تضم أي رسومات.

ثم رَأَسَ كارستن نيبور – وهو مستشرق دنمركي شهير – بعثة علمية استكشافية إلى البلاد العربية، ووصلت البعثة إلى جدة، ومكثت فيها حوالي شهرين، في المدة من أوائل ربيع الآخر إلى أواخر جمادى الأولى ١١٧٥هـ (آخر أكتوبر إلى أوائل ديسمبر ١٧٦٢م)، ثم توجهت البعثة بعد ذلك إلى اليمن. وقد أصدر نيبور كتابه الأول بالألمانية عام ١١٨٦هـ (١٧٧٢م) ثم ترجم إلى الفرنسية والإنجليزية بعنوان "وصف بلاد العرب". وفي الكتاب رسمان دقيقان بدرجة مدهشة للحرمين المكي والمدني، وبما أن البعثة الدنمركية لم تعلن إسلامها و لم تدخل إلى الحرمين، فإن ظهور هذه الرسومات التي لا يعرف على وجه التأكيد مصدرها الحقيقي تؤكد وجود مصدر سابق لها، وكما سبق أن أوضحنا في حالة الصور التي نشرها دوسون، فإن المرجح أن نيبور حصل على رسومه من رسامين مسلمين كما فعل دوسون.

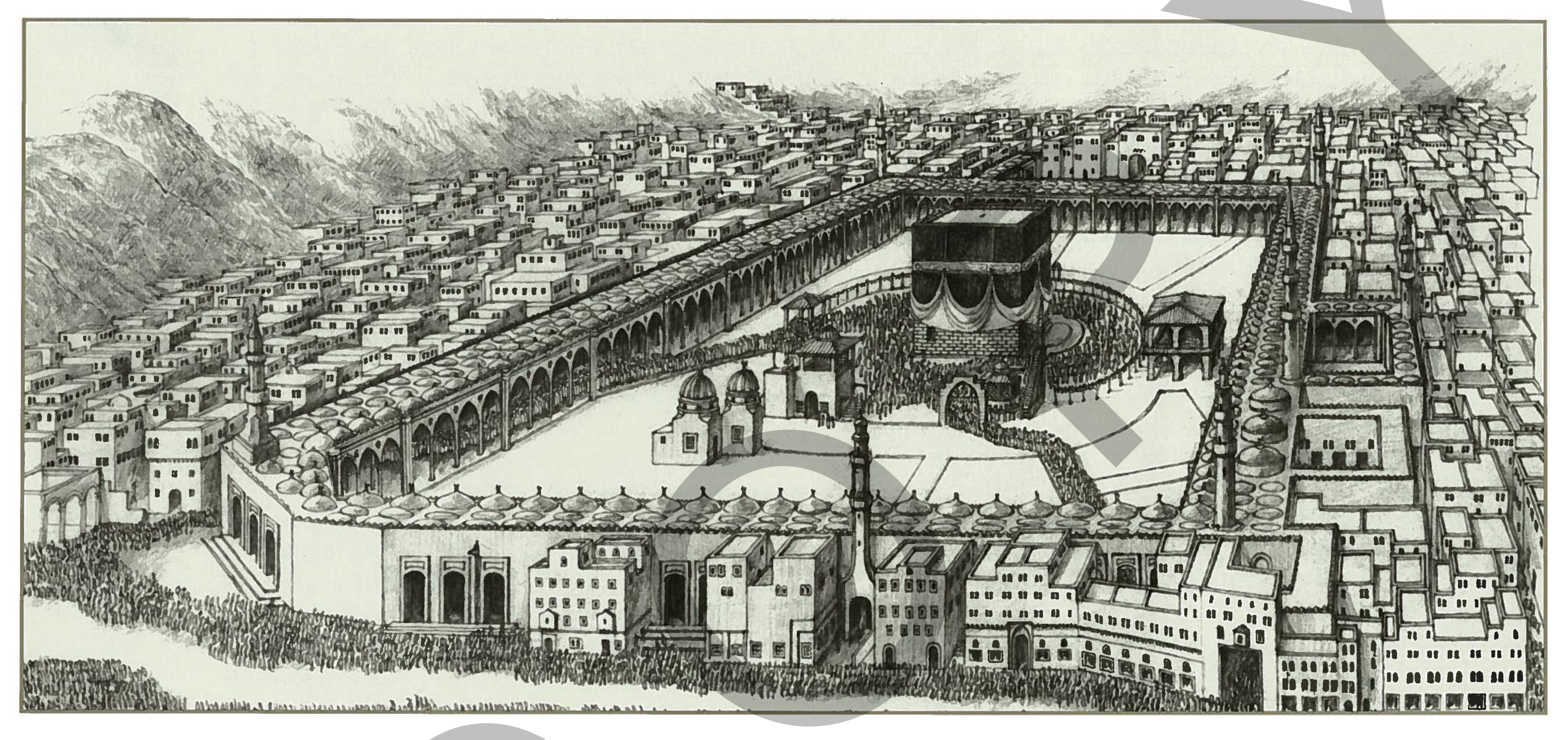
وقد ظهرت بعد ذلك رسومات تقتفي أثر الرسم الدقيق الذي نشره دوسون أو الذي نشره نيبور. ومن ذلك الرسم الموجود في المتحف البريطاني للحرم الشريف تحيط به مساكن مكة المكرمة، وينسب إلى Hanglinger عام ١٢١٧هـ (١٨٠٣م)، ويعود تاريخه إلى عام ١٨٠٣م، ونلحظ أن هانجلينجر لم يقم بزيارة الأراضي المقدسة، ويبدو أنه اطلع على كتاب دوسون وأعاد رسم المسجد الحرام ومكة المكرمة بطريقة مختلفة قليلاً، حيث نلحظ أنه عدل خط الجبال المحيطة بالمسجد الحرام من جهة اليسار، وجعلها قمماً متعددة بدلاً من ثلاثة أو أربعة، كما أنه جعل قباب زمزم والسقاية والفراشين بعيدة عن الرواق، وأعاد ترقيم المواقع في الرسم. وهناك رسم آخر للحرم المكي الشريف يقتفي أيضاً أثر الرسم الذي نشره دوسون، وقد ظهر في كتاب The Last Two Million Years عام ١٤٠١هـ (١٩٨١م) من مؤسسة " ريدرز دايجست" الأمريكية وهو المنشور في الصفحة المقابلة.

من جهة ثانية فإن بدر الحاج صاحب كتاب "المملكة العربية السعودية: صور من الماضي"، قد نشر في طبعته الأولى (فقط) رسم الحرم المكي الوارد في كتاب دوسون، و ذكر أنه رسم عام ١٧٨٧م، لكنه أغفل مصدره، على رغم حرصه على توثيق الرسوم والصور الأخرى في كتابه. وعلى أي حال فإن أول رحالة رسام أوربي زار البلاد المقدسة كان هو دومنغو باديا ليبلخ الذي سمى نفسه علي بك العباسي، وقد دخل مكة المكرمة عام ١٢٢١هـ (١٨٠٧م) وكتابه زاخر بالرسومات الدقيقة التي سنأتي إلى تفصيلها فيما بعد.

٨- Ralli, August, Christians at Mecca, p. 23.

٩- سمير عطا الله، قافلة الحبر، ص ٤٩.

١٠- Ralli, op.cit, p 32.



▲[ظهر هذا الرسم للمسجد الحرام في كتاب "The Last Two MillionYears" (المليونا عام الأخيرة)، ط٥، عام ١٤٠١هـ (١٩٨١م)، ص ١٤٨. ولم يوضح المؤلف مصدره. ومن المرجح أن الرسام قد استوحى الرسم الذي نشره دوسون لمكة المكرمة والمسجد الحرام، لكنه أغفل المناظر البعيدة عن قلب مكة المكرمة، ولم يلتزم بترقيم أسماء المواقع، باستثناء الكعبة المشرفة وقبة الفراشين].



أولاً- وصفُ مكّة المكرمة والمسجد الحَرام عِند دُومنغُو باديَا ليبلخ عام ١٢٢١هـ / ١٨٠٧م:

لا شك أن الأسباني "دومنغو باديا ليبلخ" الذي أطلق على نفسه اسم علي بيك العباسي، هو أول رحالة غربي علي درجة عالية من الثقافة يعلن اعتناقه للإسلام ويؤدي فريضة الحج، ثم يقدم لنا وصفاً دقيقاً لرحلاته في مراكش وليبيا وقبرص ومصر والجزيرة العربية ثم سوريا وتركيا في المدة من ١٢١٧ – ١٢٢١هـ (١٨٠٣ – ١٨٠٧م)، في مجلدين تشمل وصفاً ورسوماً وخرائط دقيقة[١١]. وقد صدر الكتاب أولا بالفرنسية عام ١٢٢٩هـ (١٨١٤م)، ثم بالإنجليزية بعد عامين.

دخل دومنغو باديا ليبلخ مكة المكرمة قادماً من مصر ليلة الجمعة ١٤ من ذي القعدة ١٢٢١هـ (٢٣ يناير ١٨٠٧م) ومكث بها ٣٩ يوماً حيث غادرها في ٢٢ من ذي الحجة (٢ مارس)، وعلى رغم قصر المدة فإن وصفه لمكة المكرمة والحرم والمشاعر استغرق حوالي ٨٠ صفحة من المجلد الثاني، في أحد عشر فصلا، ويصورها في حوالي خمسة عشر رسماً سنختار بعضها في الصفحات الآتية، ونبدأ بتلخيص وصفه لمكة المكرمة آنذاك[١٢].

"مكة المدينة المقدسة هي عاصمة الجزيرة العربية الصحراوية، وتقع حسب قياساتي المعتمدة على مرور الشمس على خط الزوال عند خط العرض ٢١ درجة و٢٨ دقيقة و٩ ثوان شمالاً، كما أن قياس المسافات القمرية أثبت أنها على خط الطول ٣٧ درجة و٥٤ دقيقة و٤٥ ثانية شرقاً من مرصد باريس، (٤٠ درجة و١٥ دقيقة شرق جرينتش)، والانحراف المغناطيسي ٩ درجات و٤٣ دقيقة و٥٢ ثانية غرباً". أي أن قياساته وضعت الحرم إلى الشمال ٣ دقائق إضافية بينما وضعته ٢٥ دقيقة إضافية إلى الشرق عما تثبته القياسات الفعلية اليوم.

ويقول دومنغو باديا ليبلخ: إن وصفه لمكة المكرمة ليس كاملاً كما فعل للإسكندرية لعدم وجود نقطة مشاهدة مناسبة؛ لأن المدينة تحيط بها الجبال، ومعظم منازل المدينة تتكدس شمال المسجد الحرام، وتمتد على شكل هلال من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي وتغطي خطاً طوله ٩٠٠ تويز (١٧٢٠متراً) وعرضها من المنتصف ٢٦٦ تويز (٥١٠ أمتار)، والشوارع الرئيسة منتظمة إلى حد ما وحسنة، وواجهات المباني تدعو للدهشة، والمباني مبنية بالأحجار ومؤلفة من ثلاثة إلى أربعة أدوار، وأكثر من ذلك أحياناً، والواجهات (الرواشين) مزخرفة تعطي منظراً جميلاً، والأسطح عليها ساتر ارتفاعه سبعة أقدام بالطوب الأحمر والأبيض المصفوف بطريقة جميلة تترك فجوات لدورة الهواء، إضافة إلى حجب من بالأسطح عن أعين المارة، والغرف طويلة وعريضة وعالية ذات نوافذ وبلكونات ضخمة وفخمة، وبها أرفف متعددة لوضع الأغراض عليها.

ويستطرد دومنغو باديا ليبلخ في وصف الأسواق "... وتوجد الأسواق العامة في الشوارع الرئيسية، وهي مليئة بالمؤن والأغراض الأخرى... وهناك أصحاب مطاعم متنقلين لبيع الفطائر وغيرها وأسعار المؤن غالية عدا اللحوم، وتأتيها الحنطة من مصر العليا، والأرز من الهند، والأعشاب من الطائف وتجد كل أنواع النقود متداولة بمكة المكرمة وكذا الصرافين... وتجد هنا كل صناعات ومنتجات الهند وفارس".

وقد قام دومنغو باديا ليبلخ بفحص عدد من الآبار في داخل البلدة وبعيداً عنها، ووجدها متساوية في العمق، وفي درجة الحرارة والطعم والنقاوة وهذا يدل – حسب قوله – على "أن الماء يأتي من طبقة واحدة عمقها ٤٥ قدماً" (١٣,٥متر)، ويضيف: "أما بالنسبة للحرف فهي ضعيفة فلا تجد رجلاً لصنع الأقفال أو صب المفاتيح، وتغلق أبواب البيوت بمفاتيح خشبية كبيرة، أما صناديق الملابس ذات الأقفال فتأتي من أوروبا، ولذلك لم أستطع استعاضة مفتاح الصندوق وعلبة التلسكوب التي سرقت في منى...، أما الحفر والرسم على المعادن فلا نجد فرداً واحداً يجيده. وكل ما يستطيعون صنعه هو البنادق (البدائية) والسكاكين والرماح والفؤوس (البلطات). وهناك سماكرة يصنعون علباً لماء زمزم". وأضاف أنه لم يشاهد تشييد مبان جديدة سوى واحد، وأنه لم ير من التعليم سوى مقرئي القرآن وبعض وعاظ الحج والمناسك، وقدَّر أن سكان مكة المكرمة كانوا مائة ألف نسمة ثم انخفض الآن إلى ما بين ١٦ و١٨ ألفا، وتوقع أن تنكمش المدينة إلى عُشر حجمها الحالي خلال قرن." لقد ظن دومنغو باديا ليبلخ مثل كثير من الرحالة الذين يفدون خلال موسم الحج أن مدة الموسم كافية لعكس واقع البلدة طوال العام، والحقيقة أن كثيراً من النشاطات التعليمية والحرفية والعمرانية تتوقف خلال هذه الفترة نظراً لتوجه السكان إلى خدمة الحجاج.

وتجدر الإشارة إلى أن دومنغو باديا ليبلخ كان أول من رسم خريطة مساحية دقيقة إلى حد بعيد لمكة المكرمة ونشرها مرفقة مع كتابه في جيب وأبعادها ٣٦ × ٥١,٢ سم إلا أنها لم تلق رواجاً وانتشاراً مثلما لاقت الخريطة التي رسمها بعده بوركهارت عام ١٢٢٩هـ (١٨١٤م) ونشرها في متن كتابه وأبعادها ٢٤ × ١٨ سم بالرغم من عدم دقتها المساحية.

◄ [لقد تركزت رسومات دومنغو باديا ليبلخ على جزئيات المسجد الحرام والمسعى وبعض المشاعر، ولم يهتم بإعطاء رسم شامل لمكة المكرمة، وتظهر الرسوم إلى اليمين:

١- الكعبة المشرفة، و بابها والحجر الأسود والشاذروان والميزاب. وقد تم برم ثوب الكعبة في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة إعلاناً بالإحرام. كما يتم في هذا اليوم غسل جوف الكعبة وتطييبها.

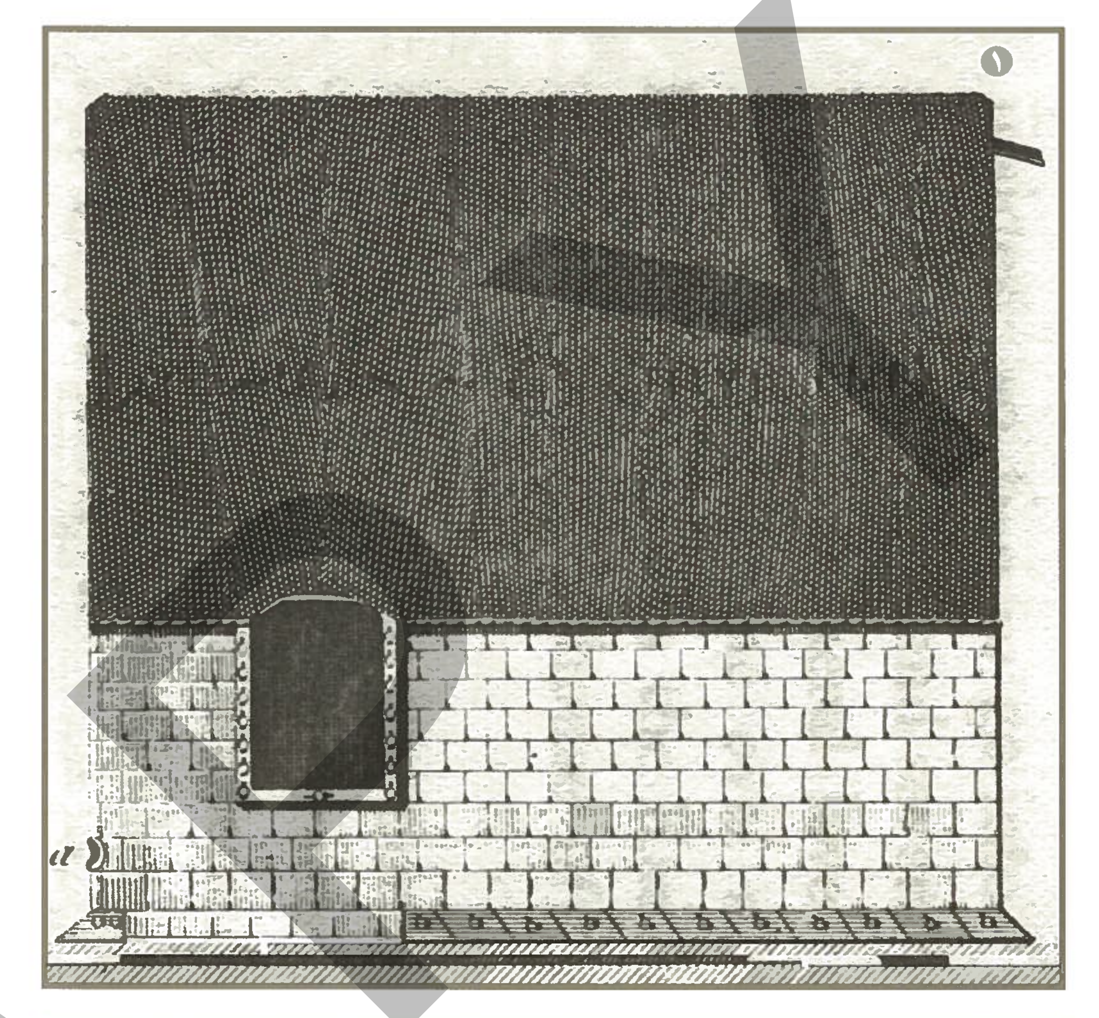
٢- الكعبة المشرفة وقد ارتدت ثوبها الجديد يوم عيد الأضحى. ويظل الثوب الجديد وستارة باب الكعبة معلقين بحبال متصلة بالسطح حتى نهاية الحج.

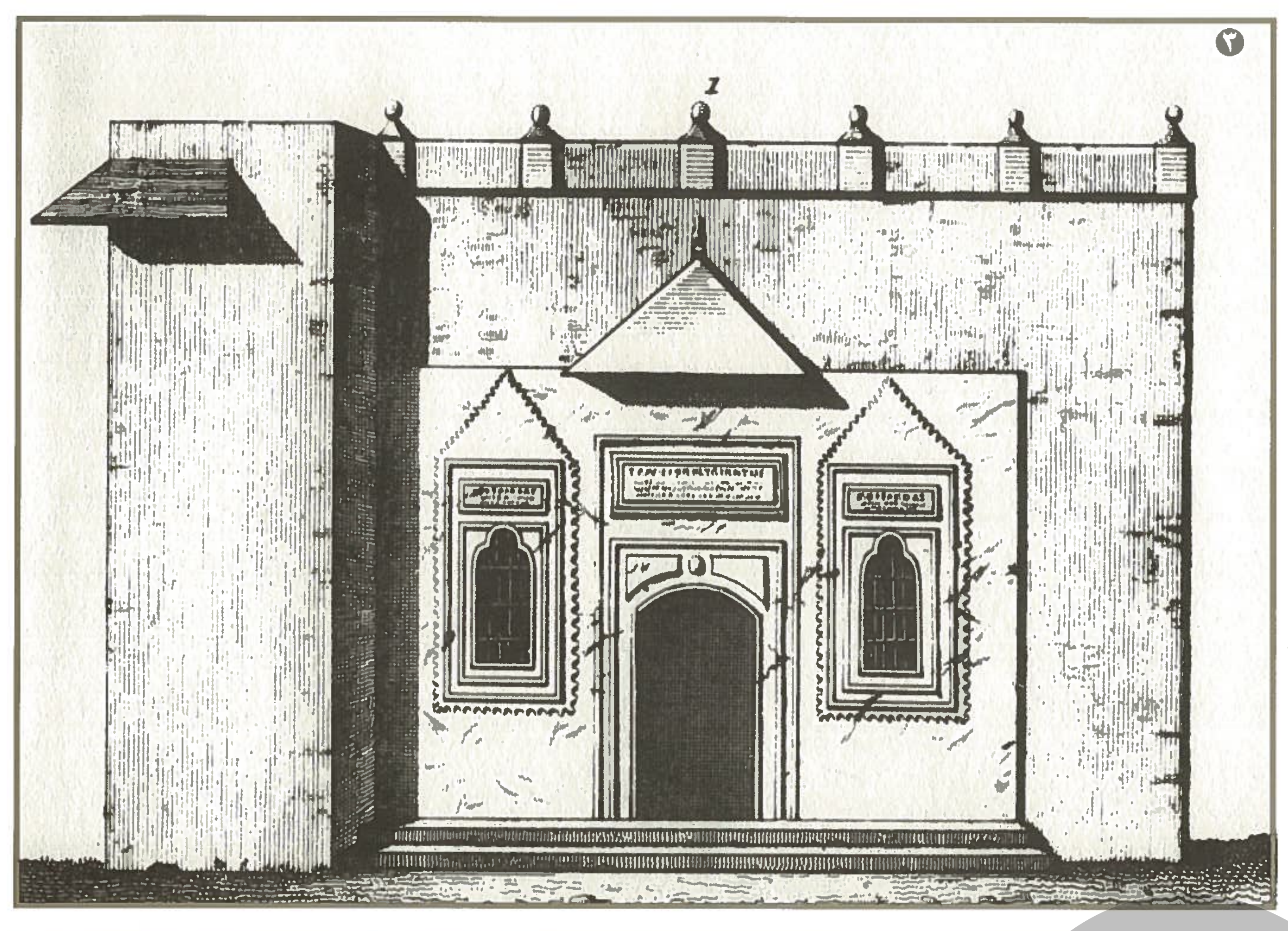
٣- الواجهة الرئيسة للمبنى المقام على بئر زمزم، ويلحظ أن الواجهة مصنوعة من المرمر الفاخر.

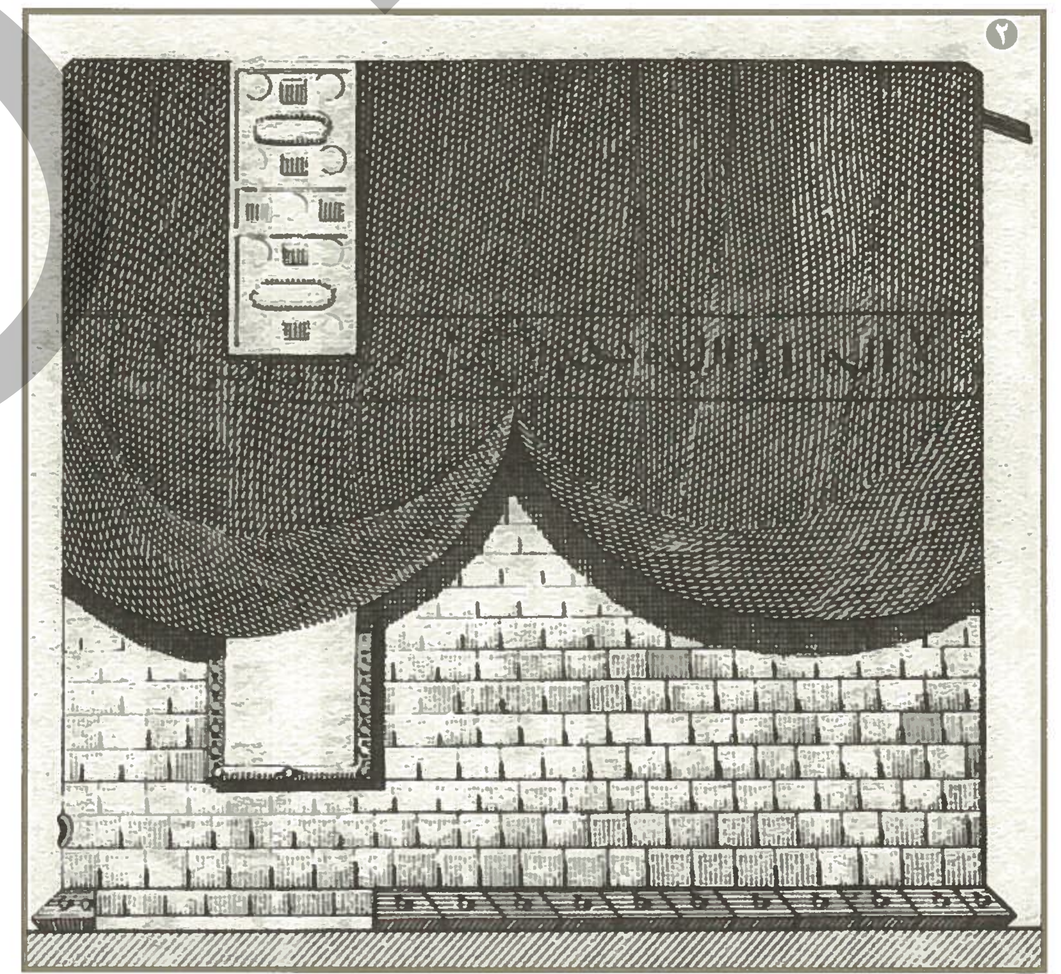
٤- بئر زمزم من الداخل، وما يحيط به، وقد كسيت حواف البئر والغرفة بالمرمر الأبيض الجميل].

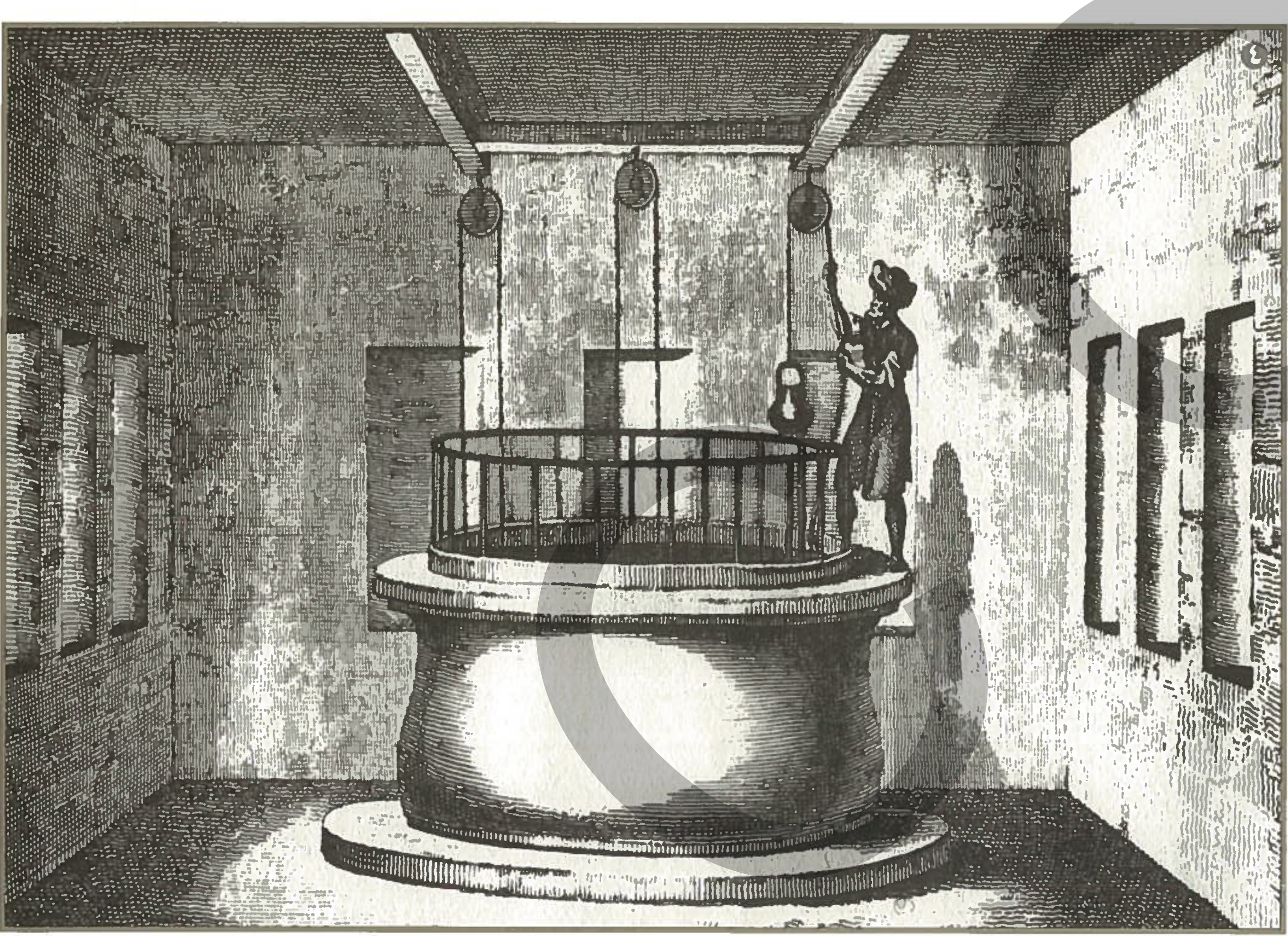
١١- Badia y Leblich, Domingo : Travels of Ali Bey.

١٢- Badia y Leblich, Domingo : ditto, Vol.2, p. 94-104.









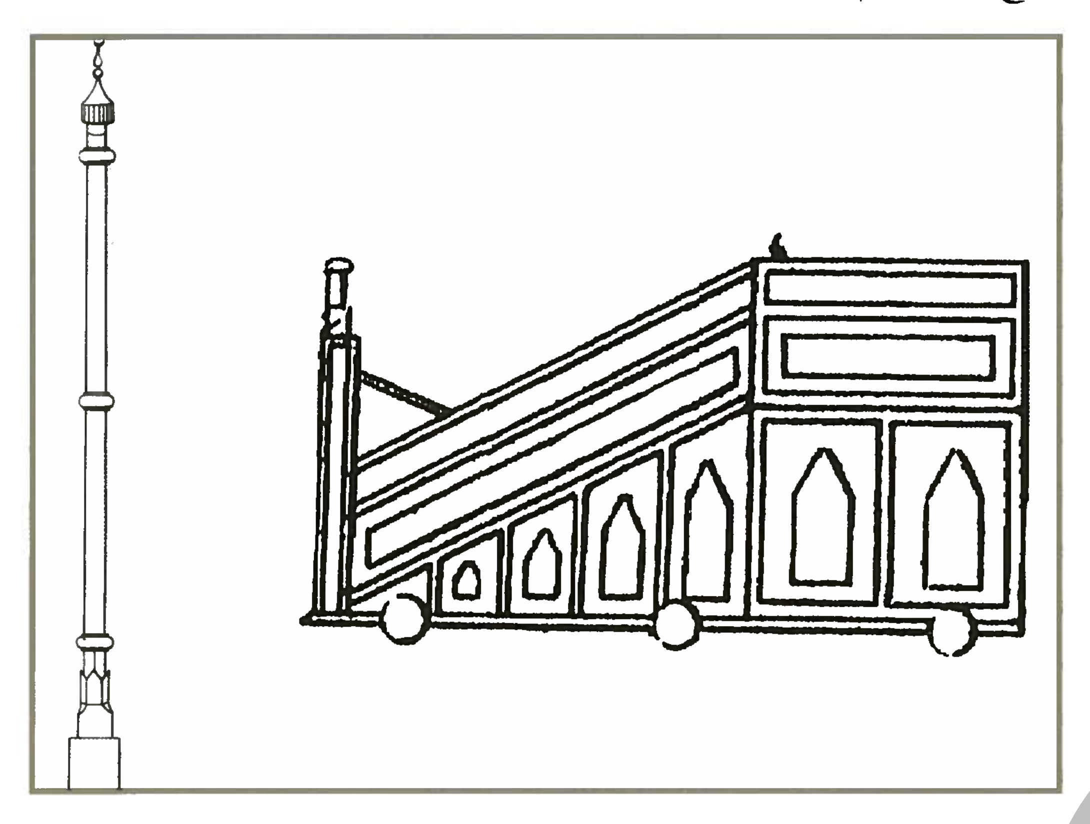


ثانياً - خارطة دومنغو باديا ليبلخ للمسجد الحرام:

وضع دومنغو باديا ليبلخ لأول مرة مسقطاً أفقياً دقيقاً للمسجد الحرام، وقدم لنا وصفاً مسهباً له[١٣]، نوجزه فيما يأتي :

يتألف الحرم من بيت الله، ويسمى الكعبة، وبئر زمزم، ومقام إبراهيم، والمقامات الأربعة، والقبتين (قبة سقاية العباس وقبة الفراشين)، وباب السلام (باب بني شيبة)، والمنبر، والمدرج (سلم الصعود إلى داخل الكعبة المشرفة)، والساحة الكبرى التي تحيط بها الأروقة. وللحرم ١٩ باباً وسبع منائر، خمس منها مقامة على بناء الحرم، واثنتان قائمتان على المنازل المجاورة القريبة، وهناك حول المطاف ٣٣ عموداً من البرونز، تعلق بينها القناديل.... ونلحظ من المسقط الأفقي للمسجد الحرام أن دومنغو باديا ليبلخ قد ميز أساطين الرخام من الأعمدة الحجرية المثمنة في الأروقة، وبين أن عدد الأساطين والأعمدة من الجهات الأربع ١٢٦ صفاً بعرض الأروقة، عدا أعمدة زيادتي باب الزيادة وباب إبراهيم، وبيَّن عدد الأعمدة في كل صف، فهي تتراوح من اثنين إلى خمسة عند زاوية الركن الشرقي، كما أوضح الرسم الدرجات الداخلية من أرض الرواق لكل باب من الأبواب الأصلية وكيف أن الداخل إلى المسجد من باب إبراهيم لا يهبط مباشرة إلى الرواق بل عبر درجات إلى اليمين والشمال قائمة على مدخل المجرى الرئيس لتصريف مياه الأمطار (بئر ياخور)، كما تظهر أماكن المنائر المقامة على بناء المسجد، ولا يبين الرسم منارة قايتباي ولا الأبواب الفرعية عبر المنازل.

ويذكر دومنغو باديا ليبلخ: إنه لم يستطع أخذ قياسات الكعبة بدقة مطلقة خوفاً من اعتراض الناس عليه، لذلك أخذ قياساته على أجزاء متفرقة ثم ضمها إلى بعضها، وأن الخطأ فيها لا يتجاوز القدم الواحدة، وهي كما يأتي: ١- لا يوجد ركن مواجه تماماً للجهات الأصلية الأربع غير أن المعتقد هو أن الحجر الأسود مواجه للشرق تماماً. ٢- المسافة من الحجر الأسود إلى الحِجْر (وبها الباب) تساوي ٣٧ قدماً وبوصتين ونصفاً، وهي تواجه الشمال الشرقي بعشر درجات ونصف شرقاً. ٣- من الحجر الأسود إلى الركن اليماني ٣١ قدماً و٧ بوصات، وهي تواجه الجنوب الشرقي بخمس عشرة درجة إلى الجنوب. ٤- من الركن اليماني إلى الحِجْر ٣٨ قدماً وأربع بوصات، ويواجه الجنوب الغربي بإحدى عشرة درجة ونصف الدرجة إلى الغرب. ٥- من داخل حِجْر إسماعيل ٢٩ قدماً، ويواجه الشمال الغربي بـ ١٧,٥درجة إلى الشمال. ٦- وارتفاع الكعبة ٣٤ قدماً و٤ بوصات، ويرتفع باب الكعبة المشرفة ستة أقدام فوق مستوى المطاف، وارتفاع الباب نفسه ثمانية أقدام وعرضه أربعة أقدام وعشر بوصات، ويبعد عن الحجر الأسود ستة أقدام، وهو مؤلف من ضلعين من البرونز المذهب والمفضض، وعليه قفل فضي كبير، ويبلغ ارتفاع الحجر الأسود ٤٢ بوصة عن أرض المطاف، وهو محاط بإطار فضي، والتجويفة الداخلية للحجر الأسود بعد الفضة شبه دائرية بارتفاع ٦ بوصات، وقطرها من الجهة السفلى ٨ بوصات ونصف. ونلحظ أن دومنغو باديًا ليبلخ قد استخدم المقاييس الفرنسية.

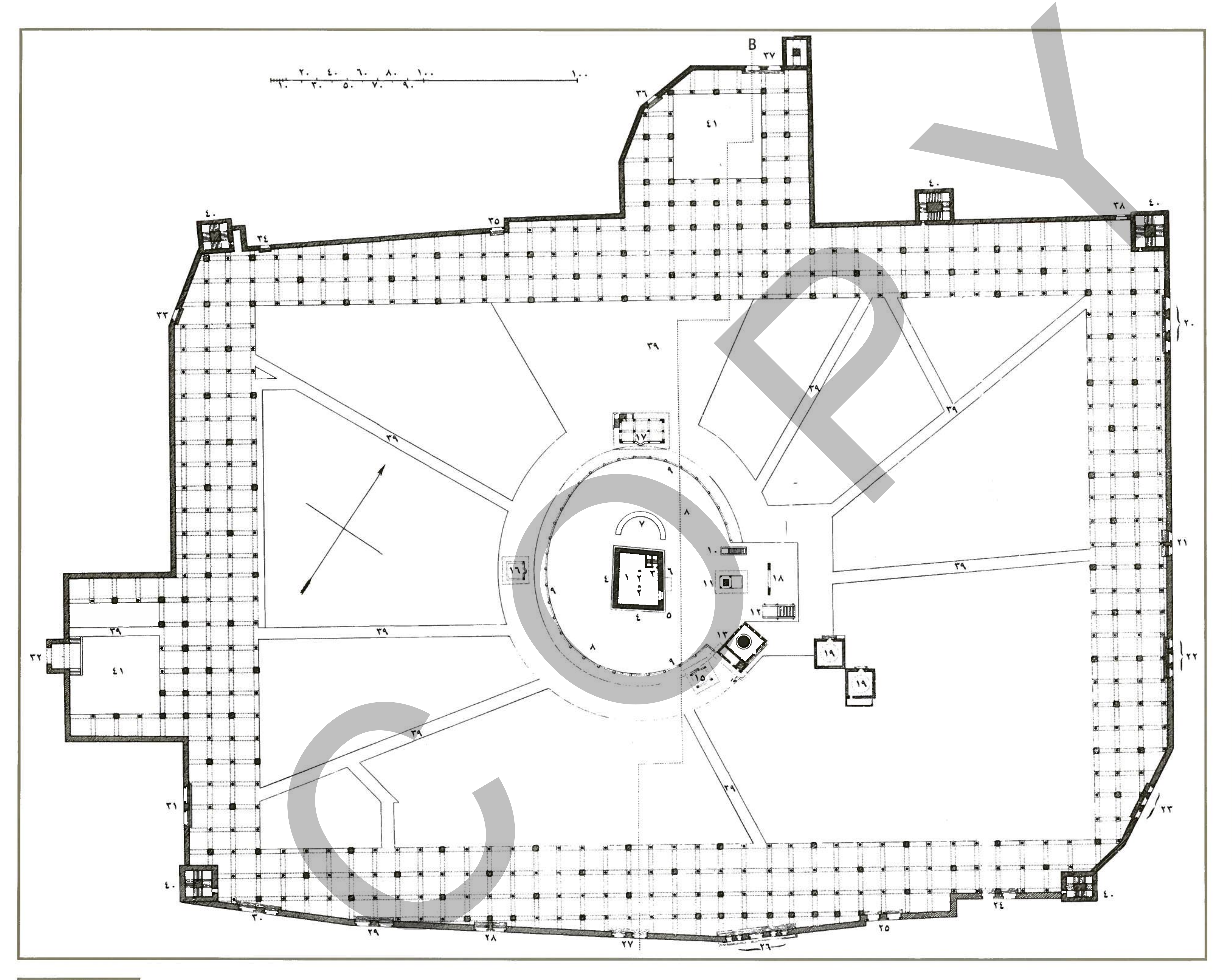


▲[من رسوم دومنغو باديا ليبلخ: أحد الأعمدة النحاسية المحيطة بالمطاف، وعددها (٣١) عموداً، وتدعم هذه الأعمدة قضبان حديدية منصوبة بينها تعلق عليها البرم الزجاجية وبداخلها الشموع التي تضاء طول الليل. ويبين الرسم الأيمن من اللوحة نفسها المدرج الخشبي الذي يستخدم للصعود إلى الكعبة المشرفة].

◀[إلى اليسار: المسقط الأفقي للمسجد الحرام كما رسمه دومنغو باديا ليبلخ، وقد أوضح أجزاء المسجد الحرام بأرقام متسلسلة، حسب وصفه، كالآتي: ١- الكعبة، ٢- عمودان يدعمان سقفها، ٣- الدرج المؤدي إلى سطحها، ٤- القاعدة المحيطة بالكعبة (الشاذروان)، ٥- الحجر الأسود، ٦- الميزاب (الصحيح أن هذا هو المعجن وليس الميزاب)، ٧- حجر إسماعيل، ٨- أرضية المطاف وهي مرصوفة بالمرمر، ٩- نقاط تحدد موضع ٣١ عموداً نحاسياً، وعمودين حجريين، تدعم القضبان الحديدية التي تعلق عليها القناديل الزجاجية التي تضاء طول الليل، ١٠- المنبر، ١١- مقام إبراهيم، ١٢- المدرج الخاص بالصعود إلى الكعبة ويتحرك على ست عجلات نحاسية، ١٣- بئر زمزم، ١٤- الدرج المؤدية إلى السطح (سطح مبنى زمزم)، حيث توجد مزاول شمسية لتحديد مواعيد الصلوات، والدور العلوي هو أيضا مقام الشافعي، ١٥ المقام الحنبلي، ١٦- المقام المالكي، ١٧- المقام الحنفي وفوقه يقف المنشدون (المؤذنون)، ١٨- باب السلام (باب بني شيبة)، ١٩- القبتان، وتستعملان حاليا مخازن، ومن رقم ٢٠ إلى ٣٨ أسماء أبواب المسجد الحرام حسب تسلسل الأرقام: السلام، النبي، العباس، علي، Litoun (بازان)، البغلة، الصفا، الرحمة (أجياد الصغير)، مجاهد (جياد)، باب زليخة (التكية)، أم هاني، الوداع، إبراهيم، العمرة، العتيق، الباسطية، القطبي، الزيادة، دريبة، ٣٩- المشايات، وهي مرتفعة عن الأرض المفروشة بالحصحاص، ٤٠- ست منائر مرتبطة بالمسجد وهناك سابعة منفصلة عن أصل المسجد وقائمة بين المنازل، ٤١- بهوان صغيران (يقصد زيادتي باب الزيادة وباب إبراهيم)، ويوضح الرسم مؤشرا للجهات الأصلية الأربع، حيث رأس السهم الطويل يشير إلى الشمال، ومقياساً للرسم، وصنع رسماً مستقلاً لخمسة مواقع رسم لها قطاعات رأسية.

ونلحظ أنه على الرغم من هذه الدقة في الوصف فقد أغفل المؤلف ذكر الأبواب الصغيرة للمسجد الحرام، وأخطأ في جعل باب الزيادة عقدين والصحيح ثلاثة.]

١٣- Badia y Liblich, op.cit,Vo.2, p 74 - 93.


٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠ ١٠٠
١٠ ٣٠ ٥٠ ٧٠ ٩٠
B
٣٧
٣٦
٤١
٣٥
٤٠
٣٤
٣٨
٣٣
٢٠
٣٩
١٧
٩
٨
٧
١٠
١١
١٨
١٦
١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦
١٢
١٣
١٥
١٩
٢١
٢٢
٣٢
٣١
٢٣
٢٤
٢٥
٢٦
٢٧
٢٨
٢٩
٣٠



ثالثاً - رَسم الصَّفَا والمَروة عِند دُومِنغُو باديَا ليبلخ:

وصف دومنغو باديا ليبلخ المسعى بقوله[١٤]: "يعد الصفا إلى الجنوب الشرقي من الحرم مواجهاً بانحراف للباب الذي يحمل نفس الاسم، ويقع عند سفح جبل أبي قبيس، ويتألف من ثلاثة عقود تدعمها أعمدة ضخمة يصعد إليها بأربع درجات، ومنه يبدأ السعي". وهناك شارع إلى يمين العقود يؤدي إلى جبل أبي قبيس. وأما المروة ففي الطرف الشمالي في نهاية الشارع (المسعى)، وهي عبارة عن دكة (مسطبة) يحيط بها جدار عال من جهات ثلاث، ويرتقي إليها الحجاج ببضع درجات. وقد بنيت المنازل على الجبل على شكل متدرج إلى القمة، وتظهر دكاكين الحلاقين الذين يحلقون للحجاج بعد إكمال السبعة أشواط بين الصفا والمروة، والمسعى هو الشارع الرئيس العام بمكة المكرمة، ولذلك فإن الازدحام فيه يجعل من غير المريح إتمام الرحلة (السعي) بين الصفا والمروة.

◀ [المروة، وتتكون من ثلاثة حوائط كبيرة ، تقع في الطرف الآخر من الشارع، وخلفها تتصاعد المنازل حتى قمة جبل المروة . ونلحظ أن المؤلف لم يكن دقيقاً في وصف الحوائط الثلاثة، ولم يرسم العقد المقام هناك قبل الدرج، وأظهر الرسم الحائط الخلفي للمروة منفصلاً عن المنازل، والحقيقة أن المنازل كانت ملتصقة تماماً بحدود المروة وتطل عليها].

١٤- Badia y Liblich, op.cit., Vol. 2, p. 90.



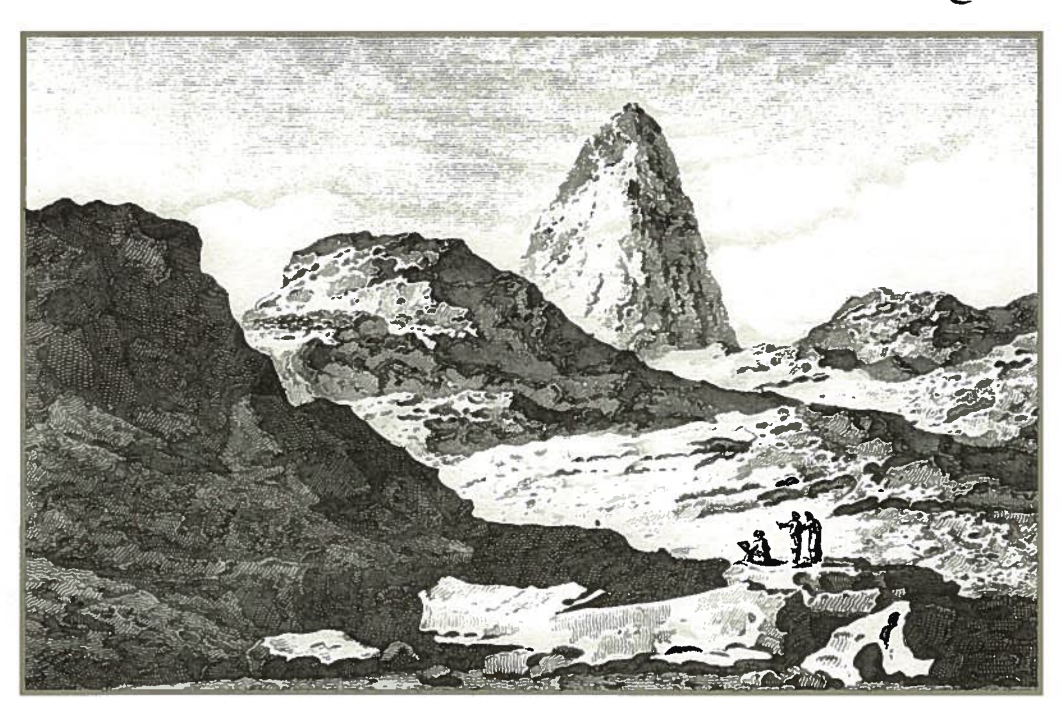
▲[من رسوم دومنغو باديا ليبلخ: الصفا وهو مكون من ثلاثة عقود. والجبل الذي خلفه هو جبل أبي قبيس. ونلحظ أن رسم الصفا الأصلي في الطبعة الإنجليزية من كتاب دومنغو باديا ليبلخ قد وضع معكوساً (انظر الرسم المجاور) فظهرت أعمدة الصفا إلى يمين الرسم والطريق المؤدي إلى الجبل إلى اليسار].



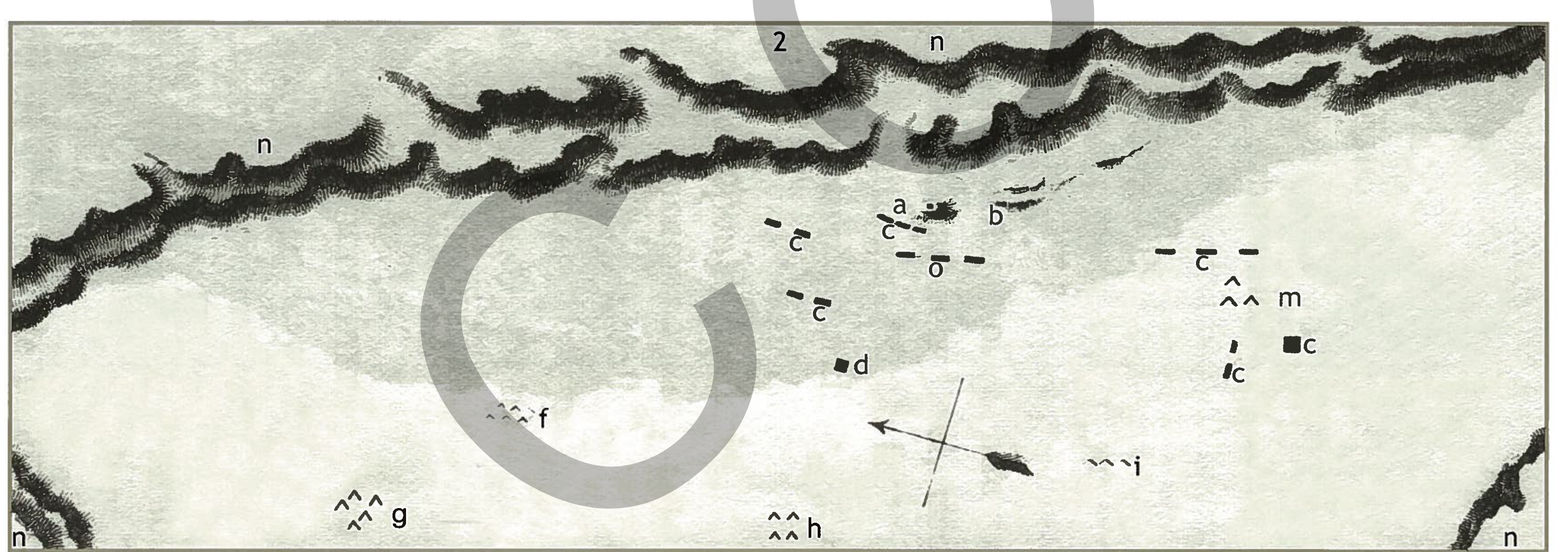
رابعاً - وصفُ دومنغو باديا ليبلخ لعرفاتٍ وجبل النّور:

يصف لنا دومنغو باديا ليبلخ الصعود إلى عرفات بما ملخصه[١٥]: "تم تحديد يوم الوقوف بعرفات عام ١٢٢١هـ (يوم الثلاثاء ١٨ من فبراير ١٨٠٧م)، واستقليت شبرية (شقدفاً) في اليوم السابق (٨ من ذي الحجة) بعد الظهر، وبعد الخروج (من المعابدة) والاتجاه شرقاً، يقابلك بيت ضخم للشريف (البياضية)، وبعد ذلك يظهر جبل النور، حيث بدأ نزول القرآن على سيد الأنبياء، ثم اتجه الطريق إلى الجنوب الشرقي، وحوالي الساعة الثالثة، رأيت نبع ماء عذب وبجانبه حوض حجري، وبعد قليل دخلت إلى منى حيث مكثنا بمنى حتى صباح اليوم التاسع. وفي الساعة السادسة صباحاً بدأ تحركنا إلى الجنوب الشرقي وفي السابعة وصلنا مزدلفة ثم اتجهنا إلى عرفات، التي هي جوهر الحج، حيث تتكاثف الجموع من جميع الأمم ومن كل الألوان من أقاصي الأرض. ونشاهد الشركسي يمد يد الصداقة للحبشي أو الزنجي من غينيا أو الهندي ويعانق الفارسي المراكشي كلهم ينظر للآخر كأنهم إخوة من عائلة واحدة، يربطهم الدين معاً. وعرفات سهل يبلغ قطره ثلاثة أرباع الميل بها جبل صغير (جبل الرحمة) من الجرانيت ارتفاعه حوالي ١٥٠ قدماً يقع في سفح جبل أعلى (جبل سعد)، ويحيط بالجبل الصغير حائط وله درج للصعود بعضها مقطوع في الصخر وبعضها من الأحجار المصنعة. وكان على قمة الجبل مصلى صغير، وبصفتي متبعاً للمذهب المالكي فإني ممنوع من الصعود إلى قمة هذا الجبل، وهناك قرب الجبل ١٤ حوضاً ضخماً قام بترميمها الإمام سعود لشرب الحجاج وغسلهم، وفي الشمال الغربي من الجبل على بعد ربع فرسخ يوجد مسجد إبراهيم (نمرة). وبعد صلاة الظهر يتجه الحجاج إلى أسفل الجبل حيث يدعون إلى غروب الشمس، وعند الغروب تشاهد هذا الجمع الذي يزيد عدده عن ثمانين ألفاً في لجة من الصخب يسارعون في الخروج متجهين إلى مزدلفة".

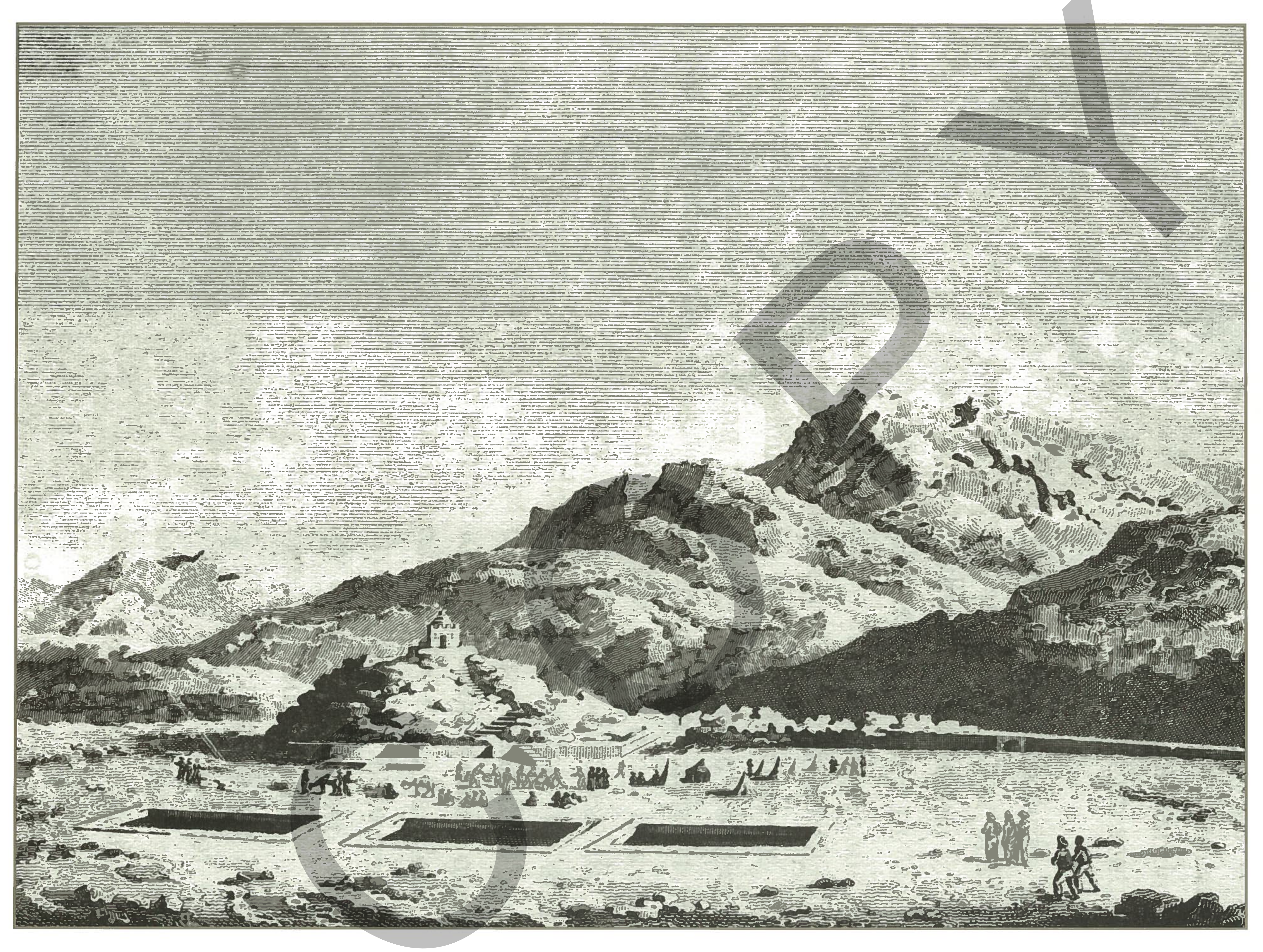
١٥- Badia y Liblich, op.cit,Vo.2, p. 64 -70



▲[إلى أعلى: جبل النور، وفيه تلقى النبي ﷺ أول وحي من السماء. ويقول دومنغو باديا ليبلخ في شرح هذا الرسم: إنه "كان هناك سابقاً مصلى على قمة معزولة يصعد إليها بدرج مقطوعة في الصخر"].



◀[مخطط عرفات كما رسمه دومنغو باديا ليبلخ وتبدو فيه :a- جبل الرحمة، b- مصطبة تسمى جامع الرحمة أو مسجد الرحمة، c- أحواض الماء، d- مصطبة تسمى جامع إبراهيم .e- منزل شريف مكة المكرمة، f- مخيم قافلة حلب، g- مخيم الإمام سعود، h- مخيم أبو نقطة، i- مخيم قافلة اليمن، m- مخيم دومنغو باديا ليبلخ، n- الجبال التي تحيط بوادي عرفات].



▲[عرفات كما رسمها دومنغو، ويظهر موقع جبل الرحمة تحيط به مخيمات الحجاج وأحواض السقيا في أسفل الرسم].

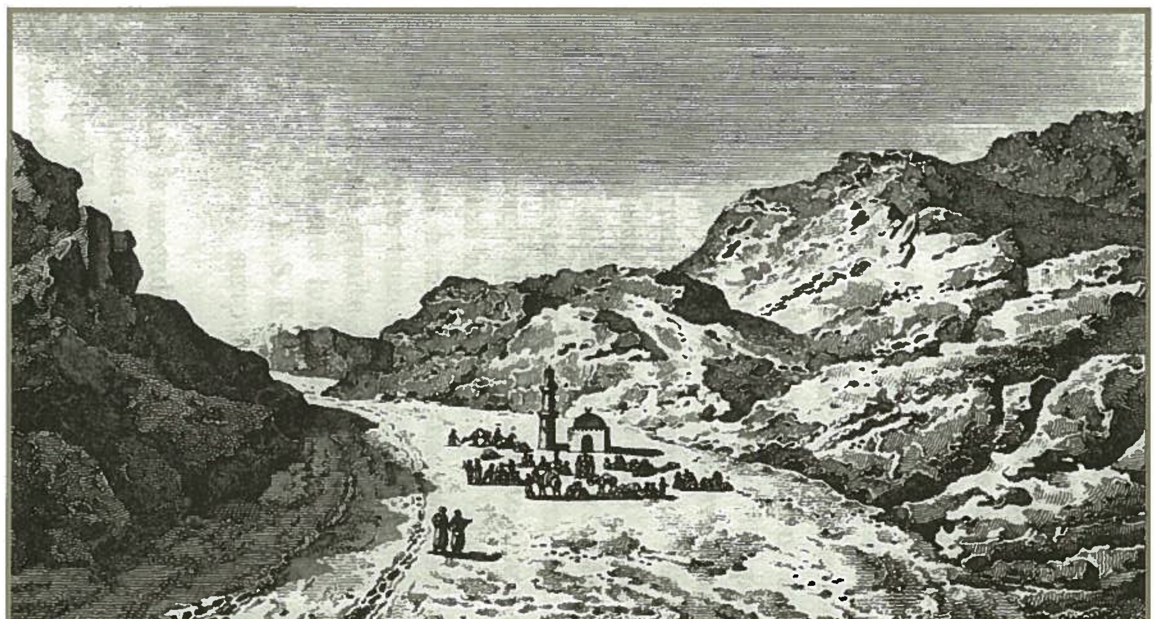


خامساً - وَصفُ دُومنغو باديًا ليبلخ لمنى ومزدلفَة:

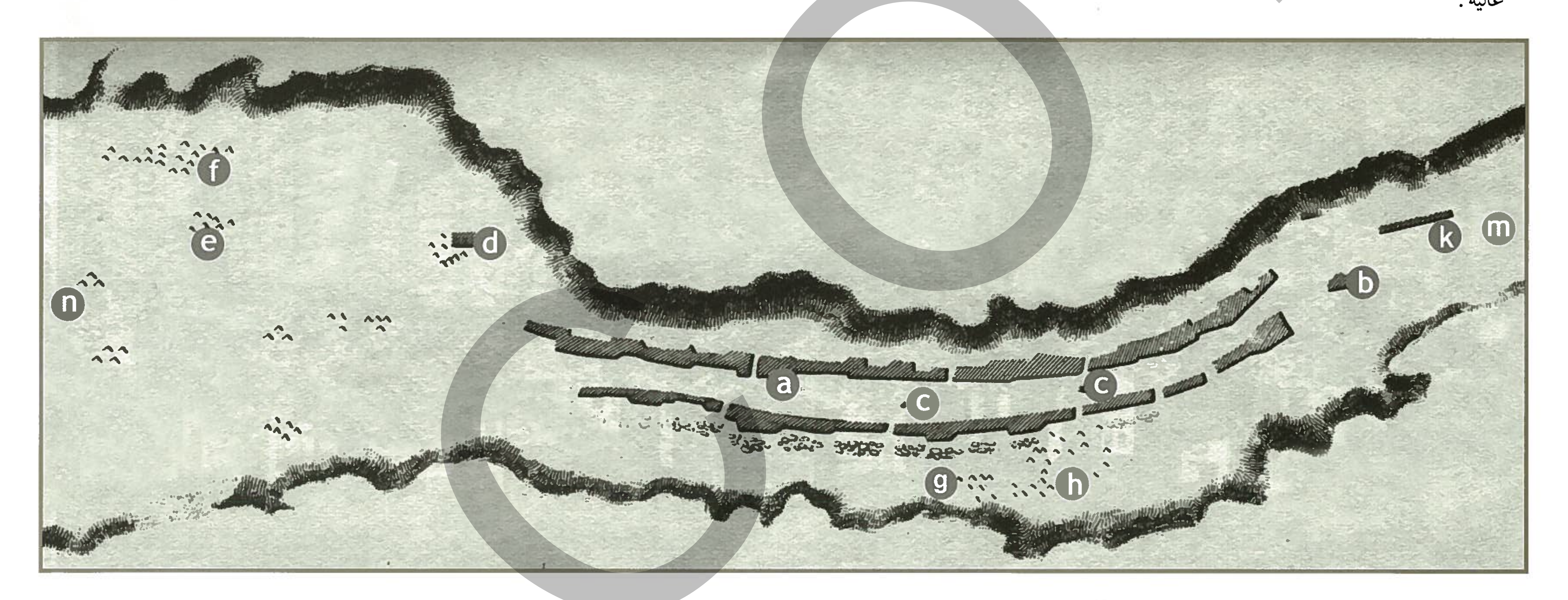
يستطرد دومنغو باديا ليبلخ[١٦] في وصف مسيره إلى مزدلفة حيث بات بها، وفي الساعة الخامسة من صباح يوم الأربعاء غادر مزدلفة إلى منى حيث يصف رمي الشيطان (جمرة العقبة)، ولكنه معجب بالنظام الجيد الذي ساد هذه الأمم المختلفة. وفي صبح يوم الخميس اكتشف دومنغو باديا ليبلخ أن بعض أغراضه قد سرقت وفيها حقيبة أوراقه وجهاز ضبط الوقت والعديد من الرسوم والملاحظات الفلكية وبعض المجوهرات، وبعد البحث تم العثور على الحقيبة وقد كسر قفلها وتناثرت الأوراق منها، وما فقده هو جهاز التوقيت والمجوهرات والجداول الفلكية.

وقد وصف دومنغو باديا ليبلخ منى بأنها تضم شارعاً طويلاً يستغرق قطعه عشرين دقيقة سيراً على الأقدام، وأن بها العديد من البيوت الجميلة، لكن العدد الأكبر منها بيوت خربة. وهناك عدد من المساكن المبنية بالحجر بارتفاع خمسة أقدام [يقصد الأحوشة] يستأجرها الحجاج. ويضيف دومنغو باديا ليبلخ: "إن منى تقع في واد تحيط بها جبال جرانيتية جرداء جداً وكان الطريق الترابي المستوي مزدحماً بالجمال وعدد كبير من الشقادف، والحجاج يمشون على أقدامهم أو يركبون على ظهور جيادهم... وفي منى مسجد صغير ذو منارة عالية".

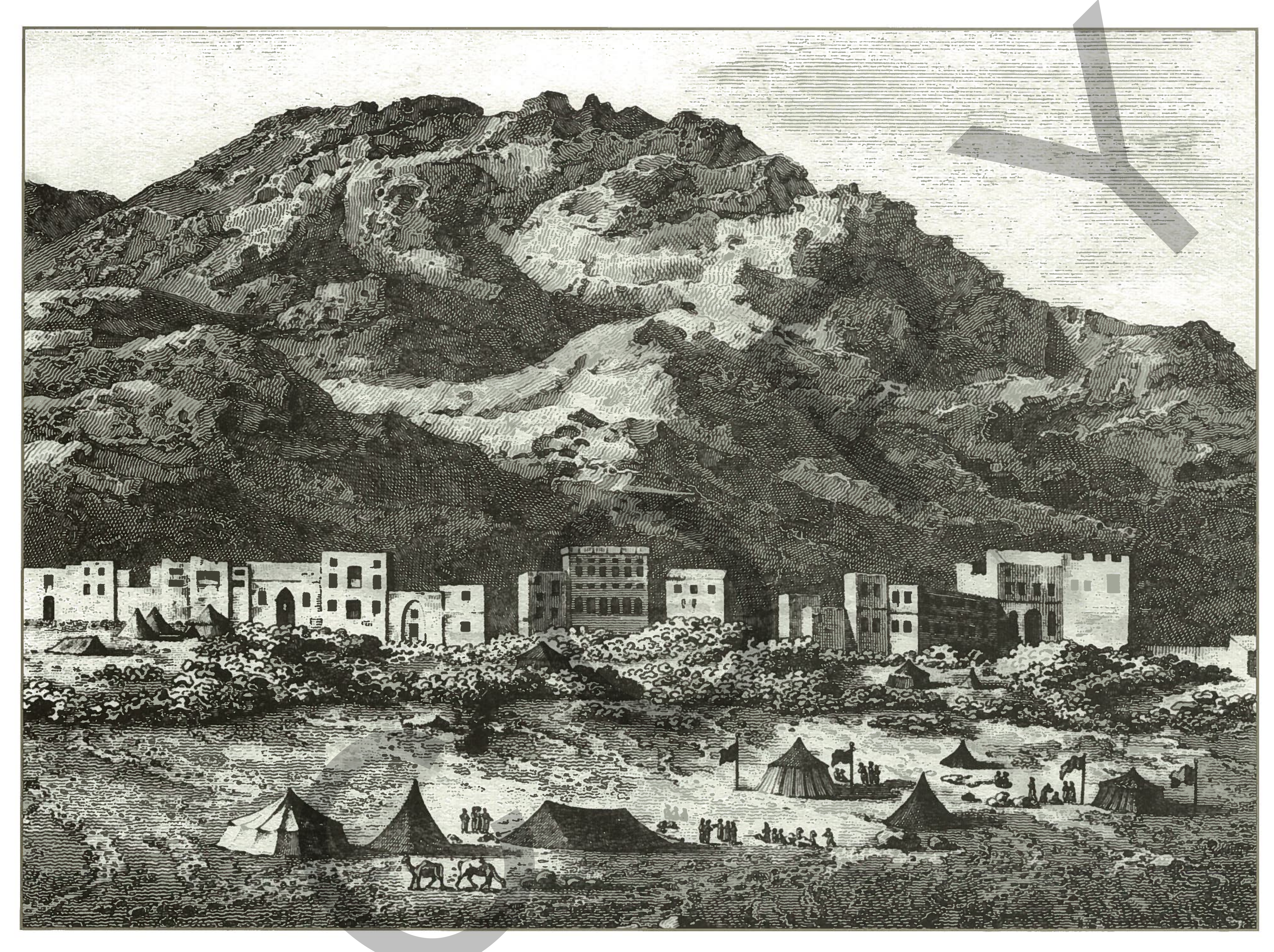
١٦- Badia y Liblich, op.cit, Vol.2, p. 65 & 71.



▲[يبين الرسم المشعر الحرام وحوله مجموعة من الحجاج قبل تحركهم إلى منى. ويظهر إلى يسار المسجد طريق المشاة الذي يربط عرفات بمنى مروراً بمزدلفة. وفي أقصى اليسار تظهر جبال (المريخية) وهي الحدود الجنوبية لمزدلفة. وإلى يمين الرسم يظهر جبل ثبير (الأحدب) وهو الحد الشمالي للمشعر الحرام .(من رسومات دومنغو ليبلخ)].



▲[يبين مخطط منى الذي رسمه دومنغو باديا ليبلخ: المواقع الآتية حسب الأحرف: a الشارع الرئيس الذي تتكون منه القرية. b مبنى يسمى جمرة العقبة. c عمودان صغيران للشيطان (الجمرات الوسطى والصغرى). d المسجد (الخيف). e مخيم دومنغو باديا ليبلخ عند ذهابه إلى عرفات (يوم التروية). f مخيم الإمام سعود. g مخيم دومنغو باديا ليبلخ عند عودته من عرفات. h مخيم حرس شريف مكة المكرمة. k مورد للماء. m الطريق إلى مكة المكرمة. n الطريق إلى عرفات].



▲[يبين الرسم منازل منى وأمامها مخيمات الحجاج. وفي أسفل الصورة يظهر مخيم ضخم. وهو مخيم الإمام سعود. وبجواره أعلام مميزة. وفي أقصى يمين الرسم يظهر مخيم شريف مكة المكرمة وعليه أعلام مميزة. وفي يسار الرسم ظهر مسجد الخيف. إلا أن دومنغو باديا ليبلخ لم يرسم منارة المسجد التي وصفها في النص. ويظهر خلف مسجد الخيف جبل المرسلات (الصابح) وهو الحد الجنوبي لمنى].



سادساً - وصف مكة المكرمة لدى بوركهارت عام ١٢٢٩هـ (١٨١٤م):

جون لويس بوركهارت، رحالة سويسري، ولد عام ١١٩٩هـ (١٧٨٤م)، ثم سافر إلى بريطانيا وتجنس بالجنسية الإنجليزية، ودرس في جامعتي لندن وكيمبردج، ثم رحل إلى حلب حيث تعلم العربية ودرس القرآن والفقه الإسلامي، وأظهر إسلامه وتسمى بإبراهيم بن عبدالله، حيث دخل إلى مكة المكرمة في ٢٦ من شهر رمضان عام ١٢٢٩هـ (٩ سبتمبر ١٨١٤م)، وقد مكث بها حوالي ١٢٩ يوماً، حيث غادرها في أول صفر ١٢٣٠هـ (١٥ يناير ١٨١٥م)، إلى القاهرة، وتوفي بها بعد عامين، أي عام ١٢٣٢هـ (١٨١٧م).

وقد نشر كتابه[١٧] في مجلد واحد بعد وفاته باثني عشر عاماً أي عام ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م) في لندن، وقد ظهر الكتاب في العام نفسه في طبعة أخرى في مجلدين. يتميز كتاب بوركهارت بالدقة في الوصف لأنه أمضى مدة طويلة بمكة المكرمة قبل الحج وبعده، وكانت خرائطه دقيقة إلى حد ما، لكنه فيما يبدو لم يكن رساماً ماهراً فلم يقدم لنا أي رسومات كما فعل دومنغو باديا ليبلخ (العباسي)، واكتفى بخريطة لمكة المكرمة وعرفات ومنى والمدينة المنورة، إلى جانب خريطة للجزء الغربي من الجزيرة العربية تبين سير رحلاته، ونقدم فيما يأتي مختصراً لوصفه مكة المكرمة[١٨]:

"شوارع مكة المكرمة على العموم أعرض من شوارع المدن الشرقية، ومنازلها عالية وبنيت من الحجارة، وشرفاتها العديدة (الرواشين) تجعلها حيوية، وذات طابع أوروبي(!) أكثر من دور القاهرة ودمشق، وتمثل الجبال المحيطة بها حاجزاً. والمكان العام الوحيد في البلدة هو المربع الفسيح للمسجد الحرام، وليس هناك في البلدة أشجار أو حدائق تلفت الأنظار، ويصبح منظر الشوارع حيوياً فقط خلال الحج بالعدد العظيم من الدكاكين المجهزة تجهيزاً حسناً، التي توجد في كل حي، وليس هناك خانات لإيواء المسافرين أو مستودعات تجارية، وليس بها قصور ضخمة وقد يعود هذا إلى رغبة السكان في عدم إقامة أبنية تنافس ضخامة المسجد الحرام".

"وتجد على كثير من النوافذ شباكاً من الخوص الرفيع (كَبْرِيتة) لمنع الذباب والناموس والسماح للهواء النقي بالدخول، ولكل بيت سطح مائل تنساب عليه مياه الأمطار عبر المرازيب إلى الشوارع. وجميع منازل مكة المكرمة - عدا تلك التي لكبار الأغنياء - بنيت لسكن المقيمين مقسمة إلى العديد من الشقق المنفصلة بعضها عن بعض، المكون كل منها من غرفة جلوس ومطبخ صغير. والشوارع غير ممهدة، وفي الصيف يمثل الغبار والأتربة مصدر مضايقة كبيرة مثل الوحل في فصل الأمطار. ولا تجد في مكة المكرمة بنايات قديمة (أثرية). وربما يعود ذلك إلى الأمطار المتوافرة التي تسقط بشكل عنيف، ولا أعتقد وجود بناء أقدم من أربعة قرون؛ لذلك فإن مكة المكرمة ليست المكان الذي يذهب إليه المسافر للنظر في النماذج العمرانية المهمة كما هو الحال في مصر وسوريا وبلاد البربر وأسبانيا. وليس هناك في البلدة تنظيمات للشرطة كما هو معتاد في المدن الشرقية، فالشوارع هنا مظلمة ليلاً ولا تجد مصباحاً مضاء من أي نوع، والأحياء بدون أبواب، وهذا خلاف مدن الشرق، حيث تغلق أبواب الحواري بعد صلاة العشاء، والملاحظة نفسها تقال على أمن التجار".

ويستطرد بوركهارت في وصف شوارع مكة المكرمة وأحيائها[١٩] مستعيناً بالخريطة التي وضعها لأحياء مكة المكرمة وهي أول خريطة معروفة للبلد الحرام، المنشورة في الصفحة المقابلة، وقد استعملنا الرموز والأرقام نفسها لتعيين المواقع عليها، مع ملاحظة أن المؤلف استخدم مقياس الرسم "بالخطوات".

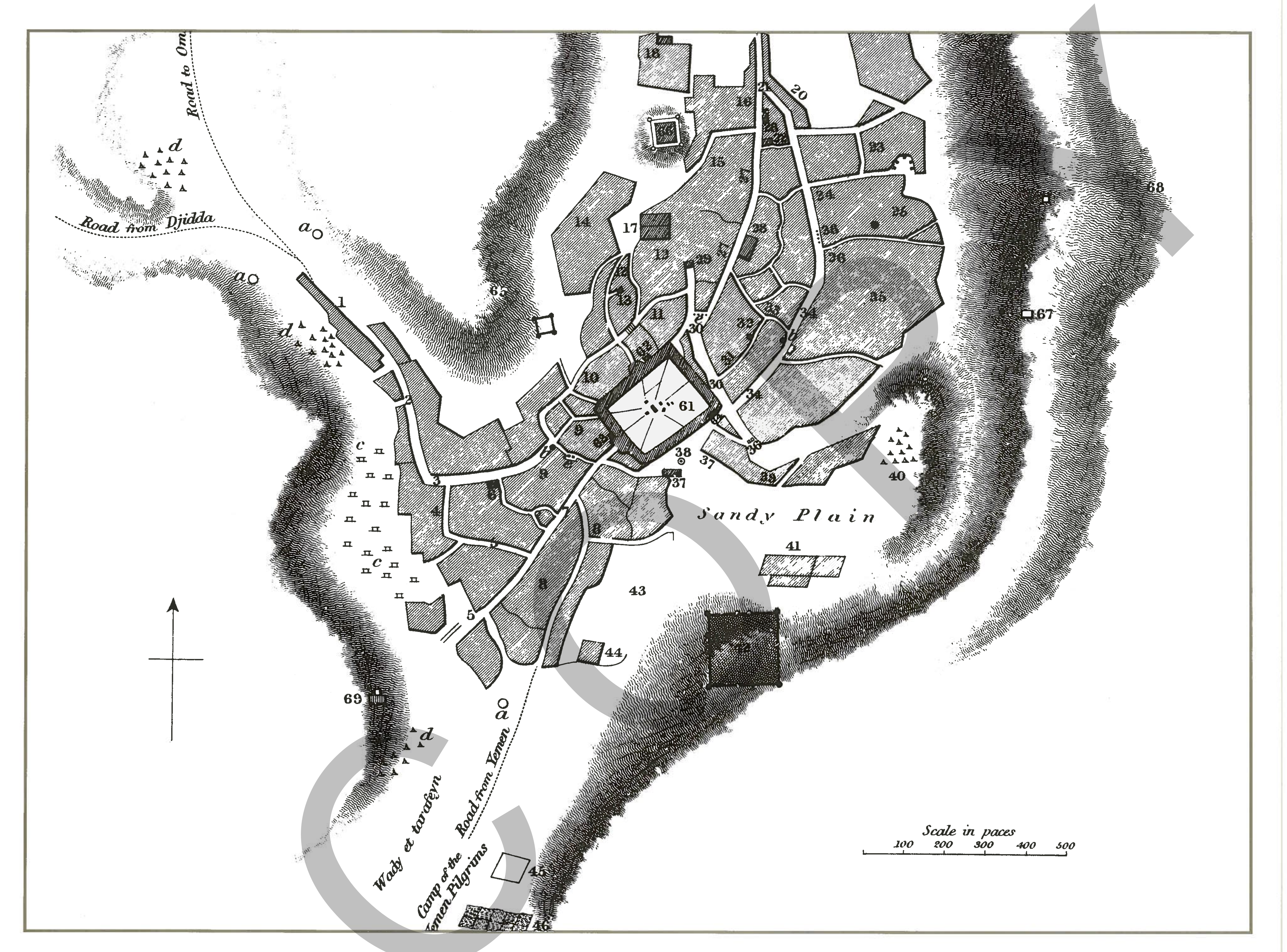
"يشاهد القادم من جدة برجين مستديرين للمراقبة بناهما الشريف غالب، يسع كل منهما عشرين رجلاً، وهناك مثل هذه الأبراج على المداخل الأخرى، ونجد أولاً حارة جرول (١) ويقطنها البدو الذين يعيشون على تجارة النقل بين مكة المكرمة وجدة، وهم من حرب والمطارفة واللهبة، ثم تأتي إلى حارة الباب (٢)، وهو شارع عريض به عددٌ من المنازل الجيدة ومنه تصل إلى الشبيكة (٣)، ونجد فيها العديد من المنازل الجيدة أيضا، والشبيكة من الأحياء النظيفة ذات الهواء النقي، ويقطنها كثير من أهل جدة، وبها بيت للشريف غالب (٦)، وتصطف على الشارع الرئيس المقاهي، ومن هذه المقاهي ينطلق البريد كل مساء على الأتان بالرسائل إلى جدة. وهذا هو البريد الوحيد للرسائل الذي شاهدته في الشرق، إلى جانب ذلك البريد بين الأوروبيين في القاهرة والإسكندرية، لكن البريد هناك أقل انتظاماً عما هو في مكة المكرمة حيث التنظيم كامل وبمصاريف زهيدة لا تزيد عن بارتين للخطاب، وأكثر من ذلك لموزع الرسائل القادمة من جدة. ويقيم في المقاهي السماسرة الذين يرتبط بهم البدو لتأجير جمالهم للرحلة إلى جدة والمدينة المنورة. وفي الجانب الغربي من الشبيكة مقبرة ضخمة، وبها أكواخ وخيام للبدو(!)، وفي هذا الجانب بيوت قديمة متهالكة تسمى الخندريسة (٤)، وهناك قليل من الدكاكين في الشبيكة، ويقطن الحي الموسرون الذين لا يجدون من اللائق بهم تأجير مساكنهم للحجاج".

"ويتجه شارع الشبيكة شمالاً حتى نصل إلى حمام (b) (حمام باب العمرة) أنشأه سنة ٩٨٠هـ (١٥٧٢م) محمد باشا، وزير السلطان سليمان الثاني، وهو إلى حد بعيد أحسن الحمامات الثلاثة التي بمكة المكرمة، ولكنه أقل مستوى من حمامات المدن الآسيوية الأخرى نظراً لندرة الماء، ومن هناك تجد عدداً من الشوارع تقود إلى المسجد (الحرام)، تشكل حارة باب العمرة (٩) التي يقطنها عدد من المطوفين، وهي مليئة بالحجاج خاصة الأتراك، وعلى رغم ضيق الشوارع وقذارتها فإن الحجاج يفضلون هذا الحي لأنه الأرخص أجرة بالقرب من الحرم، وليتأكدوا من عدم فوات الصلوات (في المسجد الحرام)، وتجد الرجال حتى في منتصف الليل يطوفون حول الكعبة ويقبلون الحجر الأسود، وبجوار باب العمرة بناء ضخم (٦٣) كان في الأصل مدرسة عامة ويقطنه الآن حسن باشا حاكم مكة المكرمة. وفي الحي مورد للماء الحلو (٥) يأتيها الماء من القناة (يقصد قناة عين زبيدة)، وهناك عدد من الآبار غير العذبة. وإذا

١٧- Burckhardt, John Lewis: Travels in Arabia.

١٨- Burckhardt, John Lewis: op.cit, p.103-106.

١٩- Burckhardt, John Lewis: op.cit, p.109-133.



▲[خارطة الجزء الجنوبي من مكة المكرمة كما رسمها بوركهارت عام ١٢٢٩هـ (١٨١٤م). ويلحظ أن مقياس الرسم بالخطوات. وكل خطوة تساوي ٥٠ سم تقريباً. كما أن الخارطة فيها مؤشر للجهات الأصلية الأربع. ويشير رأس السهم إلى الشمال كما هو معتاد. كما تشير الأرقام إلى أسماء الأماكن التي شرحت في النص].



اتجهت من الشبيكة ملتفاً إلى الجنوب، تجد عدداً من الشوارع بها عدد من المباني الجيدة لكنها قديمة، تصل إلى سوق الصغير (٧)، وهو يمتد إلى باب إبراهيم، والمنازل هنا منخفضة تقطنها الطبقات الأدنى، وبه سلسلة متصلة من الدكاكين تبيع جميع أنواع المؤن لكنها عموماً حبوب وزبدة وتمر، وفي بعض الدكاكين يباع الجراد بالمكيال، ويرتاد السوق كثير من البدو القادمين من جنوب الجزيرة العربية الذين يحضرون معهم الفحم، ويقطن الحجاج الزنوج الفقراء في الأكواخ وفي البيوت المهدمة في هذا الجزء من المدينة وقد أقاموا لهم سوقاً للحطب الذي يجمعونه من الجبال المحيطة. وفي نهاية سوق الصغير نحو الجبل (جبل عمر) حارة الهجلة (٥)، حيث عدد قليل من المنازل الجيدة بشكل معقول يقطنها الأغوات الذين يحرسون الحرم، وهم يعيشون مع زوجاتهم من الجواري السود، وإلى الغرب جبل عمر (٦٩)، وهذا آخر الجزء الأدنى من البلدة. ومن الهجلة تندفع مياه السيول خلال موسم المطر إلى الخلاء، ولا تزال ترى بعض مجاري المياه التي كانت عند صيانتها توصل الماء إلى الوادي الجنوبي (في المسفلة) لسقيا بعض الحقول".

".. ويعتبر سوق الصغير من المسفلة، لكن اسم السوق يستخدم بشكل عام. والمسفلة (٨) حسنة البناء نوعاً ما، وبها عدد قليل من المنازل الجديدة، لكن الجزء الممتد أسفل جبل القلعة (٤٣) (قلعة أجياد) (٤٢) في غالبه متهدم، ويقطنه بعض العرب والبدو وفقراء الهنود المقيمين بمكة المكرمة الذين يؤجرون بيوتهم لبني جنسهم من الحجاج. وقد استأجرت سكناً في المسفلة في بيت رجل مغربي.. ثم انتقلت إلى دار لتاجر يمني. وبجواري حجاج من المغرب أتوا بحراً إلى مصر".

"وفي الطرف الأقصى من المسفلة خان متهدم (٤٤) كان سكناً لحجاج القوافل القادمة من اليمن عبر الساحل؛ لأن هناك قافلة أخرى لحجاج اليمن تأتي عبر الجبال، وبعد هذا الخان هناك برج مراقبة (a)، [وفي ضلع الجبل مخيم للبدو (d)]، ومن هناك يمتد الوادي العريض جنوباً (وادي إبراهيم) إلى قرية الحسينية على مسافة ساعتين أو ثلاث، ومن الحسينية يقودك الطريق إلى عرفات، وعلى بعد ساعتين أو ثلاث تجد وادياً خصباً صغيراً يسمى العابدية وبه مساكن للعرب، ومن الممكن اقتفاء آثار أطلال منازل للسابقين بعد ميل واحد من التخوم الحالية، بينها خزانات عميقة حسنة البناء ربما بعمل بسيط يمكن أن تكون مناسبة للهدف الأصلي من بنائها لجمع مياه الأمطار، وفي المسفلة توجد بركة ماجل (٤٥) على بعد ميل ونصف من البلدة، وهي خزان حجري ضخم بها بعض المياه، لكن البركة متهالكة، وتمتد بضع حقول (٤٦) بعد البركة لزراعة الخيار والخضروات المختلفة، وهناك عدد من الأكواخ والخيام لبني فهم والجحادلة، وهم يعملون في جمع الحشائش والأعشاب البرية وبيعها علفاً للحيوانات، وقليل منهم يعمل سقَّاءً لحمل الماء في المدينة ..." وعلى الرغم من فقرهم فإنهم متمايزون تماماً عن الطبقات المتدنية من المكيين".

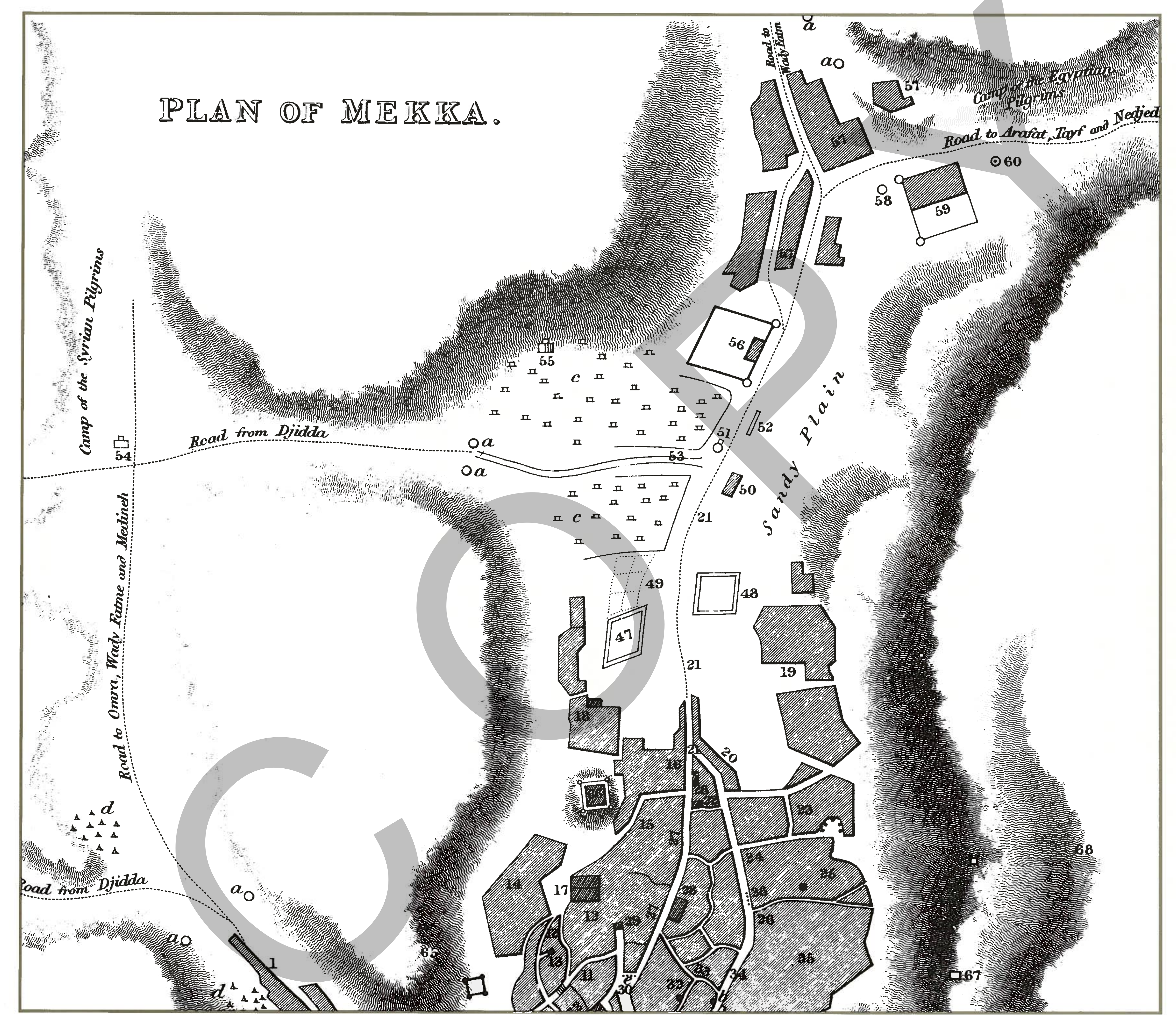
"وأعود إلى قلعة أجياد (٤٢) فقد سمعت أن الذي بناها هو الشريف سرور عام (١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م)، لكنني أعتقد أنها أقدم من ذلك؛ لأن العصامي في تاريخه يتحدث عن وجود قلعة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) دون ذكر من بناها. وهناك بين جبل القلعة وجبل أبي قبيس قصر عظيم يسمى دار السعادة (٤١)، ينسب بناؤه لسرور ولكنني وجدت العصامي يذكره في أحداث وقعت منذ مئتي عام من ذلك، وقد أصبح القصر الآن مهجوراً بعد هرب الشريف غالب إلى جدة، وحاول إحراقه. وقد حوله محمد علي إلى مخزن للغلال. وعلى الجانب الآخر المقابل لبيت السعادة تقع حارة أجياد (٣٩) وهي من أقدم أحياء البلدة، وفي داخل أجياد منازل يقطنها الفقراء (٤٠)".

"ومن جهة الحرم عند مدخل أجياد يوجد قصران للشريف (٣٧)، وبالصعود من جوار الحرم شمالاً نصل إلى منطقة الصفا (٣٦) وبها بنايات أنيقة يسكنها أغنياء الحجاج زمن الحج، ... ثم نتحول إلى المسعى (٣٠)، وهو أطول شارع بمكة المكرمة وأكثرها استقامة ومن أحسنها بناء وأكثرها ضوضاءً وازدحاماً، وهو مليء بالدكاكين التي تشبه دكاكين جدة (لبيع الفواكه، التمر، الحلويات، السكريات، الفول، الكباب، السمك المقلي، رؤوس الخرفان (رأس مندي)، الخبز، اللبن، الجبن، الحبوب، الصابون، التنباك، الغلايين، العقاقير (العطارين)، الخردوات الهندية، الملابس، الأقمشة، الأواني النحاسية، النِّعال، قِرَب الماء، الزيت الحلو، الساعات، الحلاقين، الخياطين، الصرافين، والمقاهي). إضافة إلى العديد من السماكرة. والدكاكين هي على وجه العموم مخازن في الأدوار الأرضية للمنازل، أمامها دكة حجرية يجلس عليها التاجر".

ويستأجر الحجاج الأتراك جميع مساكن المسعى، وخلال إقامتي بمكة المكرمة كان المسعى أشبه بسوق في القسطنطينية، وكثير من الدكاكين أصحابها من الأتراك، يبيعون الملابس التركية التي يبيعها أصحابها لحاجتهم إلى نقود. وكذلك نجد السيوف الفاخرة، والساعات الإنجليزية الجيدة، ونسخاً جميلة من القرآن، وهذه الثلاثة من أنفس ما يأتي به الحجاج الأتراك تجدها معروضة للبيع".

"يجري القصاص على من يحكم عليه في المسعى حيث توجد مدرسة عامة ضخمة تتكون من ٧٢ شقة أنشأها قايتباي سلطان مصر عام ٨٨٢هـ (١٤٧٧م)، وزودها بمكتبة قيمة، وكان المؤرخ قطب الدين (النهروالي) أميناً لهذه المكتبة بعد مئة عام من إنشائها، وكان يشكو من أنه لم يعد في المكتبة سوى ثلاث مئة مجلد مما كان بها. وتجد بالقرب من المروة (٢٩) دكاكين الحلاقين، كما يعقد كل صباح نداء عام (حراج) تعرض فيه مختلف البضائع من كل صنف، ومن أجل كثرة الحجاج الأتراك يبدأ المزاد بلغتهم، ويندر أن تجد شاباً مكياً لا يعرف على الأقل الأعداد التركية. وهناك بالقرب من هذا المكان مورد للماء من عمل السلطان العثماني سليمان بن سليم يأتيه الماء من قناة مكة المكرمة (عين زبيدة)".

"ومن الغرب قرب نهاية المسعى عند المروة يتفرع شارع سويقة (١١)، وعلى رغم ضيقه فهو من أنظفها، حيث ينظف بشكل منتظم ويرش بالماء، وفيه يعرض التجار الهنود الأثرياء الأقمشة والشيلان الكشميري الفاخرة، والشاش، وهناك ما يزيد عن عشرين دكاناً تبيع العطور والزيوت الحلوة، والبلسم المكي، وعود الند، والزباد ...إلخ، ويباع في غيرها أيضاً



[خارطة الجزء الشمالي من مكة المكرمة كما رسمها بوركهارت عام ١٢٢٩هـ (١٨١٤م)].



عقود المرجان واللؤلؤ غير الطبيعي، والمسابح المصنوعة من خشب الند والصندل، والعقود المصنوعة من العقيق، والخواتم وأصناف عديدة من الصيني... وفي منتصف سويقة توجد دكاك حجرية يجلس عليها العبيد المعروضون للبيع ذكوراً وإناثاً، وفي آخر سويقة يصبح الشارع مسقوفاً بأقبية حجرية عالية أنشأها باشا دمشق منذ بضعة قرون".

"ويرتبط آخر سويقة بالشامية (١٠) التي تتكون من كثير من الشوارع تؤدي اليمنى منها إلى الجبال، وتؤدي اليسرى إلى المسجد الحرام، وفي نهاية الشامية يبدأ حي الشبيكة (٣)، وباب العمرة (٩)، وهناك دكاكين قليلة تزداد أيام الحج، حيث يصطحب بعض التجار السوريين مصنوعات بلادهم، فنجد الحرير المرقش والحلي والأقمشة الناعمة المصنوعة في نابلس والسلاسل الذهبية والفضية من حلب، والمناديل اليدوية التي تسمى "كفية" من بغداد، والقماش الدمشقي (الدمسك)، والحرير من لبنان، والسجاد الفاخر من الأناضول وبدو التركمان، إلى جانب الفواكه المجففة والقمر الدين من دمشق والفستق الحلبي... إلخ".

"وفي أعلى الشامية نحو سويقة نجد على الطرف الشمالي من هذه الشوارع حي القرارة (١٢)، وهو أكثر الحارات شهرة وربما هو أحسنها بناءً حيث منازل أغنى التجار، ويعيش هنا أكبر تاجرين في الحجاز، الجيلاني (١٣)، والسقاط، وهناك أيضا قصر بناه الشريف غالب (١٧). وفي أعلى التل المسمى جبل لعلع (١٦) توجد قلعة محاطة بأبراج قوية لكنها صغيرة مقارنة بالقلعة الكبيرة (قلعة أجياد)، وهناك في الجبل المقابل إلى الجنوب الغربي قلعة صغيرة مبنية على جبل هندي (٦٥)، وفيما بين القلعتين منازل مزدحمة بالفقراء وهي نصف مهدمة (١٤). ونتجه شرقاً من القرارة ونصل إلى الراقوبة (١٥)، ومبانيها أيضاً تشبه منازل القرارة، ثم ننحدر إلى شارع المدعى (٢٧)، وهي في الحقيقة امتداد للمسعى".

"ويتفرع قرب الصفا شارع عريض مواز تقريباً للمدعى إلى الشرق منه يسمى القشاشية (٣٤)، وبها الكثير من المنازل الصغيرة والعديد من البيوت حسنة البناء، وقليل من البيوت العالية، وعدد من المقاهي، والعديد من دكاكين صانعي الأسلحة، وحمام (b) (حمام القشاشية)، ويقوم جزء من الشارع على منحدر جبل أبي قبيس (٦٧)، وبها أزقة ضيقة شديدة الانحدار تقود إلى أعلى الجبل. ويحب الحجاج السكن في القشاشية لأنها منفتحة لاستقبال الهواء الشمالي، وكلما صعدنا في الشارع تغير اسمه فيصبح سوق الليل (٢٦). وفي أقصى الشرق يقع مولد النبي ﷺ حيث تسمى الشوارع الفرعية القريبة منه باسم شعب المولد (٢٥)، وبجواره شعب علي (٣٥)، وإلى الشمال الشرقي من شعب علي نجد معامل الفخار (٢٣) على سفح جبل أبي قبيس، وبها نحو عشرة أفران تنتج الجرار المستخدمة لماء زمزم (الدوارق)، [ويوجد خلف جبل أبي قبيس جبل خندمة (٦٨) أعلى جبال مكة المكرمة]، وبعد سوق الليل يصبح اسم الشارع الغزة (٢٤)، وهنا عدد من الآبار غير العذبة، وتجد هنا دكاكين النجارين والمنجدين، وهنا أيضاً يضع بائعو الجملة الفواكه والخضروات القادمة من الطائف ووادي فاطمة لبيعها على تجار المفرق في الصباح الباكر".

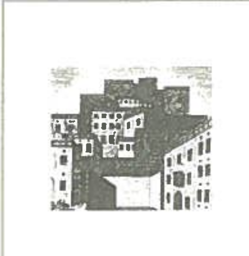
"ويصبح الجزء الشمالي من شارع الغزة فسيحاً بشكل ملموس حيث يعقد يومياً سوق للجمال والأبقار، وخلفه تنتهي المساكن، فنجد دكاكين منخفضة الأسقف ومظلات على الجانبين تسمى سوق الحدادين (٢٠)، حيث نجد الحدادين وصانعي الأقفال الأتراك، وبعد قليل ينفتح الشارع إلى المعلاة (٢١) التي هي امتداد للمدعى، وتكون قاسماً بين الجزء الشرقي (السابق وصفه)، والغربي الذي يصعد ببطء إلى أعلى الوادي، والمعلاة مليئة بالأسواق على الجانبين، وتجد البقالين والعطارين وتجار الحبوب والطباق (التنباك) والخردواتية وصانعي النعال وعدداً كبيراً من المتعاملين في الملابس القديمة، وهنا مخزن كبير للغلال في المعلاة، وآخر في المدعى (٢٨)، وإلى شمال المعلاة يوجد سوق للبدو يعرضون فيه مواشيهم، وهناك أيضاً دكاكين الجزارين حيث تجد فيها اللحم البقري والضأني والجملي، وفي أعلى المدعى مسجد صغير (٢٢) ربما يكون مسجد الراية، وبعد ذلك تنتهي المنازل الحجرية يتلوها صف من الدكاكين منخفضة الأسقف على الجانبين تعرض المؤن على بدو الشرق القادمين إلى مكة المكرمة لشراء القمح، وتعرف المعلاة بحارة النقا (١٦)".

"وتوجد بين المدعى والمعلاة من جانب، والغزة والقشاشية من جانب آخر العديد من المناطق ذات الأبنية المقبولة، لكن شوارعها غاية في الضيق، فنجد هنا زقاق الصيني (ويقصد زقاق الوزير؛ أما زقاق الصين فهو زقاق فرعي هناك) (٣٣) حيث دكاكين صناعة الذهب والفضة، وإلى الجنوب يوجد زقاق الحجر (٣١) و فيه مولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ (٣٢).

"نعود الآن إلى المعلاة، بعد مسافة من نقطة التقائها بالغزة هناك تنتهي الدكاكين، ويبدأ سهل رملي واسع تجد فيه بعض المقاهي المتفرقة، وربما يسمى هذا النهاية القصوى للبلدة. وما يوجد بعد ذلك يعتبر من الضواحي حيث نجد على طرفي السهل بركتين للماء لتسقى منها قوافل الحجاج، وإلى اليمين بركة المصري (٤٨)، وإلى الشمال بركة الشامي (٤٧)، وقد تم إنشاؤها عام ٨٢١ هـ (١٤١٨م)، مبطنة بالحجر، ولا تزال بحالة جيدة، ومساحة بركة المصري حوالي ١٦٠ قدماً وعمقها ما بين ٣٠ إلى ٣٥ قدماً، ولا تملأ بكاملها أبداً لأن وجود ٨ أو ١٠ أقدام من الماء يكفي للقوافل، وتوجد بالجوار بعض الحقول المزروعة (٤٩) بالخضروات، وتروى من بئر هناك (ربما بئر باحمدين)، ويوجد بالقرب منها جامع السليمانية؛ لأنه امتداد لحي السليمانية (١٨) الذي يمتد من جبل لعلع إلى قرب الجبل الغربي الملاصق للمقابر، وليس في هذا الحي منازل جيدة...".

"أما شعب عامر (١٩) فهو مقابل حي السليمانية، على الجبل الشرقي، ويجاور الغزة، وشعب علي، وهو حي نصف متهدم، يقطنه الباعة المتجولون من بدو ثقيف وقريش، وفي هذا الحي بعض المطاحن الضخمة تديرها الأحصنة، وهنا أيضا الأماكن الوحيدة في مكة المكرمة وربما في الحجاز لصبغ القطن والكتان بالزعفران والنيلة، أما الملابس الصوفية فلا تصبغ هنالك".

ويعود بوركهارت إلى وصف الجانب الشمالي من مكة المكرمة بعد الانتهاء من وصفه للنطاق العمراني حيث يقول: " ويوجد بعد البركتين إلى الشمال في أعلى السهل



منزل كبير منعزل (٥٠) تابع للشريف، وأمامه ممر ممهد (٥٣) يقود إلى التلال الغربية يسمى جبل الحجون، ويؤدي الطرف الآخر من الممر نزولاً إلى سهل الشيخ محمود (٥٤). ونعود إلى رأس الممر حيث يوجد برجان للمراقبة (a)، وتمتد على جانبي الممر في الوادي المقابر (مقابر المعلاة) (٥٥)، وهناك موردة للماء (٥٢)، تتألف من حوض حجري طوله ٥٠ إلى ٦٠ قدما، يملأ يوميا من القناة (عين زبيدة) ثم لا توجد إلى الشمال منازل بعد ذلك حتى نصل إلى قصر للشريف محاط بجدر عالية وأبراج (٥٦) (الجعفرية)، وإلى الشمال من القصر يقعُ حي المعابدة (٥٧)، وبه منازل حجرية وعشاش، والحي منعزل عن البلدة".

"ولوادي مكة المكرمة إلى الشمال مخرجان: (الأول) إلى الشمال ممر ضيق (ريع ذاخر) يحرسه برجان للمراقبة (a)، ويؤدي إلى وادي فاطمة. (الثاني) في الطرف الأقصى من المعابدة حيث يوجد بستان وبيت صيفي للشريف (٥٩) له أسوار عالية وأبراج، وبجانب البستان مورد للماء الحلو (٥٨) عليه قبة لطيفة، وفي الطرف الآخر من البستان بئر ماء غير عذب (٦٠)، وهناك عدد من مثل هذه الآبار في المعابدة، ويمر الطريق الذاهب شرقاً إلى عرفات والطائف بجوار هذا القصر ثم ينفرج الوادي، وهناك يخيم الحج المصري، وفي السابق كان المحمل الشامي يخيم فيه، وبعد المرور بهذه الحدود القصوى لمكة المكرمة نجد صحراء قاحلة".

"وبما أنني رأيت مكة المكرمة قبل وبعد الحج فإن تقديري لعدد سكان مكة المكرمة هو من ٢٥ إلى ٣٠ ألف نسمة من المقيمين الدائمين في مكة المكرمة وضواحيها، وحسبما ذكر قطب الدين (النهروالي) فإن سكان مكة المكرمة حسب إحصاء أجري في عهد السلطان سليم الأول عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م) هو اثنا عشر ألفا".

وبعد هذا الوصف الدقيق لبوركهارت نلحظ أن الخريطة المرفقة قد رمزت لأبراج المراقبة على مداخل مكة المكرمة بالرمز (a) وعلى الحمامات (b)، وقال: إنها ثلاثة والواقع أنه وصف فقط حمام باب العمرة وحمام القشاشية، ولا نعرف حماماً ثالثاً في مكة المكرمة، ولم توضحه الخريطة، كما رمز للمقابر بالرمز (c) وإلى مخيمات البدو بالرمز (d) وإلى موارد الماء العذب بالرمز (e) أما الآبار المالحة فبالرقم (٣٨).

◄ [خارطة مكة المكرمة كاملة كما رسمها بوركهارت في كتابه. ويلحظ أن المؤلف استخدم مقياس الرسم "بالخطوات" وتساوي الخطوة نصف متر].



سابعاً - وصفُ بوركهارت لعَرفات عام ١٢٢٩هـ (١٨١٤م):

أفرد بوركهارت فصلاً مطولاً لوصف الحج والمشاعر، ونبدأ بنبذة موجزة لوصفه عرفات[٢٠]: الصباح الباكر يوم الثامن من ذي الحجة، تقدم الحج السوري عبر البلدة مصطحباً الخيام والمحمل أمامه وتاركاً خلفه جميع عفشه في "الشيخ محمود"، وكان معظم الحجاج يركبون في الشقادف على الجمال، أما باشا دمشق فيركب "التختروان الذي يحمله جملان (انظر رسمه عند الكلام عن بيرتون)، ويلي ذلك موكب الحج المصري بمحمله. وتوجه الموكبان مباشرة إلى عرفات بدون توقف، وقبل منتصف النهار ركب بقية الحجاج رواحلهم مندفعين إلى الحج، وازدحمت بهم الشوارع وتبعهم الجزء الأكبر من سكان مكة المكرمة الذين يحجون سنوياً، وكذلك جزء مشابه من سكان جدة الذين سبق لهم التجمع بمكة المكرمة قبل ذلك، وهناك العديد من الحجاج الذين يؤدون الحج على أرجلهم. ومضت ساعات قبل وصولنا إلى ما بعد المعابدة، وكان الازدحام شديداً، وقد وقعت بعض الحوادث، وكل الحجاج محرمون، وكان بعضهم يقرأ القرآن وهو على جمله، وبعضهم يلبون ويستغفرون وبعضهم يتشاجر مع الجمّال أو الرواحل المجاورة بسبب شدة الزحام. وعند انفراج الوادي يخف الزحام، ويزداد مرة أخرى عند مدخل منى الضيق. والسنة أن يؤدي الحاج خمس صلوات بمنى، لكن الخوف من التأخير جعل الحجاج يواصلون سيرهم فيمرون أولاً بمنى في الطريق إلى عرفات. ويضيق الطريق مرة أخرى عند المأزمين، ويمر الحجاج بالعلمين متقدمين إلى سهل عرفات متفرقين باحثين عن مكان مخيماتهم. وقد وصلت إلى عرفات بعد ٣ ساعات من الغروب، ولكن البقية ظلت تتوارد حتى منتصف الليل، وكنت أرى أضواء النيران التي أوقدها الحجاج تتوهج على طول ثلاثة أو أربعة أميال، وتشاهد بعض الأنوار الساطعة لمجاميع من المشاعل تميز مخيم محمد علي باشا وسليمان باشا (باشا دمشق)، وأمير الحج المصري، وتلاحظ عدداً من الحجاج الذين خرجوا من مخيماتهم يتجولون بين الخيام بحثاً عن رفاقهم، ومضت ساعات قبل أن تهدأ الضوضاء، وتجد المقاهي المتناثرة في سهل عرفات مزدحمة طول الليل بالزبائن".

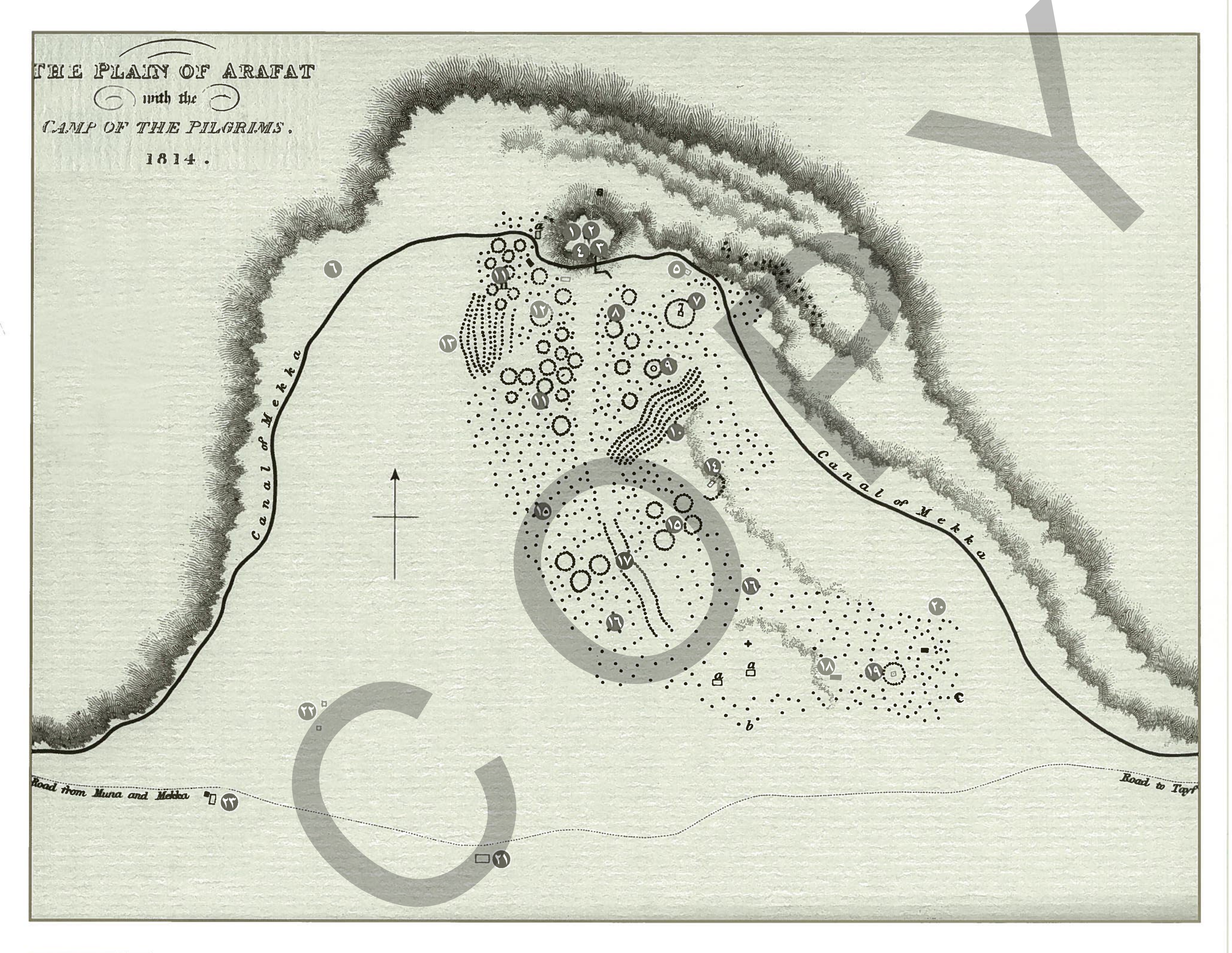
"لقد كانت الليلة مظلمة وباردة، وتساقط رذاذ خفيف من المطر، وبعد أن تجولت معظم ساعات الليل عدت إلى خيمتي للنوم فإذا بي أسمع طلقتين من مدافع الموكب السوري والموكب المصري معلنة اقتراب الفجر. ومع شروق اليوم التاسع من ذي الحجة خرج الحجاج من مخيماتهم لإلقاء نظرة على تلك الشوارع الطويلة من الخيام، والأسواق المقامة المليئة بأنواع المؤن، وتجد آلاف الجمال وهي ترعى وتأكل من الشجيرات الجافة التي تملأ المكان. وسرت إلى جبل عرفات وهو في الجزء الشمالي الشرقي من السهل، وهو قريب من الجبال العالية المحيطة به، ويبلغ محيط جبل الرحمة ما بين ميل وميل ونصف، وترتفع قمته حوالي ٢٠٠ قدم، ويوجد في الجانب الشرقي درج حجري يقود إلى القمة، أما الجانب الغربي فهو عريض غير ممهد ومليء بالصخرات الجرانيتية. وبعد صعود حوالي ٤٠ درجة نجد موقعاً صغيراً على اليسار يسمى مدعى آدم (٤) (انظر مخطط عرفات على الصفحة المقابلة)، وبعد ٦٠ درجة نصل إلى مسطبة ممهدة على اليمين يقف عليها من يعظ الحجاج بعد الظهر (٣)، وعلى القمة نجد المكان الذي وقف فيه محمد ﷺ (٢)، (لم يصعد الرسول ﷺ إلى القمة). "وأحضرت معي البوصلة ولكن الازدحام منعني من استخدامها، وتشاهد ناحية الغرب النيران والعلمين وإلى الجنوب مسجد نمرة، وفي الطرف الشرقي من الجبل قرب سطحه بقايا مسجد صغير يسمى مسجد الصخرات (٥)".

"وتشاهد في صعيد عرفات عدداً من أحواض كبيرة لتخزين المياه، مبنية بالحجارة (a)، اثنان أو ثلاثة منها أسفل جبل الرحمة، وتملأ الأحواض من نفس مجرى الماء الذي يغذي مكة المكرمة (عين زبيدة)، وهنا نلاحظ أن مجرى الماء مكشوف تسهيلاً لسقيا الحجاج، ومن القمة عددت حوالي ثلاثة آلاف خيمة موزعة يعود ثلثاها لحجاج القافلتين (الشامية والمصرية) وحاشية وجنود محمد علي، والباقي للحجاج البدو وأهل مكة المكرمة وجدة، وهناك ما بين عشرين إلى خمسة وعشرين ألف جمل، اثنا عشر ألفاً للحجيج السوري وخمسة أو ستة آلاف للمصريين إلى جانب ثلاثة آلاف اشتراها محمد علي، وقد قدرت عدد المتجمعين هنا بحوالي ٧٠ ألفاً، وربما لا تجد على الأرض في موضع صغير من الأرض هذا التنوع في اللغات أحسب أنها أربعون ولا شك أن هناك كثير غيرها".

"وبعد صلاة الظهر اندفع الحجيج إلى جبل عرفات، وعند اقتراب وقت العصر تم فك الخيام وربطها، وبدأ تحميل القوافل، وركب الحجاج جمالهم وازدحموا حول الجبل حيث أخذ الواعظ — وهو قاضي مكة المكرمة [مكانه على المصطبة (٣)]، وهو راكب على جمل عليه زينة، وبدأ دعواته التي استمرت حتى الغروب حوالي ثلاث ساعات ثم بدأ الدفع من عرفات عبر العلمين إلى مزدلفة".

◄ [إلى اليسار: يبين المخطط المرفق الذي رسمه بوركهارت تفاصيل الموقف، ومخيمات الجماعات المختلفة في عرفات فهم يخيمون في كل عام في الأمكنة نفسها حسبما ترمز له الحروف: a - خزانات مياه متنوعة b - مخيم القافلة الفارسية قرب بيت الشريف. وقد خيم بوركهارت قريباً منهم. c - مخيم القافلة اليمنية. ١- جبل الرحمة. ٢-المكان الذي وقف فيه النبي ﷺ. (هذا غير صحيح) ٣- المصطبة التي يقف عندها قاضي مكة المكرمة للدعاء. ٤- مدعى سيدنا آدم. ٥- جامع الصخرة ٦- وادي عرنة. ٧- مخيم حرم محمد علي. ٨- المحمل المصري. ٩- مخيم محمد علي. ١٠- خيالة محمد علي. ١١- المحمل الشامي. ١٢- مخيم سليمان باشا ١٣-خيالة سليمان باشا ١٤- مخيم الجيلاني. ١٥- مخيم كبار رجالات مكة المكرمة. والحجاج الأتراك الذين لم يأتوا مع الركب. ١٦- مخيمات الهنود والطبقات العامة من المكيين. ١٧- السوق. ١٨- بيت للشريف بعرفات. ١٩- مخيم الشريف يحيى. ٢٠- مخيمات البدو. ٢١- جامع نمرة. ٢٢- العلمان. ٢٣- بئر بازان. ويظهر في أسفل الرسم خط متعرج يبين الطريق القادم من مكة المكرمة ومنى يسار الصورة، والمتجه إلى الطائف في يمين الصورة].

٢٠- Burckhardt, John Lewis, op.cit.,p.263


THE PLAIN OF ARAFAT
with the
CAMP OF THE PILGRIMS.
1814.
Canal of Mekka
Canal of Mekka
Road from Muna and Mekka
Road to Tayf



ثامناً - وصف بوركهارت لمنى وأيام التشريق عام ١٢٢٩هـ (١٨١٤م) :

ويستطرد بوركهارت في وصف منى وما حدث له فيها مستخدماً الخريطة التي وضعها فيقول[٢١]:

"في صباح يوم العيد (النحر) بدأ وصول الحجاج إلى منى، كل إلى مكانه المعتاد لخيمه، وحال إنزال العفش سارع الحجاج لرمي الجمار، ويقف العمود الحجري الأول وطوله ٦ إلى ٧ أقدام من جهة مزدلفة، ويسمى الجمرة الأولى (١٤ في المخطط المرفق)، وفي وسط الوادي يقف عمود الجمرة الوسطى (١٧)، أما في نهاية منى الغربية فإن حائطاً حجرياً منصوباً لهذا الغرض ويسمى جمرة العقبة (٢٤)، ثم يقوم الحجاج بذبح أضحياتهم، كما أن جميع المسلمين أينما كانوا في العالم يقومون أيضا بذبح أضاحيهم، ولا تخضع عملية الذبح ذاتها إلى أي احتفال معين سوى إدارة وجه الضحية إلى القبلة، وعند الذبح يقولون: بسم الله.... الله أكبر، ويتم الذبح في أي ركن من وادي منى، ولكن الجهة المفضلة تقع في نهاية منى من الجهة الغربية عند صخرة ملساء (٢٦)، حيث تم ذبح بضعة آلاف من الأغنام خلال ربع ساعة. ويقص علينا قطب الدين (النهروالي في تاريخه) أن الخليفة المقتدر عندما حج عام ٣٥٠ هجرية، قام في مثل هذا اليوم بذبح أربعين ألف جمل وبقرة، و٥٠ ألفا من الأغنام. وحتى الآن فإن الأغنياء يذبحون الجمال. ويمكن أن يتم الذبح بالإنابة. ثم يذهب الحجاج إلى الحلاقين (٢٥) لحلق رؤوسهم بكاملها، أو جزء منها، حيث يوجد صف من ٣٠ إلى ٤٠ دكانا قريبا من الموقع المفضل للذبح، ثم ينزع الحاج إحرامه، ويرتدي ملابسه العادية... إن هذا الآن هو يوم العيد، ويتبادل الحجاج التهاني بتمام الحج، فيقولون لبعضهم بعضاً: " تقبل الله...".

ويقص علينا بوركهارت كيف أنه لم يستطع الاهتداء إلى جمليه وعبده المرافق لهما منذ مغادرته جبل الرحمة في اليوم السابق، وكيف أنه قضى يوم العيد بملابس الإحرام، لكن وجود كيس نقوده معه مكنه من شراء أضحيته والذهاب إلى الحلاق. وأخذ في البحث عن جمليه حتى وجدهما بعد مغرب يوم العيد. ويصف لنا كيفية رمي الجمار يوم العيد ثم أيام التشريق، ويبدو من وصفه أنه لم يتنبه إلى أن رمي يوم العيد يقتصر على جمرة العقبة، حيث يصف رميه للجمرات الثلاث في الأيام الثلاثة بثلاثة وستين حجراً، ولكنه ينبه إلى أن الرمي بعد يوم العيد يجب أن يتم بعد الظهر، ويقول لكن كثيراً من جهلاء الحجاج يرمون في الصباح.

ثم يستطرد بوركهارت في وصف وادي منى وشوارعها كالآتي[٢٢]:

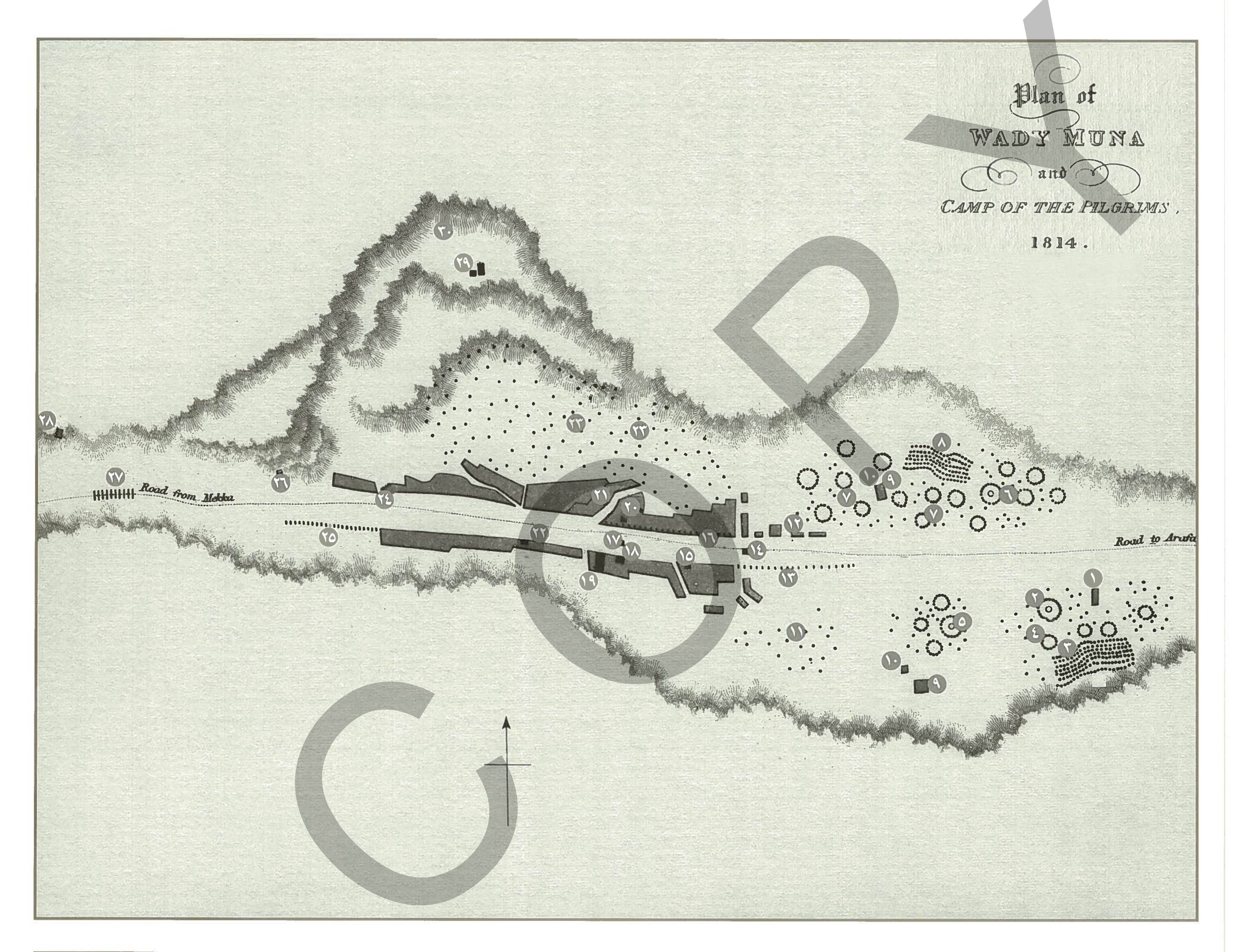
"ومنى وادٍ ضيق يمتد في خط مستقيم من الغرب إلى الشرق نحو ١٥٠٠ خطوة، ويختلف العرض، وتحيط بها الجبال الجرانيتية القاحلة شديدة الانحدار، ونجد في وسط منى صفاً من المباني (١٣) أغلبها متهدم، وهي تابعة للمكيين ولبدو قريش، ويؤجرونها على الحجاج للأيام الثلاثة، وتظل خاوية بقية العام... وبعض المباني من دورين، أما المباني التي تصان بالكامل فأكثر قليلاً من العشرة، وهناك بيت جيد في أقصى الشرق للشريف(١)، وقد سكنت فيه هذا العام عائلة محمد علي، وبين قصر الشريف والمساكن يقع مسجد الخيف (٩)، وهو بناء قوي جيد، وفناؤه الداخلي المفتوح محاط بجدار قوي، وفي وسطه سقيا ماء (سبيل) عليها قبة صغيرة، وبقرب المسجد خزان للماء (١٠) وهو جاف الآن، وتعرض قلة الماء في منى الحجاج الفقراء للكثير من المصاعب، وقد ذكر الفاسي في أيامه وجود خمس عشرة بئراً غير عذبة في منى، ويبدو أن الماء قد يوجد عند عمق معين في جميع أنحاء البلد حول مكة المكرمة".

وأخيراً تجدر الاشارة إلى أن خرائط بوركهارت انتشرت كثيراً وإعتمد عليه كل من جاء بعده، فقد استخدمها وستنلفد في كتابه «أخبار مكة»، ثم استخدمها سنوك، ثم رفعت والبتنوني وغيرهم كما سنوضح فيما بعد.

◄ [إلى اليسار: يبين المخطط الذي رسمه بوركهارت لمنى مخيمات الحجاج كالآتي: ١- بيت للشريف. ٢- مخيم محمد علي. ٣- وخيالته. ٤- المحمل المصري. ٥- مخيم باشا دمشق. ٦- قائد قواته. ٧- المحمل السوري. ٨- الخيالة السوريون. ٩- مسجد الخيف. ١٠- خزان ماء جاف. ١١- مخيمات الهنود واليمنيين والزنوج. ١٢- المقاهي. ١٣- أحوشة قديمة يقطنها المكيون. ١٤- الجمرة الأولى. ١٥- منزل الجيلاني. ١٦- صف من الدكاكين. ١٧- الجمرة الوسطى. ١٨- منزل قاضي مكة المكرمة. ١٩- باحة عليها عقود على جانبيها دكاكين. ٢٠- مسجد متهدم. ٢١- متجر ضخم لبيع العبيد الأحباش. ٢٢- بيت السقاط من تجار مكة المكرمة. ٢٣- مخيمات حجاج الأتراك والحجازيين والبدو. ٢٤- جمرة العقبة. ٢٥- صف من دكاكين الحلاقين. ٢٦- مكان للنحر. ٢٧- درجات مرصوفة في الطريق إلى مكة المكرمة (المدرج). ٢٨- منزل صغير خارج منى حيث ينزع الشريف إحرامه ويرتدي ملابسه. ٢٩- المكان الذي استعد فيه إبراهيم عليه السلام للتضحية بابنه. ٣٠- جبل ثبير. ويظهر في وسط الصورة الطريق القادم من مكة المكرمة والمؤدي إلى عرفات في أقصى يمين الرسم].

٢١- Burckhardt, John Lewis, op.cit.,p.274.

٢٢- Burckhardt, John Lewis, op.cit.,p.275-278.


Plan of
WADY MUNA
and
CAMP OF THE PILGRIMS.
1814.
Road from Mekka
Road to Arafa



تاسعاً - وَصفُ بيرتون لأيّامِ التّشريق بمنى عَامَ ١٢٦٩هـ (١٨٥٣م) و وسَائط نَقل الحُجاج:

من الأوروبيين الذين زاروا مكة المكرمة بعد الحاج إبراهيم (جون لويس بوركهارت) رحال إيطالي يسمى الحاج محمد (جيوفاني فيناتي). ويبدو أنه دخل في عام زيارة بوركهارت ١٢٢٩هـ (١٨١٤م)، ثم جاء بعده الحاج عمر (ليون روش) وهو فرنسي دخل مكة المكرمة عام ١٢٥٧هـ (١٨٤٢م)، ثم بعد سبع سنوات جاء الحاج ولي الدين (أغسطس والن) عام ١٢٦٠هـ (١٨٤٥م)، وجاء بعد ذلك الحاج عبدالله، أو مرزا عبدالله (ريتشارد بيرتون)، الرحالة الإنجليزي الشهير الذي دخل مكة المكرمة يوم الأحد السابع من ذي الحجة عام ١٢٦٩هـ (١١ سبتمبر ١٨٥٣م)، بعد أن تعلم اللغة العربية في جامعة أكسفورد، واللغة الأردية في جامعة لندن، والتحق بالجيش البريطاني في الهند حيث تعلم أيضا اللغة الفارسية على أساتذة مسلمين. و بعد تمام الحج غادر مكة المكرمة إلى جدة حيث مكث بضعة أيام، فغادرها يوم ٢٢ من ذي الحجة (٢٦ سبتمبر)، وبعد عامين أصدر كتابه الشهير[٢٣] عام ١٢٧١هـ (١٨٥٥م).

يظهر واضحاً من تفاصيل تواريخ دخول بيرتون إلى مكة المكرمة أنه قد مكث بها وبمشاعر الحج حوالي عشرة أيام فقط، لذلك لم يتمكن من تقديم وصف دقيق لمكة المكرمة والمشاعر مثلما فعل بوركهارت، أو دومنغو باديا ليبلخ، واعتمد كثيراً في وصفه على كتابيهما. ولا نميل إلى تصديق تفسيره لقلة رسوماته باضطراره لتمزيق مخططاته التي رسمها لمكة المكرمة إلى قطع صغيرة يخفيها في زجاجات الأدوية، ثم معاناته في تجميعها مرة أخرى في القاهرة. وهذا الوصف كما يبدو مبالغة واضحة؛ لأن كثيرا من الرحالة الذين سبقوه لم يواجهوا صعوبة في القيام برسم كل مناطق المشاعر. ويكشف لنا الأستاذ كارني جيفن في مقدمته للعدد الخاص من مجلة الدراسات التركية (ص ١٤، مجلد ١٢، ١٩٨٨م، ص ١٤) عن مجموعة السلطان عبدالحميد للصور الفوتوغرافية في إسطنبول عن انتحال بيرتون لرسم المدينة المنورة الذي سبق أن نشره دوسون في كتابه الضخم "صورة عامة للإمبراطورية العثمانية". والواقع أن كتاب بيرتون يضم عدداً من الرسوم الملونة الجميلة، مثل رسمه للتختروان، ولأحد الشيوخ العرب، وللباس الإحرام، ورسم له شخصياً، أما رسومه لمكة المكرمة فقد استعار رسمي دومنغو باديا ليبلخ (العباسي) لمخطط المسجد الحرام، والمطاف، ونشر رسمين للمدينة نسبهما لنفسه، وكذلك نشر رسمين أحدهما لعرفات والآخر لمنى، وأضاف أكثر من عشرين رسماً صغيراً جداً، عبارة عن إسكتشات ٤× ٥ سم أو أقل لعدد من المواقع في المشاعر والمدينة المنورة ووسائط النقل والألبسة. والملحوظ على رسومه عدم الدقة، فعلى سبيل المثال رسم الإطار المحيط بالحجر الأسود مستديراً تماما، كما أنه رسم الكعبة بدون إظهار الشاذروان ولا حجر إسماعيل، كما أن رسمه لعرفات وجبل الرحمة بعيد عن الدقة. ونلحظ أيضاً أن وصفه للمكان الذي دخل منه إلى مكة المكرمة يضعه قبل المعابدة، وكأنه دخل مكة المكرمة من ناحية ثنية أذاخر.

ويقدم لنا بيرتون وصفه لمنى[٢٤]: "إنها قرية مؤلفة من منازل حجرية مكونة من دور أو دورين، ومنازل طينية". وبعد وصوله منى قادماً من مزدلفة ذهب لرمي جمرة العقبة، ويصفها بأنها "بناء حجري ارتفاعه ثمانية أقدام وعرضه قدمان مقام في ضلع العقبة، أما الطرف الآخر من الطريق فلا يصل عرضه إلى أربعين قدماً، وبه صف من الدكاكين أغلبها للحلاقين، وكان الطريق شديد الازدحام بالحجاج، كلهم يجاهد للاقتراب من الجمرة، حتى إنه من الممكن بسهولة الجري على رؤوس الكتل البشرية المتراصة، بعضهم مشاة والآخرون على جيادهم وجمالهم وبغالهم وحميرهم. وأن المكيين أكدوا له أن الحوادث رغم ذلك نادرة جداً". ثم توجه بيرتون بعد ذلك إلى مكة المكرمة للطواف، ويصف لنا كيفية دخوله الكعبة المشرفة، والرهبة التي أحسها لو انكشف أمره، وعاد في المساء إلى منى، ويصف لنا تجمع الحجاج في الساحة الكبرى أمام مسجد الخيف لمشاهدة إطلاق المدافع والألعاب النارية. وفي صباح يوم الحادي عشر توجه لزيارة مجر الكبش والصعود إلى جبل ثبير، ثم عاد إلى خيمته حيث قضى النهار. ويصف بيرتون كيف كان النهار شديد الحرارة، وانتشار أسراب الذباب، وكيف أن الأرض المليئة بدماء الأضاحي بدأت تفوح منها رائحة مؤذية. وفي المساء توجه لرمي الجمار، وقضى جزءاً من الليل متنقلاً بين المقاهي ومجاميع من الحجاج البدو الذين كانوا يؤدون رقصاتهم وأهازيجهم. وفي صباح اليوم الثاني عشر كانت الجمال قد وصلت منذ الفجر، وأخذ الجميع في حزم أمتعتهم استعداداً للرحيل وهرباً كما يقول من الروائح الكريهة، وبعد ركوبه مع جماعته الجمال توجه لرمي الجمار، ومغادرة منى مباشرة. و لم يوضح زمن رميه الجمار في هذا اليوم."

ويصف بيرتون بعض وسائط النقل المستخدمة مثل الشقادف والشباري والتختروانات، ويبين كيف أن كثيراً من الحجاج يؤدون المناسك مشاة، وأن بعضهم على الحمير، أو البغال أو الأحصنة، أو الجمال الهجن، وكل ذلك بدون وسيلة للحماية من الشمس. ثم يصف الوسائط المغطاة بقوله: "يتألف الشقدف الحجازي من سريرين مشدودين بالحبال إلى بعضهما، طول الواحد منهما خمسة أقدام (١,٥ متر)، توضع على الجمل أفقياً، موازية لجانبيه، هابطة إلى نصف ارتفاع الجمل، ولكل سرير أرجل قصيرة، يرتكز عليها عند إنزاله على الأرض، ويرتبط السريران بالطرفين الطويلين الداخليين، ثم توضع على السرج السميكة. وتوجد على طول السرير أعواد سميكة، تلتف لتشكل قوساً يتصل بالطرف الآخر، وتوضع عليها السجاجيد أو أي شيء يحمي من الشمس، وهناك للشقدف فتحة على شكل أعواد مجدولة في المقدمة نحو رأس الجمل يمكن من خلالها الدخول إلى الشقدف، وهناك في المؤخرة فتحة لدخول الهواء. وتوجد في خارج الشقدف نحو ذنب الجمل جيوب لوضع أواني الشرب الفخارية لتبريد الماء، ويتم تعليق أكياس المؤن داخل الشقدف في الأعواد التي تقوم عليها المظلة. أما أرض السرير فتفرش بالمراتب.

ويضيف بيرتون أن أعظم مضرة للشقدف هي صعوبة حفظ توازنه، لذلك يركب في الشقدف شخصان متقابلان، لا بد أن يكونا متقاربين في الوزن، إضافة إلى تعرض

٢٣- Burton, R., Personal Narrative of a Pilgrimage to Al Madinah & Meccah.

٢٤- Burton, R., op.cit, p.219/2.





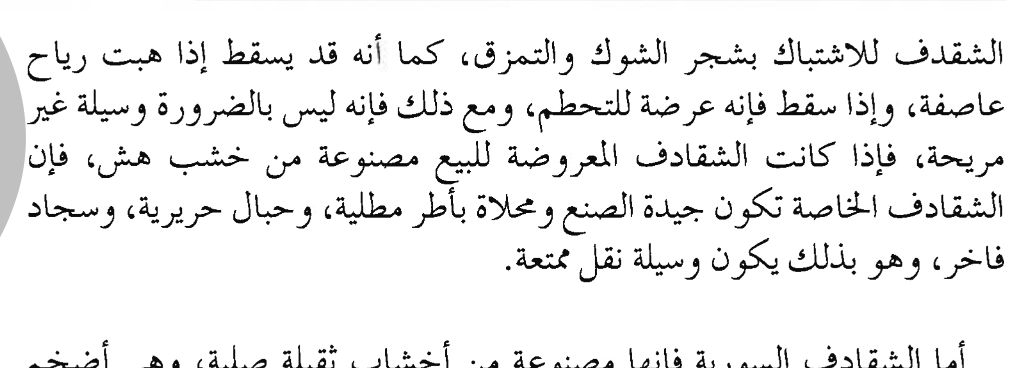
◀[جمرة العقبة، كما رسمها بيرتون. لاحظ عدم الدقة في رسم الجبال المحيطة بالعقبة].



▲[الشبرية كما رسمها بيرتون].

▼[تختروان معروض في الجمعية الجغرافية المصرية بالقاهرة].





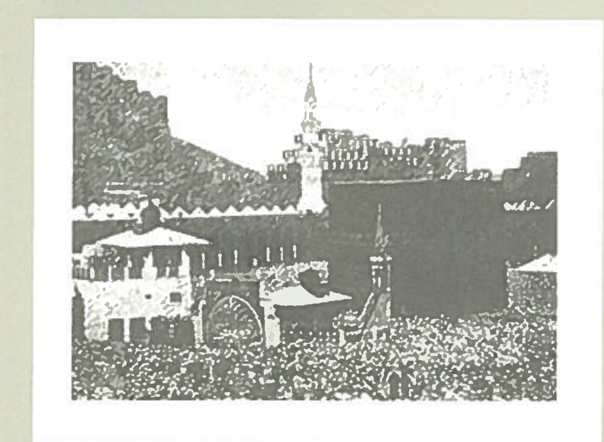
الشقدف للاشتباك بشجر الشوك والتمزق، كما أنه قد يسقط إذا هبت رياح عاصفة، وإذا سقط فإنه عرضة للتحطم، ومع ذلك فإنه ليس بالضرورة وسيلة غير مريحة، فإذا كانت الشقادف المعروضة للبيع مصنوعة من خشب هش، فإن الشقادف الخاصة تكون جيدة الصنع ومحلاة بأطر مطلية، وحبال حريرية، وسجاد فاخر، وهو بذلك يكون وسيلة نقل ممتعة.

أما الشقادف السورية فإنها مصنوعة من أخشاب ثقيلة صلبة، وهي أضخم قليلاً من الشقادف الحجازية، وتكون أغطيتها على شكل خيمة، مع ملاحظة أن الجمال السورية أكبر حجماً من تلك الحجازية. أما ما يوصف بالمحمل فليس هو سوى شقدف سوري مزخرف بشكل فاخر، وكلما ازدادت زينته عظم قدره، لذا ترى الأشراف ورجال العائلات المرموقة يركبون شقادفهم ذات الأغطية الشعرية الدافئة في أشد الأيام حرارة. أما الشباري فهي نوع يختلف قليلاً عن الشقادف، ولم يصفها لنا بيرتون بالتفصيل.

أما التختروان فهو صندوق فخم يتصل من أسفله بقاعدتين على جانبيه يحمله جملان، ولا يستخدمها إلا ذوو اليسار، لتكاليفها الباهظة التي تصل لرحلة الحاج من دمشق إلى مكة المكرمة ثم العودة إلى ١٢٠٠ جنيه.

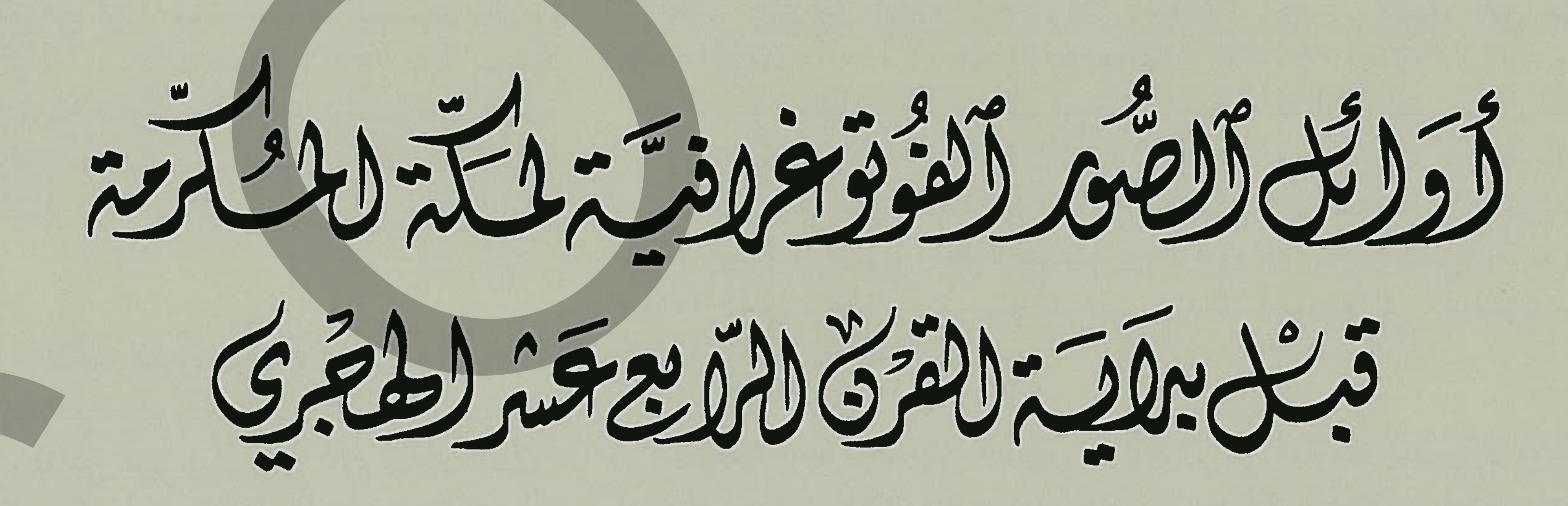


▲[صورة ملونة على الحجر للتختروان، من صنع بيرتون، نشرها في كتابه عن رحلته إلى مكة المكرمة والمدينة عام ١٢٧١هـ/ ١٨٥٥م].





٣



أوائل الصور الفوتوغرافية لمكة المكرمة
قبل بداية القرن الرابع عشر الهجري



تمهيد:

أدت ملكة بهوبال فريضة الحج عام ١٢٨٠هـ (١٨٦٠م)، وكانت تستخدم التصوير الفوتوغرافي، لكنها صرحت في الكتاب الذي أملته عن رحلتها [٢٥] أنها قد أحجمت عن استخدام الكاميرا في الأراضي المقدسة؛ لذلك فإن كتابها لا يضم أي صور عن الحرمين، وإنما بعض الصور في طريق رحلتها إلى الحج. والواقع أنها لو التقطت صوراً فوتوغرافية للحرمين والمشاعر المقدسة لكانت هي الحائزة على أسبقية تصوير الحرمين. وعلى أي حال فإن المعلومات المتوافرة لدينا حتى الآن تؤكد على الأقل أن أول مصور التقط صوراً للمسجد الحرام ومكة المكرمة هو الضابط المصري محمد صادق، وذلك خلال رحلته إلى الحج عام ١٢٩٧هـ (نوفمبر ١٨٨٠م). غير أن محمد صادق نفسه يؤكد في كتابه عن رحلته المذكورة عام ١٢٩٧هـ [٢٦] أنه التقى بعد وصوله مكة المكرمة، وقبل صعوده عرفات بعثة عسكرية عثمانية مؤلفة من ٦ ضباط، يرأسهم: "علي بك، قائمقام أركان حرب، وفوتوغرافي بعساكر الشاهانة الآتي مع خمسة ضباط من أركان حرب إلى مكة المكرمة لأخذ رسم خريطة البقاع وبعض مناظر فوتوغرافية بها وبالطائف ثم أخذ رسم الطريق الموصلة منها إلى المدينة المنورة وما يلزم".

إذن المرجح أن الصور التي التقطها محمد صادق من جهة، والبعثة التركية من جهة أخرى في حج عام ١٢٩٧هـ، هي أول صور معروفة للمسجد الحرام والمشاعر المقدسة حتى الآن، وقد يكون سبب ذلك ظهور الأفلام الجافة "سابقة التحضير" (انظر الملحق الخاص بتاريخ التصوير) قبل مدة قصيرة من ذلك التاريخ، وقد وصل خبرها إلى الدولة العثمانية في إسطنبول والقاهرة ولذلك تمت المسارعة بإرسال مصورين إلى الديار المقدسة لالتقاط أول صور فوتوغرافية فعلية ثابتة.

وقد سبق لمحمد صادق نفسه أن زار المدينة المنورة عام ١٢٧٧هـ (١٨٦١م)، وقال في كتابه عن تلك الرحلة [٢٧]: إنه التقط صوراً فوتوغرافية للمدينة المنورة، لكن الكتاب حوى رسمين محفورين ربما عن أصل فوتوغرافي. ثم جاءت رحلته إلى مكة المكرمة عام ١٢٩٧هـ، وأغفل ذكر مصير الصور السابقة في بقية كتبه التي صدرت بعد ذلك، والراجح أن أفلام تلك الصور لم تصمد للزمن وتلاشت لأن الألواح الزجاجية الرطبة كانت هي السائدة في تلك المدة، وكانت بالطبع تحتاج إلى تحميض آني حال التقاط الصورة، ولم يذكر محمد صادق إطلاقاً أي تفاصيل عن نوع الكاميرا التي استخدمها لصوره في زيارته للمدينة، وربما اصطحب معه معملاً كاملاً للتصوير "أستديو" حتى تمكن من تحميض الفلم، أما الطباعة على الورق فلم توجد عندئذ أوراق جيدة تحتفظ بالصورة لوقت طويل، ولربما سارع حال عودته إلى القاهرة بإظهار الصور ثم حفرها قبل اندثارها.

من جهة ثانية فإننا بحاجة إلى مراجعة السجلات العثمانية للتعرف على تفاصيل بعثة المساحة العسكرية، كما نحتاج إلى دراسة تفصيلية واسعة ودقيقة لرحلات محمد صادق إلى الحجاز.

أولاً - مجَاميع الصُّوَر الفُوتوغرافيَّة العُثمانيّة:

تحتفظ مكتبة جامعة إسطنبول منذ عام ١٩٢٥م بمجموعة الصور الفوتوغرافية التي جمعها السلطان عبد الحميد الثاني خلال مدة حكمه من عام ١٢٩٣ إلى ١٣٢٧هـ (١٨٧٦ إلى ١٩٠٩م) التي يبلغ عددها ٣٣٣٥٠ صورة، وقد وصف الأستاذ "نور هان أتاسوي" في المقدمة الضافية التي كتبها عن الصور الفوتوغرافية العثمانية [٢٨] هذه المجموعة، وبالذات ما أهداه السلطان لمكتبة الكونجرس وللمتحف البريطاني من ألبومات الصور عام ١٣١١هـ (١٨٩٣م)، وأوضح أن مجموعة السلطان تضم إلى جانب ألبومات الصور الفوتوغرافية خرائط، ونوتات موسيقية، و ألبومات من ألواح النحاس المحفورة، وتحمل بعض الألبومات أسماء المصورين، أو الأستوديوهات التي صورتها، أو اسم الناشر، والقليل منها مؤرخ، وتضم جميع الألبومات صوراً باللونين الأسود والأبيض، عدا ثلاثة ملونة، واحد لإسطنبول واثنان لمصر. وتضم مكتبة جامعة إسطنبول إلى جانب مجموعة السلطان الكثير من المجاميع الأخرى التي استطاعت الحصول عليها، وهي حافلة بصور الحرمين والمشاعر، ويعود تاريخ بعضها إلى عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م). ومن المعروف أن السلطان عبدالمجيد قد منح لقب مصور السلطان للفرنسي إرنست كرانزا عام ١٢٦٨هـ (١٨٥٢م) لإهدائه للسلطان ألبوماً من ٥٥ صورة، لمدينة إسطنبول، وفي عام ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م). أحدث السلطان عبدالعزيز لقب مصور البلاط الرسمي، وأعطاه للمصورين الإخوة هورسب، فيشن، وكيفورك عبدالله الذين نشطوا تحت اسم أستديو (عبدالله إخوان)، في إسطنبول سنة ١٢٧٤هـ (١٨٥٨م).

إن وجود عدد من معامل التصوير الفوتوغرافي في العاصمة إسطنبول، ووجود مصورين رسميين للبلاط منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، يعكس اهتمام العثمانيين البالغ بالتصوير الفوتوغرافي منذ ظهوره. وهذا أمر طبيعي لما عرفنا من اهتمام السلاطين السابقين بالرسم والرسامين. لذلك فإننا نعتقد أن البعثة العثمانية التي رأسها علي بيك "فوتوغرافجي بعساكر الشاهانة" المكونة من خمسة ضباط. والتي قدمت إلى الأراضي المقدسة لأخذ صور مكة المكرمة والمدينة والطائف، و رسم الطرق بينها عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م)، حسبما ذكره محمد صادق [٢٩]، ربما لا تكون الأولى من نوعها؛ لأن التصوير الفوتوغرافي أصبح منتشراً قبل ذلك بحوالي ثلاثين عاماً في إسطنبول، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من البحث.

٢٥- Begum of Bhupal, A Pilgrimage to Mecca,1870.

٢٦- محمد صادق. مشعل المحمل. ص ٣٠.

٢٧- محمد صادق. نبذة في إستكشاف طريق الأرض الحجازية.س. ص ١٦.

٢٨- Nurhan Atasoy, Sultan Abdulhamid II`s Photo - Collections in Istanbul; J. of Turkish Studies, V12, 1988, p.v,vi.

٢٩- محمد صادق. مشعل المحمل. مرجع سابق ص ٣٠.



ونأتي الآن إلى شخصية قائم مقام أركان حرب علي بك الذي قابله محمد صادق، فنلحظ أن هناك أيضا خريطة دقيقة لمكة المكرمة بجامعة إسطنبول، مؤرخة في ربيع الأول ١٢٩٨هـ وعليها أختام: بكباشي السيد محمد جمال و قائم مقام السيد أحمد جمال الدين، و قائم مقام أحمد حقي، و "الأميرالاي حسيني". ومن جهة ثانية فقد نشر ويليام ألن في مجلة الدراسات التركية تحليلاً عن الألبومات التي أهداها السلطان عبد الحميد لمكتبة الكونجرس عام ١٣١١هـ (١٨٩٣م)، فوجد أن اثنين من الألبومات تحوي ٦٠ صورة فوتوغرافية، وهي من تصوير الكولونيل (أميرالاي) علي رضا الذي وصفه بأنه المسؤول عن التصوير الفوتوغرافي بهيئة أركان حرب الجيش[٣٠]، ومن جهة ثالثة نشر هوجارث في كتابه"اختراق الجزيرة العربية"[٣١] صورة للمسجد النبوي من الداخل، ونسبها "لضابط عثماني لم تنشر صوره".

وترجح هذه القرائن أن علي بيك ومرافقيه الذين قابلهم محمد صادق بمكة المكرمة، هو الذي التقط الصور الفوتوغرافية لمكة المكرمة والمدينة والمشاعر وغيرها، ورسم خارطة مكة المكرمة، وهو المصور الذي أعد اثنين من ألبومات السلطان عبدالحميد، وهو الضابط العثماني الذي ذكره هوجارث، وأن رتبة علي بيك قد أصبحت "أميرالاي" بعد سنوات من مقابلة محمد صادق له بمكة المكرمة. على أي حال لا بد من مزيد من البحث في الأرشيف العثماني للوصول إلى نتيجة قاطعة. كما نرجح من تاريخ مقابلة محمد صادق للبعثة العثمانية بمكة المكرمة في شهر ذي الحجة ١٢٩٧هـ، وتاريخ خارطة مكة المكرمة ربيع الأول ١٢٩٨هـ، أن البعثة العسكرية العثمانية قد ظلت بالأراضي المقدسة عدة أشهر من أواخر عام ١٢٩٧ إلى أوائل عام ١٢٩٨هـ حتى أتمت عملها.

ثانياً - رحلات محمّد صَادِق إلى الحَرمين الشريفين:

أ - ترجمَة محمّد صَادِق ١٢٣٨ - ١٣٢٠هـ (١٨٢٢ - ١٩٠٢م):

ولد محمد صادق عام ١٢٣٨هـ (١٨٢٢م)، وتلقى تعليمه بمصر في مدرسة الخانكا الحربية بالقاهرة، ثم سافر في بعثة إلى باريس بين أفراد بعثة الجيش الرابعة عام ١٨٤٤م.وأول من ترجم له أمين سامي باشا في تقويم النيل[٣٢]، فقال: إنه أتم في فرنسا دراسة الرسم والزخارف، ولما عاد إلى مصر عين مدرساً للرسم بالمدارس إلى جانب قيامه بتعليم الرسم في المدرسة الحربية بالقلعة (بالقاهرة) تحت نظارة رفاعة بك، و إنه برتبة الميرميران، وكان ممن رسموا الحرمين المكي والمدني بالفوتوغرافية رسماً جيداً.

ثم كتب مصطفى عامر أستاذ مساعد الجغرافيا بالجامعة المصرية بالقاهرة[٣٣] مقالة يصف فيها محمد صادق بالمكتشف المجهول الذي سبق بيرتون في وصف الطريق من ميناء الوجه على ساحل البحر الأحمر إلى المدينة المنورة خلال رحلته في شتاء عام ١٢٧٧هـ (١٨٦١م).

ثم ترجم له الأمير عمر طوسون[٣٤]، وقال: إنه التحق بالمدرسة الحربية المصرية بباريس، وهي مدرسة مستقلة أنشئت لتعليم الفنون العسكرية، افتتحت عام ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م)، عندما أرسل محمد علي باشا أنجاله ضمن إرسالية من ٧٠ فرداً إلى باريس، ومن المرجح أن محمد صادق ظل بهذه المدرسة حتى تخرج منها، ثم التحق بمدارس التطبيقات الحربية (البوليتكنيك) في باريس، وبعد أن تخرج منها عاد إلى مصر في عهد سعيد باشا. و لم يذكر التخصص الفني الذي درسه محمد صادق، ولا عام عودته إلى مصر، واكتفى بالقول: إنه عاد في عهد سعيد باشا (الأصح محمد سعيد باشا) الذي تولى أمر مصر من عام ١٢٧٠ –١٢٨٠هـ (١٨٥٤ – ١٨٦٣م).

ثم كتب البكباشي عبدالرحمن زكي مدير المتحف الحربي المصري في كتابه "أعلام الجيش والبحرية في مصر أثناء القرن التاسع عشر"[٣٥] عن محمد صادق وركز على ما كتبه مصطفى عامر عنه، وأضاف قائلا: "ويظهر أن القائم مقام صادق بك قام برحلته لتحقيق بعض الأغراض العسكرية وأهمها انتخاب أوفق الأماكن لمبيت الجند وتعيين مواقع المحطات المختلفة. وقد عين في أيام إسماعيل (الخديوي من عام ١٢٧٩ – ١٢٩٦هـ (١٨٦٣ – ١٨٧٩م)، في أركان حرب ديوان الحربية". ومن جهة أخرى يقول زكي محمد مجاهد[٣٦]: إن محمد صادق عين رئيساً لقلم الرسم بمصلحة "التاريخ" ثم تقلب في مناصب عسكرية ومدنية حتى حاز رتبة لواء دون أن يوضح المناصب التي تولاها.

وهكذا فإننا لا نعلم على وجه التحديد نوع الدراسة التي تخصص فيها بباريس، إلا أن الدلائل تشير إلى تخصصه في علم المساحة العسكرية. كما أننا لا نعرف تاريخ عودته بدقة إلى مصر، ولا تواريخ تدرجه في الرتب العسكرية، ولا تاريخ تقاعده من العمل العسكري ولا المناصب المدنية التي تولاها، كما أننا لا نعرف تاريخ حصوله على الباشوية.

و يتضح من أغلفة كتبه المنشورة أنه في عام ١٢٩٤هـ (١٨٧٧م) كان يحمل لقب بك ورتبة قائم مقام أركان حرب. وفي عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) كان يحمل رتبة أميرالاي أركان حرب. وفي عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٦م) كان متقاعدا من الخدمة العسكرية ولا يزال يحمل لقب بك. ثم في عام ١٣١٣هـ (١٨٩٦م) كان قد حمل لقب الباشوية. وسنحاول في استعراضنا لصوره الفوتوغرافية والأحداث التي صاحبت رحلاته توضيح تواريخ دخول المؤلف وخروجه من الأماكن المقدسة مع تدقيقها، ومقابلة التقويم الهجري بالميلادي لتسهل المقارنة. وعملنا هذا له ما يفسره خاصة عند دراسة الصور الفوتوغرافية لمكة المكرمة والمسجد الحرام والمشاعر المقدسة، وملاحظة اختلاف المناظر حسب المواسم.

٣٠- William Allen, Analysis of Abdul-Hamid`s Gift-Albums, J. of Turkish Studies, Vol. 12, 1988, p. 33-37.

٣١- Hogarth, D.G, The Penetration of Arabia, P.94.

٣٢- أمين سامي باشا. تقويم النيل. ج٢. ص ٦١١.

٣٣- Mustafa, Amer, " An Egyptian Explorer" in Arabia in the 19th Century, Bulletin de la Soc.Roy. de Geog. D'Egypte, Vol. 18/1, p.29 -45.

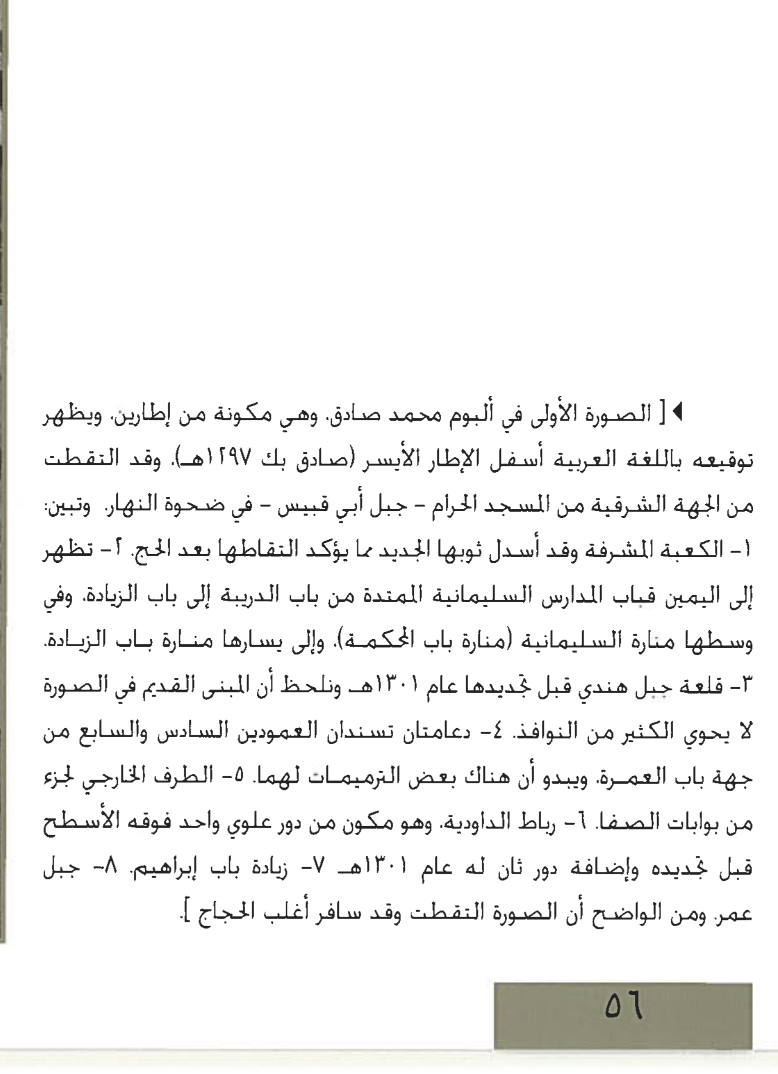
٣٤- الأمير عمر طوسون. البعثات العلمية. البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد. ص ٣٠٠ –٣٠٢.

٣٥- عبدالرحمن زكي. أعلام الجيش والبحرية في مصر أثناء القرن التاسع عشر. ص ١٦٠ – ١٦٢.

٣٦- زكي محمد مجاهد. الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية. بيروت. ط٢. ١٩٩٤. ج١. ص ٢٣١.

الباب الثالث





◀ [الصورة الأولى في ألبوم محمد صادق، وهي مكونة من إطارين، ويظهر توقيعه باللغة العربية أسفل الإطار الأيسر (صادق بك ١٢٩٧هـ). وقد التقطت من الجهة الشرقية من المسجد الحرام - جبل أبي قبيس - في ضحوة النهار. وتبين: ١- الكعبة المشرفة وقد أسدل ثوبها الجديد مما يؤكد التقاطها بعد الحج. ٢- تظهر إلى اليمين قباب المدارس السليمانية الممتدة من باب الدريبة إلى باب الزيادة، وفي وسطها منارة السليمانية (منارة باب المحكمة). وإلى يسارها منارة باب الزيادة. ٣- قلعة جبل هندي قبل تجديدها عام ١٣٠١هـ ونلحظ أن المبنى القديم في الصورة لا يحوي الكثير من النوافذ. ٤- دعامتان تسندان العمودين السادس والسابع من جهة باب العمرة، ويبدو أن هناك بعض الترميمات لهما. ٥- الطرف الخارجي لجزء من بوابات الصفا. ٦- رباط الداودية، وهو مكون من دور علوي واحد فوقه الأسطح قبل تجديده وإضافة دور ثان له عام ١٣٠١هـ ٧- زيادة باب إبراهيم. ٨- جبل عمر. ومن الواضح أن الصورة التقطت وقد سافر أغلب الحجاج].



٨
٦
٧
٤
١
صادق بك ١٢٩٧



ومنشورات محمد صادق التي نعرفها من الكتب أربعة :

الأول :"نبذة في استكشاف طريق الأرض الحجازية من الوجه وينبع البحر إلى المدينة المنورة وبيان خريطتها العسكرية". صدر ١٢٩٤هـ (١٨٧٧م) في ٢٨ صفحة، وطبع بمطبعة عموم أركان حرب بديوان الجهادية بالقاهرة.

الثاني: "مشعل المحمل في سير الحاج المصري براً من يوم خروجه من مصر إلى يوم عودته مذكور بها كيفية أداء الفريضة"، وصدر عام ١٢٩٨هـ (١٨٨١م) في ٦٠ صفحة، وطبع بمطبعة وادي النيل بالقاهرة.

الثالث :"كوكب الحج في سفر المحمل بحراً وسيره براً"، وصدر عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٦م) في ٧٣ صفحة وطبع بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية.

الرابع: "دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج"، وصدر عام ١٣١٣هـ (١٨٩٦م) في ١٥٢ صفحة وطبع بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر المعزِّيَّة. وهو أول كتاب يضم صوراً فوتوغرافية وخرائط.

وله كتاب لم ينشر، فقد جاء في كتابه دليل الحج قوله[٣٧]: "ألفت كتاباً على تفريق حب الصدقة ولكن لم يتيسر لي طبعه".

وللمؤلف أيضا مقالات منشورة ومحاضرات منها:

– كراسة مكتوبة بخط يد المؤلف باللغة الفرنسية مع نسخة من الكتاب الأول والثاني، وألبوم الصور الفوتوغرافية، موجودة بمكتبة الحرم المكي، وقد اتضح بعد ترجمتنا لها أن هذه الكراسة هي يوميات رحلته عام ١٢٩٧هـ التي نشرها بالعربية في كتاب "مشعل المحمل".

– ثلاث مقالات باللغة الفرنسية في نشرة الجمعية الخديوية الجغرافية بالقاهرة، في أعداد مايو وأغسطس ونوفمبر عام ١٨٨٠م (جمادى الآخرة – ذي الحجة ١٢٩٧هـ)، بعنوان "المدينة خلال عشرين عاما"، ذكرها مصطفى عامر[٣٨]. وبهذا يكون تاريخ ظهور المقالة الأولى والثانية قبل سفر محمد صادق الثاني إلى الأراضي المقدسة، وظهرت المقالة الثالثة وهو في طريق رحلته إلى مكة المكرمة، وللأسف لم نستطع الحصول على صورة من هذه المقالات حتى يمكننا استجلاء الموضوع. وكان محمد صادق قد أصدر ابتداءً من عام ١٢٩٨هـ (١٨٨١م)، ألبوماً يضم ١٣ صورة فوتوغرافية للحرمين الشريفين، التقطها خلال رحلته الثانية إلى الحجاز عام ١٢٩٧ – ١٢٩٨هـ (١٨٨٠م)، قامت بتوزيعه الجمعية الجغرافية المصرية، وهو ما سنستعرضه مفصلاً فيما بعد.

– له محاضرات أشار إليها عمر طوسون[٣٩] وللأسف لا نعرف أي تفاصيل عن هذه المحاضرات، وهل لها علاقة برحلاته أم لا.

ب - رحلة محمّد صَادِق الأولى إلى الحجاز عام ١٢٧٧هـ (١٨٦١م):

قام محمد صادق بصفته مهندساً (مساحاً) بمرافقة والي مصر محمد سعيد باشا في رحلته إلى المدينة المنورة، حيث غادر القاهرة إلى السويس يوم الثلاثاء ١١ من رجب ١٢٧٧هـ (٢٢ من يناير ١٨٦١م)، ثم غادر السويس بحراً صباح السبت ١٥ من رجب، فوصل إلى ميناء الوجه شمال المدينة المنورة. ثم سلك الطريق البري إلى المدينة فوصلها يوم الاثنين غرة شعبان، ومكث بها خمسة أيام، وغادرها يوم السبت السادس من شعبان إلى ينبع النخل فوصلها السبت التالي، وفي يوم ١٣ من شعبان ركب السفينة فوصل السويس ليلة الأربعاء ١٧ من شعبان ١٢٧٧هـ (٢٧ فبراير ١٨٦١م).

وفي رحلته هذه قاس المسافات بدقة على طول الطرق التي سلكها مستخدماً "الهكتوميتر" وصحب معه آلة تصوير، والتقط صورة للمسجد النبوي من الداخل وصورة عامة للمدينة المنورة التقطها من فوق سطح القلعة (الطبخانة). ورسم خارطة سطحية للحرم النبوي. ولا شك أن هذه أول صور فوتوغرافية تلتقط لأحد الحرمين الشريفين، لكن أصولها – كما سبق أن أوضحنا في مقدمة هذا الباب – قد تلفت. وبعد ١٧ عاماً نشر في جمادى الآخرة ١٢٩٤هـ (يونيو ١٨٧٧م) وصفاً لرحلته هذه في الجريدة العسكرية المصرية، وفي العام نفسه أصدر كتابه الأول بعنوان "نبذة في استكشاف طريق الأرض الحجازية من الوجه وينبع البحر إلى المدينة" المنوه عنه سابقاً، ومن جهة أخرى نلحظ على هذا الكتاب ما يأتي:

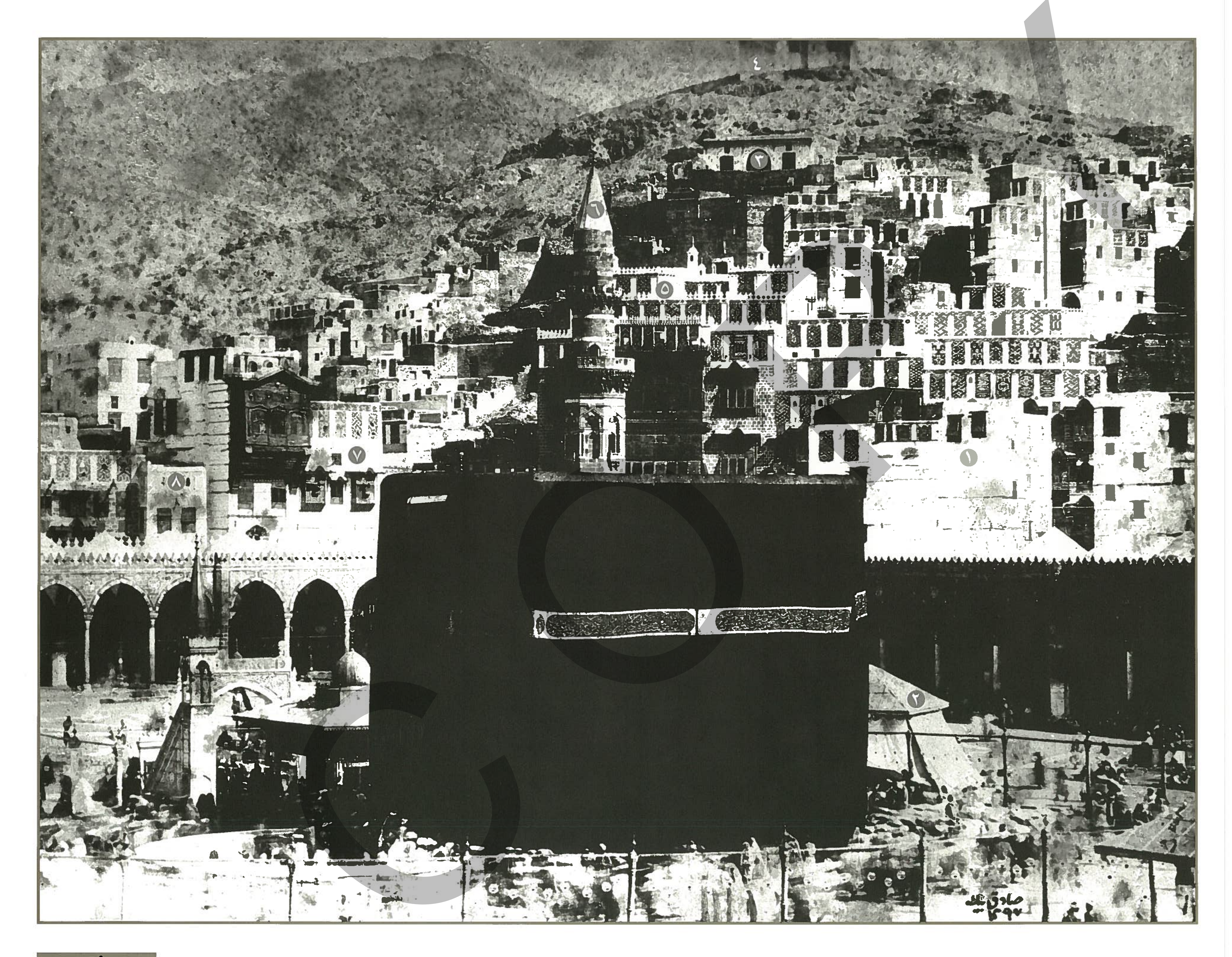
١ – ذكر المؤلف في المقدمة صفحة ٣ أنه سبق أن رسم خريطة من الوجه إلى المدينة المنورة، وأراد بنشر الكتاب شرح تفاصيل رحلته. ويبدو أن الخريطة المشار إليها كانت خاصة باستخدام الجيش، ولم تنشر حينها، بل ظهرت فيما بعد في كتابه الرابع "دليل الحج" عام ١٣١٣هـ (١٨٩٦م)، أي بعد أكثر من ثلاثين عاما.

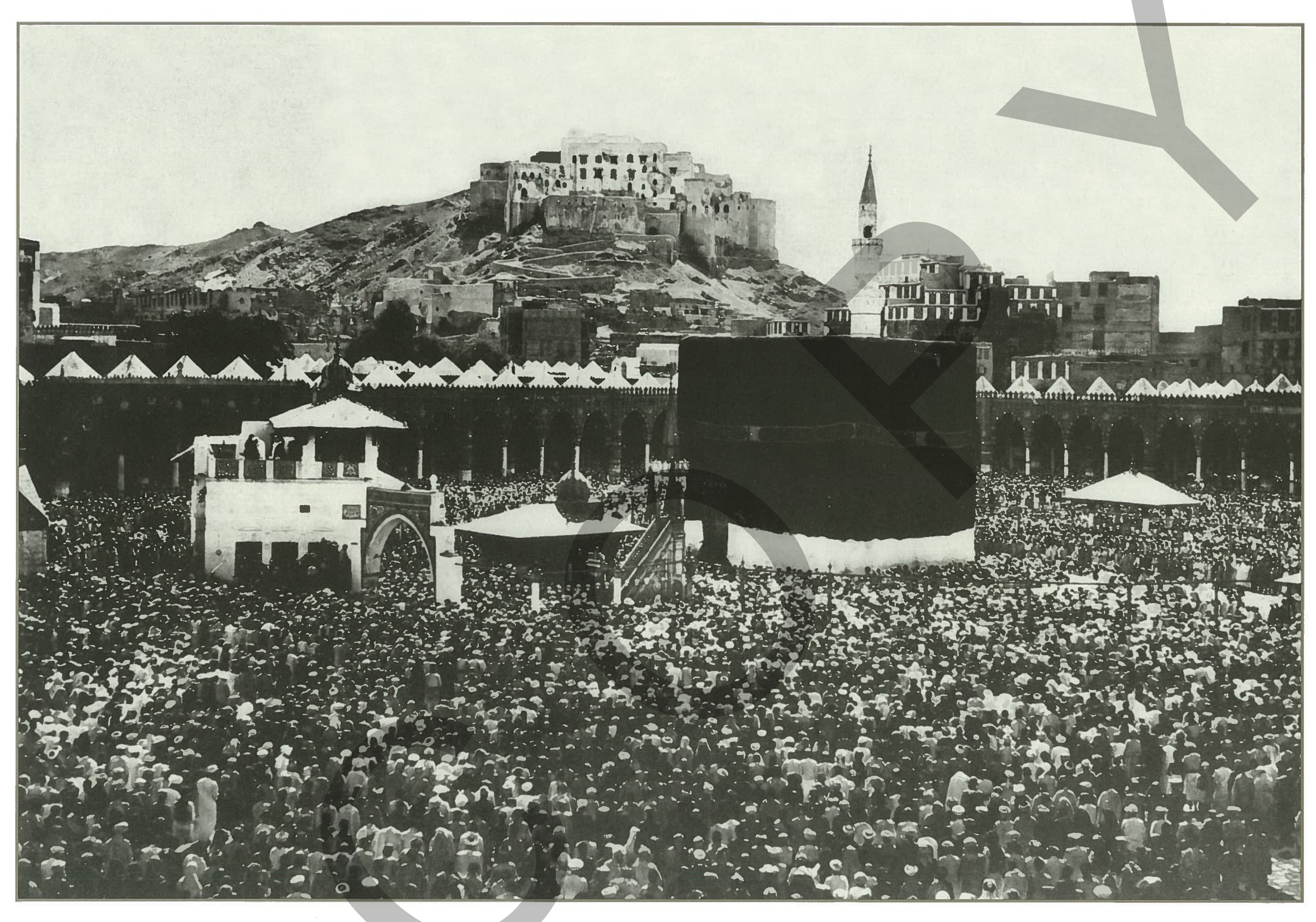
◄[إلى اليسار الصورة رقم ٣ في ألبوم محمد صادق وعليها توقيعه المعتاد باللغة العربية. التقطت هذه الصورة - فيما يبدو - عصراً من الجهة الغربية للمسجد الحرام (أي من ناحية باب العمرة)، وتبدو الكعبة المشرفة مرتدية ثوبها الجديد ونلحظ ازدحاما نسبيا في المطاف. ١- البيوت الملاصقة لجدار المسجد الحرام من ناحية باب الصفا. ٢- المقام الحنبلي وقد وضعت أشرعة حوله لوقاية المصلين من أشعة الشمس. ٣- بيت بديوان في أعلى جبل أبي قبيس أسفل مسجد بلال. ٤- مسجد بلال المقام على قمة جبل أبي قبيس. ولم يظهر إلا الجزء السفلي منه فقط دون المنارة. ٥- المنازل الضخمة المطلة على الشارع العام عند تقاطعه مع المسعى وكانت تسمى بيوت الخاصكية. التي أنشأها السلطان عبدالحميد لعوائله. ٦- منارة باب علي. ٧- البيت الذي بناه أحمد يكن والي الحجاز من قبل محمد علي باشا عام ١٢٢٨هـ ويلحظ أن رواشين المبنى يبدو عليها القدم وأن حلية الروشان الرئيس العليا مسنمة. وأن ساتر السطح الذي فوق الروشان غير موجود. وقد تم بيع البيت للشيخ عبدالله باناجة عام ١٣٠١هـ فجدده وغير حلية الروشان. وأصبح يعرف ببيت باناجة. (انظر صور هذا البيت بعد هذا التاريخ) ٨- البيت المجاور للسابق وليس له رواشين ضخمة حتى الآن].

٣٧- محمد صادق. دليل الحج. ص ٦٠.

٣٨- Amer, Mustafa, p.cit., p 30

٣٩- عمر طوسون. مرجع سابق. ص ٣٠٢.


١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
صادق بك
١٢٩٧



▲[صورة التقطتها البعثة العسكرية العثمانية لداخل المسجد الحرام يوم جمعة قبل الصعود إلى عرفات، وهذا يعني أنها التقطت يوم ٢ /١٢/ ١٢٩٧هـ (٥ نوفمبر ١٨٨٠م) من الجهة الشمالية (باب السلام). وتظهر الكعبة المشرفة محرمة، وخلفها منارة باب الوداع. ونلحظ على المنبر علمين مرفوعين دلالة على قيام صلاة الجمعة. وبجواره مقام إبراهيم ثم عقد باب بني شيبة و يليه المدرج الخشبي الخاص بالصعود إلى الكعبة المشرفة، وهو معروض اليوم في متحف الحرمين بمكة المكرمة. وبعده المبنى المقام على بئر زمزم وفي دوره العلوي المقام الشافعي. وتبدو في أعلى الصورة قلعة أجياد وبداخلها مبنى متعدد الأدوار. وتظهر على يمين الكعبة المشرفة مظلة المقام المالكي. وقد ظهر في أقصى اليسار طرف مباني قبة الفراشين وهي الواقعة بين مبنى زمزم وقبة السقاية].



٢ – ذكر في الصفحات ٤ و١١ و١٩ و٢٤ تواريخ تحركه من مصر حتى عودته إليها مستخدماً التاريخ الهجري فقط، وتمتد الرحلة من ١١ من رجب ١٢٧٧هـ إلى ١٧ من شعبان من العام نفسه، أي من ٢٢ من يناير ١٨٦١ إلى ٢٧ من فبراير.

٣ – ذكر في صفحة ١٦ أنه قد رسم خريطة دقيقة للحرم النبوي (مسقط أفقي)، وأخذ رسم المدينة المنورة "بالآلة الشعاعية المسماة بالفوتوغرافية"، مع قبة المقام الشريف والمنارات "جاعلاً نقطة منظر المدينة من فوق الطوبخانة (القلعة)"، وأخذ كذلك رسماً للقبة من داخل الحرم النبوي، وقال: "ما سبقني أحد لأخذ هذه الرسومات بهذه الآلة أصلاً". وقد ظهر الرسمان في الكتاب حفراً على النحاس.

٤ – لم يشر محمد صادق في كتابه هذا أبداً إلى أنه رافق في رحلته والي مصر محمد سعيد باشا، ولم يذكر أي تفاصيل عن المرافقين الآخرين، ولا نعرف صحبته لوالي مصر إلا من كتابه الثاني[٤٠] حيث ذكر بالنص ما يأتي: "أما معالم وسير هذا الطريق ومسافاته المترية التي ألفتها وطبعتها سابقاً بمطبعة عموم أركان حرب، بناء على ما شاهدته وقسته بمروري مع المرحوم محمد سعيد باشا والي مصر حين توجه زائراً في سنة ١٢٧٧هـ".

وبالمناسبة أشار الدحلان[٤١] إلى أن شريف مكة المكرمة عبدالله بن محمد بن عبدالمعين سافر إلى المدينة لاستقبال والي مصر بكل حفاوة، ثم رافقه في رحلة العودة إلى مصر، حيث ظل بها إلى شهر شوال من العام المذكور (١٢٧٧هـ) قبل عودته إلى مكة المكرمة. وهذه نصوص قاطعة بأن رحلة والي مصر إلى المدينة تمت خلال شهر شعبان ١٢٧٧هـ الموافق شهر فبراير ١٨٦١م وليس ١٨٦٠م، وأن قيام محمد صادق بقياس المسافات بين الوجه والمدينة وينبع البحر جرى عندما كان بمرافقة الوالي حسب النص السابق ولا ندري لماذا ذكر كل من ترجم لمحمد صادق أن الرحلة تمت عام ١٨٦٠م، بل إن عبدالرحمن زكي يزعم[٤٢] أن محمد صادق رافق عام ١٨٦٠م "الوالي محمد سعيد باشا إلى الأقطار الحجازية وزار المدينة المنورة، وكانت تلك الزيارة مقدمة لرحلته العلمية التي اضطلع بها في العام الثاني في شتاء ١٨٦١م".

و هذا غير صحيح لأن زيارة والي مصر معلومة كما أوضحنا في الفقرة ٤ السابق ذكرها، قد تمت في العام نفسه ١٢٧٧هـ، وربما يعود الخطأ إلى انتقال المصريين من استعمال التقويم الهجري إلى الميلادي بعد الاحتلال الإنجليزي، فيرجعون للجداول الفلكية ويضعون عام ١٢٧٧هـ مقارناً لعام ١٨٦٠م، دون ملاحظة أن العام الهجري بدأ في العاشر من يوليو ١٨٦٠م.

جـ - رحلته الثانية إلى الحجاز عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م):

غادر محمد صادق بك بصفته أميناً للصرة القاهرة يوم الأربعاء ٢٤ من شوال ١٢٩٧هـ (٢٩ من سبتمبر ١٨٨٠م)، برفقة المحمل سالكاً الطريق البري، ووصل إلى مكة المكرمة يوم الأثنين الخامس من شهر ذي الحجة عام ١٢٩٧هـ (٨ نوفمبر ١٨٨٠م)، ومكث بها ٢٠ يوماً فقط، ثم سافر إلى المدينة ووصلها في العاشر من محرم ١٢٩٨هـ (١٤ ديسمبر ١٨٨٠م)، ومكث بها خمسة أيام، ثم غادرها إلى القاهرة حيث وصلها الخميس ٢٦ من صفر ١٢٩٨هـ (٢٧ من يناير ١٨٨١م). في رحلته اصطحب المؤلف معه آلة التصوير، والتقط صوراً فوتوغرافية، وقد سارع حال عودته بإصدار كتابه الثاني "مشعل المحمل في سير الحج المصري برا." وقد أكد في صفحة ٤٥ أن أحداً لم يسبقه إلى "أخذ هذه الرسومات بالفتوغرافيا أصلاً". ونشر الصورة الفوتوغرافية عن طريق الحفر على النحاس، ظهرت على غلاف الكتاب تمثل المحمل في شوارع القاهرة، إلى جانب الرسمتين اللتين سبق نشرهما في كتابه الأول للمدينة المنورة والمسجد النبوي. ويبدو أن طبع الصور الفوتوغرافية ضمن الكتب لم يكن سهلاً حتى ذلك التاريخ، (انظر ملحق تاريخ التصوير)، كما يبدو من المؤكد أن محمد صادق سافر إلى إيطاليا بعد عودته من الحج، وعرض صوره الفوتوغرافية التي نشرت لأول مرة عن الحرمين، فنالت الميدالية الذهبية للمعرض الجغرافي الدولي هناك، وسنأتي بالتفصيل على قصة الجوائز فيما بعد. ونلحظ على كتاب " مشعل المحمل" ما يأتي :

١ – لم يشر في كتابه هذا إلى صوره الفوتوغرافية الأولى في رحلته إلى المدينة المنورة عام ١٢٧٧هـ (١٨٦١م) التي رجحنا في مقدمة هذا الباب اندثارها كما سبق توضيحه، ولذلك فإننا لا نرجح صحة ما ذكره ويليام فيسي[٤٣] تحت صورة المدينة المنورة لمحمد صادق أنها التقطت عام ١٨٦١م.

والغريب أن بدر الحاج نشر الصورة نفسها[٤٤] وقال: إنها من تصوير محمد صادق ١٨٨٢م. و الصحيح أن الصورة التقطت عام ١٨٨٠م.

ومن جهة ثانية قال بدر الحاج[٤٥]: إن كتاب مشعل المحمل "كسابقه مزين بالصور الفوتوغرافية". والواقع أن الكتابين لا يحويان صوراً، بل رسوماً محفورة على النحاس كما أوضحنا من قبل.

٢ – يضم "مشعل المحمل" فقط ثلاثة رسوم محفورة: واحداً للمحمل في شوارع القاهرة واثنين للمدينة المنورة وهما الرسمان نفسهما السابق نشرهما في كتابه الأول، ولا يضم الكتاب أياً من الصور الفوتوغرافية التي نص على التقاطها في هذه الرحلة الثانية وهي:

١–صورة مقبرة المعلاة عند دخوله مكة المكرمة، ٢– صورة للشيخ عمر الشيبي سادن بيت الله الحرام أرسلها له مع أبيات من نظمه، ٣– صورة

٤٠– محمد صادق، مشعل المحمل، مرجع سابق ص ٤٨.

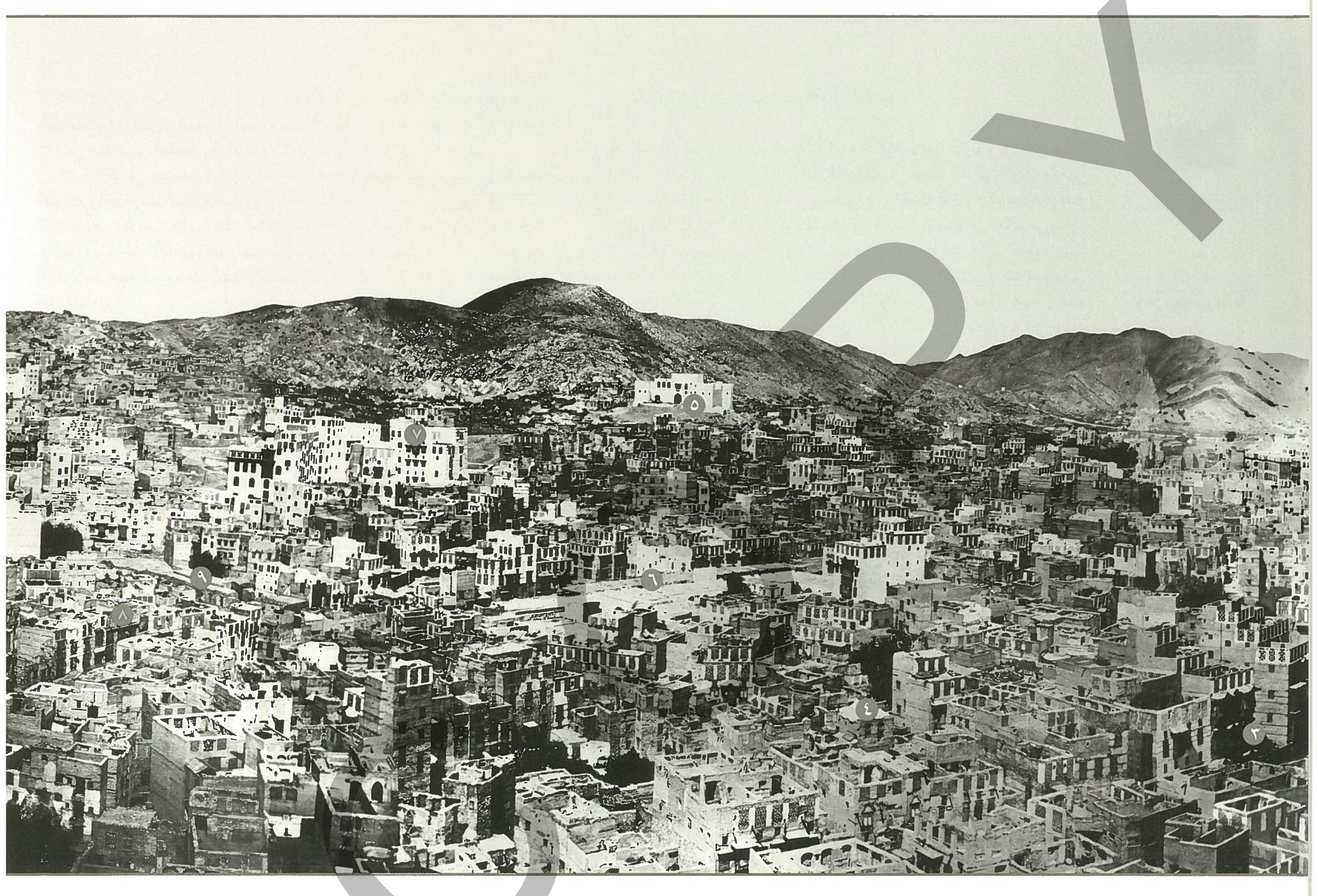
٤١– أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام، ص ٣٢٣.

٤٢– عبدالرحمن زكي، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ١٦٠

٤٣ – Facey, William, Saudi Arabia by the First Photographers, p.8.

٤٤– بدر الحاج، المملكة العربية السعودية: صور من الماضي، ص ٢٦/٢٧.

٤٥– بدر الحاج، المملكة العربية السعودية، المرجع السابق، ط٢، ص ١٩.



[صورة شاملة (بانورامية) لمكة المكرمة. التقطتها البعثة العسكرية العثمانية عام ١٢٩٧هـ من فوق جبل أبي قبيس. تبين ساحة الحرم من جهة باب العمرة. كما تبين العامودين الساندين لأعمدة الرواق الرخامية هناك التي كانت تحت الصيانة. والتي ظهرت في صورة محمد صادق رقم ١. وتبين الصورة من أقصى اليمين: ١- قبة المسجد والمنارة المقامة على مكان مولد النبيﷺ والمعروف اليوم بمكتبة مكة المكرمة. في مدخل شعب بني هاشم. ٢- الغزة ويظهر قصر الحكم الذي بناه محمد علي باشا عام ١٢٢٨هـ ليصبح داراً للإمارة بمحلة الغزة. على يمين الصاعد من المسجد الحرام. ٣- حي القشاشية وفيها الحمام المشهور الذي تظهر قبته في الصورة. ٤- المنطقة من وسط القشاشية إلى قبل المسجد الحرام وتبدو منازلها المتكاثفة قبل هدمها بأكثر من عشرين عاماً.



الحرم الشريف وما حوله من البيوت من عدة جهات، ٤- صورة لعرفات، ٥- صورة لمسجد الخيف، ٦- صورة للمسجد الحرام وقت ازدحامه بعد نزول الحجاج من منى، ٧- صورة للمدينة المنورة تظهر القبة الشريفة والمنائر الخمس، ٨- صورة للقبة الشريفة من داخل المسجد النبوي، ٩- صورة لشيخ الحرم النبوي وبعض الأغوات. إضافة إلى رسم خريطة سطحية للحرمين المكي والنبوي.

٣ - ذكر المؤلف(٤٦) أن الكعبة المشرفة تحرم يوم ٢٧ من ذي القعدة، ووصف ذلك بقوله: "يحاط البيت من الأسفل إلى ارتفاع مترين بالبفتة البيضاء"، ونلحظ أن محمد صادق دخل مكـة هذا العام (١٢٩٧هـ) في الخامس من شهر ذي الحجة، أي أنه وجد الكعبة محرمة، وربما شرح له السادن الشيخ عمر الشيبي الذي التقاه وصوره موعد الإحرام. ويقول أيضاً: إن الكعبة تلبس ثوبها الجديد يوم العيد، أي العاشر من شهر ذي الحجة، ومعلوم أن الثوب الجديد يظل طرفه الأدنى مبروماً أو مرفوعاً بارتفاع مترين حتى تخف شدة الازدحام، وهذه نقطة مهمة لملاحظة تاريخ التقاط صور الكعبة المشرفة أيام مواسم الحج. وكما هو معلوم أن ألبوم محمد صادق لا يضم صورة السادن، وأن الشيخ عمر هو ابن جعفر بن محمد الشيبي، وقد تولى السدانة من عام ١٢٩٦هـ إلى عام وفاته ١٣٠٤هـ، وقد اتصلنا بالشيخ طلحة بن حسن بن عبدالقادر الشيبي، وهو سادن بيت الله منذ عام ١٤١٣هـ لمعرفة مصير صورة الشيخ عمر. ولكن لم يعثر لها على أثر.

د - رحلته الثّالثـة عَـام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م):

بعد انقطاع أربعة أعوام قدم محمد صادق إلى الأراضي المقدسة أيضاً بصحبة المحمل أميناً للصرة مرة ثانية، وقد سلك الطريق البحري من السويس التي غادرها يوم السبت ١٢ من ذي القعدة ١٣٠٢هـ (٢٢ أغسطس ١٨٨٥م) ووصل إلى جدة في ٢٩ من ذي القعدة ودخل مكة المكرمة يوم الأحد ٤ من ذي الحجة (١٣ سبتمبر ١٨٨٥م)، ثم غادرها بعد أداء الحج يوم الجمعة غرة المحرم ١٣٠٣هـ، أي أنه مكث بمكة المكرمة ٢٦ يوماً، ثم وصل المدينة يوم ١٧ من المحرم ١٣٠٣هـ، وغادرها إلى الوجه يوم الاثنين ٢٥ من المحرم (٢ نوفمبر)، وأقلَّته السفينة إلى السويس ثم القاهرة التي وصلها يوم الاثنين ١٦ من صفر ١٣٠٣هـ (٢٣ نوفمبر ١٨٨٥م).

وفي شهر ذي القعدة ١٣٠٣هـ (أغسطس ١٨٨٦م) أصدر كتابه الثالث "كوكب الحج" بعد رحلته الرابعة التي سنتكلم عنها بعد قليل. وذكر بدر الحاج(٤٧) أن المؤلف التقط العديد من الصور الفوتوغرافية خلال هذه الرحلة، لكن مراجعتنا للنص تؤكد أن المؤلف ذكر فقط التقاطه صورة واحدة للشريف بمفرده بملابس التشريف.

هـ - رحلته الرّابعَة عَـام ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م):

لم يمكث محمد صادق بالقاهرة إلا بضعة وعشرين يوماً بعد عودته من رحلته الثالثة ليغادرها في رحلته الرابعة إلى الديار المقدسة، حيث عينته المالية ليقوم بتسليم قمح (حَب) الصدقة لمكة المكرمة وجدة والمدينة. فغادر القاهرة إلى السويس ١٢ من ربيع الأول ١٣٠٣هـ ومنها إلى مكة المكرمة، حيث وصلها في ١٨ من ربيع الأول ١٣٠٣هـ (أواخر ديسمبر ١٨٨٥م)، وتنقَّل بين مكة المكرمة وجدة وذهب إلى ينبع في طريقه إلى المدينة، لكنه عاد إلى جدة ثم مكة المكرمة بسبب انقطاع الطريق، ثم غادر جدة بحراً إلى مصر غرة جمادى الآخرة ١٣٠٣هـ (٦ مارس ١٨٨٦م)، أي أنه مكث حوالي سبعين يوماً. وكما سبق أن ذكرنا في تفصيل رحلته الثالثة أنه نشر كتابه الثالث "كوكب الحج" في شهر ذي القعدة ١٣٠٣هـ (أغسطس ١٨٨٦م)، أي بعد أكثر من خمسة أشهر من عودته من الرحلة الرابعة، حيث وصف رحلته الثالثة في ٦٧ صفحة ثم وصف رحلته الرابعة في خمس صفحات في نهاية الكتاب، وقبل صفحة تختيم إدارة المطبعة.

وحتى تاريخ هذه الرحلة الرابعة لم يذكر المؤلف كلمة واحدة عن نشره للصور الفوتوغرافية التي التقطها في رحلته الثانية، ولا عن حصوله على ميدالية ذهبية لتلك الصور من إيطاليا، ولا عن عضويته في الجمعية الجغرافية المصرية أو رئاسته لها، كما أنه لم يذكر إن كان قد التقط صوراً جديدة في رحلتيه الثالثة والرابعة.

و - رحلته الخامسة عَـام ١٣٠٤هـ (١٨٨٧م) وصدور كتابه الأخير دَليل الحَج:

مضت على صدور كتابه الثالث "كوكب الحج" عشر سنوات، وفي سنة ١٣١٣هـ (١٨٩٦م) صدر كتابه الرابع والأخير عن رحلاته إلى الحرمين بعنوان "دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج" في ١٥٢ صفحة ويضم تسع صور فوتوغرافية (غير محفورة) منها صورتان للمدينة المنورة وأربع صور لمكة المكرمة ومنى، إلى جانب رسم مسطح للحرمين المكي والمدني، وخريطة تبين طريق الحج، من قلعة الوجه إلى مكة المكرمة بما فيها جدة والمدينة، وفي جزء منها خريطة لطريق المحمل البري من مصر إلى الوجه عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) ونلحظ أيضاً أن معظم الصور الفوتوغرافية المنشورة في هذا الكتاب، عليها توقيع (SADAG SC GENEVE) بالحرف اللاتيني.

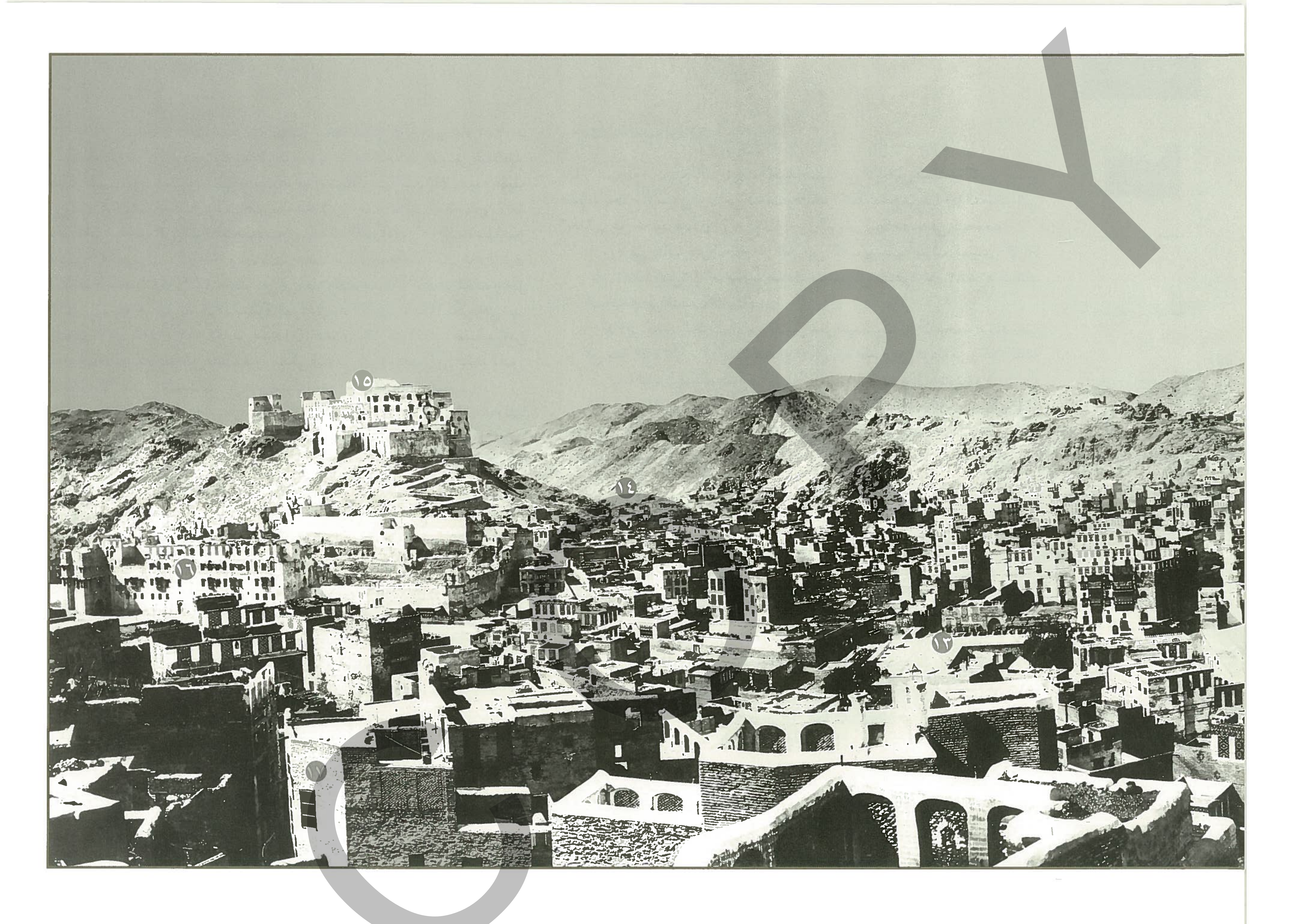
ونفاجأ بعدد من الحقائق عن أحداث سابقة يذكرها المؤلف في كتابه المذكور لأول مرة وهي:

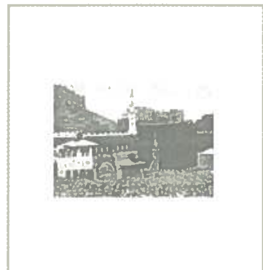
١ - ذكر في الصفحة الثالثة أن الصور الفوتوغرافية التي التقطها في رحلته الثانية ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) قد حصلت على الميدالية الذهبية من الدرجة الأولى بمعرض "ونيزيا" (البندقية بإيطاليا) سنة ١٢٩٨هـ (١٨٨١م).

٤٦- محمد صادق، مشعل المحمل، مرجع سابق ص ٢٨.

٤٧- بدر الحاج، مرجع سابق، ط٢ ص ٢٧.


٢
١


١٥
١٤
١٦
١٣
١٧



٢ – جاء في صفحة ٦٩ عند استعراضه تفاصيل رحلته الثالثة التي قام بها عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م) أنه قام ثاني يوم وصوله مكة المكرمة بزيارة "أحد الحكماء المسمى عبدالغفار أفندي الطبيب، وهذا يشتغل بالطب والفوتوغرافيا"، ولم يذكر سبباً لعدم كشف هذه الحقيقة في كتابه كوكب الحج الذي وصف فيه رحلة عام ١٣٠٢هـ، والغريب أنه قام بالزيارة بعد وصوله بيوم واحد، على رغم انشغاله بمهمته الرسمية أميناً للصرة، فهل كان السيد عبدالغفار مشهوراً بالتصوير لهذه الدرجة؟ وللأسف أن محمد صادق لم يوضح سبب هذه الزيارة، لكنه أضاف بعد ذلك قائلا: "وقد حضر معي إلى مصر وتعلم صناعة الأسنان من الدكتور فولر الشهير..." وسنعرف فيما بعد أن المستشرق الهولندي سنوك الذي زار مكة المكرمة في شهر جمادى الأولى عام ١٣٠٢هـ (مارس ١٨٨٥م) وغادرها أوائل ذي القعدة (أغسطس) من العام نفسه قد اعتمد كلياً على هذا المصور المكي المذكور شبه المجهول في التقاط الصور العامة لمكة المكرمة وللمشاعر، بل ادعى سنوك أنه هو الذي علمه فن التصوير.

٣ – أورد المؤلف في الصفحات ٥٦ – ٨٦، ثم ١٤٧ – ١٥٠ وصفاً لرحلته الرابعة، وفيها شرحٌ لم يذكره في كتابه "كوكب الحج"، (الخاص بالرحلة الثالثة والرابعة)، مثل مشاركته في غسل الكعبة المشرفة، ووصفه لمكة المكرمة وسكانها وتوسعه في شرح مصادر عين زبيدة، ثم كلامه عن حكام مكة المكرمة، وكذا كلامه عن واردات ومنصرفات ولاية الحجاز، وسكانها وطبائع القبائل فيها.

وهذا يدل على أنه قد استمد معلوماته من الطبعة العربية لسالنامة الحجاز التي صدرت عام ١٣٠٣هـ باللغة العربية.

٤ – جاء في صفحة ٥ أنه قام برحلة خامسة إلى الأراضي المقدسة، حيث قال: "وفي سنة ١٣٠٤هـ، تيسر لي التوجه إلى مكة المكرمة، وطفت بالبيت في خامس رجب (أول أبريل ١٨٨٧م)". ثم ذكر في الصفحات ٧٩ – ٨٤، أنه حضر إلى مكة المكرمة بخصوص مأمورية غلال الصدقة في شهر شعبان ١٣٠٤هـ (مايو ١٨٨٧م)، ورافق الشريف عون الرفيق والوالي صفوت باشا (أصبح مصطفى صفوت والياً خلفاً لعثمان نوري عام ١٣٠٣هـ) في غرة رمضان ١٣٠٤هـ إلى الطائف، وأوضح أنه التقط صوراً فوتوغرافية للشريف، ولمدينة الطائف، وظل بها إلى يوم ١٧ من رمضان ١٣٠٤هـ (٩ يونيو ١٨٨٧م)، ولم يوضح التاريخ الدقيق لعودته إلى مصر، غير أن المؤكد أنه أمضى أكثر من شهرين في الأراضي المقدسة ومعه آلة التصوير الفوتوغرافي. ونحن لا نرجح أن يكون محمد صادق قد أتى إلى مكة المكرمة في الخامس من رجب وعاد إلى مصر ثم أتى ثانية في شعبان من نفس العام.

٥ – و جاء في صفحة ٤٦ قوله: "قد تيسر لي المجيء مراراً إلى مكة المكرمة وجدة من غير أوان الحج". وتوحي هذه العبارة بتردده على مكة المكرمة وجدة، ربما في رحلات أخرى غير التي ذكرنا. لكنه لم يشر إطلاقاً إلى ما أوضحنا من الرحلات.

وينتهي كتابه الأخير دون الإشارة أبداً إلى مصير صوره الفوتوغرافية التي التقطها في رحلته الأولى عام ١٢٧٧هـ (١٨٧٧م). كما أنه لم يأت على ذكر عضويته في الجمعية الجغرافية المصرية أبداً.

ز – مُناقشَة عَامَّـة لرَحَلَات محَمَّد صَادق:

إننا لا نستطيع أن نقطع بأن زيارات محمد صادق إلى الأراضي المقدسة كانت خمساً فقط، ويحتاج الأمر إلى مزيد من البحث والتدقيق. كما يتضح من مراجعة المصادر التي تحدثت عن محمد صادق أن له أنشطة أخرى لم يشر إليها بنفسه في كتبه ومنها:

– ورد في كتاب بدر الحاج[٤٨] نقلاً عن كتاب يوسف آصاف المسمى "تاريخ عام ١٨٨٧" ص٤٦ "أن محمد صادق قد منح في القاهرة عام ١٨٨٧م النيشان المجيدي من الصنف الثالث".

– جاء في كتاب البعثات العلمية للأمير عمر طوسون[٤٩] أن محمد صادق عين في سنة ١٢٩٩/١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) – أي بعد عامين من عودته من رحلته الثانية – رئيساً لقلم الرسم بمصلحة "التاريخ" تحت رياسة الجنرال أستون. ولا نعلم إن كان تعيينه قد تم قبل تقاعده من الجيش أو بعده، ولم يوضح المؤلف الجهة التي تتبعها هذه المصلحة؟ كما أورد عمر طوسون أن الجمعية الجغرافية المصرية عينت محمد صادق عضواً فيها بعد رحلاته إلى الحجاز ولم يحدد تاريخاً، وأنه ألقى محاضرات قيمة عن تلك البلاد. ومن جهة ثانية أكَّد زكي مجاهد في كتاب الأعلام الشرقية[٥٠] عضوية محمد صادق للجمعية الجغرافية الخديوية.

– وأكثر من ذلك يزعم الأستاذ كارني جيفن في مقدمته التي كتبها لكتاب بيترز "الحج"[٥١] أن محمد صادق قد أصبح رئيساً للجمعية الجغرافية المصرية بالقاهرة بعد حصوله على جائزة البندقية. لكن المصادر المصرية لم تشر إلى رئاسته للجمعية، كما أن قائمة رؤساء الجمعية والتي تنشرها كتيبات الجمعية لا تضم اسم محمد صادق بين من رأس الجمعية منذ إنشائها.

– نقل بدر الحاج[٥٢] عن كتاب "تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها" تأليف نعوم شقير، ج٢ صفحة ٥٦، أن محمد صادق شغل عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) منصب محافظ العريش، وظل بها شهرين فقط حيث أصيب بضربة شمس، فعاد إلى القاهرة حيث توفي بها في العام نفسه.

وأخيراً يبدو من المؤكد – من متابعة ما كتب على أغلفة كتبه المنشورة – أنه حصل على رتبة الباشوية بعد سنة ١٣٠٣هـ (١٨٨٦م) وقبل ١٣١٣هـ (١٨٩٦م)، ولا تساعدنا المراجع المتوافرة على تحديد ذلك، ولا عن الجوائز الأخرى التي حصل عليها. ولا يفوتنا بالمناسبة أن نذكر أن نريمان زوجة فاروق ملك مصر السابق هي ابنة حسين فهمي بن علي بن محمد صادق.

ولا بد أن نتطرق بالتفصيل أولاً لقصة ألبوم الصور الذي حاز لأجله على جائزة البندقية، ثم نتطرق إلى موضوع المصورين المعاصرين له، وهل سبق أحد منهم محمد صادق، أم أنه سبقهم بنشر صوره في العالم؟ كما أن من الضروري معرفة قصة المصور الطبيب المكي عبدالغفار الذي يتنازعه محمد صادق والمستشرق سنوك، كما سنوضح ذلك فيما بعد.

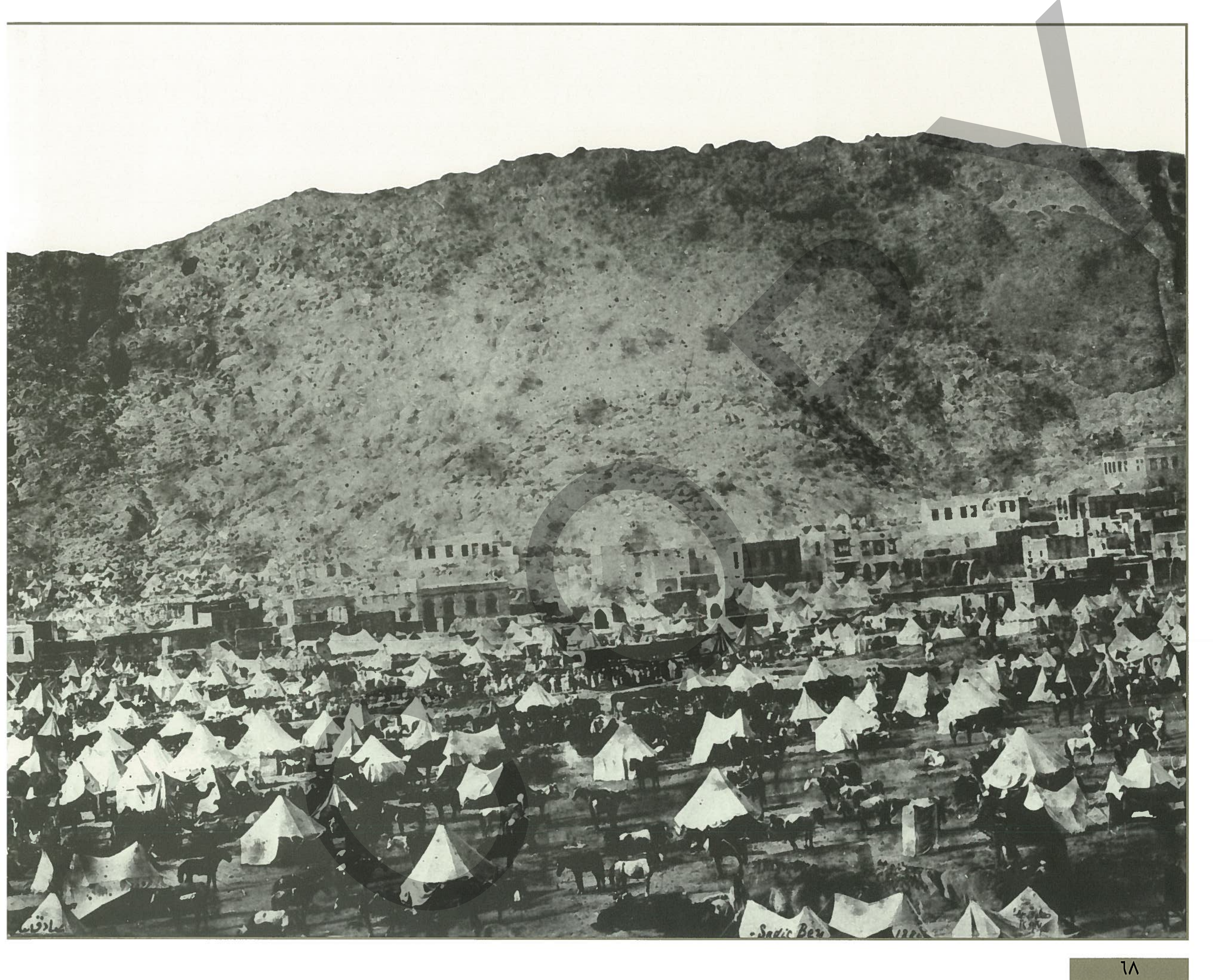
٤٨– بدر الحاج. مرجع سابق. ط٢. ص ٣٥.

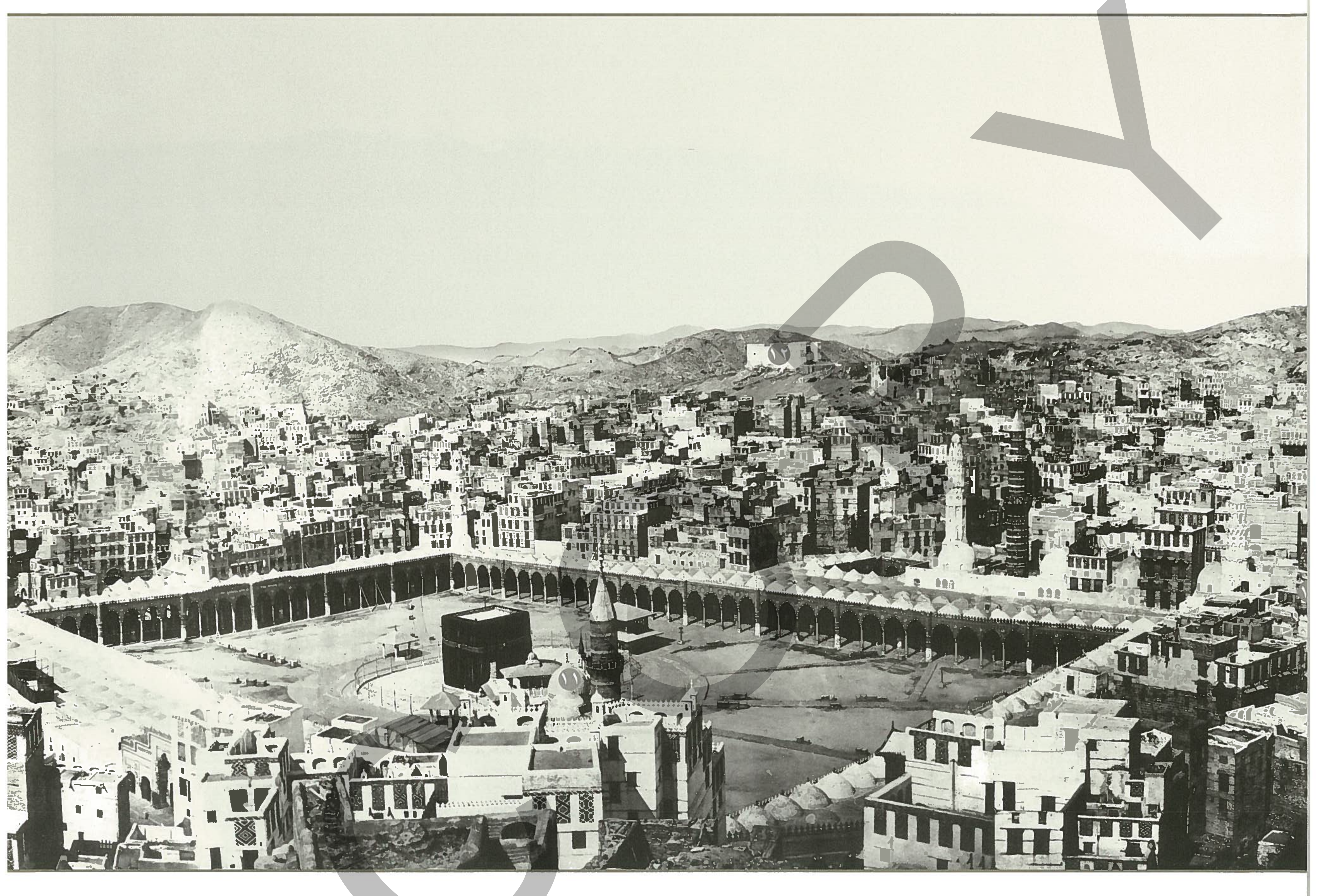
٤٩– عمر طوسون. مرجع سابق ص ٣٠١.

٥٠– زكي مجاهد. مرجع سابق. ص ٢٣١.

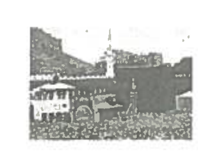
٥١ – Peters,F.E, The Hajj, p.xiv.

٥٢– بدر الحاج. مرجع سابق. ط٢. ص ١٦.

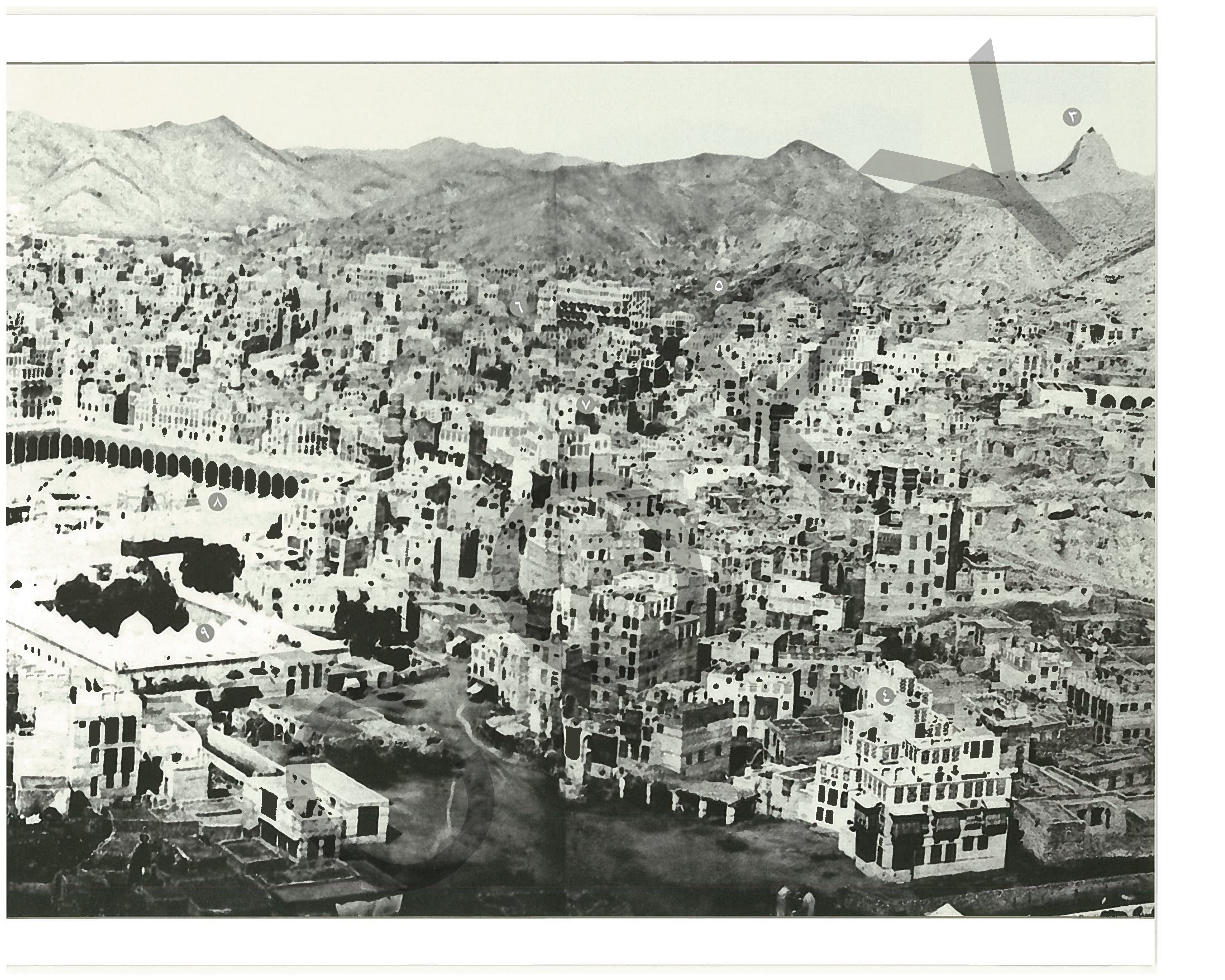

Sadic Bey

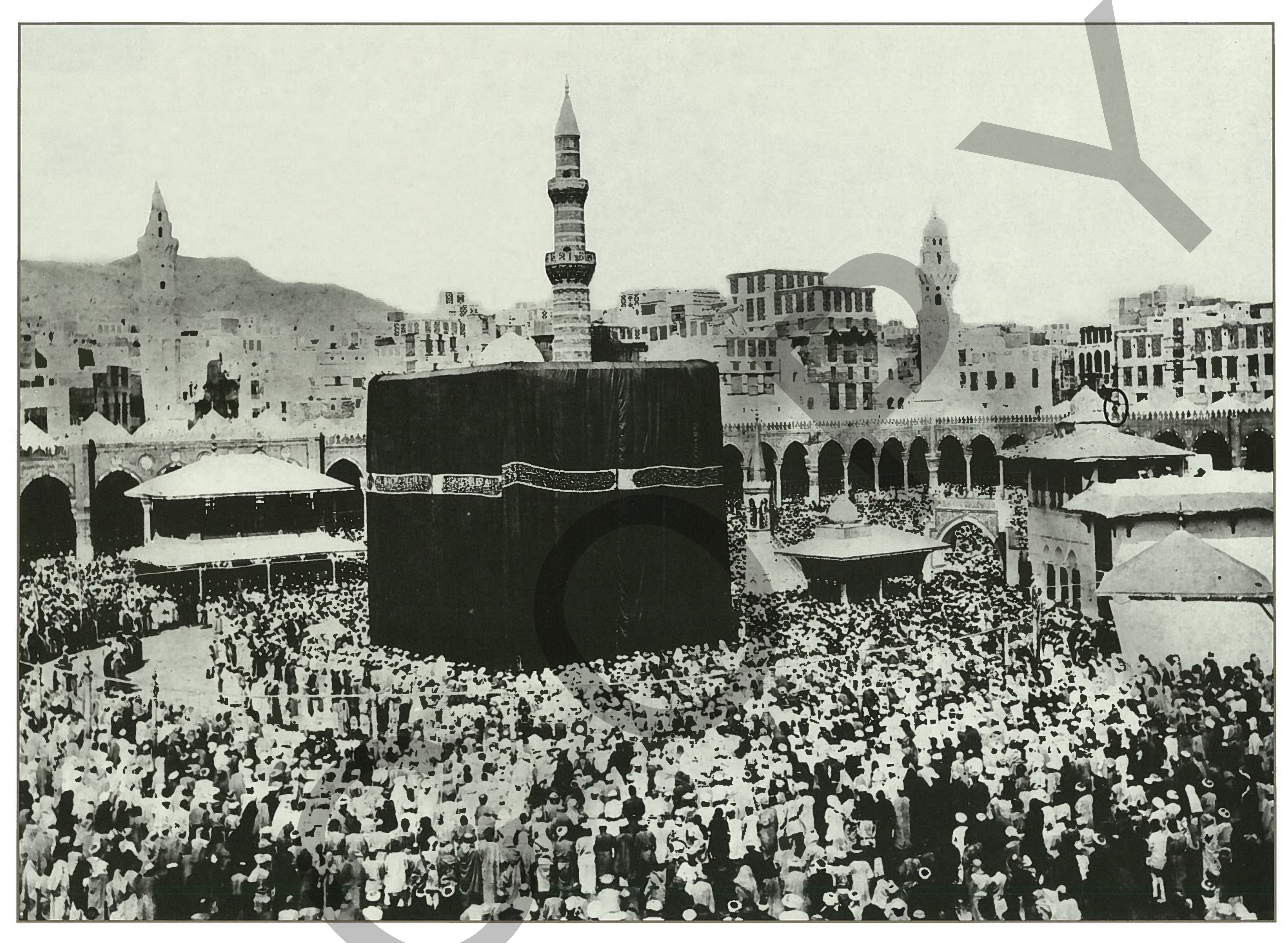


٥- قلعة جبل لعلع وهي المعروفة اليوم بقلعة اللاسلكي. ٦- مظلة المدعى. ٧- بيوت الأشراف بالقرارة. ٨- البيوت المطلة على شارع المسعى. ٩- المظلة المقامة على خان المفتي الذي يربط المسعى بشارع سويقة. ١٠- منارة قايتباي. ١١- المسجد الحرام وتظهر منارة باب علي وبجانبها الجزء العلوي من قبة سقاية العباس وقبة الفراشين، ومبنى زمزم. ١٢- قلعة جبل هندي. ١٣- مبنى التكية المصرية - أنشئت عام ١٢٣٨هـ (١٨٢٣م) - وخلفها حوش الشريف يحيى. ١٤- جزء من بيوت حارة المسفلة (المسيال). ١٥- قلعة أجياد وتلحظ المباني التي بداخلها المكونة من عدة أدوار. ١٦- بيوت الأشراف في أجياد. ١٧- جزء من بيوت جبل أبي قبيس المطلة على أجياد].



◄ [الصورة رقم ٧ في ألبوم محمد صادق. وهي مكونة من إطارين الأيمن عليه توقيعه بالفرنسية والأيسر عليه توقيعه باللغة العربية. وقد التقطت عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) صباح يوم عيد النحر لمنى. ويظهر في أقصى اليسار مسجد الخيف وتمتد الخيام والبيوت إلى الجهة الغربية باتجاه الجمرات].

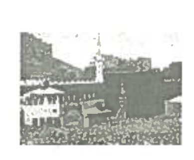

٣
٥
٦
٧
٨
٩
٤



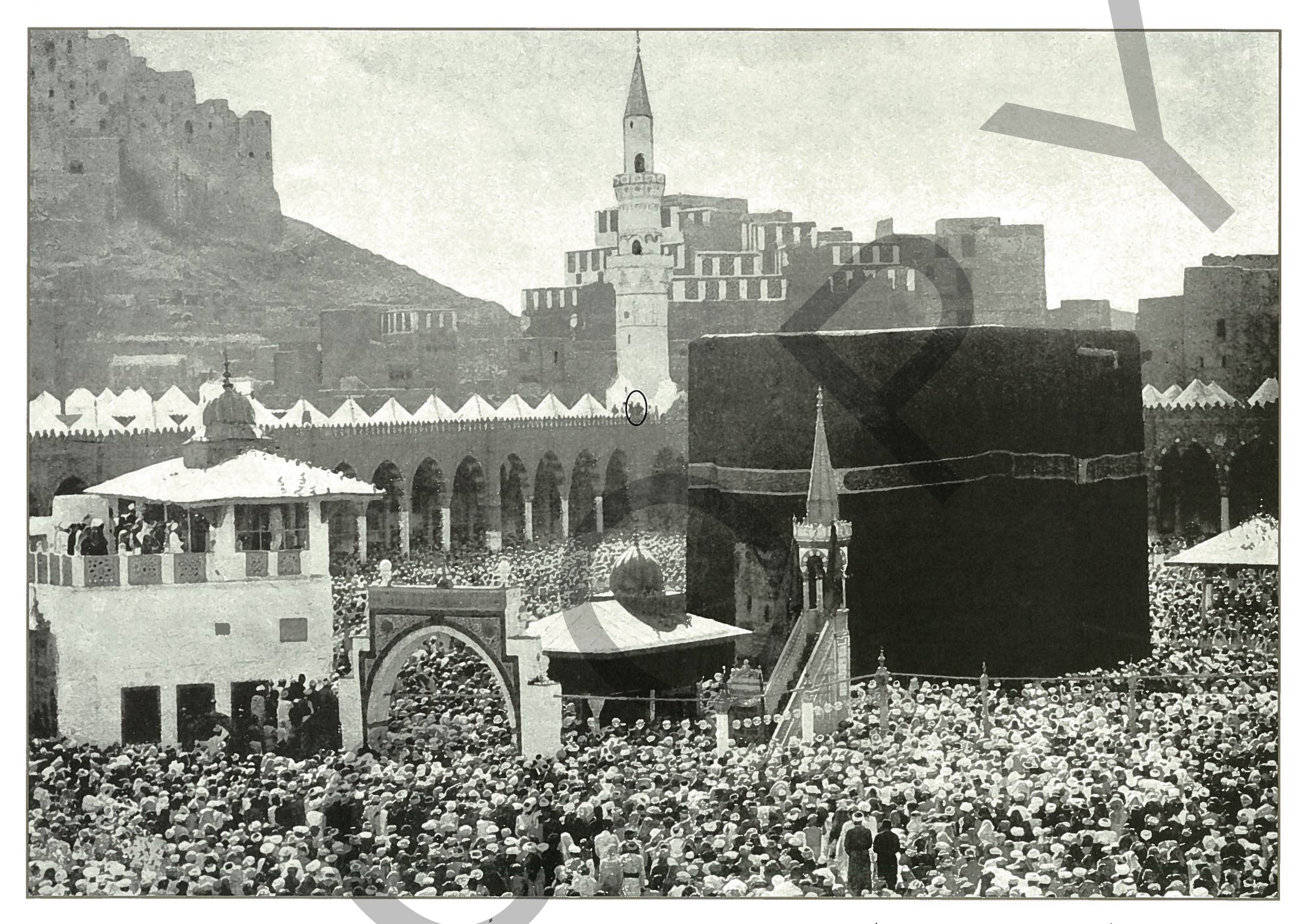
▲ [صورة التقطتها البعثة العسكرية العثمانية عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) من فوق سطح رواق المسجد الحرام الجنوبي قرب باب أم هاني وباب الوداع. ومن الواضح أنها التقطت في يوم جمعة بعد نزول الحجاج من منى ١٦ ذي الحجة. وقد ظهر إلى اليمين على سطح رواق باب سلام شخص يلبس طربوشاً (داخل الدائرة). مما يجعلنا نرجح أن الشخص هو محمد صادق. ونظراً لتشابه الموقف في هذه الصورة والصورة المنشورة في الصفحة التالية نستطيع أن نؤكد أن فريق التصوير العثماني كان يلتقط صوره في نفس الوقت والساعة التي كان محمد صادق يلتقط فيها صوره. وكل منهما في جهة مقابلة للآخر من المسجد الحرام. وأن هذه الصورة أظهرت محمد صادق. بينما ظهر فريق التصوير العسكري العثماني في الصورة المنشورة في الصفحة المقابلة].



◂ [صورة شاملة (بانورامية) لمكة المكرمة للبعثة العسكرية العثمانية، وهي مكونة من ثلاثة إطارات، ونرجح أنها التقطت أوائل عام ١٢٩٨هـ (١٨٨١م)، من فوق قلعة أجياد، بعد الزوال، وتبين: ١- شعب أجياد، ٢- جبل أبي قبيس وعلى قمته المسجد الذي بني في موضع مشق القمر، وعرف بمسجد بلال، ٣- جبل حراء (النور)، ٤- حي أجياد، ٥- شعب بني هاشم شعب علي، ٦- الغزة، ٧- القشاشية، ٨- المسجد الحرام.



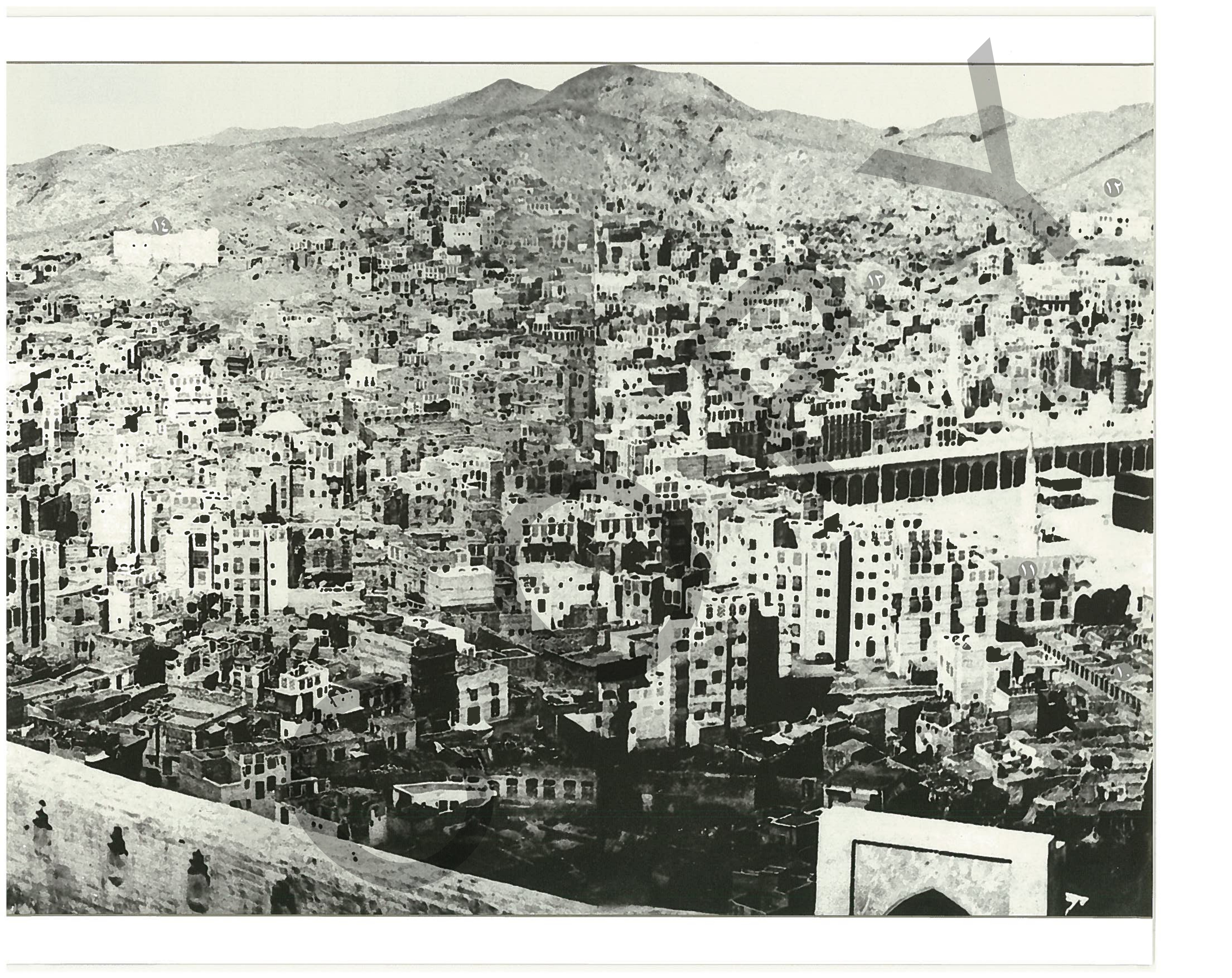
٩- مبنى التكية المصرية. ١٠- ثكنات عسكرية أمام باب أم هاني. وهـي التي بنـي في مكانها عـام ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م) مبنى الحكومة المعروف بالحميدية. ١١- البيت المقـام بجـوار بـاب أم هاني. وهو ملاصق للجدار الخارجي لأروقة المسجد الحـرام. تليـه منـارة بـاب الـوداع. ١٢- قلعة لعلع. التي سميت بعد ذلك بمدرسة اللاسكي. وهي في حي القرارة. ١٣- حي الشـامية. ١٤- قلعـة جبـل هنـدي. وقـد أقيـم علـى موقعهـا بعد ذلك مدرسـة عرفـات المتوسطة وأقيمت في ساحتها أستديوهات إذاعة نداء الإسلام بمكة المكرمة. ١٥- حارة الباب والشبيكة. ١٦- طرف قلعة أجياد].

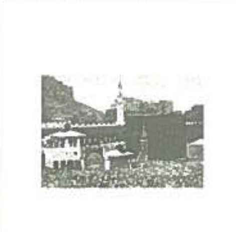


▲ [هذه هي الصورة رقم ٤ في ألبوم محمد صادق. التقطت من فوق رواق باب السلام أثناء صلاة جمعة. لاحظ ازدحام ساحة المسجد الحرام بالحجاج. ويبدو ثوب الكعبة مسدلاً، والحجاج غير محرمين، مما يؤكد التقاطها يوم الجمعة التالية للنزول من منى الموافق ١٦ من ذي الحجة ١٢٩٧هـ .ويلحظ وجود مجموعة من الناس على سطح الرواق المقابل تحت منارة باب الوداع (داخل الدائرة). ونحن نرجح أن المجموعة هي أفراد البعثة العسكرية العثمانية التي قابلها محمد صادق وهي تقوم بتصوير المناسبة نفسها. (انظر شرح الصورة على الصفحة المقابلة)].



◄ [الجهة الجنوبية الغربية للمسجد الحرام كما صورته عدسة البعثة العسكرية العثمانية أوائل عام ١٢٩٨هـ (١٨٨١م) وقد ظهر المقام الحنفي (١) بدوريه خالياً إلا من فرد يصلي تحته وظهر خلفه أحد الأعمدة الشجرية معلقاً به قناديل الإضاءة. وظهر بضعة نفر في ظل المقام المالكي (٢). إلى يمين الكعبة المشرفة كما ظهر طرف جدار حجر اسماعيل (٣). وظهر في الركن الأيسر السفلي بعض الصناديق الخشبية (٤). التي تحفظ فيهادوارق زمزم نهارا].


١٤
١٢
١٣
١١
١٠



ثالثاً - الألبومات والجوائز التي حصل عليها محمد صادق:

أصدر أمين عام الجمعية الخديوية الجغرافية المصرية بالقاهرة، ويدعى "بونولا" إعلاناً غير مؤرخ باللغة الفرنسية، عن بيع نسخ من مجموعة مناظر فوتوغرافية لمكة المكرمة والمدينة للكولونيل (أميرالاي) محمد صادق بك، كما جاء في الإعلان أن هذه المجموعة حصلت على الميدالية الذهبية للمعرض الدولي الجغرافي بالبندقية، وأن الألبوم يتألف من ١٣ صورة، كالآتي:

١ – منظر عام للمسجد الحرام و مكة المكرمة يبين الجهات الشمالية والغربية، والمنظر مؤلف من إطارين ملتصقين.

٢ – منظر آخر للمسجد الحرام يبين جهتيه الشمالية والغربية والمنازل المحيطة به، وهذا المنظر مؤلف من ثلاثة إطارات.

٣ – منظر للطواف حول الكعبة ويظهر جبل أبي قبيس.

٤ – منظر مقرب لصلاة الجمعة حول الكعبة وتظهر قلعة أجياد.

٥ – باب الصفا ويَظْهر عقدٌ واحد من عقوده الخمسة.

٦ – مقبرة المعلاة.

٧ – مخيم الحجاج بمنى، وهذا المنظر مؤلف من إطارين ملتصقين.

٨ – مخيم الحجاج بعرفات.

٩ – منظر عام للمدينة المنورة يبين القبة الشريفة والمنائر الخمس.

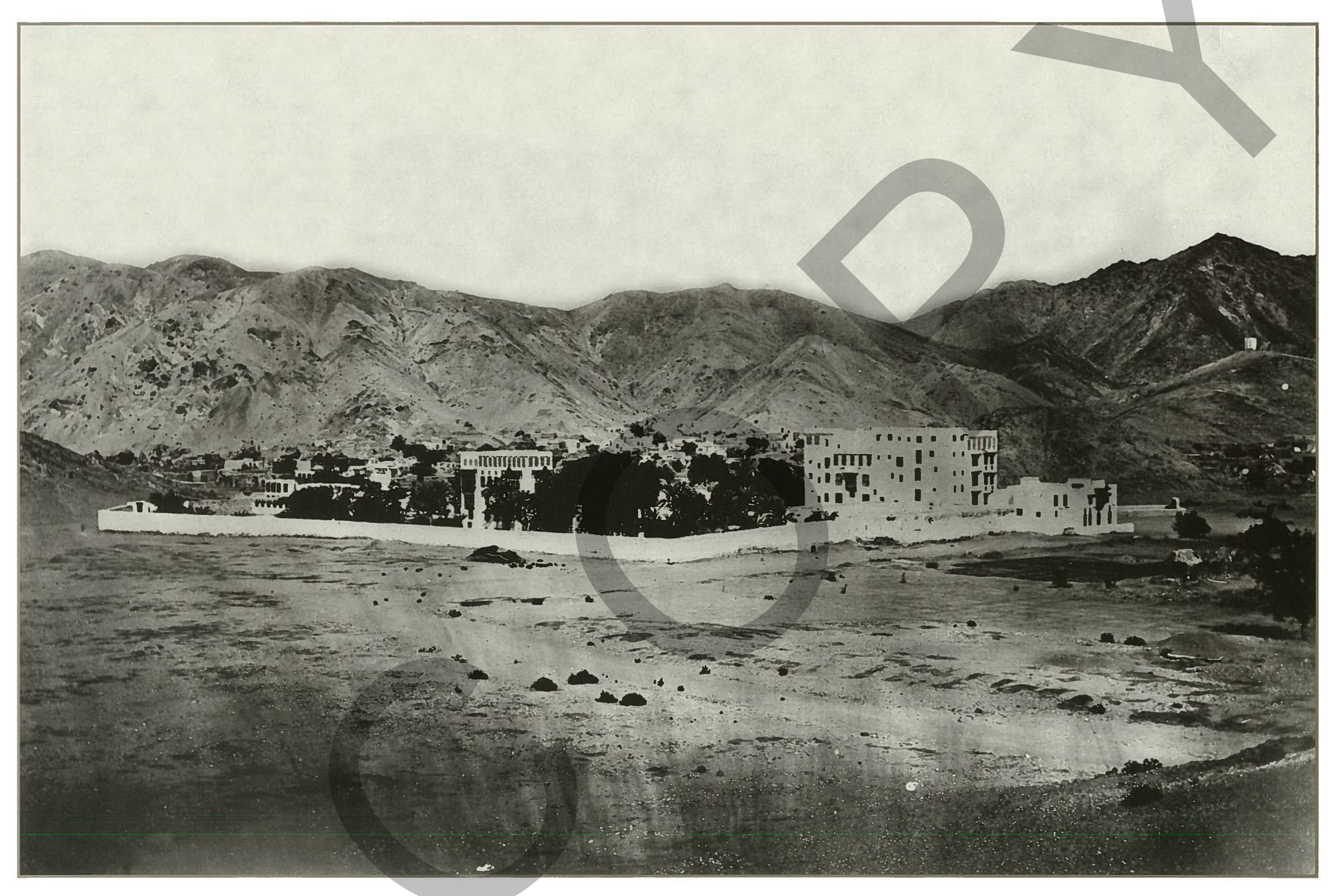
١٠ – منظر عام للمدينة يبين أيضاً المسجد النبوي والمناخة خارجة عن السور.

١١ – المسجد النبوي وتظهر القبة الشريفة والمنارة الرئيسة.

١٢ و ١٣ – صورتان بوضعين مختلفين لشيخ الحرم المدني وبعض الأغوات.

وجاء في الإعلان أن سعر المجموعة غير ملزقة على كرتون ٤٠ فرنكاً، أما الملزقة على الكرتون فقيمتها ٥٠ فرنكاً. إذن، لقد صدر هذا الإعلان غير

◄ [الجهة الشمالية الشرقية من المسجد الحرام بعد رحيل الحجاج: ١- قبة العباس (السقاية)، وبجوارها الغرفة المربعة الصغيرة التي تستخدم مخزناً لأدوات التنظيف. وكانت القبة تضم الكتبخانة المجيدية من عام ١٢٥٩هـ (١٨٤٣م) إلى عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م) ٢- قبة الفراشين (الساعة)، قبل إزالتهما عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م). ٣- المقام الحنبلي، وهو مجاور لمبنى زمزم، وذلك قبل إزاحته وتعديل موضعه ليصبح مواجهاً للمقام الحنفي، عام ١٣٠٠هـ ٤- البناء المقام فوق بئر زمزم، ويعلوه المقام الشافعي. ٥- المقصورة المقامة على مقام إبراهيم وخلفها باب بني شيبة. ٦- منارة قايتباي المقامة على مدرسة قايتباي التي تطل على المسعى. ٧- منارة باب السلام. وهذه من صور البعثة العسكرية العثمانية ونرجح أنها التقطت بعد حج عام ١٢٩٧هـ].



▲[قصر البياضية في أعلى المعابدة، قرب ريع ذاخر، كما بدا في أوائل عام ١٢٩٨هـ ويبدو في الصورة وجود قصرين شمالي وجنوبي. وقد بناهما الشريف غالب بن مساعد. وقد نزل في القصر الشمالي، الإمام سعود بن عبدالعزيز عام ١٢٢٤ هـ (١٨٠٩م) في حجته السادسة. ويظهر إلى يمين الصورة أحد أبراج المراقبة المقامة عند مدخل ريع ذاخر. (تصوير البعثة العسكرية العثمانية)].



المؤرخ ولا يزال المؤلف آنذاك في الجيش برتبة أميرالاي ويحمل لقب بك، و لم يحصل على لقب الباشوية.

إن كتاب محمد صادق الثالث (كوكب الحج) الصادر ١٣٠٣هـ (١٨٨٦م) يحمل لقب أمير أركان حرب سابق، أي أنه كان عام ١٨٨٥م متقاعداً من الجيش، ولكنه لم يحصل على الباشوية. إذن الإعلان المذكور آنفاً لا بد أن يكون صادراً عقب حصوله على الميدالية الذهبية من البندقية أي عام ١٨٨١م أو ١٨٨٢م، ومن المرجح جداً أن الجمعية الجغرافية المصرية بدأت تبيع الألبومات في ذلك الحين. من جهة ثانية فإننا وحتى الآن لم نعرف عن حصوله على أي دبلوم في فن التصوير الفوتوغرافي.

وقد وجدنا ضمن مجموعة صور محمد صادق بمكتبة الحرم المكي الشريف بمكة المكرمة إعلاناً آخر باللغة الفرنسية غير مؤرخ صادر من أمين عام الجمعية الخديوية الجغرافية المصرية، يكرر عرض ألبومات صور محمد صادق الحاصلة على الميدالية الذهبية. ونلحظ على هذا الإعلان الثاني أن المؤلف الآن قد تقاعد من الجيش؛ لأنه وصف في الإعلان بأنه "أميرالاي أركان حرب سابق"، وأنه قد أصبح يحمل لقب "باشا"، وهذا يؤكد أن هذا الإعلان الثاني صدر بعد صدور كتاب "كوكب الحج" الذي صدر في ذي القعدة ١٣٠٣هـ (أغسطس ١٨٨٦م).

ونلحظ أيضًا أن عدد الصور في الإعلان الثاني أصبح ١٢ صورة بحيث لم تتكرر الصورة الأخيرة لشيخ الحرم المدني، ولا يذكر الإعلان سعر البيع، لكنه في الأسطر الأولى يقول: إن محمد صادق قد ألف عملين عن الحج، والمقصود كتاباه "مشعل المحمل" و"كوكب الحج". ويفاجئنا هذا الإعلان بأن محمد صادق قد حصل على دبلوم من معرض فيلادلفيا l'Exposition de Philadelphie عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) وهذا التاريخ يعني مرور ١٥ عاما من رحلته الأولى إلى المدينة المنورة، وقبل أربع سنوات من رحلته الثانية إلى الحجاز، دون ذكر صور المدينة المنورة التي التقطها في رحلته الأولى التي تلف أصلها كما سبق أن أوضحناه. والغريب أن محمد صادق لم يذكر في كتبه الأربعة شيئاً عن حصوله على هذا الدبلوم.

لقد أصبحت هذه الألبومات مع مرور الزمن نادرة الوجود، وقد عرض أحد هذه الألبومات في صالة مزاد سوزبي Sotheby بلندن عام ١٩٩٨م، وأوضح دليل المزاد المذكور أن مع الألبوم المعروض للبيع كتابي المؤلف الأول والثاني، أي "نبذة في استكشاف طريق الأرض الحجازية"، و "مشعل المحمل"، إلى جانب مخطوط باللغة الفرنسية وهذه هي المجموعة التي أهداها إلى مكتبة الحرم المكي، صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز ولي العهد، نائب رئيس مجلس الوزراء، وزير الدفاع والطيران والمفتش العام وهي معروضة في متحف الحرمين الشريفين بمكة المكرمة، وتوجد صورة منها في دارة الملك عبدالعزيز بالرياض.

وقد جاء في دليل صالة المزاد المذكور، أن هناك – في الوقت الحاضر – فقط مجموعتين أخريين لهذا الألبوم، إحداهما في أيدٍ خاصة والثانية في المعهد الفرنسي بباريس: [Institut de France, Paris]، الذي أهديت إليه من عائلة شلومبرجر. ولكن بدر الحاج ذكر في كتابه[٥٣] أنه اطلع على مجموعتين من صور محمد صادق: الأولى لدى فؤاد الدباس والثانية لدى الشيخ حسن بن محمد بن علي آل ثاني بقطر، و لم يذكر مجموعة المعهد الفرنسي.

والحقيقة أن هناك أيضا مجموعة كاملة من الصور ضمن ألبومات السلطان عبدالحميد المحفوظة في جامعة إسطنبول في المحفظة رقم ٩٠٧٧٠، وتوجد صورة منها في أرشيف معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج بجامعة أم القرى بمكة المكرمة. كما أن هناك مجموعة أصلية معروضة في متحف الجمعية الجغرافية المصرية بالقاهرة، لم يشر إليها أحد.

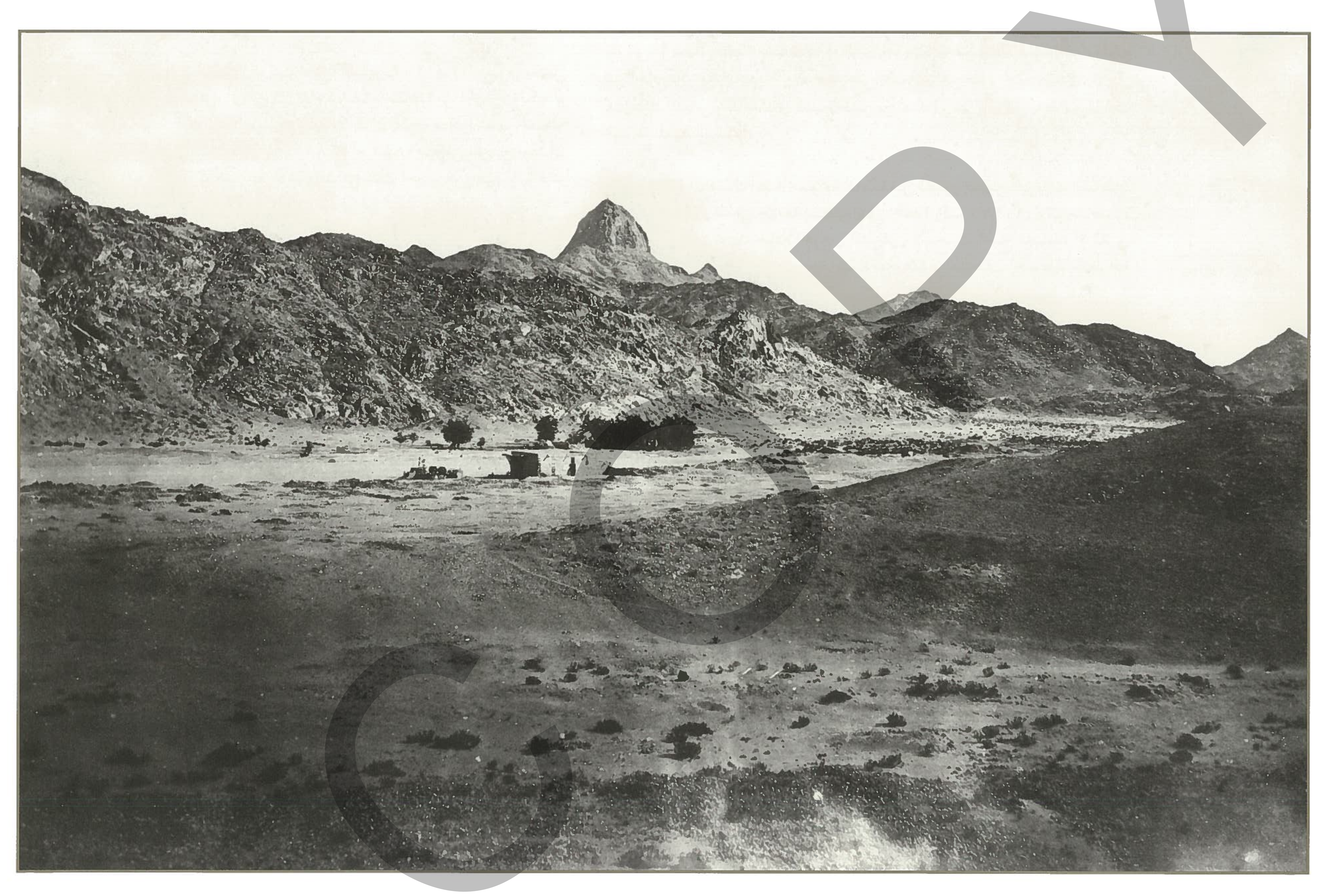
والغريب أن خبراء مزاد سوزبي المشهور في لندن عند وصفهم لصور ألبوم محمد صادق نسبوا الصورتين ١٢ و١٣ للشيخ عمر الشيبي، بوصفه شيخ الحرم النبوي، والحقيقة أن الصور لشيخ الحرم النبوي المشير شوكت باشا، كما أن خبراء المزاد لم يعرفوا أن ما أسموه "مخطوطاً مترجماً باللغة الفرنسية" إنما هو النص الفرنسي الذي كتبه محمد صادق في أثناء رحلته عام ١٢٩٧هـ ثم أصدره في كتاب باسم "مشعل المحمل" باللغة العربية.

ويظل السؤال هو أين بقية الصور التي قال محمد صادق بالنص إنه التقطها، مثلاً للشيخ عمر الشيبي، وللشريف بملابس التشريفة، وصور الطائف؟

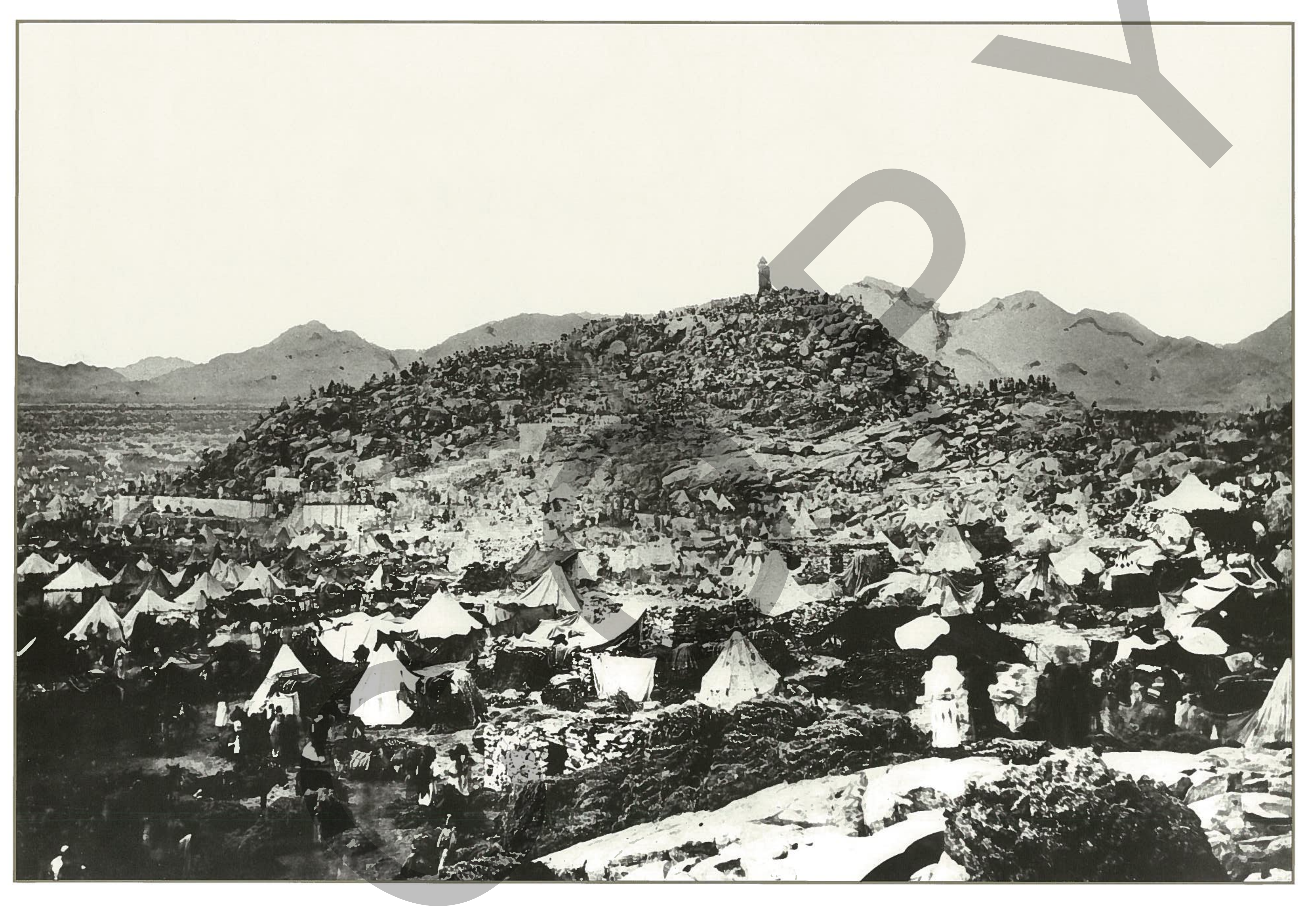
إن صورة الشريف بملابس التشريفة قد ظهرت كما نعتقد في ألبوم المستشرق سنوك فيما بعد، ومن جهة ثانية فقد ذكر بيترز في مقدمة كتابه" الحج"[٥٤] أنه قد تم العثور مؤخراً على مجموعة من الصور الفوتوغرافية التي تنسب لمحمد صادق.

٥٣ – بدر الحاج. مرجع سابق. ط٢ ص ١٠.

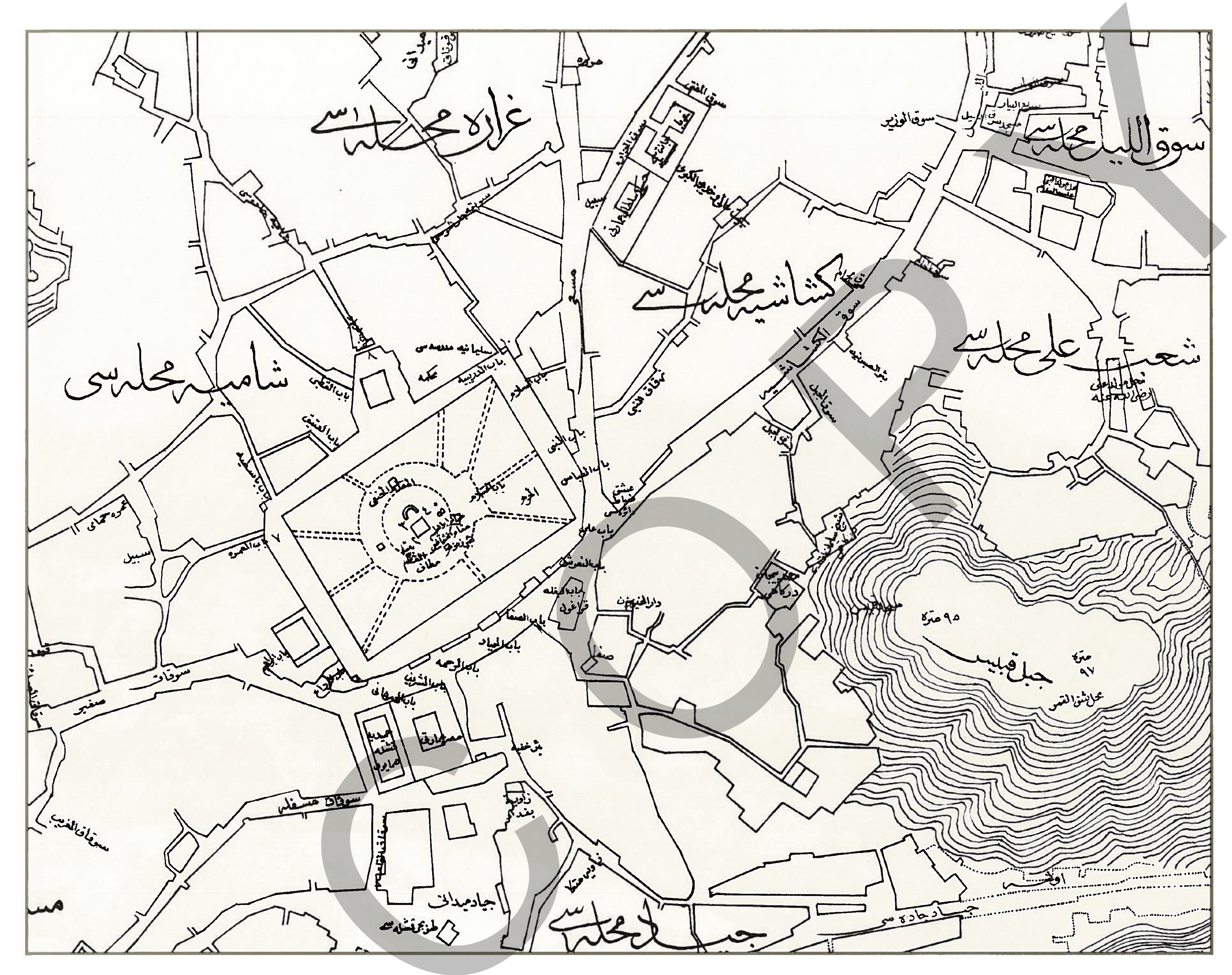
٥٤– Peters,F.E., The Hajj, op.cit, p. xi.



▲[تبين الصورة .الأبطح (شارع المنحنى، أمام مستشفى الملك فيصل اليوم). ويظهر البستان الذي كان هناك، كما يظهر في صدر الصورة جبل حراء]. (تصوير البعثة العثمانية)



▲[صورة لجبل الرحمة بعرفات في حج عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م). وهي من صور البعثة العسكرية العثمانية. ويظهر على قمته العلم. وتظهر حول الجبل مخيمات الحجاج].



▲[جزء من خارطة مكة المكرمة التي رسمتها هيئة المساحة العسكرية العثمانية عام ١٢٩٧هـ].



صور مكة المكرمة

من أوائل القرن الرابع عشر الهجري

٤



أولاً - زيارة سنوك هورخرونيه إلى مكّة المكرّمة عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م):

الدكتور كريستيان سنوك هورخرونيه "عبدالغفار" مستشرق هولندي ولد في جمادى الآخرة ١٢٧٤هـ (٨/٢/١٨٥٧م)، وقد التحق بجامعة لايدن بهولندا لدراسة اللاهوت عام ١٢٩١هـ (١٨٧٤م)، ثم كرس نفسه بعد ذلك لدراسة اللغات والآداب السامية، وكان موضوع رسالته للدكتوراه عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م)، هو "الحج عند المسلمين وأهمية الدين الإسلامي". ثم عمل سنوك مع المستشرق الألماني الشهير "نولدكه"، وعين بعد ذلك محاضراً في الدراسات الإسلامية في كلية تسمى "كلية تدريب الموظفين لجزر الهند الشرقية" وهي إحدى كليات جامعة لايدن أيضاً، وأصبح متقناً للعربية الفصحى.

في عام ١٣٠١هـ (١٨٨٤م)، حصل على إجازة دراسية من جامعته للسفر إلى الحجاز، فوصل إلى جدة غرة ذي القعدة عام ١٣٠١هـ (٢٤/٨/١٨٨٤م)، وسكن في دار القنصلية الهولندية بجدة لمدة أربعة أشهر ونصف تقريباً، ثم انتقل في منتصف ربيع الأول ١٣٠٢هـ (١/١/١٨٨٥م) للإقامة في بيت "أبي بكر رادين"، وهو حجازي من أصل جاوي، وكان سنوك يتردد دائماً إلى القنصلية الهولندية حيث أقام معملاً للتصوير الفوتوغرافي، وأصبح مشهوراً به بين سكان جدة.

ويروي الشيخ محمد بن حسين بن عمر نصيف (١٣٠٢-١٣٩١هـ) / (١٨٨٥-١٩٧١م) عالم جدة المشهور رحمه الله[٥٥] أن جده الشيخ عمر قد أرسله - وهو في الشهر السادس من عمره - إلى سنوك لالتقاط صورة فوتوغرافية له، وقد ظهرت هذه الصورة، فعلاً في ألبوم سنوك الأول، إطار رقم (٢٥) وكذلك نجد في ألبومه الأول عدداً كبيراً من الصور لأعيان مكة المكرمة وجدة وبعض العامة وعدداً من صور حجاج جنوب شرق آسيا، لكن معظمها لم يعرفه سنوك، مكتفياً بعبارة خادم مع طفل سيده، أو مطوف لحجاج الملايو، أو دلال، أو من أعيان مكة المكرمة... وهكذا بدون أي توضيح.

لقد أصبح سنوك معروفاً في جدة بصفته الحقيقية: أستاذاً للدراسات الإسلامية في جامعة لايدن، وأصبح موضع تكريم، حتى إن قاضي جدة الشيخ إسماعيل آغا ذهب بنفسه إلى مسكن سنوك يوم الجمعة ٢٩ من ربيع الأول ١٣٠٢هـ (١٦ من يناير ١٨٨٥م) لتسجيل إشهار إسلام سنوك بحضور الشهود، وتسمى باسم عبدالغفار. ولا نعرف على وجه القطع إن كان سنوك قد أظهر إسلامه قبل ذلك. وفي اليوم الثاني كرر القاضي الزيارة ومعه وفد من قبل الوالي لتهنئة سنوك بالإسلام، وإبلاغه أن الوالي عثمان نوري باشا - الموجود في جدة حينئذ- يرحب بزيارة سنوك له، فقام سنوك بزيارة الوالي غرة ربيع الثاني ١٣٠٢ هـ (١٨ من يناير١٨٨٥م)، فاستقبله الوالي بالترحاب وأبلغه بإمكانية سفره إلى مكة المكرمة. وبعد ثلاثة أيام أخرى قام الوالي عثمان باشا بنفسه بزيارة "عبدالغفار" في مسكنه بمنزل "أبي بكر رادين"، ثم ذهبا سوياً إلى حديقة القنصلية الهولندية لالتقاط صورة فوتوغرافية تذكارية للوالي. وقد ظهرت هذه الصورة في الألبوم الأول الذي نشره سنوك، برقم ٨ (صفحة ٥٤ الترجمة العربية).

وبعد شهر من ذلك غادر سنوك جدة، ووصل إلى مكة المكرمة يوم الأحد ٧ من جمادى الأولى ١٣٠٢هـ (٢٢ من فبراير ١٨٨٥م). وفي مكة المكرمة صار سنوك يختلف إلى حلقات العلماء المكيين وغيرهم، ووطد علاقته بعلية القوم، وارتاد المجالس الخاصة، كما اختلط بعامة الناس، وجلس في المقاهي العامة. كل ذلك لاستكمال دراسته للإسلام والمجتمع المكي خاصة. والحقيقة أن هناك من يشكك في صحة إسلامه، ونترك هذا الأمر لمزيد من الدراسة (انظر مقدمة المترجمين للطبعة العربية لكتاب سنوك «صفحات من تاريخ مكة المكرمة»).

وبعد أن أمضى حوالي ١٧٠ يوماً بمكة المكرمة جاء أمر من إسطنبول بإبعاده، فأبلغه قائم مقام الوالي العثماني بضرورة مغادرته مكة المكرمة فوراً، وأعطاه بضع ساعات لجمع بعض أغراضه. كان ذلك في أوائل ذي القعدة ١٣٠٢هـ (منتصف أغسطس ١٨٨٥م تقريباً)، وكان الوالي عثمان باشا لا يزال في الطائف. وقد عرف سنوك فيما بعد أن أمر إبعاده جاء على إثر مقالة نشرتها إحدى صحف إسطنبول تورد قصة كانت قد نشرتها جريدة "الزمان" الفرنسية في الخامس من يوليو ١٨٨٥م حول حجر تيماء[٥٦]، وضلوع سنوك في محاولة سرقته. ويتضح من أوراق سنوك أنه تلقى من القنصل الهولندي بجدة رسالة في الثالث من أغسطس تحذره من أن اسمه ورد ضمن مقالة إسطنبول. لكن سنوك ينفي التهمة بشدة عن نفسه.

بعد خروج سنوك المفاجئ من مكة المكرمة قضى حوالي ثلاثة أسابيع في دار القنصلية الهولندية، بانتظار أمتعته وأوراقه التي لم يستطع جمعها كلها بنفسه، وغادر جدة على إحدى السفن في أواخر ذي القعدة ١٣٠٢هـ (أوائل سبتمبر ١٨٨٥م)، أي بعد أن أمضى عاماً كاملا وبضعة أيام بين مكة المكرمة وجدة. وقد ترك سنوك في مكة المكرمة وجدة الكثير من الأصدقاء الذين كان يراسلهم بعد ذلك ليوافوه بإجابات لاستفساراته عن بعض الأمور التي لم يستطع مشاهدتها بنفسه، و التقاط صور لها، ونخص بالذكر علاقته مع الطبيب والفوتوغرافي المكي السيد عبدالغفار التي سنحاول استجلاءها فيما بعد.

وبعد سنوات ثلاث، نشر سنوك باللغة الألمانية مجلدين صدرا عام ١٨٨٨ و١٨٨٩م بعنوان "مكة" مع أطلس مصور، ويتحدث الجزء الأول عن مكة المكرمة وحكامها، والثاني عن الحياة اليومية والعادات والسكان والتعليم بمكة المكرمة، وبعد صدور المجلد الثاني بقليل تسلم سنوك مجموعة من الصور الفوتوغرافية من مكة المكرمة، فسارع بنشرها في العام نفسه ١٨٨٩م تحت عنوان "صور من مكة المكرمة مع شرح مختصر". وسنطلق على الأطلس الأول اسم الألبوم الأول لسنوك، وعلى الثاني اسم الألبوم الثاني.

٥٥- عبد القدوس الأنصاري. تاريخ مدينة جدة. ص ٤٩٥.

٥٦- حجر تيماء هو لوح حجري عليه نقوش آرامية نادرة. ويوجد اليوم بمتحف اللوفر بباريس.



▲[صورة محفورة، ربما عن صورة فوتوغرافية، نشرها سنوك. تبين مخفر الصفا الذي بناه عثمان نوري عام ١٣٠١هـ /١٨٨٤م وهو مكون من دورين. قائم على ملتقى شارع المسعى مع الشارع العام الرئيس بمكة المكرمة. إلى اليسار تظهر أقواس الصفا، حيث مبدأ السعي، وإلى اليمين تظهر بيوت آل الشيبي. ربما يكون الأصل من تصوير السيد عبدالغفار أو شخص آخر، وربما يكون سنوك هو الراسم مباشرة].





▲[وتبين الصورة محملاً حقيقياً من ذلك العهد، وهو معروض الآن في متحف الجمعية الجغرافية المصرية بالقاهرة].



▲[رسم محفور عن أصل فوتوغرافي، نشره سنوك يبين موكب المحمل المصري، عند مدخل المسعى، ويظهر الوالي العثماني عثمان نوري باشا في استقبال الموكب، ويظهر إلى أقصى اليسار باب علي والمسجد الحرام، وإلى أقصى اليمين شارع القشاشية، ثم بيت باناجة، الذي بناه محمد علي باشا عام ١٢٢٨هـ (١٨١٣م)، ثم اشتراه الشيخ عبدالله باناجة عام ١٣٠١هـ /١٨٨٤م وقد أدخل عليه ترميمات وتحسينات واسعة تتضح في الروشان الضخم البارز في الدور العلوي، حيث كان، قبل خمس سنوات في صور محمد صادق، في رحلته للحج عام ١٢٩٧هـ بشكل مسنم، يبدو عليه القدم، أما الآن فإن الروشان أصبح جديداً ذا حلية علوية مستقيمة فوقها ساتر للسطح وبه ثلاثة عقود صغيرة، وأصبح المبنى بكامله ذا رونق باهر، ونرجح أن محمد صادق هو الذي التقط هذه الصورة في رحلته الثالثة عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م) (راجع النص)].

وقد نص سنوك صراحة في مقدمة الجزء الأول على أن الصور الفوتوغرافية المنشورة باستثناء صورتين التقطهما صادق بك هي[٥٧]: "صور التقطتها بنفسي، أو من قبل أحد العرب الذي علمته كيفية التقاط الصور". لكن المحير في تصرف سنوك أنه لم يوضح اسم المصور العربي، وإن كان قد أطلق عليه أيضا اسم طبيب بمكة المكرمة[٥٨] ويجب أن نتنبه إلى أن المصور الطبيب المكي هو السيد عبدالغفار الذي سنتكلم عنه في الفصل الثاني. لقد سمى المستشرق سنوك نفسه بنفس اسم المصور الطبيب، ولا ندري إن كان قد حدث ذلك بمحض الصدفة، أم تعمد اختيار الاسم نفسه عند إعلان إسلامه بجدة.

وفي عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) قام القنصل البريطاني بجدة، ج. هـ. موناهان، بترجمة الجزء الثاني إلى الإنجليزية، ثم نشر ف. ألن وكاري جيفن دراسة[٥٩] عام ١٩٨١م كشفا فيها أن سنوك تعمد كشط توقيع المصور الأصلي لمعظم الصور التي نشرها في الألبومين، ونص التوقيع كما هو في الأصل "فوتوغرافيت السيد عبدالغفار طبيب بمكة المكرمة". وفي عام ١٩٨٦م، قام أنجلو بيشي بإعادة إصدار ألبومي الصور بعنوان "مكة منذ مائة عام" في مجلد واحد باللغة الإنجليزية، مع مقدمة عن سنوك، وفي العام التالي أصدر آنجلو بيشي بالتعاون مع غازي أحمد زيني ترجمة طبق الأصل باللغة العربية، وجاء في مقدمة آنجلو بيشي[٦٠] أن أغلب صور الألبوم الثاني عليها كتابة باللغة العربية، وأنها تعرضت لرتوش دقيقة لمحوها مما يوحي أن سنوك لم يتلَقّ من صديقه الصور السلبية الأصلية (النيجاتيف)... ومعنى ذلك بدوره أن الطبيب المكي هو الذي حمض صوره وطبعها في مكة المكرمة قبل أن يرسلها إلى هولندا، ويضيف آنجلو بيشي أن "هذا تفسير يصعب التفكير فيه". و نحن لا ندري لماذا صعب على آنجلو بيشي التفكير في ذلك؟ فالمؤكد أن الطبيب المذكور لديه معمل تحميض كامل، وكان يحتفظ بالأصول السلبية (النيجاتيف) بمكة المكرمة كما سنوضحه في الفصل القادم.

وفي عام ١٤١١هـ (١٩٩٠م) قام د. محمد السرياني ود. معراج نواب مرزا بترجمة الجزء الثاني من كتاب سنوك من الإنجليزية إلى العربية. وفي عام ١٤١٩هـ (١٩٩٩م) قام د. علي الشيوخ، بترجمة الجزء الأول من الألمانية إلى العربية، وقام د. معراج مرزا ود. محمد السرياني بإعادة صياغته والتعليق عليه وظهر الجزءان باللغة العربية، مع مقدمة ضافية في طبعة كاملة أصدرتها دارة الملك عبدالعزيز بالرياض.

ومن حسن الحظ أن السيدة ديري أوستدام التي شاركت بكتابة الفصل الخاص بسنوك في الكتاب التذكاري الذي أصدره المعهد الهولندي للدراسات المدارية بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيس المملكة العربية السعودية بعنوان " البعثة الهولندية في الجزيرة العربية سنة ١٣٠٠ – ١٣٧٠هـ: لمحات تصويرية"، قد ألقت المزيد من الأضواء على سنوك وصوره الفوتوغرافية، فقد ذكرت[٦١] أنه: "كانت جميع الصور التي نشرها في الألبوم الثاني والعديد من الصور الأخرى من تصوير عبدالغفار الطبيب المكي الذي كان سنوك هورخرونيه قد دربه على التصوير. وكانت الصور ترسل إلى سنوك هورخرونيه لدى عودته إلى هولندا عن طريق مساعده، وكانت تحتوي على صور عدة لمدينة مكة المكرمة بما فيها صور بانورامية (شاملة) كبيرة، كما كانت تحتوي على صور لمدينة منى (هكذا) وجبل عرفات في أثناء موسم الحج، ومسجد ابن عباس في الطائف، وصور لقرى ومناظر طبيعية حول المدينة المقدسة".

ولربما نسلم بزعم سنوك أنه هو الذي درب السيد عبدالغفار على التصوير، وربما أراد سنوك أن لا يلتقط بنفسه صوراً لمكة المكرمة حتى لا يثير شكوك المكيين، خاصة أنهم يعرفون أصله الهولندي، وأنه أتى لدراسة الإسلام، فقام بتدريب السيد عبدالغفار لالتقاط الصور العامة للحرم والمشاعر دونما شك من أحد، وعلى أي حال فإن لسنوك أسبقية النشر. يضاف إلى ذلك أن الكتاب التذكاري آنف الذكر قد حوى صوراً عديدة من الجزيرة العربية، ويشير التوثيق الدقيق لها إلى أن صورتي المطبعة ودار الحكومة بمكة المكرمة المنشورتين في عمل سنوك، كلاهما من تصوير السيد عبدالغفار الطبيب.

وبعد اطلاعنا على كثير من الصور المحفوظة في مكتبة جامعة إسطنبول عن الحرمين، اتضح أنها تضم معظم الصور التي التقطها السيد عبدالغفار الطبيب المكي الموجودة في ألبومي سنوك تحمل توقيعه صراحة، كما أن هناك مجموعة لصور السيد عبدالغفار هذا في الجمعية الجغرافية الملكية بلندن، ومجموعة في معهد الدراسات الشرقية بلايدن بهولندا، وكلها تحمل توقيعه الصريح. وبعد دراسة متأنية لصور الألبومين اللذين أصدرهما سنوك اتضح لنا ما يأتي :

١ – أن سنوك هو الذي التقط الصور الشخصية لكثير من أعيان مكة المكرمة وجدة وكثير من حجاج جنوب شرق آسيا، في مقر القنصلية الهولندية بجدة، وهذا الأمر تؤيده شواهد عديدة: أولها أن مجاميع صور السيد عبدالغفار لا تضم أي صور شخصية، وثانيها أن خلفية هذه الصور الشخصية متشابهة، فالجدار والنوافذ والمزروعات، والستارة التي تظهر داخل غرفة مفروشة بالسجاد ترجح أنها التقطت في فناء القنصلية الهولندية بجدة أو داخل إحدى حجراتها.

٢– يبقى بعد ذلك ثلاث صور في ألبومي سنوك لم نجد ما يقابلها في مجاميع صور السيد عبدالغفار التي أشرنا إليها سابقاً، وبتحليل كل منها نجد أن:

أ – الرسم المحفور لحفل استقبال المحمل عند مدخل المسعى أمام باب علي، (رقم ٥ في الألبوم الأول لسنوك، وصفحة ٣٣ في الترجمة العربية وصفحة ٨٦، من هذا الأطلس وهي محفورة من أصل فوتوغرافي. والراجح أن الذي التقط الأصل هو محمد صادق في رحلته الثالثة ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م)، ويؤيد هذا الترجيح أن محمد صادق نشر هذه الصورة فوتوغرافيا في كتابه "دليل الحج" ص ٩٥، المنشور عام ١٣١٣هـ، وعليه توقيع (Sadag Sc Geneve).

٥٧– ك. سنوك هورخرونيه. صفحات من تاريخ مكة المكرمة. ج١، ص ١٩.

٥٨– ك. سنوك. مرجع سابق. ج٢. ص ٤١٤.

٥٩– Peters, F.E., Mecca, p.xiii.

٦٠– سنوك هيرجرونج. مكة المكرمة منذ مائة عام. ص ١٩.

٦١– ديري أوستدام. "تجميع الجزيرة العربية: كريستيان سنوك هرخرونيه". ص ١٧ – ٢٥. في كتاب "البعثة الهولندية في الجزيرة العربية سنة ١٣٠٠ – ١٣٧٠هـ لمحات تصويرية". إصدار المعهد الملكي الهولندي للدراسات المدارية. ١٤١٩هـ.



ب – صورة الشريف عون الرفيق، (رقم ٧ في الألبوم الأول، وصفحة ٥٣ في الترجمة العربية)، ولم يشر سنوك في كتابه إلى قيامه بتصوير الشريف عون، بل نجد أن محمد صادق قد نص صراحة في كتابه "كوكب الحج" الذي يصف رحلته إلى مكة المكرمة حج عام ١٣٠٢هـ عند وصفه لأحداث يوم الاثنين ١٩ من ذي الحجة (٢٨ من سبتمبر ١٨٨٥م) على ما يأتي[٦٢]: "وكان سعادة الشريف قد دعاني إلى الغداء ولم يكن معنا ثالث. وسمح لي برسم صورته بالفوتوغرافيا بملابس التشريف"، مما يجعلنا نقطع يقيناً بأن الصورة من تصوير محمد صادق وليست لسنوك.

ج – مخفر الصفا الذي بناه الوالي عثمان نوري عام ١٣٠١هـ (١٨٨٤م) (رقم ٦ في الألبوم الأول، صفحة ٤٠ في الترجمة العربية وصفحة ٨٥ من هذا الأطلس)، وهو رسم محفور، ربما عن أصل فوتوغرافي. ولا نستطيع التأكيد أن أصل هذه الصورة من تصوير السيد عبدالغفار الطبيب بمكة المكرمة، أو لمصور آخر، أولاً لنشرها في الألبوم الأول، وثانياً لعدم وجود صور مطابقة لها في مجاميع صور السيد عبدالغفار على حد علمنا ولكننا نرجح أنها ليست من تصوير سنوك لاستبعاد قيامه بتصوير هذا المبنى الحكومي في وسط مكة المكرمة في الوقت الذي تجنب فيه التقاط صور الأماكن العامة البعيدة، ولكن يظل من المحتمل أن سنوك هو الذي رسمها شخصياً دون أصل فوتوغرافي.

٦٢- محمد صادق. كوكب الحج. ص ٢٧.

ثانياً - السيد عبدالغفار بن عبد الرحمن: أول مُصَوِّر مكّي ١٣٠٢-١٣١٨هـ (١٨٨٥ - ١٩٠٠م):

متى أنشئ أول معمل للتصوير الفوتوغرافي بمكة المكرمة ؟ يجيب عن هذا السؤال أيضا محمد صادق نفسه، فقد ذكر في كتابه "دليل الحج" الصادر عام ١٣١٣هـ (١٨٩٦م) ص ٦٩ أنه قد قام في أثناء رحلته الثالثة عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م) بمكة المكرمة بزيارة الطبيب عبدالغفار وقال: إنه يشتغل بالطب والفوتوغرافيا، وأضاف أن عبدالغفار المذكور حضر معه بعد ذلك إلى مصر وتعلم صناعة الأسنان من الدكتور فولر الشهير، وأن أكثر شهرة الطبيب المذكور بمكة المكرمة هي استخراج الروائح العطرية، وأنه قد حصل على إذن من الشريف عون بأن يكون من جملة المطوفين. وكما سبق أن أوضحنا في دراستنا لرحلات محمد صادق أن هذا اللقاء لم يذكره محمد صادق في كتابه "كوكب الحج" الذي يصف فيه بالذات رحلته لحج عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م)، ولم يوضح لنا محمد صادق متى اشتغل السيد عبدالغفار بالتصوير، وهل كان له معمل لتصوير الأفراد أم لا؟ كما أنه لم يوضح زمن زيارته لتعلم طب الأسنان في مصر، وأهم من ذلك لم يبين لنا محمد صادق أسباب هذه الزيارة التي قام بها لهذا الطبيب الفوتوغرافي عصر الثلاثاء السادس من شهر ذي الحجة ١٣٠٢هـ (١٥ سبتمبر ١٨٨٥م) في اليوم التالي لوصوله، على رغم انشغاله بمهمته الرسمية "أمانة الصرة". وعلى أي حال، فإن الموضوع يحتاج إلى المزيد من البحث عن خلفيات الزيارة.

ومن جهة ثانية نجد أن سنوك هورخرونيه المستشرق الهولندي المسلم الذي سمى نفسه "عبدالغفار" أيضاً، والذي أقام بمكة المكرمة حوالي ستة أشهر من ٧ جمادى الأولى إلى أوائل ذي القعدة ١٣٠٢هـ، وتم إبعاده من مكة المكرمة قبل وصول الحج المصري، قد ذكر في مقدمة كتابه "صفحات من تاريخ مكة المكرمة" الذي ترجمه د. علي الشيوخ، ص ١٩ أن الصور الفوتوغرافية في الكتاب قد التقطت جميعها في مكة، وأنها قد نشرت "إما عن صور التقطتها بنفسي أو التقطها عربي دربته على التصوير...إلخ". ثم ذكر في صفحة ٤١٤ الجزء الثاني":وهناك طبيب مشهور عرفته في مكة المكرمة يتعاطى تصليح الساعات والبنادق وتقطير الزيوت العطرية والصياغة (وهي مهنته الرئيسة)، وصهر الذهب والفضة وصناعة الحلي الخفيفة. ومع كل هذه الأعمال فإنه متفوق في مهنة الطب على الكثير من أصحاب هذه المهنة. "ثم يستطرد سنوك": وبجانب هذه النشاطات المهنية فإن صديقنا الطبيب له خبرة طويلة، أكسبته شهرة واسعة في مجال طب العيون... ".

وبملاحظة الصور التي نشرها سنوك في الألبومين الملحقين بكتابه يتبيَّن أنه لم يحاول أن يميز الصور التي التقطها بنفسه من تلك التي التقطها "أحد العرب"، أو المأخوذة عن صور الآخرين كما يقول. ولكن دراسة الأستاذ "كاريني جيفن" من معهد الدراسات السامية بجامعة هارفارد الرئيس السابق لأرشيف الملك فهد بتلك الجامعة التي سبقت الإشارة إليها، تؤكد أن معظم الصور التي نشرها المستشرق هي من عمل السيد عبدالغفار، وأن المستشرق للأسف تعمد كشط توقيع السيد عبدالغفار من الصور قبل نشرها، وكما سبق أن أوضحنا أن الصور الموجودة في مجموعة السلطان عبدالحميد بمكتبة جامعة إستطنبول بتركيا اليوم، وفي لايدن بهولندا، وفي الجمعية الجغرافية الملكية بلندن مازالت تحمل توقيعه "فوتوغرافيت السيد عبدالغفار طبيب بمكة المكرمة" كما سيشاهدها القارئ الكريم في صفحات هذا الأطلس.

نخلص من كل ذلك أن الطبيب المشهور الذي أشار إليه سنوك، والعربي الذي يزعم أنه دربه على التصوير، إنما هو السيد عبدالغفار بن عبدالرحمن بن عبد الغفار بغدادي، وعائلته معروفة في مكة المكرمة إلى اليوم الحاضر، وأصبحوا ينسبون إلى اسم جدهم عبدالغفار دون إضافة البغدادي. وأحد أبناء أحفاده هو سعادة الدكتور هاشم بن حسن إبن حسين عبدالغفار وكيل وزارة الصحة الأسبق في المملكة العربية السعودية. وقد تفضل بإعطائنا الكثير من الوثائق والمعلومات المفيدة نذكرها فيما يأتي:

أ – وثيقة صادرة من قاضي مكة المكرمة بتاريخ ٧ من ذي القعدة عام ١٣٠٠هـ (٩ سبتمبر ١٨٨٣م) بتنصيب السيد عبدالغفار بن عبدالرحمن البغدادي طبيباً للمحكمة الشرعية (انظر صورة الوثيقةفي الصفحة التالية).

ب – هناك وثيقة تؤكد أن السيد عبدالغفار قد تعلم صناعة طب الأسنان لدى الدكتور فولر، "Waller" وأن فولر المذكور هو حكيم "أسنان الحضرة الخديوية"،



وعلى الوثيقة ختم "محمد توفيق" وتاريخ الوثيقة ٢٩ من رجب عام ١٣٠٣هـ (٣ من مايو ١٨٨٦م)، وفي أسفل الوثيقة توجيه بالحفظ (ربما صورة الوثيقة) بتاريخ ٧ مايو ٣٠٢ (١٣٠٢)، وبالرجوع للجداول المقارنة للتقويم الرومي الذي كان مستخدما في الدولة العثمانية، اتضح أن التاريخ المذكور يوافق ١٥ من شعبان عام ١٣٠٣هـ (١٩ مايو عام ١٨٨٦م).

▲ [وثيقة تنصيب السيد عبد الغفار طبيباً شرعياً للمحكمة الشرعية بمكة المكرمة].

جـ- صورة خطاب صادر من السيد عبدالغفار عام ١٣٠٥هـ (٨٧/ ١٨٨٨م) إلى "الأخ العزيز عبدالغفار أفندي"، أي "المستشرق سنوك"، وفيها يعرب السيد عن شكره لتلقيه آلة تستخدم لفحص العيون أرسلها له سنوك، وتوضح الرسالة أن السيد عبدالغفار بعث له صورتين فوتوغرافيتين للمسجد الحرام التقطتا والحرم خالٍ من الناس ضحى يوم جمعة، إحداهما التقطت من سطح باب السلام، (وهي التي ظهرت حفراً برقم ٢ في الألبوم الأول لسنوك، وصفحة ٣٤-٣٥ في الترجمة العربية للألبومين)، والصورة الثانية التقطت من سطح الحميدية قرب باب الوداع، وأرسل مع الصورتين بعض الهدايا الفخارية وعدد ٢ طاسة. وتنص الرسالة أيضاً على أن الشيخ محمد الكتاني، والشيخ محمد صالح خليفة، وشاكر أفندي، وحسن وحسين ابني السيد عبدالغفار يبعثون بسلامهم له. وقد حصل السيد هاشم على صورة رسالة جده الأكبر من معالي الشيخ أحمد زكي يماني وزير البترول السعودي الأسبق الذي حصل عليها من مجموعة أوراق سنوك بجامعة لايدن في هولندا.

وتلقي هذه الرسالة الضوء على أن السيد عبدالغفار كان لا يزال يبعث بصور فوتوغرافية وهدايا أخرى إلى سنوك، الذي يزوده بدوره ببعض الآلات الطبية التي يحتاج إليها السيد الطبيب. ولم نستطع الاهتداء إلى الصورة الثانية التي التقطت من فوق سطح مبنى الحكومة (الحميدية) مما يجعلنا نرجح وجود صور أخرى تنتظر الكشف عنها.

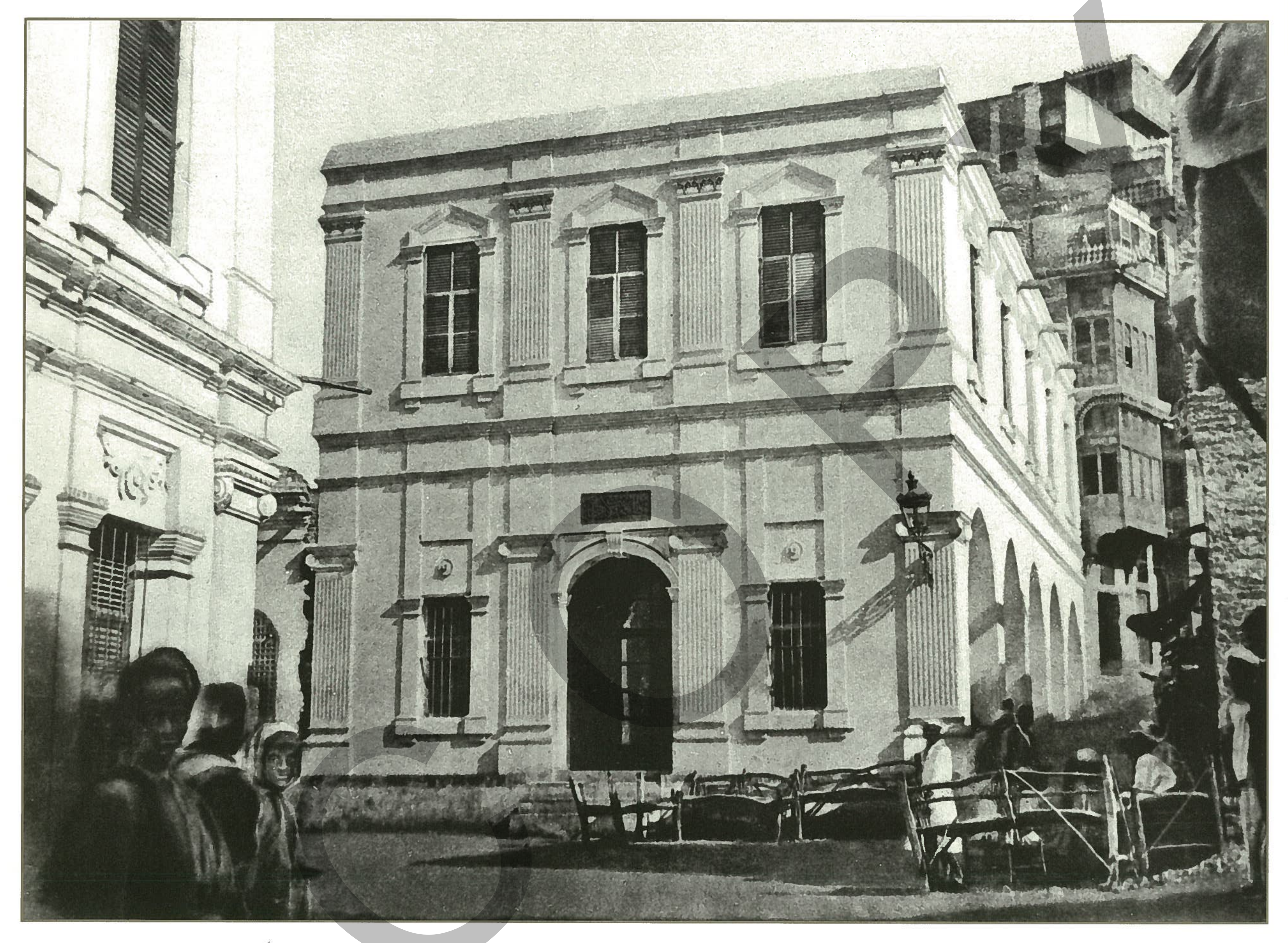
د- وهناك وثيقة أخرى صادرة بتوقيع شريف مكة عون الرفيق، بتاريخ ٢٠ شعبان ١٣١١هـ (١٦ فبراير ١٨٩٤م) بمنح السيد عبدالغفار ابن عبدالرحمن بغدادي الطوافة.

هـ- وثيقة تصور دائرة فلكية صنعت من طبقتين متحدتي المركز لمعرفة أوائل الشهور العربية في أي سنة كانت، وهي من عمل السيد عبدالغفار، ولا نعرف تاريخها، لكنها تؤكد اتساع معارف السيد عبدالغفار وحذقه لعلم الفلك إلى جانب المهن المتعددة و طب الأسنان وطب العيون والتصوير الفوتوغرافي.

والحقيقة أن من النادر توافر كل هذه المهارات مجتمعة في شخص واحد، وقد أوضح لنا سعادة الدكتور هاشم عبدالغفار أن جده الثاني – بعد تعلمه طب الأسنان – قد تخلى عن كثير من مهنه السابقة المتعددة وركز عمله على طب الأسنان، لما تجنيه من عوائد مالية عالية، وكانت عيادته بحي أجياد شرق التكية المصرية، في عمارة عائلة عبدالغفار نفسها، ومدخل العيادة من زقاق يسمى باسم العائلة "زقاق عبدالغفار"، وقد توارثت الأسرة طب الأسنان، فكان للسيد عبدالغفار أربعة أبناء هم: حسين وعباس وحسن ومحمد، وأن حسين ولد حوالي عام ١٢٨٠هـ وإن كانت حفيظة نفوسه تضع عام الولادة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م)، وقد أنجب حسين هذا من الذكور أربعة أبناء هم: هاشم ومحمد وسليمان وحسن، وهذا الأخير هو والد سعادة الدكتور هاشم بن حسن عبدالغفار. وقد مارس جده حسين بن عبدالغفار طب العيون إلى جانب طب الأسنان، توفي في تاريخ ١٠/ ٤/ ١٣٨٣هـ (١٩ أغسطس ١٩٦٣)، وقد ناهز المائة عام، وتوفي أبناؤه الأربعة قبله، لذا فقد تولى – أي حسين – تربية حفيده هاشم المذكور ووجهه إلى استكمال تعليمه العالي في مصر والولايات المتحدة الأمريكية في تخصص طب الأسنان.



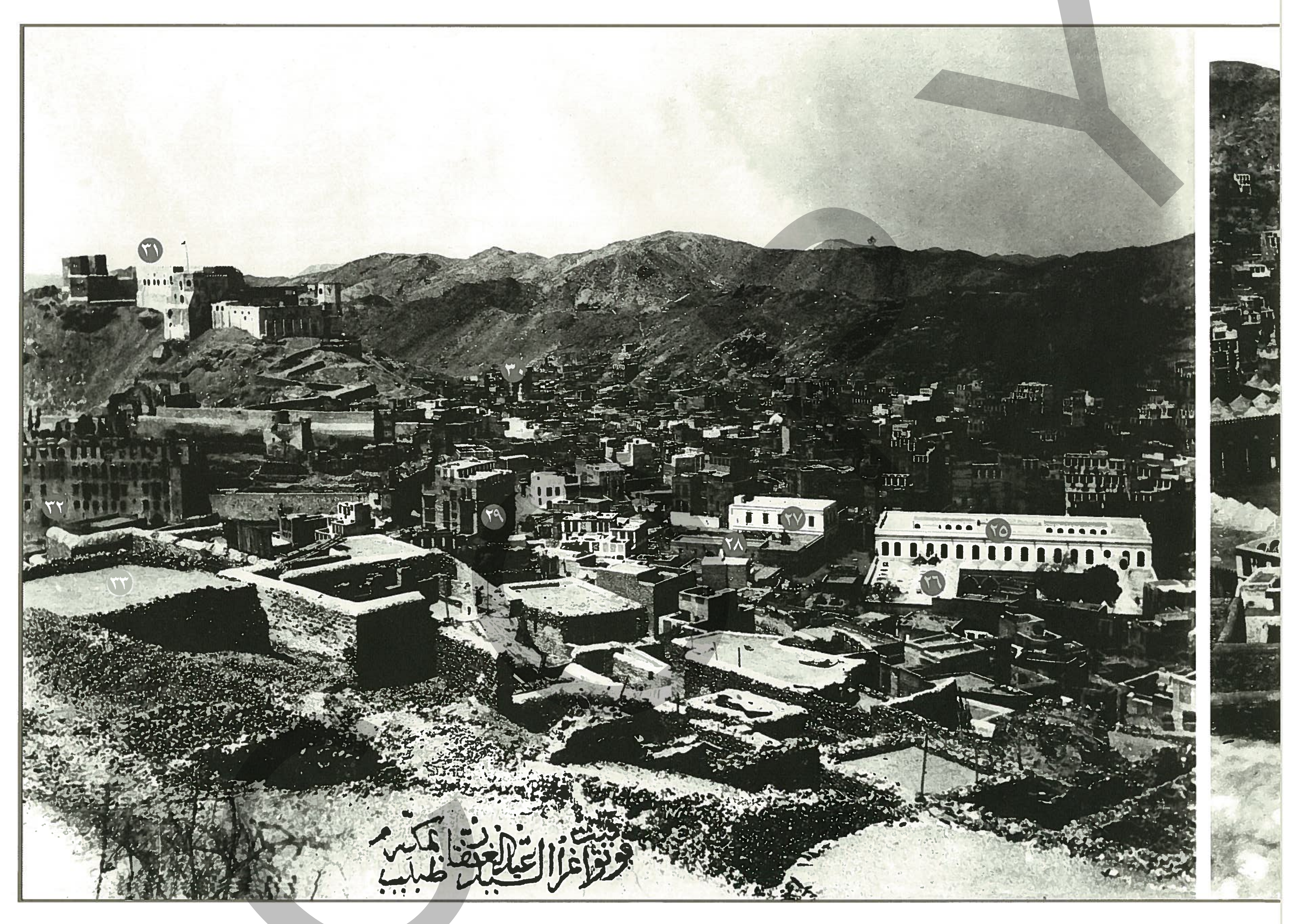
٥- بيت الخزندار بسوق الليل. ٦- حمام القشاشية. وفي الإطار الثاني يظهر: ٧- دار السيدة خديجة أم المؤمنين. ٨- قلعة جبل لعلع وتسمى قلعة فلفل. وقد بناها الشريف غالب عام ١٢١٥هـ (١٨٠٠م). وقد أصبحت فيما بعد إدارة اللاسلكي. ٩- المظلة المقامة على شارع المدعى. ١٠- بيوت الأشراف آل غالب بالقرارة. ١١- المظلة المقامة على خان المفتي بسويقة. ١٢- منارة قايتباي والبيوت المطلة على المسعى. ١٣- منارة باب السلام. ويبين الإطار الثالث: ١٤- الجانب الخلفي من بيت باناجة المطل على شارع القشاشية. والمنازل المطلة على المسعى. ١٥- جانباً من مداخل باب علي المطلة على المسعى. وإلى يساره بعض بيوت الأشراف. ١٦- القباب الأربع المقامة على المدارس السليمانية تتوسطها منارة السليمانية. ١٧- منارة باب الزيادة. ١٨- فسحة باب الزيادة.



▲ [صورة نشرها سنوك في ألبومه الثاني، وهي من تصوير السيد عبدالغفار، تبين مبنى المطبعة الذي قام بإنشائه الوالي عثمان نوري باشا عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م)، وهو مستطيل الشكل، واجهته حوالي اثني عشر متراً وعرضه أكثر من ذلك بقليل، والمبنى مكون من دورين، الأول عبارة عن صالة ضخمة تضم آلات المطبعة، والدور الثاني مكون من غرف تستعمل للصف والتجليد والإدارة، ثم جرى في تاريخ لاحق إضافة دور ثالث للمبنى].



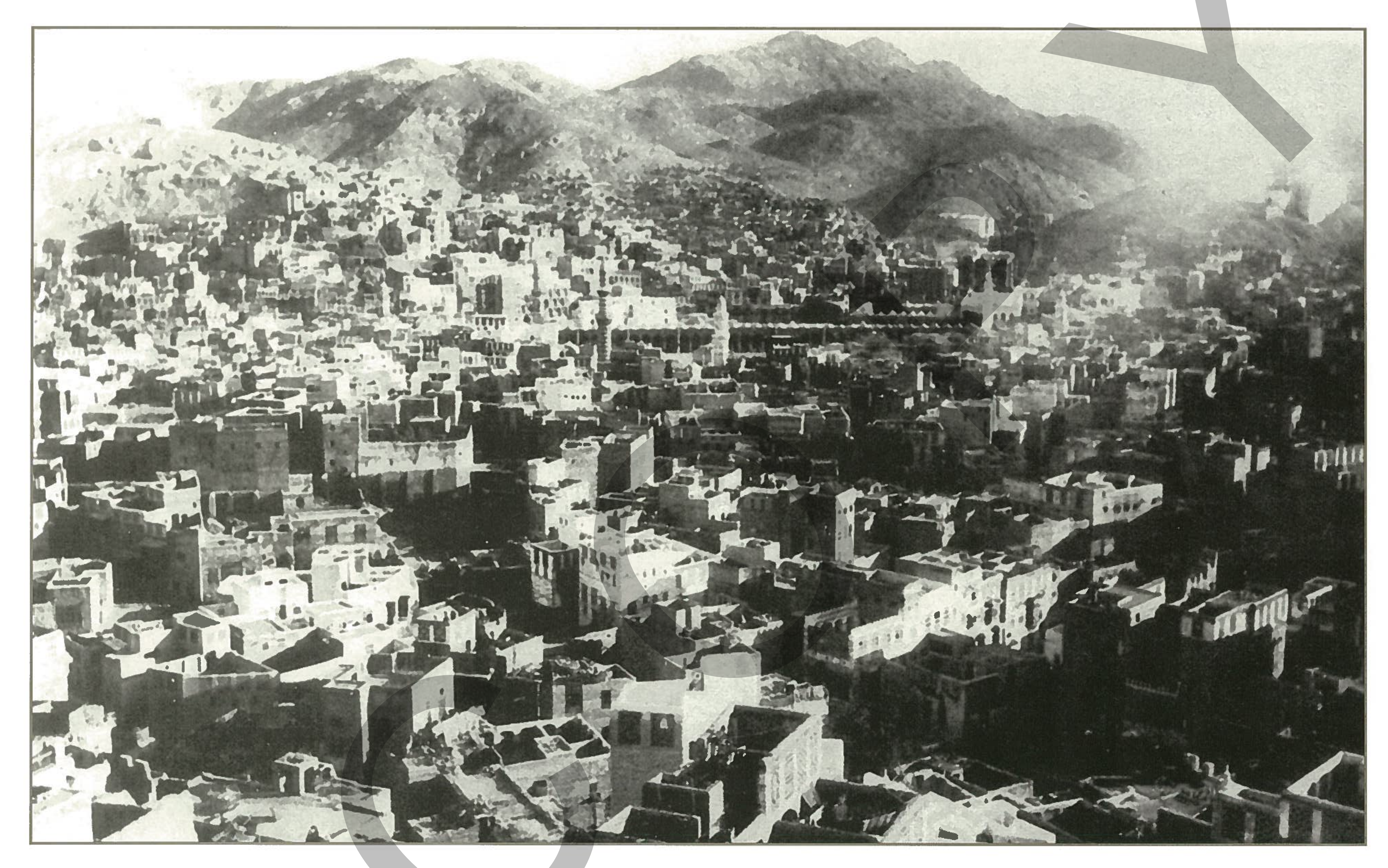
▲ [صورة شاملة (بانورامية) التقطها السيد عبدالغفار من جبل أبي قبيس، حوالي عام ١٣٠٢ / ١٣٠٣هـ (١٨٨٦/٨٥م) مكونة من أربعة إطارات، تغطي المنطقة من شعب بني هاشم إلى أجياد، لكنه لم يتمكن من ضبط زاوية الكاميرا، بحيث يمكن تجميع الإطارات الأربعة في صورة شاملة متصلة واحدة. ويبدو من أقصى اليمين - الإطار الأول: ١- المسجد المقام على موضع المكان الذي ولد فيه النبيﷺ في مدخل شعب بني هاشم. ٢- قصر الحكم بالغزة. ٣- قصر الشريف عون بالغزة. ٤- مقابر المعلاة.



٣٠- المنارة المقامة على مسجد أبي بكر الصديق ﷺ في بداية مسبال المسفلة. ٣١- قلعة أجياد بعد ترميمها عام ١٣٠٢هـ وإزالة القصر الذي كان بداخلها. ٣٢- قصر الشريف غالب بأجياد. ٣٣- أسطح البيوت التي على سفح جبل أبي قبيس. ونلحظ وضوح توقيع المصور السيد عبدالغفار على الإطارين الثالث والرابع. بينما تبدو آثار المسح على توقيعه في الإطارين الأول والثاني المنشورين منفصلين في ألبوم سنوك، وقد قمنا بضمهما مع الإطارين الثالث والرابع من مجموعة السلطان عبدالحميد].



▲ [صورة نشرها سنوك في ألبومه الأول. واتضح أنها من تصوير السيد عبدالغفار. (راجع النص). وهي لمبنى الحكومة المسمى الحميدية نسبة للسلطان العثماني عبدالحميد الذي قام الوالي عثمان باشا عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م) ببنائه. وقد تمت في العام نفسه الذي كان فيه سنوك بمكة المكرمة. ويبدو أن الصورة قد التقطت حال إتمام البناء. ويقع هذا المبنى مقابل باب أم هاني على الشارع العام المؤدي إلى أعلى مكة المكرمة. ويظهر إلى يمين الصورة بعض الدور والدكاكين المواجهة لباب الوداع. ويفصلها عن الحميدية الشارع المؤدي إلى مبنى المطبعة وزقاق البخارية].



▲ [صورتان التقطهما السيد عبدالغفار حوالي عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٨م). محفوظة في معهد الدراسات الشرقية بلايدن في هولندا. نشرهما بيترز في كتابه "مكة" وقال: إنهما بتوقيعه. ولا توجد هاتان الصورتان في مجموعة السلطان عبدالحميد في جامعة إسطنبول - على حد علمنا - ونرجح أن السيد عبدالغفار قد بعث بهما إلى سنوك في هولندا. وقد التقط الصورة الأولى من جبل هندي. حيث يظهر في الأفق البعيد جبل ثور وجبل خندمة. وإلى أقصى اليمين قلعة أجياد. وإلى أقصى اليسار المسجد المقام على جبل أبي قبيس. ويظهر المسجد الحرام في وسط الصورة و يحيط به عدد من أحياء مكة المكرمة. أما الصورة الثانية في الصفحة المقابلة فقد التقطت من السفح الشرقي لجبل أبي قبيس المطل على شعب علي. وتظهر منازل الشعب. وإلى يسار الصورة منارة المسجد المقام على مكان دار عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم الذي ولد فيه النبي ﷺ].



١٩- ساحة المسجد الحرام ويظهر فيها أقمشة البفتة التي كان يغسلها الحجاج بماء زمزم لاستخدامها أكفانا. ٢٠- قلعة جبل هندي أثناء تجديدها. وقد أصبحت أشبه بالقصر منها بالقلعة. ٢١- المدرسة الباسطية. ٢٢- منارة باب العمرة. ٢٣- جبل عمر. ٢٤- مدرسة الداودية بعد تجديدها وإضافة دور ثالث إليها. وفي الإطار الرابع: ٢٥- مبنى الحميدية بعد اكتمال إنشائه عام ١٣٠٢هـ. ٢٦- مبنى التكية المصرية. ٢٧- مبنى المطبعة الذي أنشئ عام ١٣٠٢هـ أيضا. ٢٨- مبنى الفرن الميري الذي أصبح فيما بعد مقراً لمحطة كهرباء الحرم. ٢٩- المبنى الضخم المقام في وسط ميدان أجياد على ما كان سكناً لجنود المدفعية سابقاً، ثم أحرق هذا المبنى الضخم فيما بعد. ثم أنشئ عليه عام ١٣٦٦ هـ (١٩٤٦م) مقر لأمانة العاصمة. ويظهر خلفه "المرستان" (مستشفى الأمراض العقلية).





▲[صورة لصلاة الجمعة في المسجد الحرام، بتوقيع السيد عبد الغفار، وقد التقطت من الجهة الشمالية (باب السلام)، وتظهر فيها بعض المباني والترميمات التي قام بها الوالي عثمان نوري باشا، فعلى يمين الصورة يظهر مبنى مدرسة الداودية، بعد ترميمه وزيادة دور جديد عليه، وعلى يسار الصورة مبنى الحميدية الجديد وإلى يمينه منارة أم هاني، وخلفه على قمة الجبل، قلعة أجياد وقد تم إزالة القصر الذي كان بداخلها وترميمها، كما تظهر الصورة - بجوار بئر زمزم - المدرج الجديد المصفح بالفضة الذي أهداه للحرم، نواب رامفور قلب علي خان، وهو من أثرياء الهند عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م) .كما تبدو في أسفل الصورة حصوة باب السلام، وإلى اليسار حصوة باب علي، بعد أن تمت إزالة قبتي سقاية العباس والفراشين، وقد قام مدير المدرسة الصولتية آنئذ بشراء أحجار القبتين المزالتين، وبنى بهما المسجد الملحق بالمدرسة الصولتية بالشبيكة، وقد نشر سنوك هذه الصورة في ألبومه الثاني (صفحة ٢٥ مكة المكرمة منذ مئة عام) بعد أن كشط اسم المصور المكي].



وبالنسبة للصور الشخصية التي نشرها سنوك، ومن ضمنها صورة "طبيب من مكة ونجله"، فقد أكد لنا الدكتور هاشم أن صورة الطبيب هي لجده الثاني عبدالغفار، وصورة الابن هي لجده حسين بن عبد الغفار آنف الذكر، وزودنا بصورتين أخريين لهما إحداهما لعبد الغفار في أواخر حياته، والأخرى لحسين بن عبدالغفار عندما كان في سن الثمانين تقريباً. ومن جهة ثانية أكد د. هاشم أن السيد عبدالغفار كان في زيارة لدى الشريف لتطبيب أسنانه في عام ١٣١١هـ (١٨٩٣م)، وأن الشريف منحه صكاً ليصبح مطوفاً، غير أن عبد الغفار لم يزاول المهنة فعلياً حتى آخر حياته بسبب انشغاله التام بمهنته طب الأسنان طوال أيام العام، وهذا لا يترك له فرصه التفرغ لخدمة الحجاج. لكن أبناءه هم الذين مارسوا الطوافة من بعده.

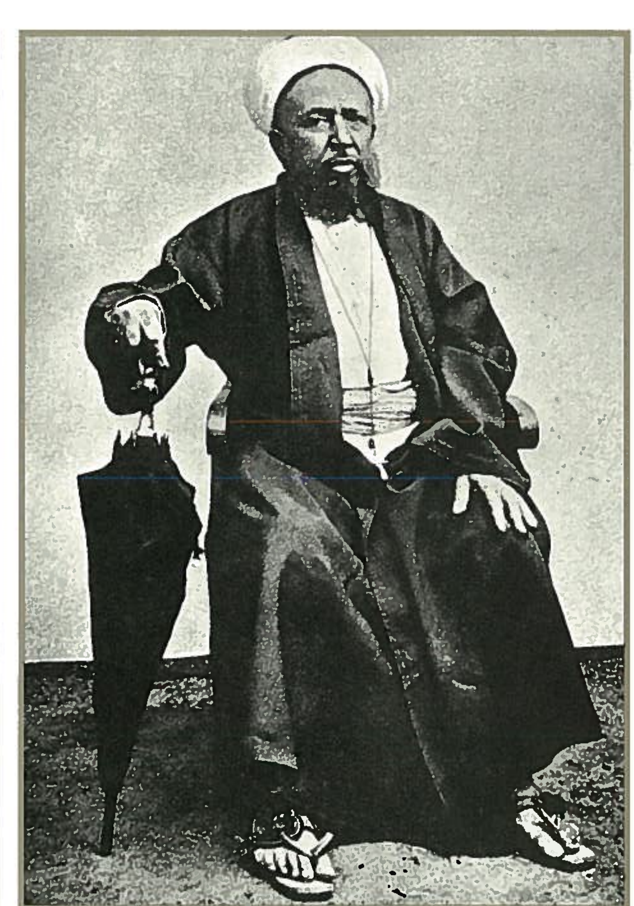
▲[صورة أخرى بتوقيع السيد عبدالغفار، تبين الحرم الشريف من الزاوية نفسها فارغاً. وظهرت المعالم نفسها التي شرحناها في الصفحة السابقة. وفي أعلى الجبل ظهرت قلعة أجياد وعليها علم .. ويلاحظ في أقصى يسار الصورة، وجود رحبة فسيحة أمام مبنى زمزم بعد أن أزيلت القبتان وقد نشر سنوك رسماً محفوراً لهذه الصورة مشروحة في ألبومه الأول (صفحة ٣٤ -٣٥، الترجمة العربية) بعد أن كشط توقيع السيد عبدالغفار].



وقد أكد لنا سعادة الدكتور هاشم أن جده حسيناً كان يحتفظ بصناديق عديدة تحوي العكوس (النيجاتيف) الأصلية الزجاجية للصور التي التقطها عبدالغفار، وأوضح طريقة اعتنائه بها وتوصيته لحفيده بالمحافظة عليها، غير أن وفاة جده حسين، وسفره – أي الدكتور هاشم – إلى الولايات المتحدة لإكمال تعليمه العالي، وقيام مشروع توسعة الحرم المكي الشريف، واضطرار بقية أفراد العائلة للانتقال من دار إلى أخرى، قد أدى إلى فقد تلك الصناديق.

لقد عرضنا في هذا الباب بعض الصور التي التقطها السيد عبدالغفار عن المسجد الحرام و مكة المكرمة والمشاعر، بصفته أول من امتهن التصوير في العاصمة المقدسة، وتدل صوره المنشورة في ألبومي سنوك أنه مارس التصوير بعد عام ١٣٠١هـ (١٨٨٤م)؛ لأنها تظهر الإصلاحات التي تمت في المسجد الحرام، وكذلك المنشآت التي أحدثها الوالي عثمان نوري باشا ابتداء من عام ١٣٠١ إلى ١٣٠٣هـ، وبما أن الرجل قد عمر إلى حوالي عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م)، فمن المؤكد وجود صور أخرى له، فقد وجدت في أرشيف السلطان عبدالحميد صورتان للطائف بتوقيعه، كما نشر بدر الحاج[٦٣] صورة أخرى للطائف نسبها للسيد عبدالغفار، وصورة للمسجد الحرام وما يحيط به[٦٤] مأخوذة من أعلى جبل أبي قبيس وعليها آثار توقيع السيد عبدالغفار، وكلتاهما من مجموعة الجمعية الجغرافية الملكية بلندن، ثم نشر بدر الحاج[٦٥] رسماً بانورامياً (شاملاً) يظهر المنطقة من القشاشية إلى أجياد عن صور للسيد عبدالغفار من مجموعة فؤاد دباس، وفي أسفل الرسم من الجانب الأيمن توقيع الراسم، إضافة إلى صورتين نشرهما بيترز[٦٦] في كتابه "مكة" برقم ١١ و ١٢ ونسبهما للسيد عبدالغفار (انظر الصفحتين السابقتين).

و ذكر بيترز أيضاً[٦٧] أنه اكتشفت في لايدن عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) مجموعة تضم حوالي ١٠٠ صورة شخصية لمكيين، وقد رجح أنها من تصوير السيد عبدالغفار. ونحن لا نشك أن السيد عبدالغفار خلال عقدين من الزمن مارس فيهما التصوير قد التقط الكثير جداً من الصور التي تنتظر كشف النقاب عنها.



▲[صورة للسيد عبدالغفار بن عبدالرحمن التقطها سنوك عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م)].

▲[صورة له محفوظة لدى حفيده وقد التقطها ابنه حسين، حوالي عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م)].



▲[صورة للسيد حسين بن عبدالغفار التقطها سنوك ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م)].



▲[صورة حديثة لسعادة الدكتور هاشم بن حسن بن حسين بن عبدالغفار].

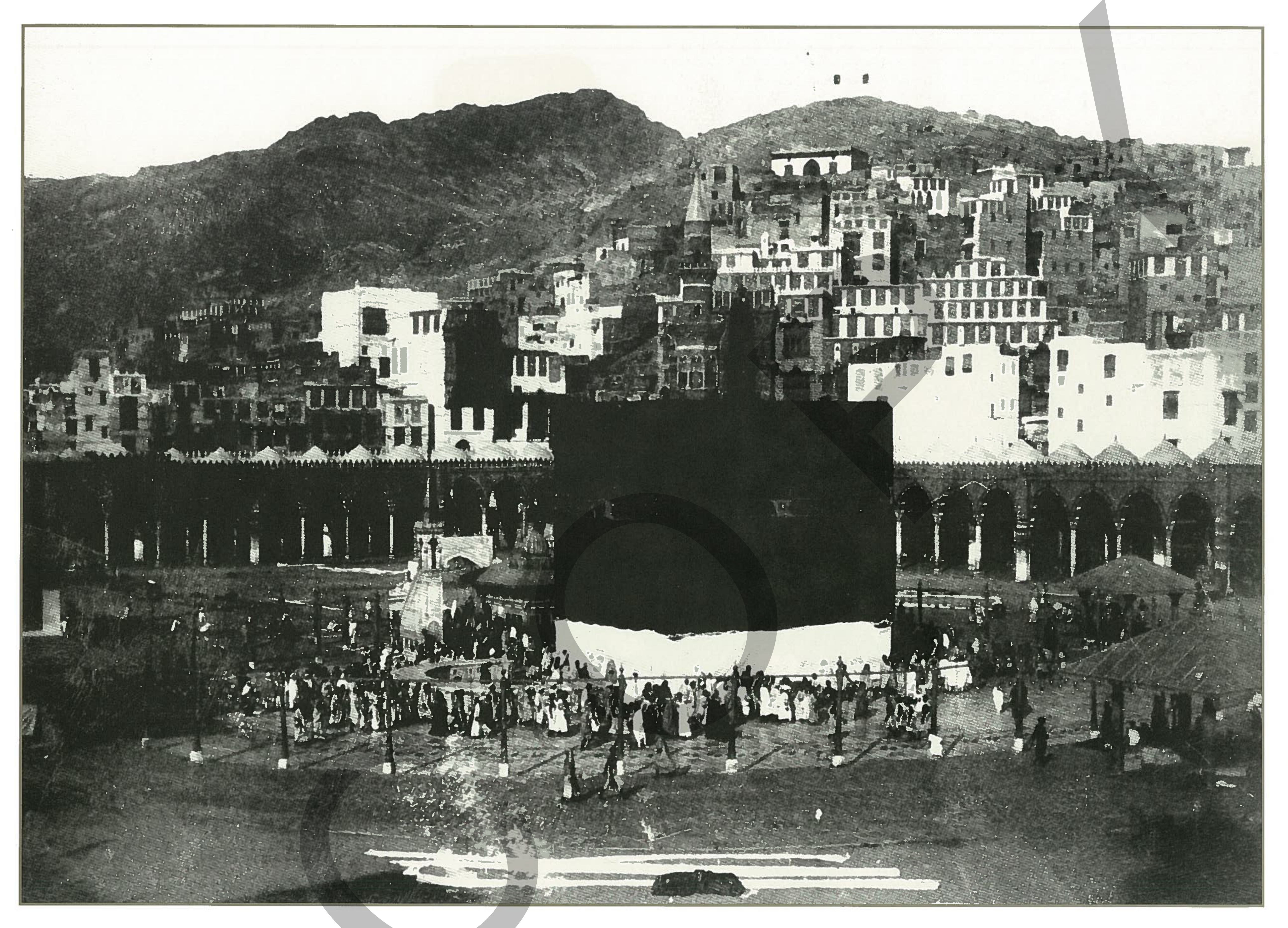
٦٣- بدر الحاج، مرجع سابق، ط١، ص ١٥٨.

٦٤- المرجع السابق، ط١ ص ٥٤ و٥٥.

٦٥- المرجع السابق، ط٢، ص ٤٦ و٤٧.

٦٦- Peters, F.E., Mecca, Photo No. 11 & 12.

٦٧- Peters,F.E., The Hajj, p. x.



▲[الجانب الشرقي للمسجد الحرام. وقد نشر الصورة بدر الحاج في الطبعة الثانية، صفحة ٤٧ ونسبها لمصور مجهول، وأن تاريخ التقاطها يعود إلى عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م). لكن تتبع الصور بدقة وتأمل محتوياتها واستنطاقها، يؤكد أن الصورة مأخوذة بعد تعديل موضع المقام الحنبلي في الإطار المحيط بصحن المطاف، وإزالة قبتي السقاية والفراشين، وكذا بعد تجديد بيت باناجة وترميمه، وتغيير الروشان الضخم، وكل ذلك تم في عام ١٣٠١هـ (١٨٨٤م)؛ لذا فإننا نرجح أنها من تصوير السيد عبدالغفار، ويظهر في الصورة جبل أبي قبيس وعليه مسجد بلال، وخلفه جبل خندمة].


عرض منى



شرقي منى

◄ [منظر شامل لمنى خلال أيام التشريق. مكون من إطارين بتوقيع السيد عبدالغفار. التقط أوائل القرن الرابع عشر الهجري. وقد كتب أعلى الإطار الأول "غربي منى" ويظهر فيه مسجد الخيف وخلفه جبل المرسلات (الصابح) وتحيط بالمسجد مخيمات الحجاج وبعض دور منى. وكتب أعلى الإطار الثاني - إلى اليسار - شرقي منى. وتظهر فيه بقية جبل المرسلات (الصابح). ثم خزان للماء. وهو المنشأة الوحيدة في هذه المنطقة من منى. تحيط به مخيمات الحجاج].



▲[منظر شامل (بانورامي) لعرفات التقطته عدسة السيد عبدالغفار، وهو مكون من ثلاثة إطارات. كتب على الأول من اليمين "الشق الأيمن من عرفة" وعلى الأوسط "جبل عرفة" وعلى الأخير "يسار عرفة إلى القبلة". وتظهر مخيمات الحجاج، والجبال المحيطة وهي بالترتيب، من



اليمين إلى اليسار: ١- جبل سعد، ٢- جبل الرحمة، ٣- سهل المغمس، ٤- وادي عرنة، ٥- جبل الطارقي، ٦- جبل الأحدب].



▲[مزدلفة كما صورتها عدسة السيد عبدالغفار حوالي عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٦م). صبيحة يوم عيد الأضحى. ويبدو اعتكار الغبار في الأفق مما يشير إلى التقاطها قبل شروق الشمس .لاحظ توقيع المصور واضحاً أسفل الصورة. وقد كُشِط التوقيع في الصورة التي نشرها سنوك في ألبومه الثاني (صفحة ٥٠ من كتاب بيشى)].



ثالثاً - المصوّر مرزا واحتراف بَيع الصُّور للحُجّاج عام ١٣٢٣هـ (١٩٠٦م):

يعد المصور ح.أ. مرزا صاحب معمل التصوير بمدينة دهلي بالهند أول مصور فوتوغرافي محترف قدم إلى مكة المكرمة من مدينة دهلي بالهند حسبما توفر لنا من معلومات لالتقاط صور للحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة، ثم طبعها في الهند قبل تصديرها لبيعها على الحجاج بمكة المكرمة خصوصاً والحجاز عموماً، والحقيقة أن كثيراً من المصورين قد سبقوه، لكن مرزا كان متخصصاً في اختيار المناظر وطبعها بمقاسات مختلفة الأحجام، إما مفردة أو ملصقة على ورق مقوى، وبعضها في ألبومات مستقلة وعلى هوامشها شرح مطول عن المنظر باللغة الأوردية.

وقد نشر بدر الحاج في كتابه "صور من الماضي" في طبعته الأولى بعض صور مرزا، وقدر تاريخ التقاطها في أواسط الثمانينيات من القرن الماضي (القرن ١٩)، لكنه في طبعته الثانية وضع تاريخ التقاط صور مرزا بحوالي ١٨٨٠م. من جهة ثانية نشر ويليام فيسي في كتابه "المملكة العربية السعودية: المصورين الأوائل" الصادر عام ١٩٩٦م بعض صور مرزا، ورجح تاريخ التقاطها في حوالي ١٩٠٧م.

وأشار الأستاذ كارني جيفن في مقدمته لكتاب ف. بيترز [٦٨] إلى أن البروفيسور علي الأسني الذي يجيد الأردية، وقام بترجمة التعليقات المطولة على كل صور مرزا، رجح أنها التقطت قبل عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م)، وقد بنى ترجيحه على عدم ورود أي ذكر لسكة حديد الحجاز التي كانت حديث العالم الإسلامي آنذاك، وعلى طريقة إظهار الصورة باستخدام الزلال.

لكننا نلحظ ما يأتي:

أ – أن ألبوم مرزا يضم صورة لاستقبال الشريف علي باشا للمحمل بمكة المكرمة، ومعلوم أن علي باشا كان أميراً خلال موسم الحج عام ١٣٢٣، ١٣٢٤ و ١٣٢٥هـ (فبراير ١٩٠٦ – يناير ١٩٠٨م).

ب – كما يضم الألبوم صورة لبوابة العنبرية بالمدينة المنورة قبل هدمها في رمضان عام ١٣٢٥هـ (أكتوبر ١٩٠٧م) تمهيداً لإنشاء محطة المدينة المنورة لسكة الحديد.

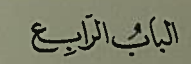
لذا فإننا نرجح قيام مرزا بإلتقاط صورة في موسم حج عام ١٣٢٣هـ (فبراير ١٩٠٦م). وعلى أي حال فإن بيع الصور الفوتوغرافية للحجاج أصبح منتشراً منذ ذلك التاريخ، وقد ذكر أ. ج. ويفل البريطاني الذي أعلن إسلامه وسمى نفسه محمد علي في رحلته للحج عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) قبل عام واحد من رحلة البتنوني أن الصور و الألبومات بأنواعها كانت تباع في منطقة باب السلام التي تربط المسعى بالمسجد الحرام.

وتوجد صور مرزا في ألبوم خاص في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض، وفي المكتبة البريطانية بلندن، وتوجد صور متفرقة في متحف الحربية الإمبراطوري بلندن، كما توجد بعض الصور ضمن مجموعة فؤاد دباس. وسنختار هنا بعض صور مرزا لإلقاء الضوء على الفرق الزمني بينها وبين صور السيد عبدالغفار.



◀ [نموذج للصور الأصلية التي كان يبيعها مرزا، تحيط بها شروح باللغة الأردية. (انظر الصورة مكبرة فيما بعد)].

٦٨- Peters,F.E., The Hajj, p.xv.

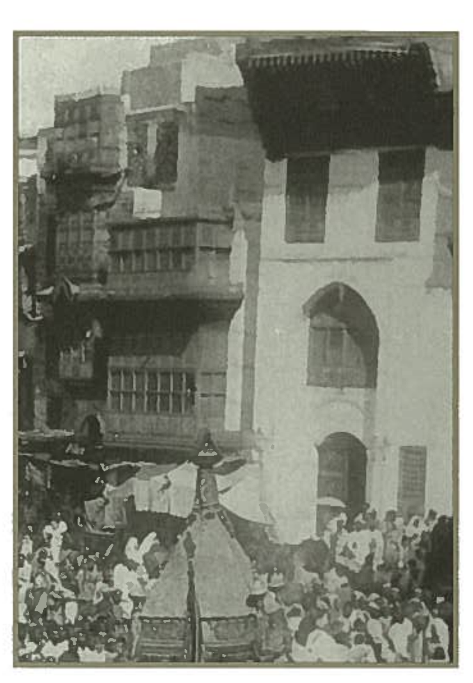




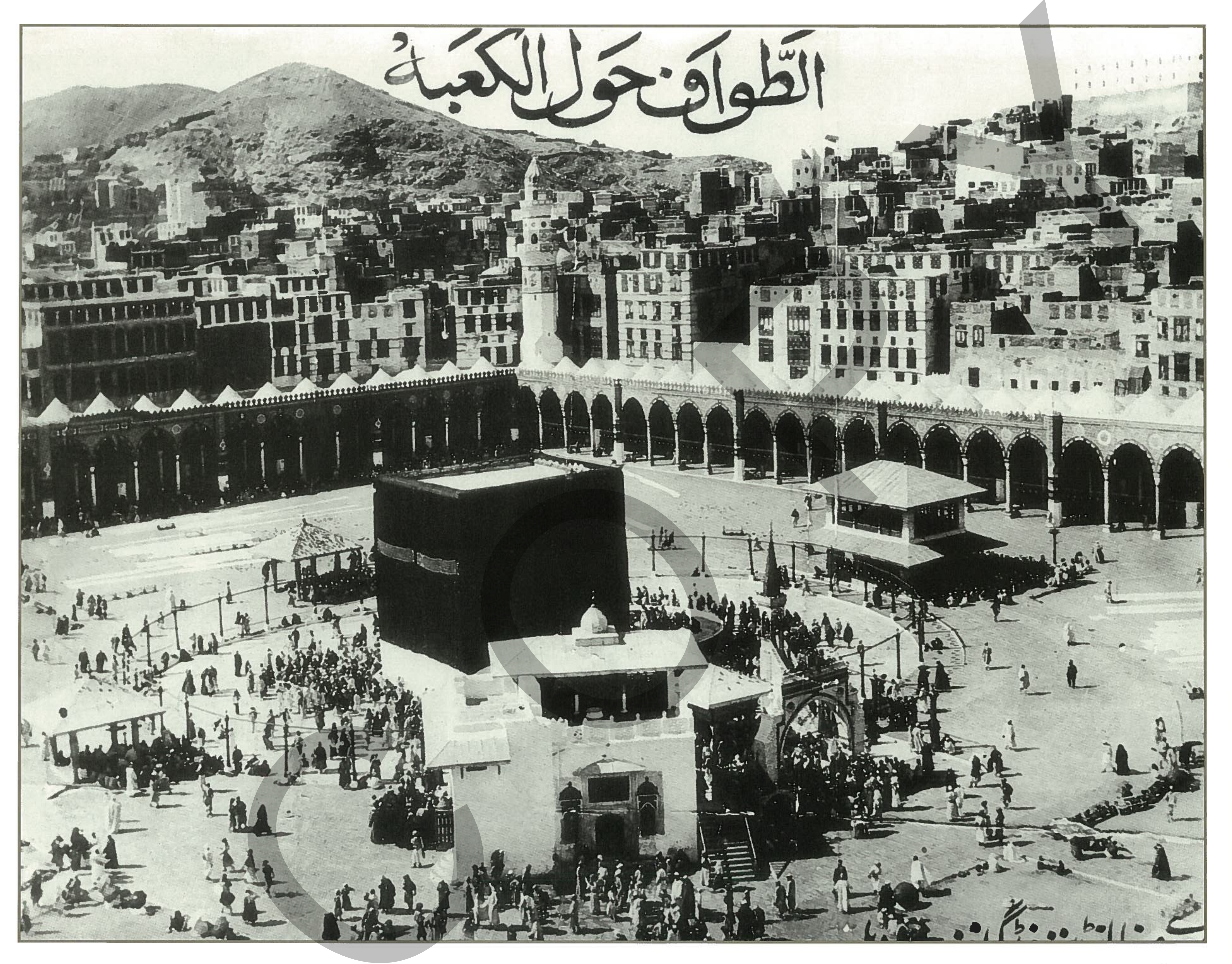


[صورة شاملة (بانورامية) التقطها مرزا من السور السفلي لقلعة أجياد، وتبين أسطح المنازل في سفح جبل القلعة (جبل خليفة). كما يظهر من أقصى اليمين ١- جبل النور، ٢- الجزء الأمامي من مديرية الصحة (مستشفى أجياد). ٣- مبنى حديث ضخم أقيم على موقع سكن سابق لجنود المدفعية، ويلحظ أن هذا المبنى لم يكن قد أنشئ في أثناء التقاط البعثة العسكرية العثمانية لصور المنطقة ٤- الأشجار في ساحة التكية المصرية، وخلفها المسجد الحرام وقد ظهر منه الجانب الشمالي والشرقي. ٥- منارة باب أم هاني. ٦- قلعة لعلع (فلفل أو اللاسلكي). ٧- مقبرة المعلاة].





▲[منظر آخر للمسجد الحرام التقطه مرزا أي يبين الجهة الشرقية وبها جبل أبي قبيس. ويلحظ ظهور بعض المباني الجديدة التي لم تكن موجودة في صور السيد عبدالغفار. كما يلحظ :١- أسطح منازل الخاصكية (بيوت تابعة للخاصة من عوائل السلطان)، وقد بناها السلطان عبدالحميد. ٢- الدار الملاصقة لبيت باناجة قد أصبح لها الآن روشان ضخم بارز. وتبين الصورة المصغرة منظر الروشان مكبراً. وتظهر بأعلاه سترة خشبية. لقد كان روشان هذا المنزل مسامتاً للجدار غير بارز وكان في السطح شباكان معمولان بالآجر الملون (انظر صور الفترة السابقة)].



▲[صورة للمسجد الحرام، التقطها مرزا، تبين الجهة الغربية ويظهر جبل عمر، وتبدو الكعبة المشرفة محرمة، وظهر في طرف الصورة السفلي الأيمن اسم المصور مرزا وعنوانه في دهلي].



▲[المنظر الذي نشرناه في صفحة ١٠٧ مكبراً ويبين منى أيام الحج. وقد ظهر المدخل الرئيس لمسجد الخيف. كما ظهرت المنارة الرئيسة. والقبة التي كانت مقامة وسط ساحة هذا المسجد وبجوارها المنارة الثانية. ويظهر خارج المسجد بعض الأحوشة ومخيمات الحجاج].



رابعاً - اللواء إبراهيم رفعت باشا أمير الحج المصري:

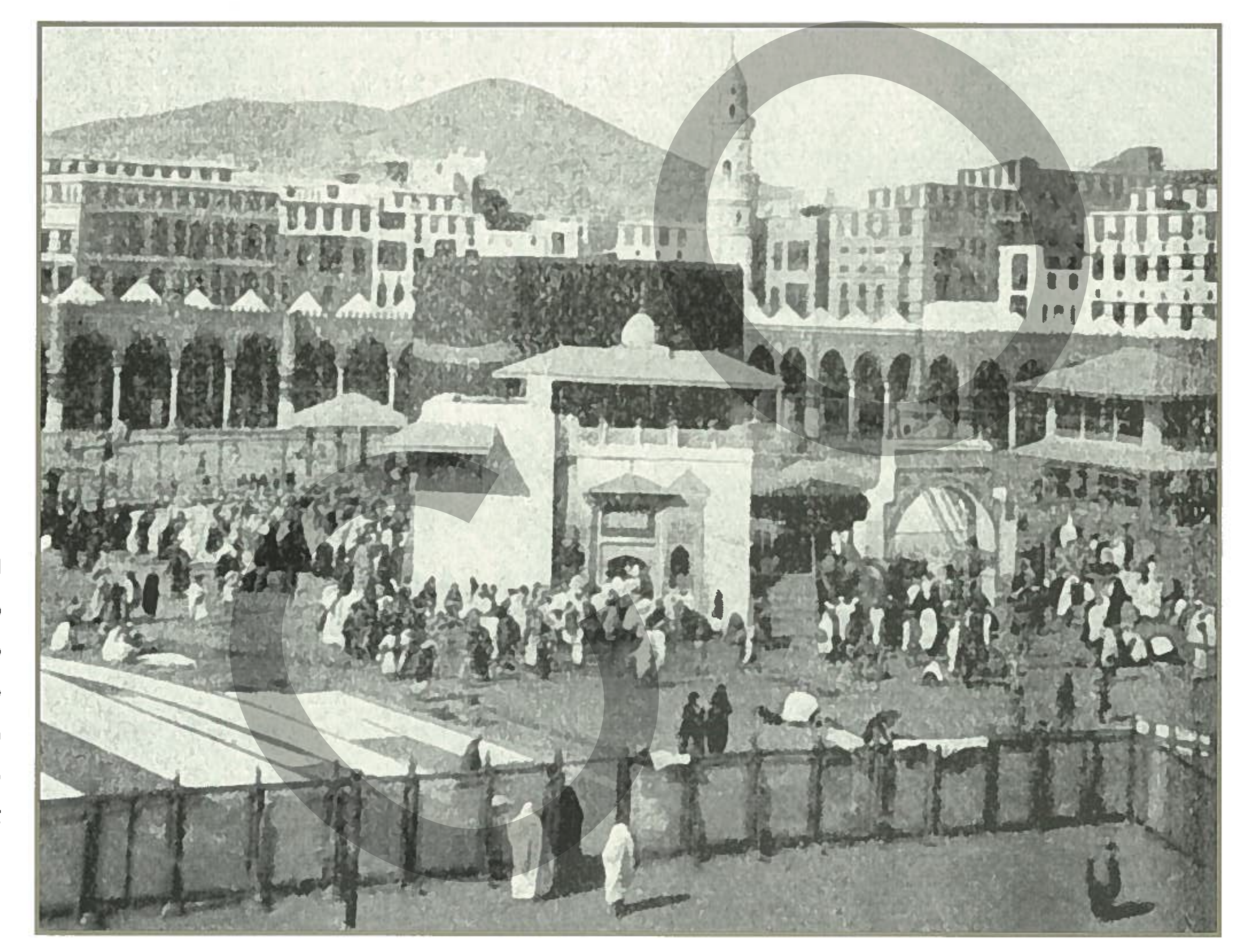
من أشهر كتب الرحلات الحديثة إلى الحج كتاب "مرآة الحرمين" للواء إبراهيم رفعت باشا. وهذا المؤلف من ضباط الجيش المصري، وقد قام بزيارة مكة المكرمة والمدينة المنورة أربع مرات: الأولى في حج عام ١٣١٨هـ (١٩٠١م) بصفته قائد حرس المحمل المصري، ثم قام بالزيارات الثلاث التالية بصفته أميراً للحج المصري في حج عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٣م)، وحج عام ١٣٢١هـ (١٩٠٤م)، وحج عام ١٣٢٥هـ (١٩٠٨م).

ولد إبراهيم رفعت عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٧م) واسمه الأول هو محمد رفعت، ووالده سويفي بن عبدالجواد المليجي. وتخرج بالمدرسة الحربية بالقاهرة، وإلى جانب عمله العسكري تتلمذ في أوقات فراغه على بعض علماء الأزهر. وقد ترقى في سلم الجيش، وشارك في كثير من الوقائع بين الجيش المصري والمقاومة السودانية، ونقل للخدمة عدة مرات في سواكن التي كانت تابعة لمصر آنذاك، وأصبحت رتبته بكباشي في ١٥ من رجب ١٣١٣هـ (أول يناير ١٨٩٦م) وعين أركان حرب سواكن. وفي ١٨ من ذي القعدة ١٣١٦هـ (أول أبريل ١٨٩٩م) عين ياورا (مساعداً عسكرياً) للخديوي عباس الثاني، ثم رقي في ١٢ من رجب ١٣١٨هـ (٥ من نوفمبر ١٩٠٠م) إلى رتبة قائم مقام، ثم عينه الخديوي قائداً لحرس المحمل المتوجه إلى الحج عام ١٣١٨هـ وهذه أول زيارة له إلى الأراضي المقدسة.

وبعد عودته رفع إلى رتبة أميرالاي، وأصبح رئيساً للحرس الخديوي حتى أوائل رجب ١٣٢٠هـ (١٥ من أكتوبر ١٩٠٢م)، حيث أحيل إلى التقاعد، وكانت سنه ٤٧ عاماً. ثم صدر في نهاية شعبان من العام نفسه الأمر بتعيينه أميراً للحج ومنحه السلطان عبد الحميد خان رتبة لواء. وفي العام التالي ١٣٢١هـ عين أيضاً أميراً للحج المصري ومنح قبل سفره النيشان العثماني. ومضت ثلاث سنوات لم يذهب خلالها إلى الأراضي المقدسة، وفي عام ١٣٢٥هـ (١٩٠٨م)، عين للمرة الثالثة أميراً للحج المصري. وفي جميع رحلاته الأربع كانت مدة مكوثه في مكة المكرمة تتراوح بين ٢٥ و٣٠ يوماً، من حوالي ٢٥ من ذي القعدة إلى ٢٥ من ذي الحجة.

ومضت تسعة عشر عاماً من آخر رحلة له إلى الحرمين عام ١٣٢٥هـ تفرغ خلالها للاطلاع على كتب التاريخ والمناسك، أعد خلالها كتابه الموسوعي للنشر، وصدرت طبعته الأولى في مجلدين عام ١٣٤٤هـ [٦٩]. لم يكن إبراهيم رفعت عند زيارته الأولى إلى الحرمين يجيد التصوير الفوتوغرافي، و لم يصحب مصوراً فوتوغرافياً. ولما رجع إلى مصر تعلم فن التصوير وأجاده، وفي رحلاته التالية إلى الحج قام بتصوير كل تحركاته، ابتداء من حفل توديع المحمل في مصر حتى رجوعه إليها، بل إنه اصطحب معه محمد علي سعودي الذي يصفه إبراهيم رفعت بأنه خبير بحاثة ومصور ماهر، ويبدو أنه ساعده في التقاط العديد من الصور. والواقع أن المجلدين يضمان ٣٦٥ صورة فوتوغرافية، حظيت منها مكة المكرمة والمشاعر بعدد يزيد على مئة صورة، وكان نصيب المدينة المنورة وما حولها نصف هذا العدد تقريباً، كما تشمل الصور حوالي خمسين صورة شخصية لكبار الحجاج والشخصيات التي قابلها، إلى جانب خرائط و "مخططات" لمكة المكرمة والمسجد الحرام والمشاعر والمدينة المنورة، نقلها من بوركهارت ومن دومنغو باديا ليبلخ (العباسي)، غير أنه ترجم أسماء بعض المواقع وأدخل عليها تعديلاً طفيفاً. وضمت الصور تسجيلاً فوتوغرافياً لعدد كبير من الفرمانات والرسائل المتبادلة والشخصية للمؤلف.

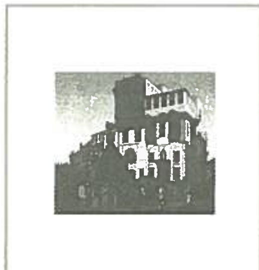
٦٩- إبراهيم رفعت. مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية محلاة بمئات الصور الشمسية.

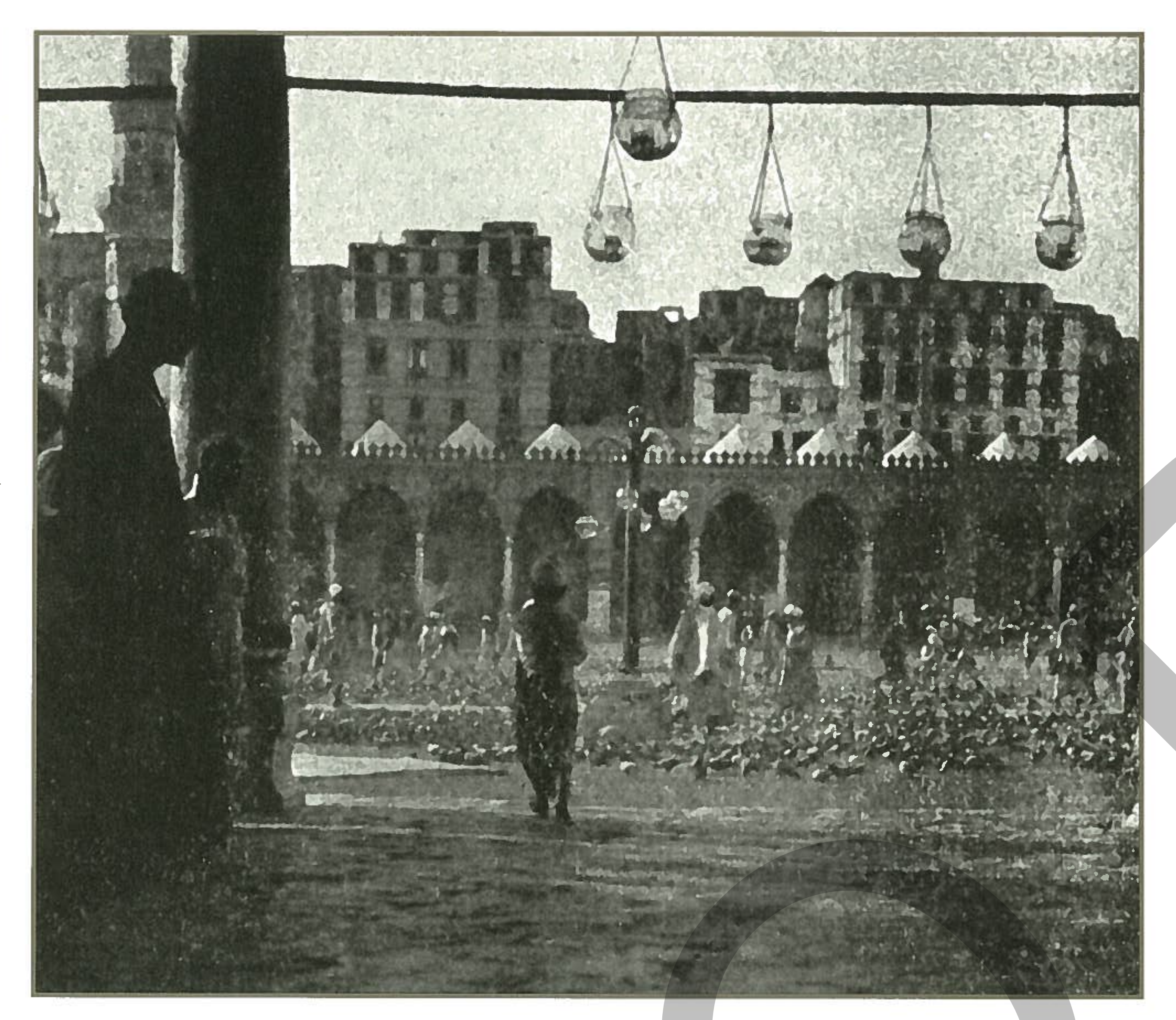


[الحاجز الذي يفصل النساء عن الرجال (قفص النساء) في حصوة باب علي. ويلحظ قماش البفتة المنشور في الحصوة بعد غسله بماء زمزم. ويظهر في وسط الصورة المبنى المقام على بئر زمزم، ويعلوه المقام الشافعي وعلى يمينه باب بني شيبة ثم المقام الحنفي (تصوير إبراهيم رفعت)].



▲[صورة التقطها رفعت عام ١٣٢١هـ (١٩٠٤م) تبين قشلة أجياد التي أنشأها عثمان نوري باشا ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م). وقد نصبت في الساحة المقابلة لبابها الرئيس خيام لإيواء الجند الذين وفدوا في أثناء موسم الحج فيما يبدو ويلحظ أن الجزء الأوسط الأمامي مكون من دورين. ويظهر خلفها جبل السبع بنات].





▲[تبين الصورة أروقة المسجد الحرام وقد عُلقت بين الأعمدة الأمامية البرم التي تستخدم للإضاءة. ويبدو أيضاً الحجاج وهو يطعمون الحمام في الحصاوي (تصوير رفعت)].

ونلحظ أن جميع الصور تحمل شرحاً باللغتين العربية والإنجليزية، إلى جانب عبارة حفظ حقوق الطبع والنشر "للواء إبراهيم رفعت باشا أمير الحج المصري في محرم ١٣٢٦هـ (فبراير ١٩٠٨م)"، لكن شروح بعض الصور تشير إلى تاريخ التقاطها عام ١٣٢١هـ (١٩٠٤م) أو عام ١٣٢٥هـ (١٩٠٨م)، والأغلبية لا يحمل شرحها ما يشير إلى السنة التي التقطت فيها.

يصف المؤلف في المجلد الأول من كتابه رحلته الأولى عام ١٣١٨هـ (١٩٠١م) بالتفصيل، وأضاف إليه فصولاً مطولة لوصف أحكام الحج وبقية المناسك، وجغرافية الجزيرة العربية، وتاريخاً موجزاً للسيرة النبوية والفتوحات الإسلامية، وموجزاً لتاريخ مكة المكرمة وتاريخ المسجد الحرام عامة والكعبة خاصة. ويضم المجلد الثاني وصفا موجزاً لرحلاته الثلاث التالية، وتفاصيل دقيقة لمصاريف الكسوة والمحمل والصدقات، كما يضم تفاصيل عن أوقاف الحرمين بمصر، وقارن ذلك ببعض المصروفات في بعض السنوات السابقة لرحلاته، ثم موازنة المحمل حتى قرب تاريخ صدور الكتاب. وقد انتقل المؤلف إلى رحمة الله عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٥م) وعمره حوالي ثمانين عاماً هجرية. وقد بدأ وصفه لمكة المكرمة في ذلك العهد، فتكلم عن أسمائها ثم عن حواريها ومعالمها العمرانية، وننقل فيما يأتي موجزاً لوصفه[٧٠]:

"وفي أجياد ميدان لاستعراض العساكر، وفيه المطبعة الأميرية، ودار البريد والإشارات البرقية ومركز الصحة، وفي الشامية شارع تجاري عظيم أشبه بشوارع الموسكي والتربيعة والغورية وخان الخليلي. وتباع فيها السبح والأقمشة الهندية والتركية وفصوص الفيروز والياقوت والعقيق الذي يبيعه حجاج اليمن بأثمان رخيصة جداً... وفي مكة المكرمة على الجملة ستة جوامع كبيرة خلاف المسجد الحرام وسبعة وستون مسجداً، المشهور منها مسجد الراية، ومسجد الجن، ومسجد الإجابة، ومسجد البيعة. وبها محكمة شرعية. وفي مكة المكرمة ست مدارس للعلوم وثلاثة وأربعون كُتَّاباً للصبيان، كانت سنة ١٣٠٣هـ (١٨٨٦م) ٣٣ كُتَّابا وعدد التلاميذ بها ١١٥٠، وأشهر هذه المدارس المدرسة الصولتية التي بناها الشيخ رحمة الله الهندي، ويدرس فيها القرآن وعلم التجويد وشيء من اللغة العربية والحساب والهندسة. ومدرسة أخرى تماثل الأولى أو تزيد عليها... وبمكة المكرمة مكتبتان صغيرتان، الأولى في باب أم هانئ تسمى كتبخانة شرواني زادة (أسسها) محمد رشدي باشا والي الحجاز سابقاً، وأخرى بباب الدريبة قرب باب السلام، تسمى بالكتبخانة السليمانية، أسسها السلطان عبدالمجيد وكوَّنها من شتات كتب المسجد الحرام وغيرها مما أرسله. ولكل مكتبة فهرس بخط اليد وأمين يقوم بشؤونها، والكتب التي بهما نحوية وفقهية وأدبية وتاريخية، وأكثرها باللغة العربية، وفيها شيء بالفارسية والأوردية (الهندية) والتركية والجاوية (لغة الملايو). وبمكة المكرمة ١٧ مصنعاً ومدبغتان للجلود، و مسلخان، ومخزنان كبيران. وبها قلاع ثلاث: قلعة أجياد التي أنشأها سنة ١١٩٦هـ (١٧٨٢م) الشريف سرور بن مساعد أمير مكة المكرمة بعد أن اشترى ما حولها من البيوت. وثانيتها قلعة الهندي التي بناها الشريف غالب بن مساعد سنة ١٢٢١هـ (١٨٠٦م) في الجهة الشمالية، وكانت صغيرة وحدث فيها خراب فعمرها ووسعها المشير عثمان نوري باشا شيخ الحرم ووالي الحجاز وأحكم بناءها ورتبها سنة ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م) وثالثتها قلعة لعلع التي أنشأها أيضا الشريف غالب. وبمكة المكرمة حمامان على مثال الحمامات الرومية بمصر، واحد بالعمرة (يقصد باب العمرة) بناه محمد باشا وزير السلطان سليمان سنة ٩٨٠هـ (١٥٧٢م) والثاني بالقشاشية ويسمونه حمام النبي. وبها ثلاث تكايا: أهمها التكية المصرية وقد أنشأها محمد علي باشا ١٢٣٨هـ (١٨٢٣م) وأقيمت مكان دار السعادة. وفيها عشرون سبيلاً وعشرون صهريجاً...".

٧٠- إبراهيم رفعت، مرجع سابق، مج ١، ص ١٧٧ - ١٨٤.



▲[صورة التقطها رفعت من الجهة الشمالية الغربية للمسجد الحرام أثناء صلاة العصر في المسجد الحرام. ولم نجد أحداً من المصورين السابقين التقط صورة لهذا الجانب. ويظهر فيها ١- منارة باب أم هاني. ٢- الحميدية. ٣- التكية المصرية. ٤- جبل أجياد. ٥- جبل خندمة. ٦- جبل السبع بنات. ٧- المنازل المطلة على الشارع العام و على المسجد الحرام].

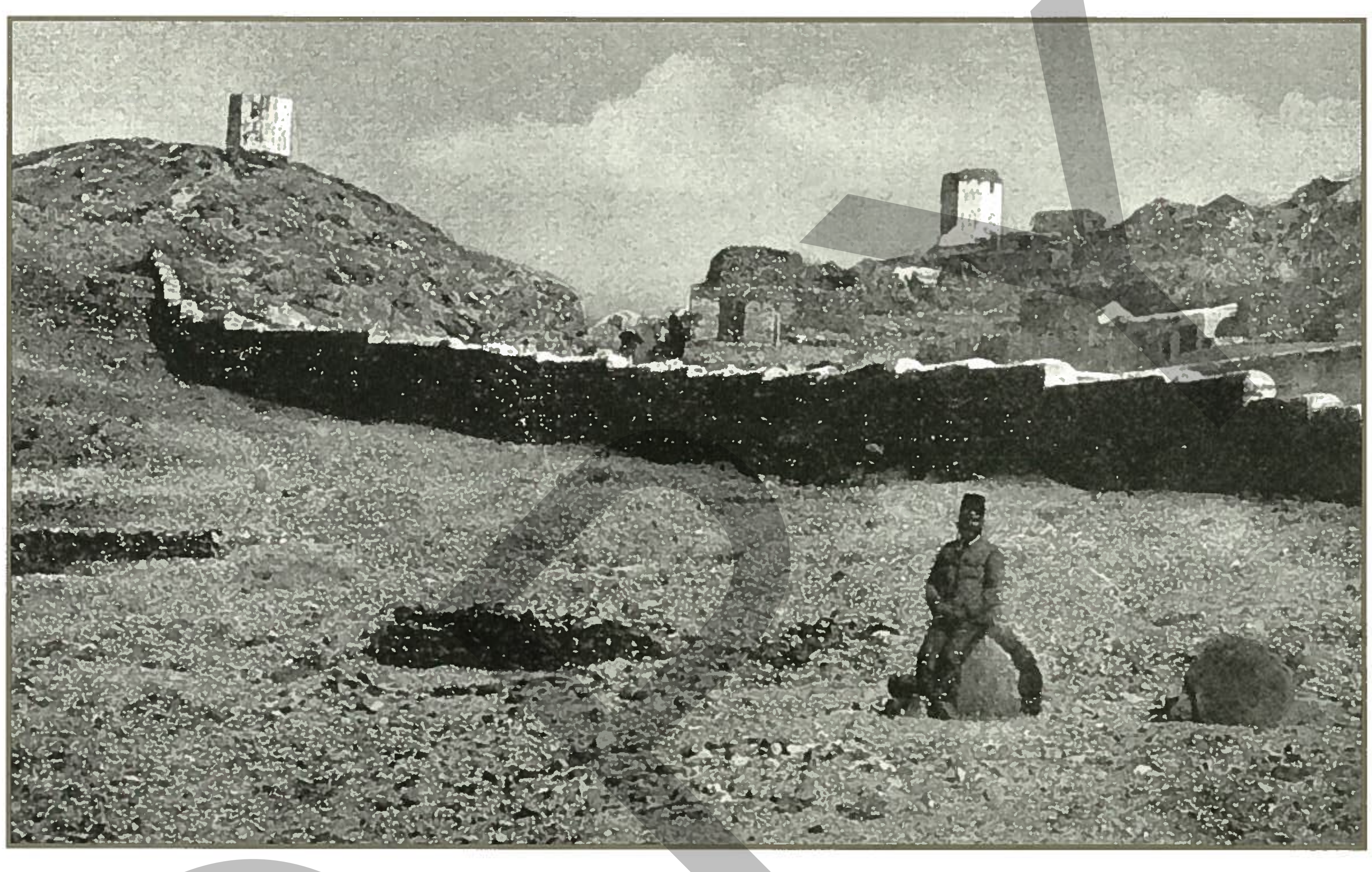


▲[المسافر خانة بجرول التي أصبحت تعرف فيما بعد بالقشلة. وقد أنشأها السلطان عبد الحميد استراحة للحجاج و حضر افتتاحها إبراهيم رفعت في شهر ذي الحجة ١٣١٨هـ (١٩٠١م). ثم تحول المبنى إلى ثكنة عسكرية حتى تمت إزالته عام ١٤١١هـ .(تصوير رفعت)].



▲[صورة بانورامية لمكة المكرمة باتجاه الشرق مكونة في الأصل من إطارين منفصلين. التقطهما إبراهيم رفعت من أمام قلعة جبل هندي. حوالي عام ١٣٢١هـ ويظهر على يمين الصورة: ١- جبل أبي قبيس وعليه مسجد بلال. ٢- حارة سوق الليل. ٣- بيت القطان في وسط حارة الشامية وقد انشئ عام ١٣٢٠هـ ٤- شعب علي و خلفه جبل خندمة. ٥- حارة الغزة وبها قصر الحكم. ٦- جبل ثبير (جبل الرخم). ٧- قلعة فلفل (اللاسلكي) على جبل لعلع. ٨- حارة الفلق. والغريب أن رفعت نشر الإطار الأيمن في صفحة ٢/١٩٧. والأيسر في صفحة ٢/١٠ وقد قمنا بتوصيلهما لتكوين هذه الصورة].

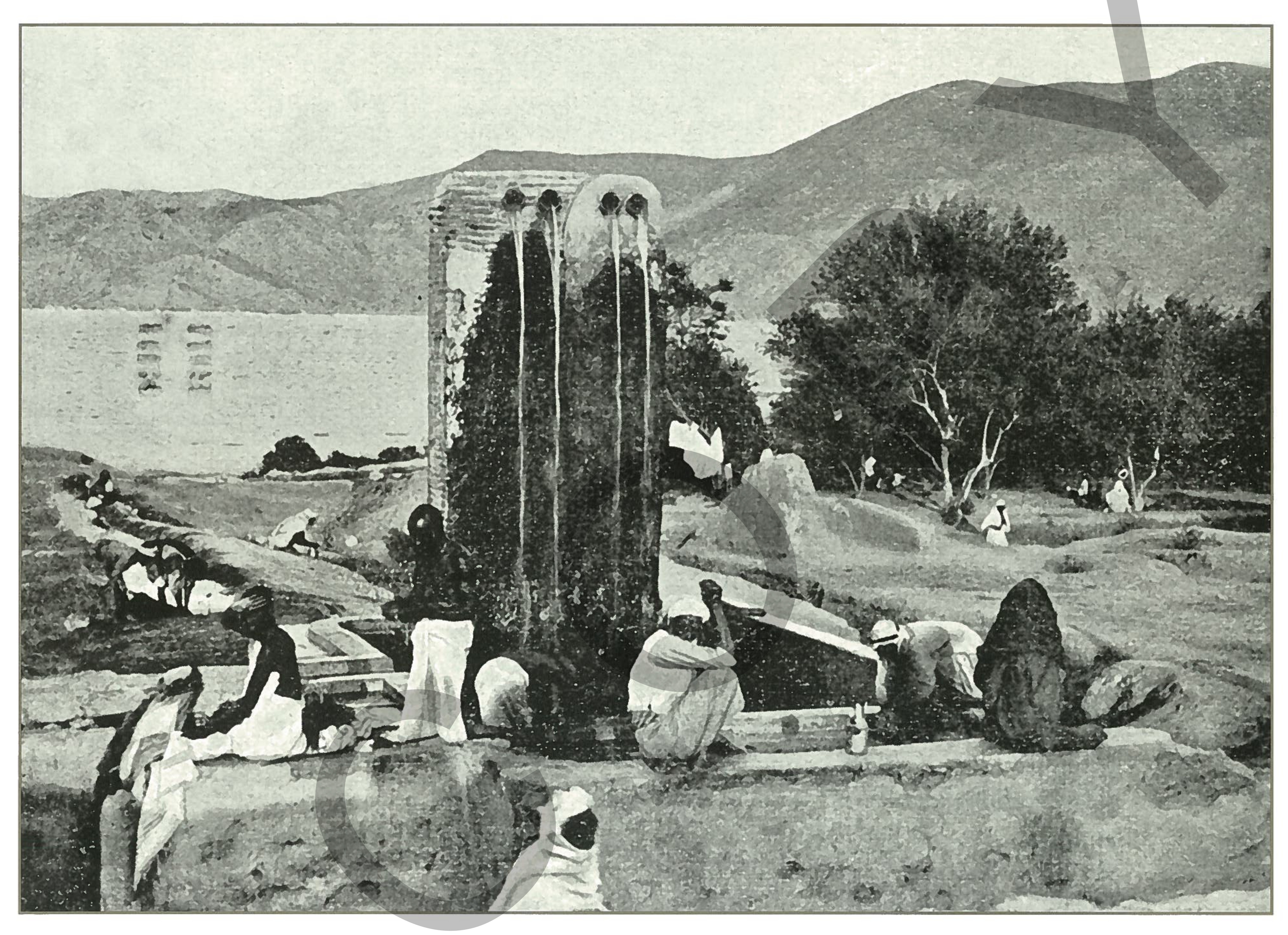




◀ [برجا المراقبة المقامان عند مدخل ثنية كدا المعروفة بطلعة الحجون. ويظهر في الصورة سور مقبرة المعلاة. وبداخلها جلس إبراهيم رفعت على صخرة وسط المقبرة. وقد نشرت الصورة مقلوبة، وقمنا بتعديلها. (انظر خريطة بوركهارت التي توضح موقع البرجين على الحجون)].



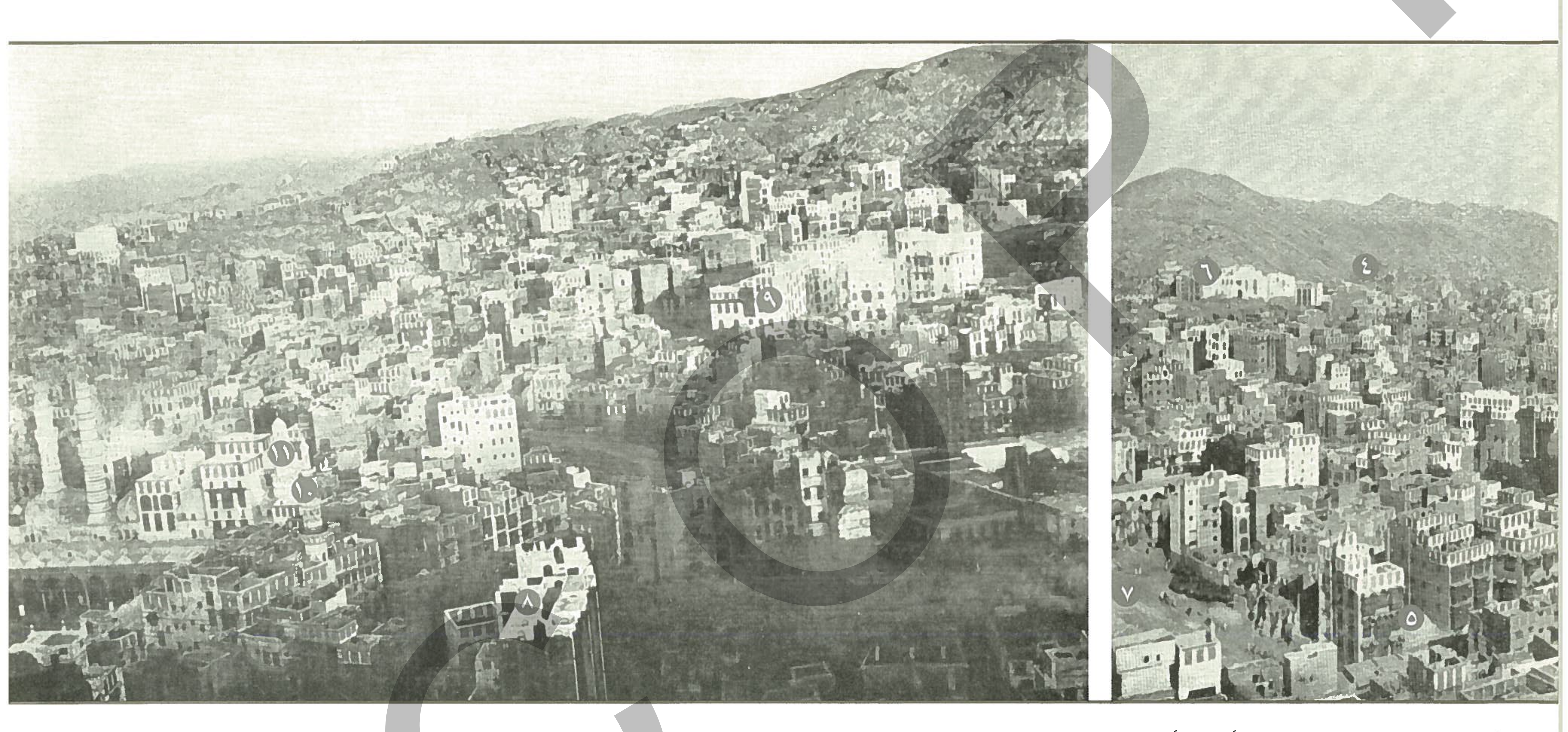
◀ [مخيم إقامة الحجاج المرافقين للمحمل المصري بمكة المكرمة أمام "بئر طوى" في جرول. وفي الطرف الأيمن من الصورة يظهر سطح البناء القائم على البئر. وخلف المخيم يظهر بستان الشريف عون الرفيق والسور المحيط به].



▲[منظر من داخل بستان الشريف عون الرفيق بجرول. وفيه مصب للمياه القادمة من عين زبيدة في وسطه، وموقعه اليوم هو حلقة الخضار - سابقاً - خلف مستشفى الولادة. (تصوير رفعت)].



▲ [منظر لبعض بيوت مكة المكرمة على الطراز الجديد بأجياد، (بير بليلة)، على الطريق المؤدي إلى ما عرف حديثاً، بريع بخش. التقط الصورة رفعت عام ١٣٢١هـ وكان الوالي العثماني أحمد راتب باشا يسكن في هذه البيوت. ويلحظ أن الصورة مكونة من لقطتين نشرهما رفعت منفصلتين في كتابه(صفحة ١٧٩، الجزءالأول) وقد قمنا بتوصيل الصورتين معاً لنعطي منظراً أكمل)].



الآن إعادة صف الإطارات الستة لتعطي منظراً متسلسلاً إلى حد بعيد. وتظهر من أقصى اليمنى: ١- جبل حراء. ٢- المسجد المقام على مكان مولد النبيﷺ (مكتبة مكة المكرمة) اليوم ٣- قصر الحكم بالغزة على يمين الصاعد من المسجد الحرام. ٤- مقابر المعلاة. ٥- حمام القشاشية. ٦- قلعة جبل لعلع (اللاسلكي). ٧- المنطقة التي شملتها هدميات القشاشية في أواخر عهد الشريف عون لإقامة "مسافرخانة" (مدينة حجاج) حسب طلب السلطان



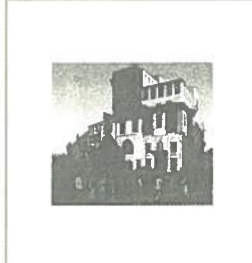
١ ٢ ٣

▲ [التقط إبراهيم رفعت ست صور متوالية من على جبل أبي قبيس، تغطي منطقة أجياد والحرم والغزة وشعب بني هاشم. لكنه لم يحاول الالتزام بزاوية محددة للكاميرا حتى نحصل على صورة شاملة (بانورامية) متوالية. بل إنه عند نشر كتابه لم يحاول تجميعها أو ترتيبها ونشرها متفرقة. ونحن نحاول





[نشر رفعت هذه الصورة لمضخة دفع المياه من فوق جبل الصابح الذي يفصل منى عما يعرف اليوم بحي العزيزية، وكان يطلق على هذه المنطقة وحي العزيزية اسم "المفجر". ويظهر في الأفق البعيد جبل ثور الذي به الغار المشهور الذي اختبأ فيه النبي ﷺ عند هجرته من مكة المكرمة. والمنطقة السهلية الواضحة في قلب الصورة فهي قلب حي العزيزية. لاحظ في أسفل الصورة قناة عين زبيدة والبناء الصغير الذي يضم المضخة التي ترفع الماء من القناة إلى منى لسقيا الحجاج أيام التشريق. ويظهر في أسفل الصورة أيضاً الممر الممهد الذي يسهل انتقال الحجاج من المفجر (العزيزية) إلى منى من الجنوب إلى الشمال. ويلحظ أن الممر المذكور نفسه قد تم شق طريق فيه حديثاً أطلق عليه اسم طريق الأمير عبدالله بن عبدالعزيز].



والغريب أن خريطة مكة المكرمة التي رسمها بوركهارت عام ١٢٢٩هـ(١٨١٤م)، – رغم دقتها عموماً – تضع موقع دار السعادة على بعد ٢٥٠ متراً عن الجدار الخارجي للمسجد الحرام، أي أنه في موقع ما أمام مستشفى أجياد. لكن المؤكد من وصف مؤرخ مكة المكرمة الشيخ عبدالملك بن حسين العصامي للسيل الذي اقتحم البلدة ظهر يوم الثاني عشر من ذي الحجة ١٠٩٠هـ (١٥/١/١٦٨٠م) وقد حضره بنفسه وهو على باب المسجد الحرام الجنوبي المواجه لدار السعادة، وكيف أن العسكر على سطح الرواق الجنوبي كانوا يطلبون حبالاً فترمى لهم من سطح دار السعادة إلى سطح الرواق وذلك ليدلوها للغرقى، مما يؤكد أن المسافة حوالي ٢٠ متراً، وهذا يجزم بأن موقع دار السعادة في موقع التكية المصرية. وبالمناسبة فإن إبراهيم رفعت قد نشر خريطة بوركهارت بين صفحة ١٧٨–١٧٩ من المجلد الأول، ولم يشر إلى من رسمها، واكتفى بتعريب أسماء الأماكن، ولم يوضح رفعت مقياس رسم الخريطة، ثم قام الشيخ محمد طاهر كردي بنقل الخريطة عن إبراهيم رفعت ونشرها في صفحة ٣٢ من المجلد الأول من "التاريخ القويم" الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ(١٩٦٥م).

ونعود إلى تكملة وصف رفعت أنحاء مكة المكرمة: "... وببيوت الأمراء أنابيب مائية ذات "حنفيات"، وبمكة المكرمة ١٩ رباطاً و ٨٠ طاحونة خيل، و ٦٠ تنوراً، و ٩٥ قهوة (مقهى) بلدية رصت فيها "التكك" والكراسي التي مقاعدها شباك مصنوعة من الليف أو الخوص المجدول، ويشرب فيها الشاي والقهوة والنرجيلة "الشيشة". ويضيفون إلى البن اليمني الحبهان والقرنفل والحبة السوداء مما يجعل للقهوة نكهة جميلة، وبها محجر صحي "كورنتينا" معطل، وصيدلية ومتجران كبيران للمجوهرات الثمينة، و١٧ مجيرة لعمل الجير، و ٨ مصانع للفخار، ومخزن كبير للغاز (الكيروسين)". ثم نقل المؤلف عن التقويم التركي للبلاد الحجازية لسنة ١٣٠٩هـ (٩١/١٨٩٢م)، أن عدد الدكاكين بمكة المكرمة ٣٠٠٠ دكان وعدد البيوت ٦٥٠٠ بيت، وأضاف أن البيوت "مبنية بالجص والحجر الأصم ذي اللون الأسود تتخلله نقط حمراء وبيضاء، والبيت يتكون من طبقة إلى خمس طبقات، وأكثرها ليس به فناء، وأجمل بيوت مكة المكرمة على الإطلاق بيوت جليس الشريف الملقب "بالبو". وبيوت محمد علي كاتب الشريف، فإنها مبنية على الطراز الحديث من جهة التقسيم والهيئة والزخرفة والزينة، وهي تضارع بعض البيوت الجميلة بمصر والإسكندرية. وبيوت الأمراء وإن كانت عظيمة، إلا أنها على الطراز القديم. وبمكة المكرمة كثير من البساتين الصغيرة والبرك الصناعية ذات الفوارات المائية".

وَصف إبراهيم رفعت باشا للتّصعيد إلَى عَرفات:

وصف إبراهيم رفعت عملية التصعيد إلى عرفات، ثم وصف عرفات في أول حجة له عام ١٣١٨هـ(١٩٠١م) ونقل فيما يأتي نبذاً من وصفه[٧١]:

"... ولما كانت ليلة الثامن من ذي الحجة، تحرك لتمام الساعة ١١ العربية ركب المحمل (المصري) من معسكره بمكة المكرمة (عند بئر طوى بجرول) ميمماً عرفة، فسار من حارة الباب إلى الشبيكة، فالسوق الصغير فأجياد، مخترقين شارع المسعى، فالقشاشية، فسوق الليل، فالغزة، ثم سرنا إلى الشمال ومررنا بالبياضية على اليسار، وفيها بيت بحديقة للشيخ الشيبي أمين المفتاح، (سادن الكعبة المشرفة)، ثم شرقنا إلى منى ووصلنا إلى أول مدرج والمدرج جزء من الطريق مرصوف بالحجارة، يشبه درجة السلم، لكن عرضه ٢٠ متراً، وطوله ٥٠، وارتفاعه عشر المتر، ووصلنا المدرج الثاني بعد ربع ساعة، وقد تابعنا السير حتى بلغنا منى الساعة ١:٤٥، وبها استراح المحمل ربع ساعة، ثم سرنا فوصلنا المزدلفة. ثم عرفة الساعة ٤:٣٥، فنكون قد قطعنا الطريق بين المعسكر وعرفة في خمس ساعات و ٣٥ دقيقة، استرحنا فيها ١٥ دقيقة. والطريق رملي، لا تغور فيه الأقدام، وبالطريق كل ما يحتاج إليه الإنسان من ماء وقهوة وشاي ومأكولات من لحوم وأرز وعدس مطبوخة وغير مطبوخة، وسكر وحلاوة وملبس إلخ. وحينما وصلنا إلى عرفة نزل الركب في محله المعد له سنوياً، وكانت الخيام والأمتعة والمؤن قد سبقتنا".

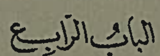
ويستطرد رفعت في وصف عرفات بقوله: "جبل عرفات على شكل قوس كبير يحيط بواد متسع مساحته نحو ميلين مربعين، وعلى طرف القوس من جهة الجنوب الطريق إلى الطائف، وفي طرفه من جهة الشمال لسان يبرز إلى الغرب يسمى "جبل الرحمة" ارتفاعه قريب من ٣٠ متراً، وطوله ٣٠٠ متر، ويصعد إليه بمدارج (عتبات) كبيرة على شكل سلم غير منتظم، به ٩١ درجة يختلف ارتفاع الواحدة منها من عشر المتر، إلى ثلاثة أعشاره، وعلى يمين الصاعد على الجبل قريباً من منتصفه مستو طوله ١٥ متراً في عرض ١٠ أمتار، وبه مصلى ذو قبلة يسمى مسجد إبراهيم عليه السلام، ويقال: إن النبي ﷺ صلى فيه، وهذا غير صحيح".

"... وفي أعلى الجبل مستو مبلط مربع ضلعه ٥٠ متراً، وفي وسط المستوي مسطبة مربعة، ضلعها ٧ أمتار وارتفاعها متر ونصف، وعند الركن الغربي منها عمود مربع مبني بالحجر الأصم، و مجصص ارتفاعه نحو أربعة أمتار، وعرض كل جانب من جوانبه الأربعة متر واحد، وهذا العمود علم على جبل الرحمة، وتعلق به مصابيح ليلة عرفة، إرشاداً للحاجين والسالكين، وحول العمود حائط به محرابٌ يصلي إليه الناس، وبأسفل الجبل مسجد صغير يسمى مسجد الصخرات يزعمون أن النبي ﷺ صلى فيه، ولم يثبت.

وبجوار جبل الرحمة ثمانية أحواض تملأ بالماء من مجرى عين زبيدة بواسطة مجار تحت الأرض، وذلك في زمن الحج فقط، وترمم وتنظف كل سنة... وفي جنوب الميدان.. جامع نمرة ... يجمع فيه الحجاج بين صلاتي الظهر والعصر، جمع تقديم ... ويحيط بوادي عرفة من جهته الشمالية والجنوبية والغربية مجرى عين زبيدة".

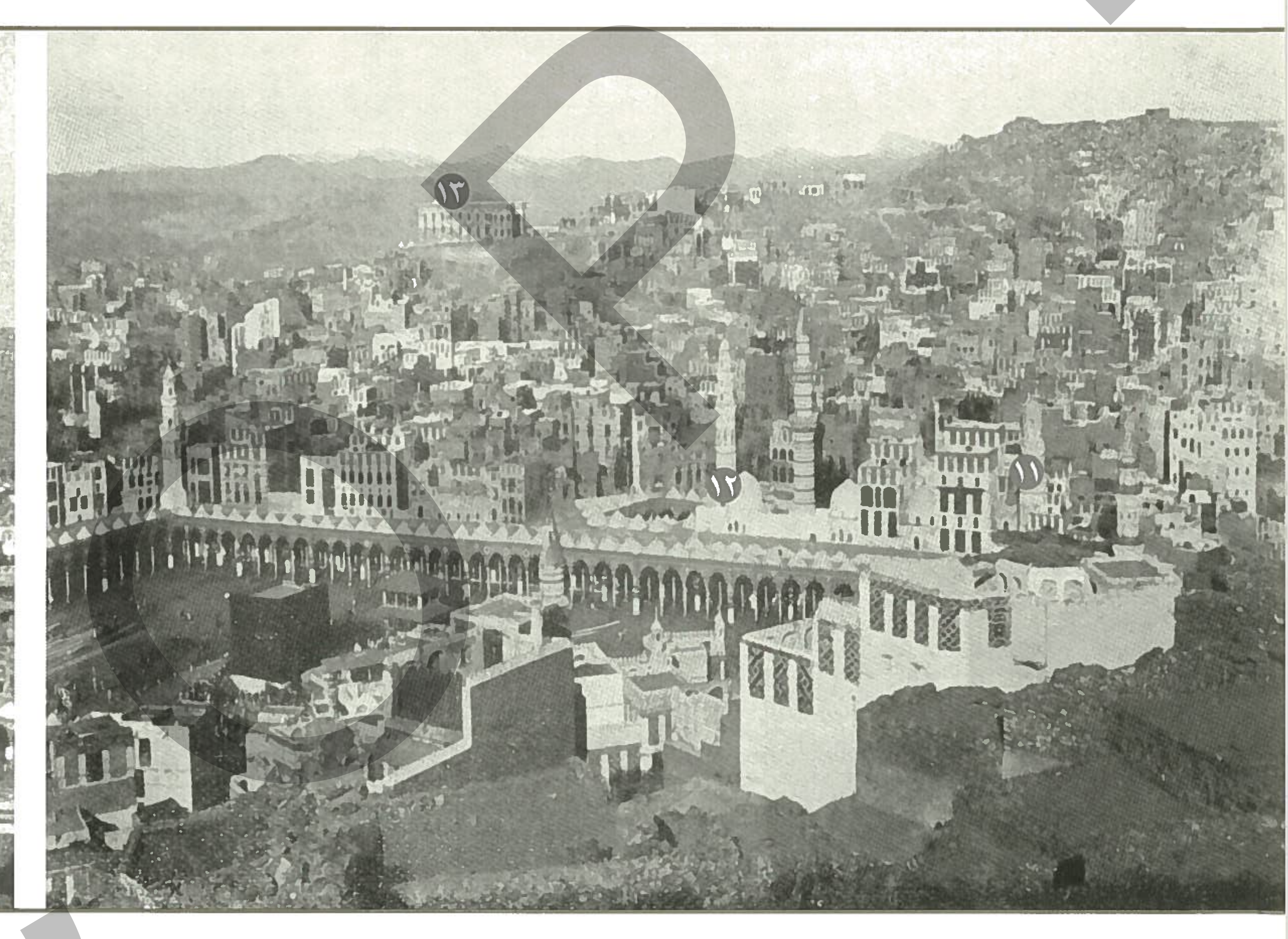
"... وقبل المغرب بساعة من يوم عرفة تحرك المحملان المصري والشامي حتى وصلا إلى سفح جبل الرحمة، ووقف الخطيب على جمل قريباً من سفحه، ووقف بجواره مبلغان، مصري وشامي، بيد كلٍ منديل يلوح به للحجاج كلما سكت الخطيب، وساعة يلوحان ترى الآلاف المؤلفة من الأجناس المختلفة وقد كشفت منهم الرؤوس، وعريت منهم الأقدام إلا القليل، وارتدوا ملابس الإحرام، وتراهم،

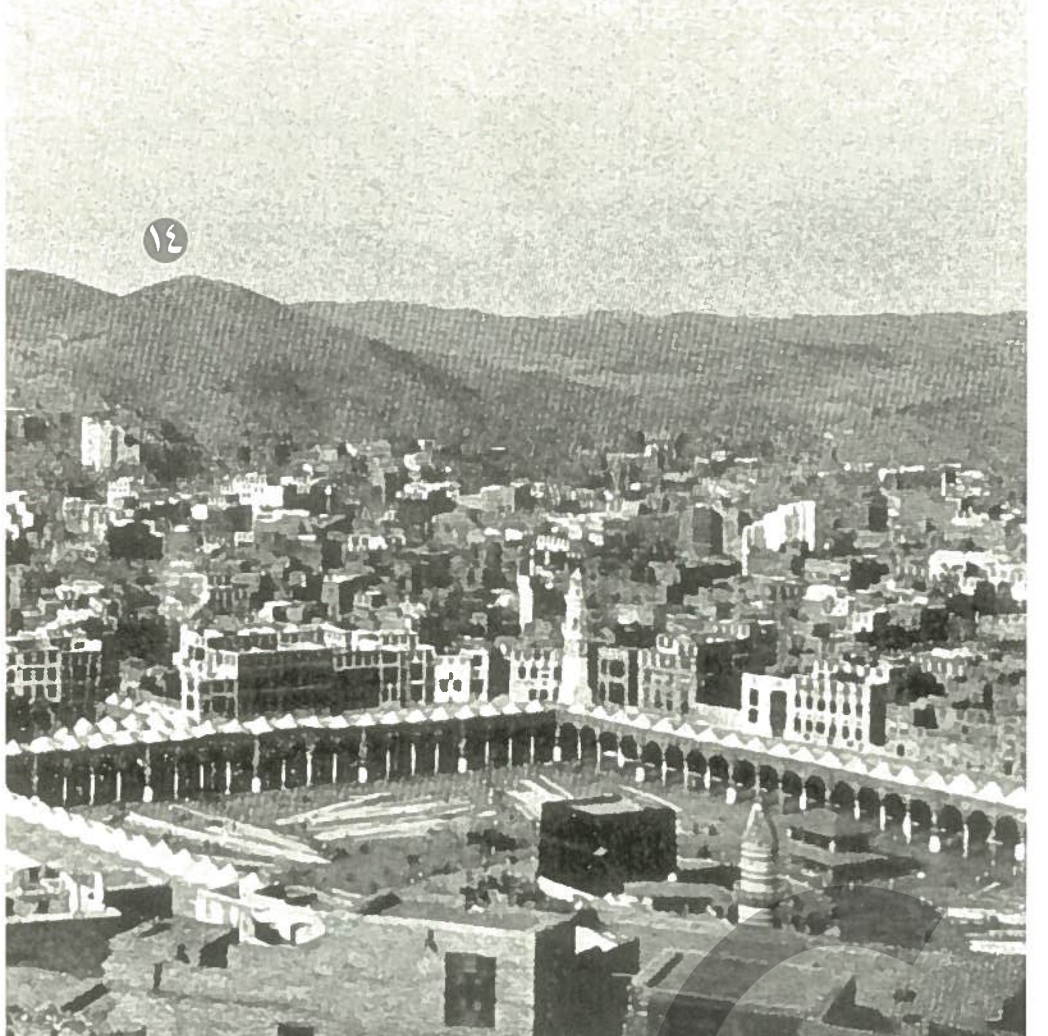
٧١- إبراهيم رفعت، مرجع سابق، مج١، ص ٤٢-٤٧.





المالية فيما بعد) التي أنشأها عثمان نوري والي الحجاز عام ١٣٠٢هـ
(١٨٨٥م)].





عبدالحميد. ٨- المباني الحديثة التي بناها الشريف عون لجليسه الملقب بالبو. ٩- قصر الشريف عبدالمطلب بالقرارة. ١٠- مئذنة قايتباي وسط شارع المسعى. ١١- مئذنة باب السلام. ١٢- الركن الشمالي من المسجد الحرام. ١٣- قلعة جبل هندي. ١٤- جبل عمر. ١٥- مبنى الحميدية وخلفه مبنى المطبعة. ١٦- قلعة أجياد. ١٧- بيوت الأشراف بأجياد. ١٨- بعض الحجاج أثناء صعودهم إلى جبل أبي قبيس. ١٩- خيام منصوبة بأجياد أمام مبنى الثكنة العسكرية (وزارة



يستغيثون، ومما أسلفوا يستغفرون، رافعين عقيرتهم بالتلبية. وإنك لترى جبل الرحمة قد ملأه الحجاج حتى لم يبق به موضع لقدم، إذا نظرته لا تنظر إلا أكداساً من الناس رافعين أيديهم. شاخصة أبصارهم نحو السماء وقد استمر الخطيب يخطب والناس وقوف حتى مغرب الشمس، وإذ ذاك أشعل أحد رجال المدفعية من المحملين شهباً (صواريخ) إيذاناً بالانصراف من الموقف، فأفاض الناس مهللين ومكبرين. وقد وصلنا نحو المزدلفة... بعد ساعتين، ووقت الوصول ضرب ٢١ مدفعا إعلاماً ببلوغ القصد".

ونستعرض بعض الصور التي التقطها إبراهيم رفعت في حجه عام ١٣٢١هـ (١٩٠٤م) وعام ١٣٢٥هـ (١٩٠٨م)، لمكة المكرمة والمشاعر وغيرها، ونلحظ تميزها بما يأتي :

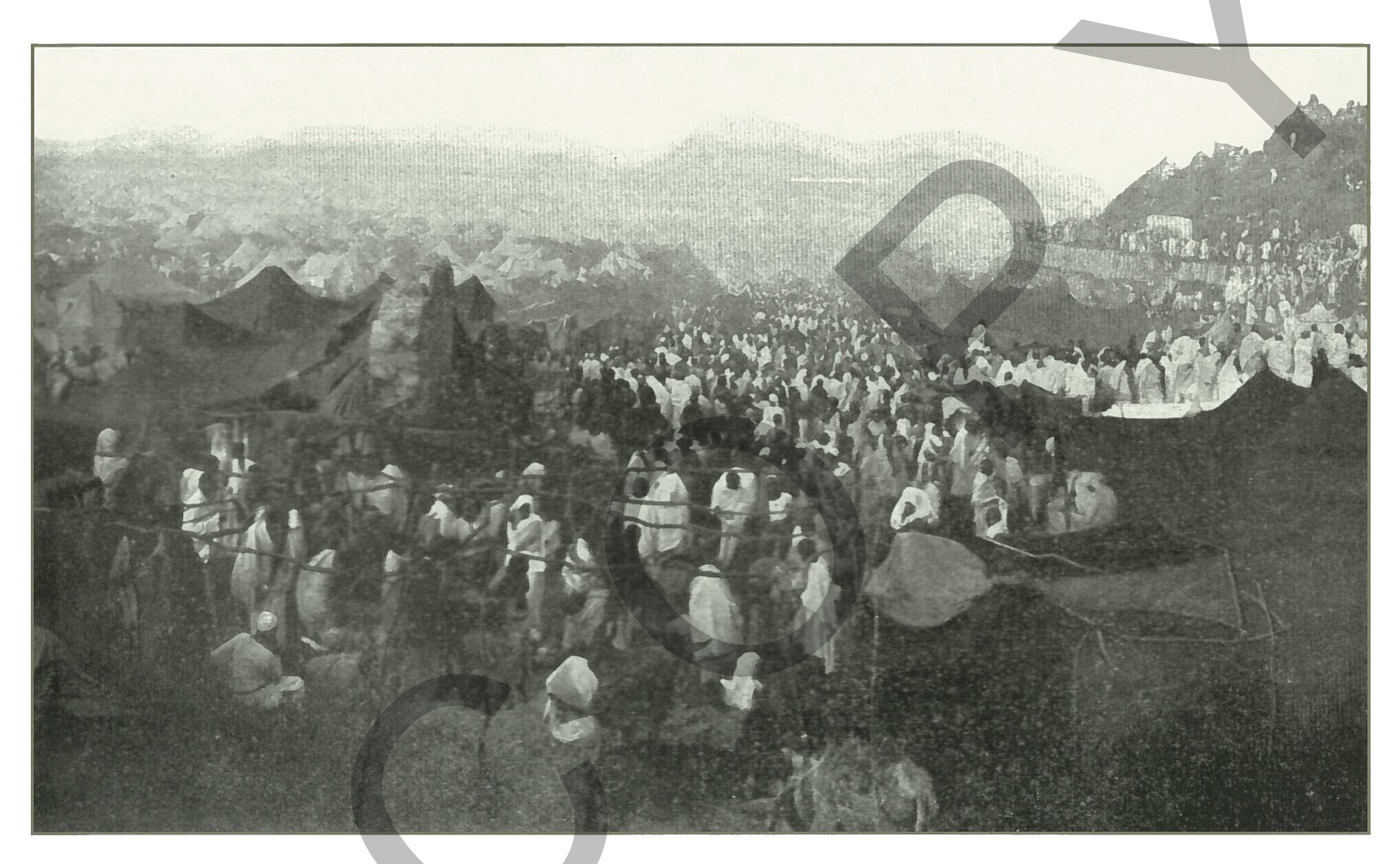
١– شموليتها حيث صورت الكثير من المواقع بالتفصيل.

٢– أنها تعطي تسجيلاً مصوراً لوضع مكة المكرمة والمشاعر بعد سنوات عديدة من صور السيد عبدالغفار، وكمثال على ذلك تظهر بعض التعديلات الطفيفة التي أجريت على قلعة أجياد. ومن جهة أخرى نلحظ أن صور رفعت للمسجد الحرام، تؤكد قرب العهد بتلك الصور التي التقطها مرزا.

▲ [مسجد نمرة من الداخل كما صورته عدسة إبراهيم رفعت. وتبدو في وسط ساحته قبة يحيط بها رواق. وفي أقصى اليسار يظهر الرواق الأمامي للمسجد. وبه القبة المقامة على مكان المحراب].



▲[حوض مياه بأسفل جبل الرحمة، وهو أحد سبعة أحواض وصفها إبراهيم رفعت وقال: إن خمسة منها تملأ من عين زبيدة، وإن اثنين مردومان بالرمال، والأحواض تختلف أحجامها، ولكل منها درجة بأسفله يقف عليها طالب الماء ليستقي ... وتظهر الصورة مخيمات الحجاج حول الأحواض].



▲[منظر لسوق عرفات من الجهة الجنوبية الشرقية لجبل الرحمة (تصوير رفعت)].



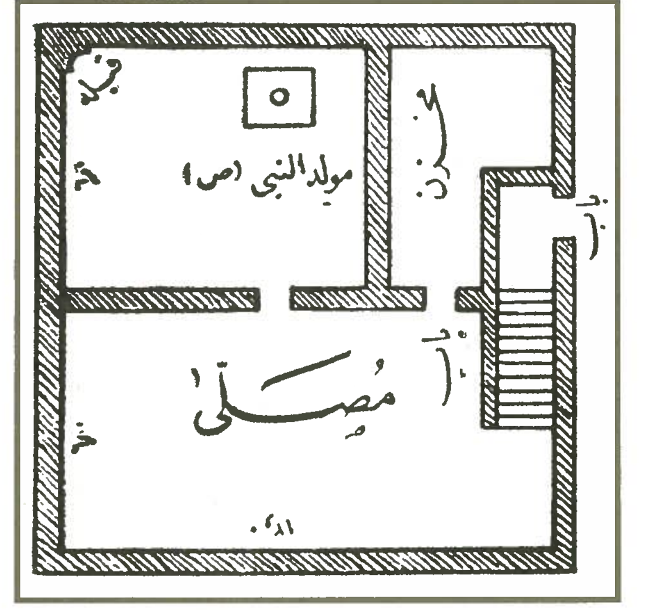
خامساً - رحلة البَتنوني مع خديوي مصر عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م):

محمد لبيب البتنوني رحالة أديب من مصر، رافق الخديوي عباس حلمي الثاني في رحلته إلى الحج عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)، حيث دخل مكة المكرمة فجر الثالث من ذي الحجة، وبعد أداء مناسك الحج، غادرها يوم ١٤ من ذي الحجة، أي أنه مكث بمكة المكرمة أسبوعاً واحداً فقط وخمسة أيام بالمشاعر. وحال عودته إلى القاهرة قام بإصدار الطبعة الأولى من كتابه "الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا خديوي مصر"، ثم أصدر في العام التالي ١٣٢٩هـ (١٩١١م) طبعة موسعة، تضم عشر صور فوتوغرافية لمكة المكرمة والحرم والمشاعر، وخمس عشرة صورة للمدينة المنورة إلى جانب عدد من المخططات لمكة المكرمة والمشاعر والمدينة، وخارطة لجزيرة العرب.

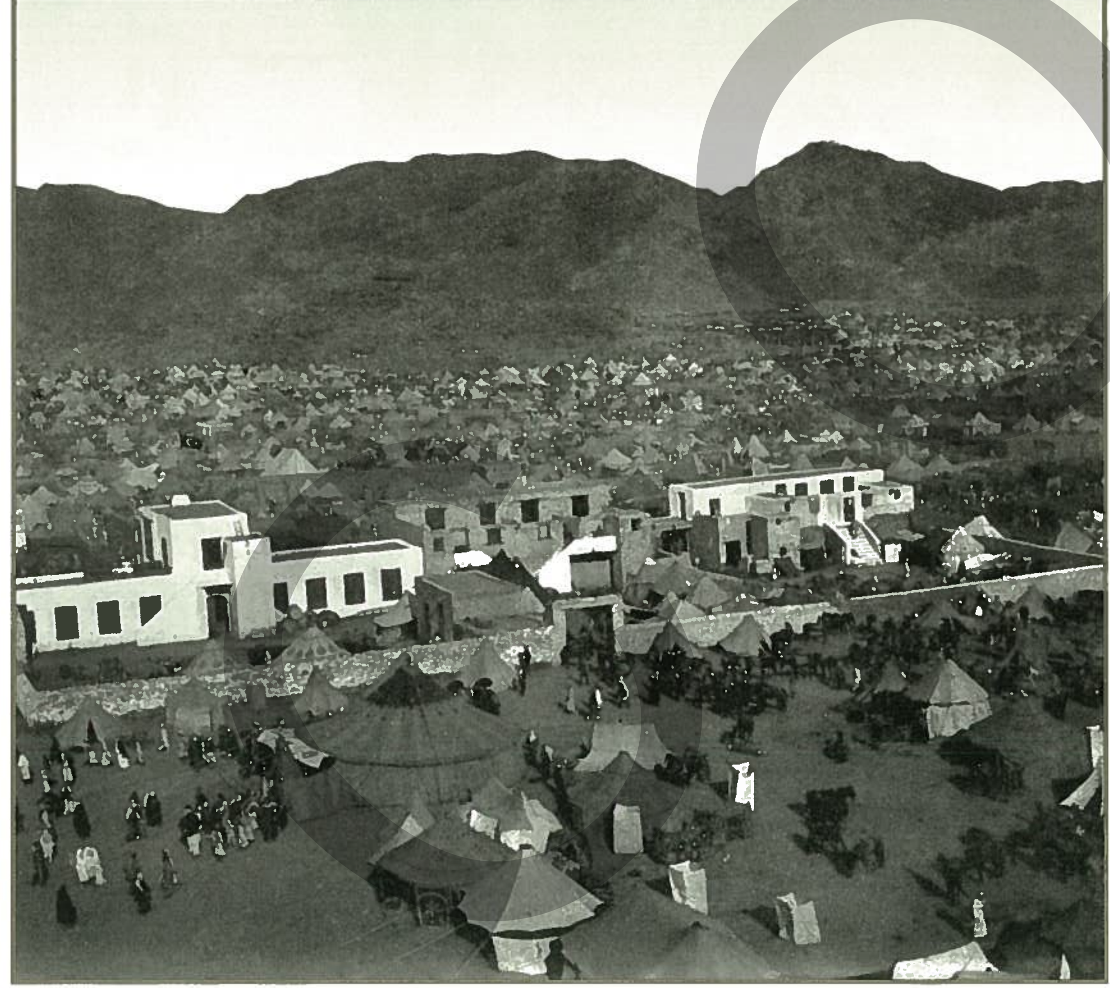
وقد جاء في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه(٧٢) ما يفيد أنه وضع بنفسه الخرائط والرسوم النظرية، وأن كتابه يضم صوراً فوتوغرافية أخذت بمعرفة "بعض من كان في معية الخديوي، وسواهم من المصورين الذين سبق لهم السفر إلى تلكم الأرجاء من مصريين وغيرهم "حسب تعبيره. وهذا يدل على عدم قيامه شخصياً بالتصوير الفوتوغرافي، كما أنه لم يذكر أسماء المصورين و لا عام التصوير. والحقيقة أن ما زعمه من قيامه بوضع الرسوم النظرية غير دقيق؛ لأنه استعار معظم الرسوم والمخططات من اللواء إبراهيم رفعت الذي استعارها بدوره من بوركهارت ودومنغو باديا ليبلخ (العباسي)، وانحصر دور البتنوني ورفعت في تعريب بعض أسماء المواقع، باختلاف بسيط بينهما، ويبدو من وجود بعض صور رفعت في طبعة الكتاب الأولى، ووجودها في بعض المؤلفات الأخرى أن رفعت كان يضع عمله تحت تصرف المؤلفين الآخرين، ريثما ينتهي من عملية التأليف التي استغرقت منه حوالي عقدين من الزمن كما أسلفنا القول. وعلى أي حال فإن للبتنوني فضل السبق في النشر، كما أنه انفرد بنشر مخططات دار عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم التي ولد فيها النبي ﷺ.

والمتتبع لكتابة البتنوني الموسعة عن مكة المكرمة والحجاز والجزيرة العربية يرى أنها تعتمد كثيراً على وصف بعض المستشرقين وتحليلهم مما دفع الأديب الحجازي عثمان ابن محمد الراضي إلى التصدي لكثير مما حوته هذه الرحلة، مفنداً آراء البتنوني خاصة في وصفه لعادات المكيين حيث يقول في مخطوطته التي وصف محتوياتها خير الدين الزركلي(٧٣) بقوله: "لم تبلغ إقامته بمكة المكرمة عشرة أيام قضاها في خدمة الخديوي والتهيؤ لصعود عرفة، وطلوع منى والاشتغال بالمناسك والتبريك والمعايدة. فأين الوقت الذي استطاع به أن يختلط بأهل مكة المكرمة، وتتكرر محادثته معهم حتى اختبر طبائعهم...إلخ". وللأسف الشديد فإن عثمان الراضي توفي عام ١٣٣١هـ (١٩١٣م) دون أن يكمل الكتاب.

وبدراسة الصور التي نشرها البتنوني نلحظ وجود صورة واحدة عن صور محمد صادق التي التقطت عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م)، ونرجح أن بقية الصور التقطها المصورون المرافقون للخديوي في حجه عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)، ويحتاج الأمر إلى الرجوع إلى محفوظات قصر عابدين والقلعة بالقاهرة لمعرفة المزيد من صور الرحلة وأسماء المصورين المرافقين. وعلى أي حال فقد اخترنا هنا ست صور مما نشره البتنوني، ورجحنا التقاطها من قبل المصورين المرافقين للخديوي، والرسم التخطيطي لدار عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم والد النبي ﷺ بمكة المكرمة.



[رسم نظري تقريبي لدار عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم والد النبي ﷺ بمكة المكرمة في شعب بني هاشم (شعب علي) حيث ولد النبي ﷺ (نشره البتنوني)].



[صورة نشرها البتنوني توضح خيام الحجاج في مشعر منى].

٧٢- محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية، ط٢، ص٦ المقدمة.

٧٣- خير الدين الزركلي، ما رأيت وما سمعت، ص ١٥٣-١٥٨.



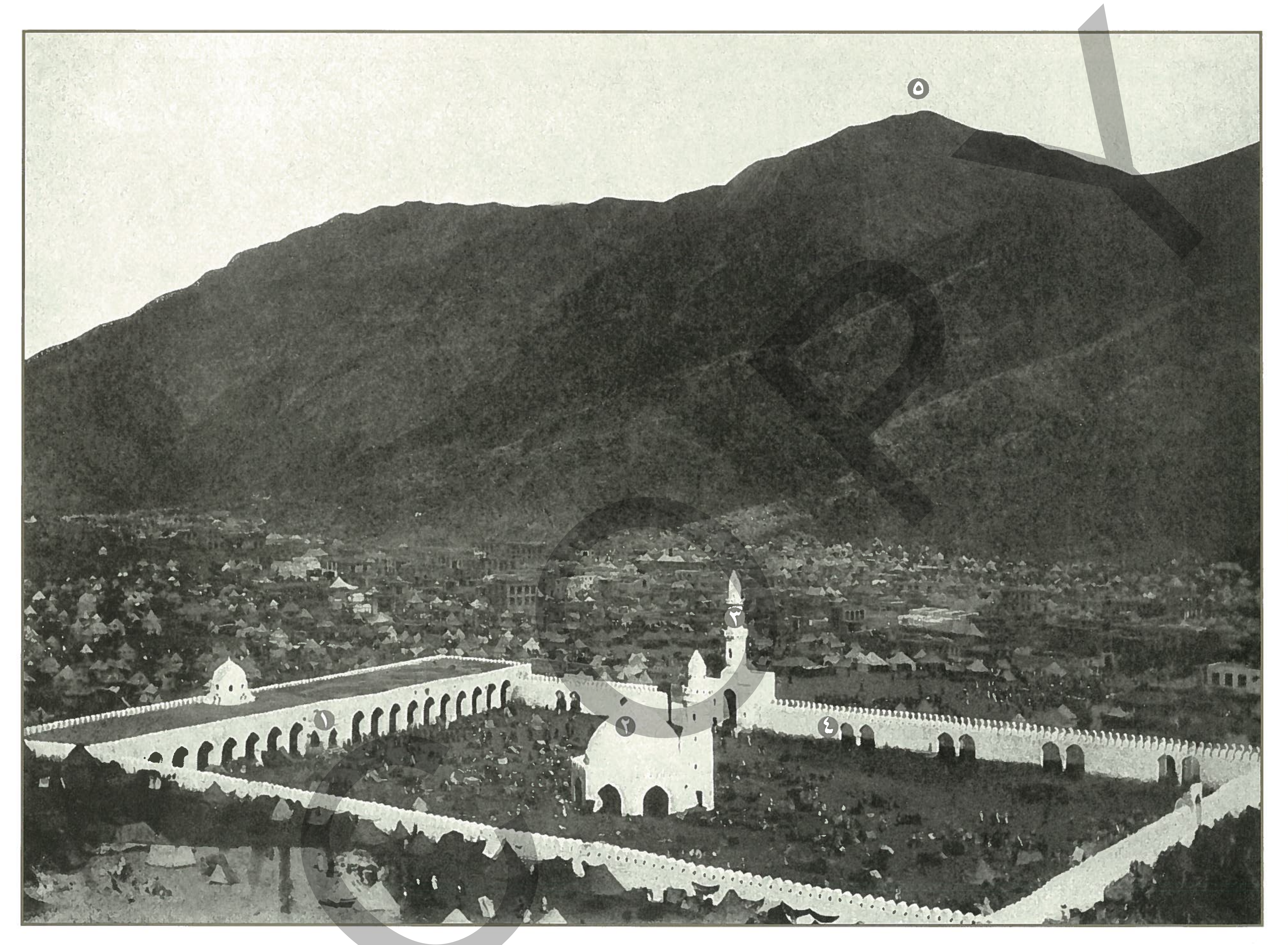
▲[صورة نشرها البتنوني لساحة مرفأ جدة في عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م). ويبدو في صدر الصورة المبنى الرئيس للمرفأ. وعلى يساره تبدو سواري السنابيك التي تنقل الحجاج والبضائع من السفن الراسية وسط البحر إلى ساحة المرفأ. وفي الوسط الساحة الرئيسة و فيها بعض الحجاج بأمتعتهم].



▲[صورة واضحة لباب الصفا نشرها البتنوني، تبدو فيها العقود الخمسة لهذا الباب بزخرفتها المميزة. وهو الباب الوحيد للمسجد الحرام ذو العقود الخمسة، ويظهر بينها الدواليب المخصصة للبوابين لحفظ الأحذية. كما يظهر إلى يسار الصورة باب المدرسة الملاصقة للحرم الشريف في هذه الناحية. وتظهر في أسفل الصورة قوافل الحجاج والشقادف في الشارع الرئيس. لاحظ برم الإضاءة المعلقة على كل فتحة من الفتحات الخمس لباب الصفا].



▲[صورة جبل الرحمة، نشرها البتنوني. وقد ظهر بوضوح العلم المقام على قمته، ويظهر بسفح الجبل المسجد الذي يعرف بمسجد إبراهيم عليه السلام. وتحيط مخيمات الحجاج بجبل الرحمة].



▲[صورة متميزة شاملة، نشرها البتنوني، تبين وسط منى وقد امتلأت بخيمات الحجاج، وتظهر فيها بعض المباني والأحوشة. ويظهر مسجد الخيف بكامله: ١- الرواق الأمامي (القبلي) للمسجد وفي وسطه القبة التي تعين المحراب. ٢- القبة التي تتوسط ساحة المسجد، وبجوارها منارة صغيرة، وهذا الموضع رمز للمكان الذي خيم فيه الرسول ﷺ. ٣- المنارة الشرقية الرئيسة ٤- سور المسجد وفي ضلعه الشرقي البوابة الرئيسة. ٥- جبل ثبير، وهو الحد الشرقي لمنى].



▲[صورة نشرها البتنوني للجمرة الوسطى. وتبدو أفواج الحجاج في الشارع العام. وقد ظهرت على الجانبين بعض المباني الموجودة في حج عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)].



سادساً - المصوّرون المكّيون حتى عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٥م):

سبق أن ذكرنا أن السيد عبدالغفار بن عبدالرحمن هو صاحب أول معمل للتصوير الفوتوغرافي في مكة المكرمة منذ عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م)، ولا نعرف من تلاه بعد ذلك على وجه القطع؛ لأن المراجع التاريخية المتوافرة لا تلقي الضوء للأسف على أصحاب المهن المختلفة.

وقد نشر الشيخ حسين عبدالله باسلامة في كتابه تاريخ عمارة المسجد الحرام[٧٤] صوراً فوتوغرافية للسيل الذي داهم المسجد الحرام يوم الأربعاء ٢٣ من ذي الحجة ١٣٢٧هـ (٥ يناير ١٩١٠م) (سيل الخديوي)، وقال: إن الذي صورها هو محمود عرب قرلي، ووصفه بأنه الرسام الشهير بمكة المكرمة في ذلك العصر.

وباتصالنا الشخصي بأحد الشخصيات المهتمة بالآثار والصور المكية، وهو الأستاذ أنيس بشير شودري الذي كان يقطن قريباً من أستديو شفيق المصور المعروف بحي أجياد خلف مبنى المستشفى، روى لنا كيف أن الصداقة كانت وطيدة بينه وبين شفيق، وكثيراً ما يعطيه بعض أصول الصور ويقص عليه تفاصيلها، ومن ذلك عرفنا أن اسم المصور الذي التقط صورة سيل الخديوي هو محمود حمدي عرب قرلي، من المقيمين بمكة المكرمة، ويعود أصله من بلدة "عرب قير" في مقاطعة ملاطيا بتركيا، وهو والد شفيق المذكور. كما قص علينا الأستاذ أنيس الكثير من الحوادث المهمة حول عمل محمود بن يوسف عرب قرلي، من ذلك أنه كانت له خبرة بالتحضيرات الكيماوية، مما جعل المسؤولين يستفيدون من خبرته في عام ١٣٤٣هـ، وكان يؤدي عمله في مقر الحكومة آنذاك "الحميدية"، وقد أصيب إصابة بالغة، وبترت يده عند ممارسته لبعض التحضيرات الكيماوية. توفي بعد بضعة أشهر في مدينة الطائف حيث كان يصطاف فيها. وقد اطلع الأستاذ أنيس على برقية لدى شفيق، وصلته من الملك عبدالعزيز من مقره في الرغامة آنئذ يواسيه بسبب إصابة والده محمود.

وحصل الأستاذ أنيس مؤخراً من ابنة المصور شفيق – وهي زوجة السيد فؤاد كتبي – على صور لجدها محمود، وأكدت له أن جدها قد عمل منذ بداية القرن الرابع عشر الهجري خطاطاً في مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، كما حصل منها على نماذج من لوحات الخط الفنية التي كان يخطها جدها محمود المذكور، وكان يوقع عليها بعبارة "كتبه محمود حمدي" أو "كتبه حمدي" وعلى إحدى اللوحات "كتبه محمود عرب كيرلي بباب السلام بمكة المكرمة"، وهذا يؤكد وجود دكان أو كشك له بباب السلام لبيع لوحاته وصوره، ربما إلى جانب عمله بالمطبعة.

وهنا نقطة مهمة، وهي أن الصور الفوتوغرافية التي نشرها باسلامة في كتابيه تاريخ الكعبة المشرفة وتاريخ عمارة المسجد الحرام عام ١٣٥٤هـ قد زوده بها المصور شفيق، وقد اختار معظمها من صور التقطها والده محمود، وبعضها من صور التقطها هو بنفسه، ونظراً لعدم وجود توقيع على صور والده، عدا واحدة فقط، فقد وضع شفيق إمضاءه عليها "رسم شفيق بمكة".

ومما سبق نرجح أن المصور محمود عرب قرلي قد مارس التصوير قبل عام ١٣٢٧هـ بسنوات وحتى عام ١٣٤٣هـ، وبالتالي يمكننا عده حلقة وصل في المصورين المكيين، واستمراراً للسيد عبدالغفار الذي توقف عن ممارسة التصوير حوالي ١٣٢٠هـ للتفرغ لطب الأسنان كما سبق القول.

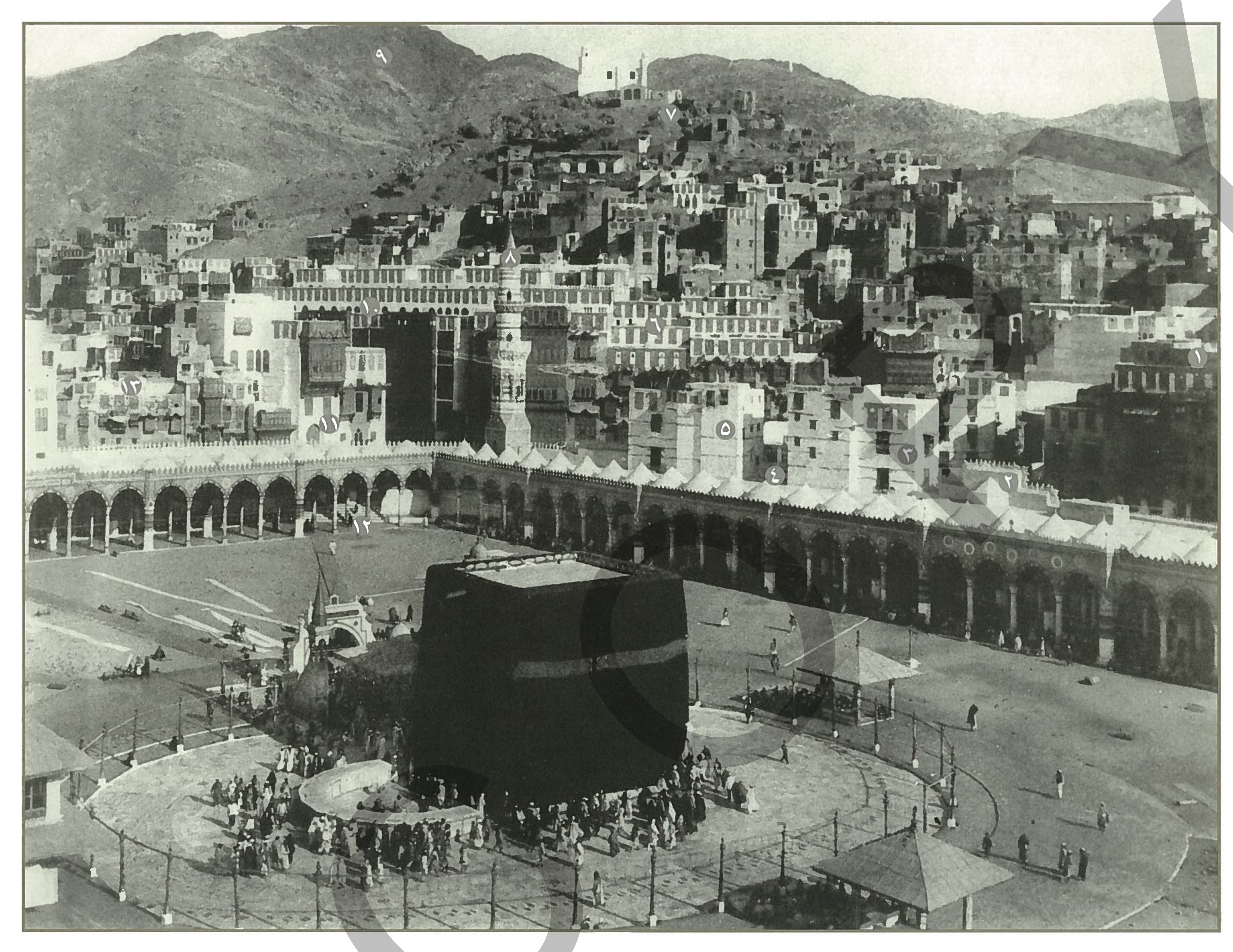
ويقول أحمد السباعي في كتابه[٧٥]: إن مكة المكرمة شهدت منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري شيئاً من الاستقرار، وزاد عدد المهاجرين، فنمت وزاد عدد سكانها. كما تميزت هذه المدة بزيادة الاهتمام الخارجي بمعرفة أحوال الحرمين،



[الصورة الوحيدة التي ظهر فيها توقيع المصور المكي محمود عرب قرلي وتبين واجهة الكعبة الشمالية الغربية وفيها الميزاب وقد ظهر حجر إسماعيل والرخام المخطط الذي كان يكسو أرضيته وجداره الذي أزيل حوالي عام ١٣٩٥هـ. وقد نشر هالي بيرتون عام ١٩٣٨م في كتابه "Marvels of the East" (روائع الشرق). الصورة نفسها لكن بدون توقيع. نقلاً عن وكالة Exclusive News Agency بلندن. وهذا يؤكد أن كثيراً من صور الحرمين التي لدى الوكالات الدولية. إنما هي من عمل مصورين مسلمين].

٧٤- حسين عبدالله باسلامة. تاريخ عمارة المسجد الحرام. ط١. ص ٢٧٧.

٧٥- أحمد السباعي. تاريخ مكة. ط١. ص ٤٠١.



▲ [صورة التقطت بعد إنشاء العمائر الخمس بأول القشاشية عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م). وقد نسبها بدر الحاج (ط١. ص٥٦) إلى المصور مرزا، و يعتقد أن هذا غير صحيح لأن مرزا قد إلتقط صور البلد الحرام عام ١٣٢٣هـ (١٩٠٦م). أما بيترز فقد نشرها في كتابه مكة وقال: إنها وجدت في لايدن بهولندا، ضمن مظروف أرسل من القنصلية الهولندية بجدة. ونحن نرجح أنها من تصوير محمود عرب قرلي. وتبين الصورة من اليمين: ١- البيت المشهور ببيت أبو نخلة تليه بيوت الأشراف أمام باب الصفا. ٢- حلية عقود باب الصفا. ٣- بيت الكندواني. ٤- باب البغلة. ٥- مدرسة بيت الكتبي. ٦- بيوت الخاصكية. ٧- جبل أبي قبيس ومنازله المطلة على المسجد الحرام. ٨- منارة باب علي. ٩- جبل خندمة. ١٠- العمائر الخمس التي تضم مدارس الفلاح وغيرها، وهي إلى يمين الصاعد من المسعى إلى القشاشية. ١١- بيت باناجة. ١٢-الدرج الداخلية لباب علي. ١٣- بعض المنازل المطلة على المسعى والحرم الشريف].



وبانتشار التصوير الفوتوغرافي وبيع الصور التذكارية لمكة المكرمة والمشاعر، وكانت المنطقة الممتدة من مخرج باب السلام الداخلي إلى باب السلام الكبير وباب السلام الصغير المطلين على المسعى، هي المنطقة الزاخرة ببيع مثل هذه الصور؛ لأن المنطقة بطبيعتها ومنذ مئات السنين هي مركز بيع الكتب بعموم أنواعها. فقد شاهدنا "لفافة الحج" التي تحتفظ بها المكتبة البريطانية بلندن (انظر الباب الأول هنا)، وهي تدل على تداول هذه الرسومات تذكاراً للحج من مكة المكرمة. كما يقص علينا البريطاني أ. ج. ب. ويفل – وهو عضو الجمعية الجغرافية الملكية في بريطانيا الذي اعتنق الإسلام، وأدى فريضة الحج عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٩م)[٧٦]، أنه اشترى صوراً وألبومات فوتوغرافية من منطقة باب السلام، ولا بد من الرجوع إلى مجموعته للبحث عن هذه الألبومات وغيرها من الصور التي اقتناها من مكة المكرمة. وسبق أن ذكرنا كيف أن المصور ح. ع. مرزا، وهو صاحب معمل للتصوير في دهلي، بالهند قد احترف طبع الصور التذكارية للحجاج في مكة المكرمة وغيرها، وبيعها.

٧٦- Wavel, A.J.B., A Modern Pilgrim in Mecca and a Siege in Sanaa, p.137.

▲[صورة لمحمود عرب قرلي تبين الجهة الجنوبية الغربية للمسجد الحرام كاملة، وفيها يظهر رباط الداودية خلف الكعبة المشرفة، وإلى اليسار باب الوداع ومنارته، والعمائر التي خلفها المطلة على الشارع العام من جهة باب الوداع، وعلى الشارع الفرعي الفاصل بين مبنى الحكومة (الحميدية) وهذه المنازل المؤدّي إلى المطبعة. وقد نشرت الصورة في كتاب تاريخ الكعبة لباسلامة ص٣٠. وفي كتاب هالي بيرتون ("Marvels of the East" روائع الشرق) عن وكالة "Exclusive News Agency" بلندن. كما نشرها هويتكروفت في كتابه " Arabia and the Gulf " (الجزيرة العربية والخليج) عن مجموعة الدبلوماسي البريطاني بومان بلندن].

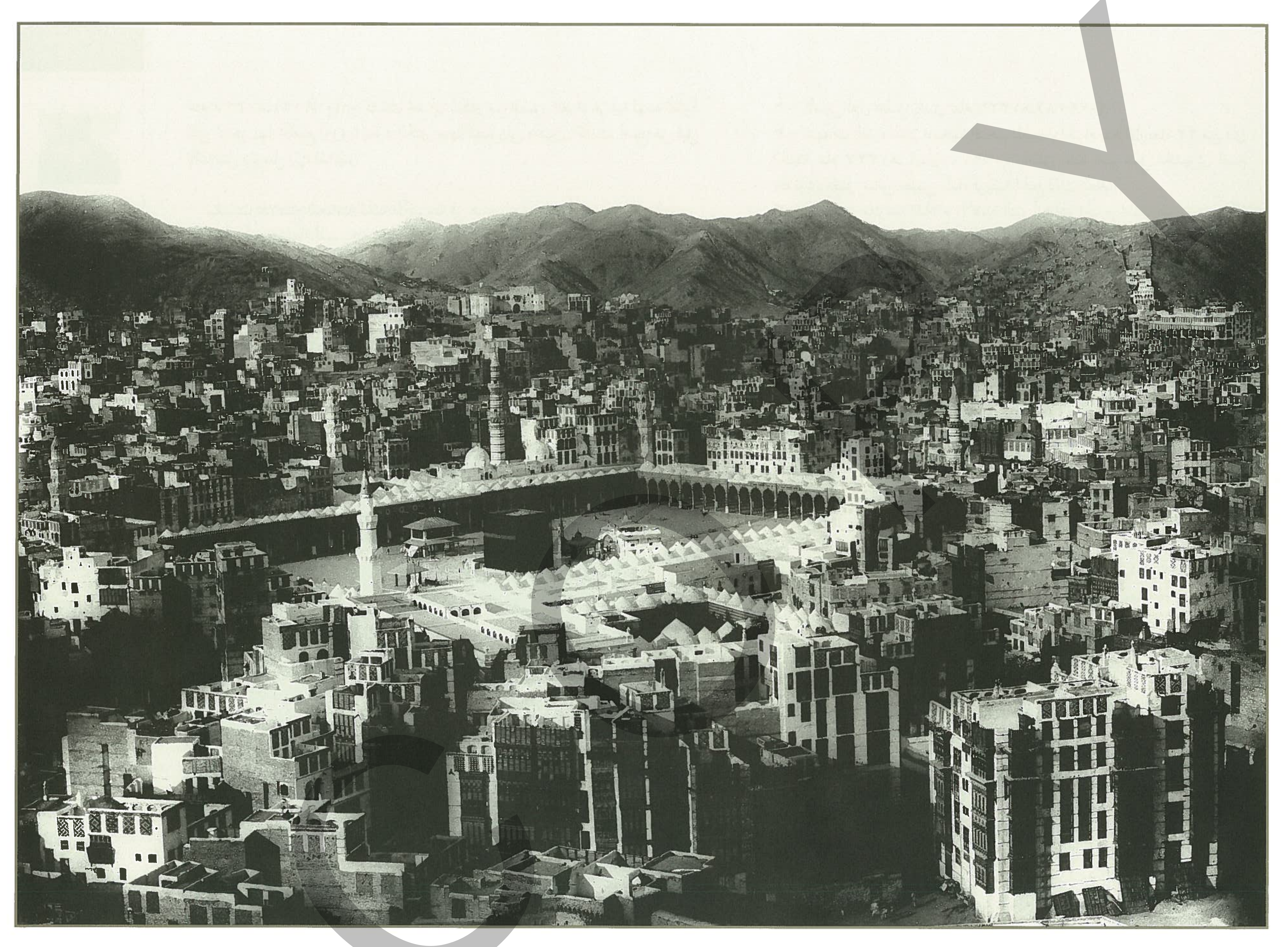


ولا نستبعد أن المصور محمود عرب قرلي كان يطبع الصور التذكارية لبيعها أيضاً للجمهور وعليها إمضاؤه، وبذلك تصل إلى الخارج ويتناقلها الدبلوماسيون الغربيون ووكالات الأنباء، وقد لاحظنا في الصورتين المنشورتين في الصفحتين السابقتين كيف أن صور محمود عرب قرلي قد وصلت إلى وكالة Exclusive News Agency ونشرت بدون توقيع في كتاب Marvels of the East تأليف ريتشارد هالي بيرتون المنشور عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) بلندن، كما وجدت في مجموعة الدبلوماسي البريطاني بومان.

ونلحظ أن اختفاء توقيع المصور الأصلي قد يكون الرغبة في الحصول على الجزء الرئيس من الصور فحسب، وقد يكون متعمداً.

وقد تأكد لدينا وجود مصورين آخرين كانوا مجهولين حتى الآن من أبناء البلاد، التقطوا صوراً لمناسبات مختلفة، توجد لدى بعض الأفراد، منها على سبيل المثال الاحتفالات التي تمت في مكة المكرمة بمناسبة الانفصال عن الدولة العثمانية

▲[صورة شاملة من تصوير محمود عرب قرلي التقطت من فوق قلعة أجياد، يتوسطها المسجد الحرام، ويظهر ١- قصر الحكم في الغزة. ٢- منازل القشاشية بعد إزالة جزء كبير منها حوالي عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) ٣- مقبرة المعلاة ومنازل مكة المكرمة في أحياء القرارة والفلق والنقا. ٤- قلعة جبل لعلع (اللاسلكي). ٥- حي الشامية. ٦- حي أجياد من الجهة الجنوبية. ٧- ميدان أجياد وتبدو العمارة الضخمة قبل حريقها الأول وعلى يمينها طرف مبنى إدارة الصحة (مستشفى أجياد)].



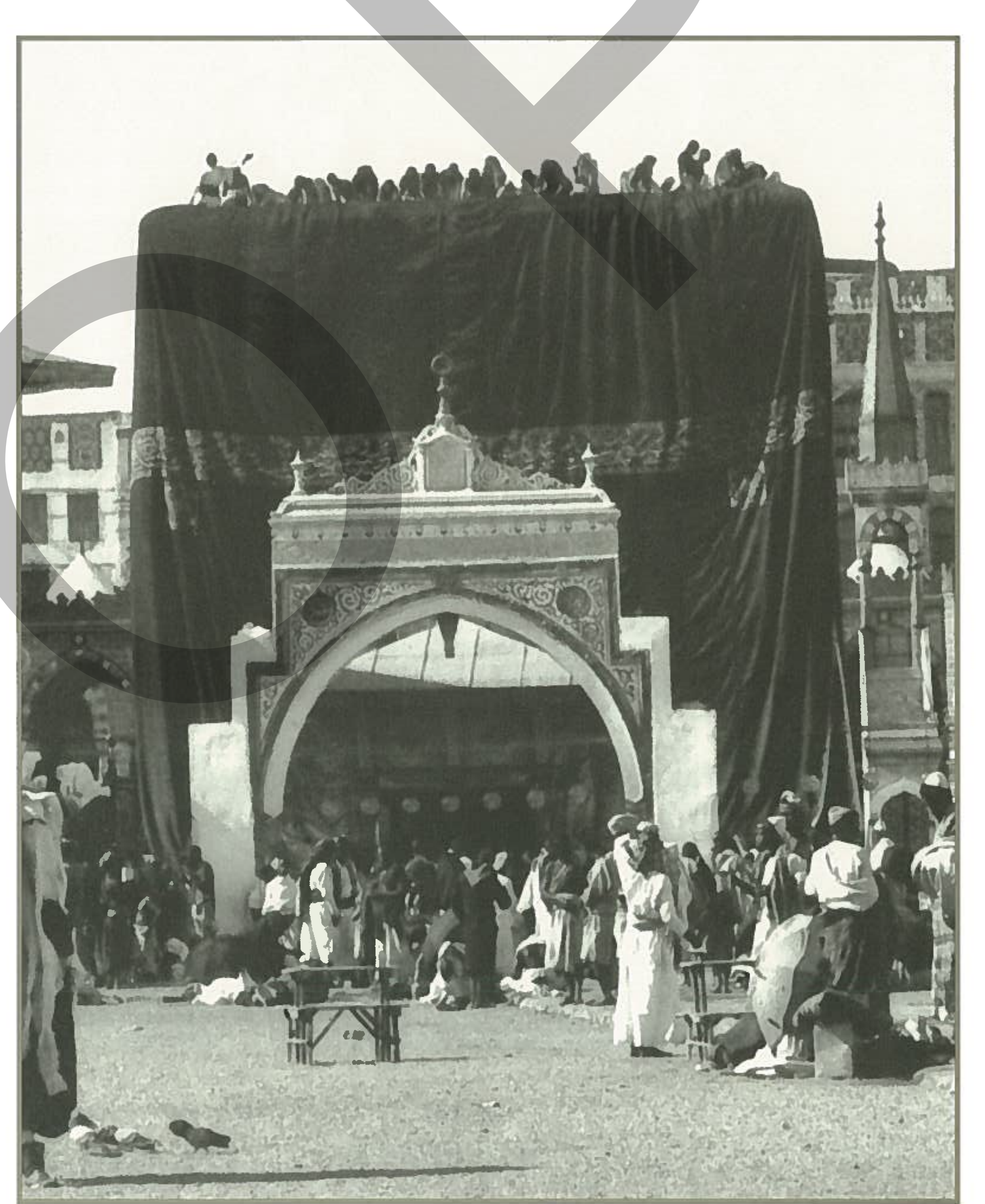
▲[صورة التقطها محمود عرب قرلي من موقع التقاط الصورة المقابلة، بعد سنوات قليلة من الأولى. وبالمقارنة تظهر فيها بعض الإنشاءات الحديثة في منطقة أجياد من الجهة الجنوبية أسفل الصورة التي لم تكن موجودة في الصورة السابقة، كما أن المبنى الرئيس إلى اليمين تجرى عليه عمليات ترميم للرواشين بعد حدوث حريق فيه. مع ملاحظة أن هذا المبنى نفسه قد احترق بعد ذلك مرة أخرى ثم جرى تشييد عمارة لأمانة العاصمة على أنقاضه عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) (مجموعة الأستاذ أنيس بشير شودري بمكة المكرمة)].



عام ١٣٣٥هـ (١٩١٦م)، و كذلك نجد أن الكثير من الصور الفوتوغرافية لهذه الفترة التي تزخر بها مجاميع أوروبا يعود الكثير منها لمصورين مكيين، كانت تجمع من قبل القناصل وترسل إلى بلدانهم.

بقيت الملامح العامة لمكة المكرمة في هذه الفترة التي تنعكس في الصور الفوتوغرافية الملتقطة للمسجد الحرام ومكة المكرمة والمشاعر، فنلحظ في هذه الفترة ما يأتي:

١ – بين عامي ١٣٢٥ / ١٣٢٦هـ (١٩٠٧/ ١٩٠٨م) تم إنشاء المباني الضخمة الخمسة، بأول شارع القشاشية على يمين الصاعد إلى سوق الليل، وتبدو في كل صور الجزء الشرقي للمسجد الحرام.



[صورة لوضع الكسوة الجديدة على الكعبة المشرفة يوم النحر، ويظهر على سطح الكعبة المجموعة التي تتولى عملية تغيير الكسوة. وقد نشرها باسلامة في تاريخ الكعبة صفحة ٩٢. ونرجح أنها من تصوير محمود عرب قرلي. ويوجد أصل الصورة ضمن مجموعة أنيس شودري].

٢ – تأسس أول مجلس بلدي عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م).

٣ – شهدت الفترة سيلاً ضخماً اقتحم المسجد الحرام يوم الأربعاء ٢٣ من ذي الحجة عام ١٣٢٧هـ (يناير ١٩١٠م) وأطلق عليه اسم سيل الخديوي لقيام خديوي مصر عباس حلمي بأداء فريضة الحج ذلك العام.

٤ – تأسست مدرسة الفلاح الأهلية التي أنشأها الحاج محمد علي زينل بمكة المكرمة ١٣٣٠هـ (١٩١٢م) وكان مقرها في البداية بحارة الباب، ثم انتقلت إلى عمارتين من العمائر الخمس المذكورة في فقرة رقم ١ بأول شارع القشاشية عام ١٣٣٧هـ (١٩١٨م).

٥ – قام السلطان محمد رشاد عام ١٣٣١هـ (١٩١٣م) بتجديد الطوق الفضي حول الحجر الأسود.

٦ – تم استبدال الشمعدانات التي على حجر إسماعيل بالأتاريك عام ١٣٣٥هـ (١٩١٧م).

٧ – توسعة شارع المدعى، وفتح شارع اليوسفي عام ١٣٣٥هـ، ويقول عبدالله الغازي في كتابه المخطوط إفادة الأنام: إن مجموع ما هدم وأعيد بناؤه من الدكاكين (٤٣) دكاناً من الجهة الشرقية، و(٣١) دكاناً من الجهة الغربية، ويمتد هذا الشارع من يمين الصاعد من المسعى إلى المدعى مباشرة، ويتجه شرقاً حتى القشاشية.

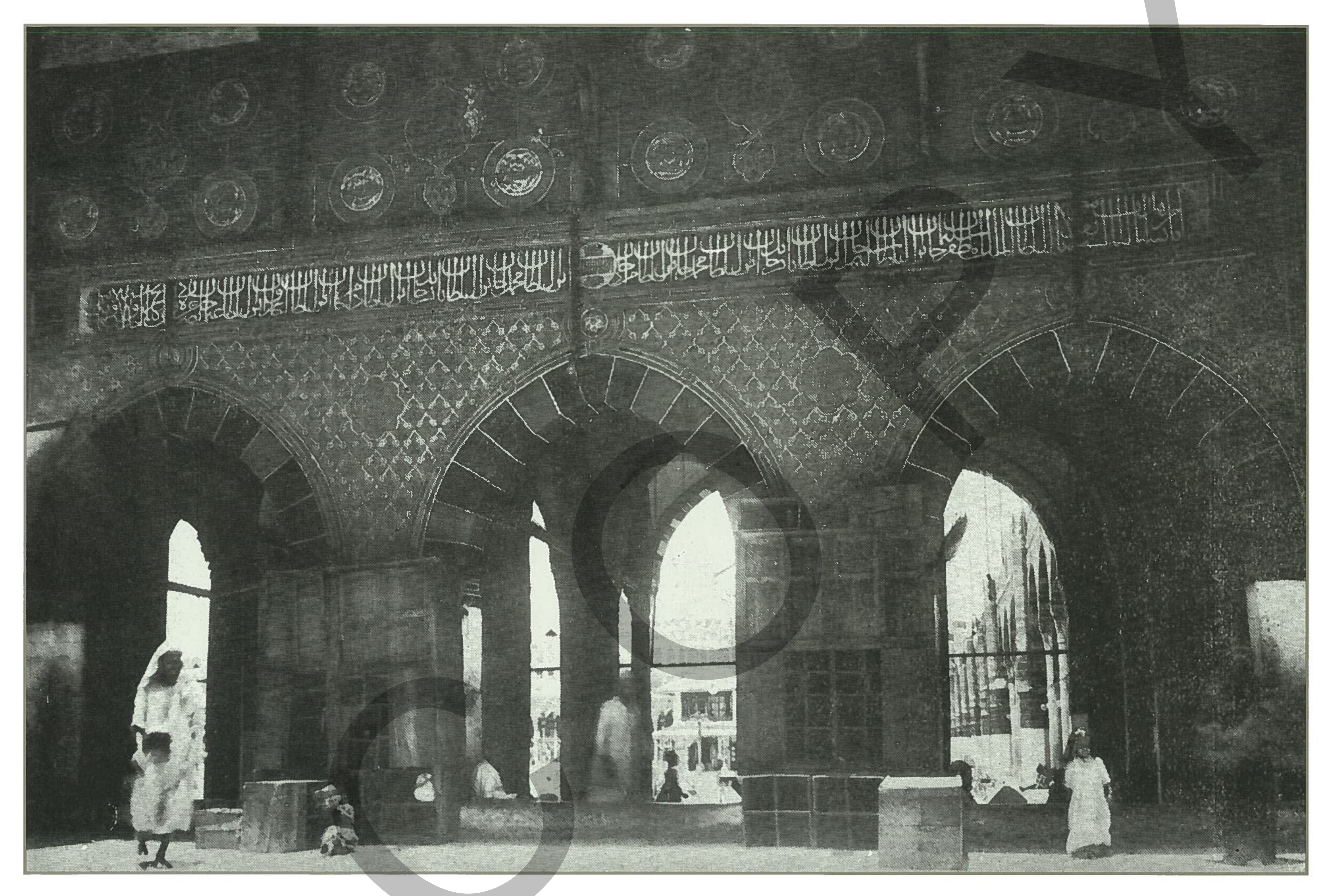
٨ – بدأ استخدام الكهرباء لإضاءة المطاف لأول مرة في شهر رجب ١٣٣٨هـ (مارس ١٩٢٠م) وكان عدد اللمبات التي في المطاف (١٠٥) لمبات قوة (٢٥) و(٥٠) شمعة، وبقي استخدام الأتاريك لإضاءة أروقة المسجد الحرام. وفي عام ١٣٤٠هـ (٢١/ ١٩٢٢م) تمت تقوية المولد الكهربائي وزيد عدد اللمبات إلى (٣٠٠) لمبة، منها (١١٥) حول المطاف والباقي في أنحاء المسجد الحرام، وفي منتصف رمضان تمت إنارة المسعى بالكهرباء وبالمناسبة فإن المسجد النبوي قد أضيء بالكهرباء منذ عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) حيث وصل مولد كهربائي إلى المدينة المنورة بواسطة السكة الحديدية آنذاك.

٩ – إنشاء مظلة "جملون" عام ١٣٤٢هـ (٢٢/ ١٩٢٣م) على شارع المسعى، تمتد من المروة إلى باب علي فقط، وبقي الجزء الأخير الممتد من مخفر الصفا إلى عقود الصفا مكشوفاً.

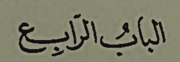
١٠ – وجرى أيضاً في هذه الفترة: تخفيض عقبة الحجون وتمهيدها، والعناية بمجاري عين زبيدة وبناء مقر لهيئتها فوق بازان المسعى، ويطلق عليه اسم "الكمسيون"، وكان مدخله على يسار الصاعد من المسعى إلى المدعى، وإنشاء مدرسة مكونة من ثلاثة طوابق على بعض الدكاكين الواقعة أمام باب السلام الكبير، ونقلت إليها مدرسة الخياط، وأصبح اسمها المدرسة الخيرية كما أنشئت مدرسة بالمعلاة وأخرى بحارة الباب، وأنشئت في قلعة جبل هندي المدرسة الراقية؛ والمدرسة العالية (ثانوي)؛ كما أنشئت مدرسة حربية وأخرى زراعية؛ وتمت إقامة دار لسك النقود ودار لطبع الطوابع.



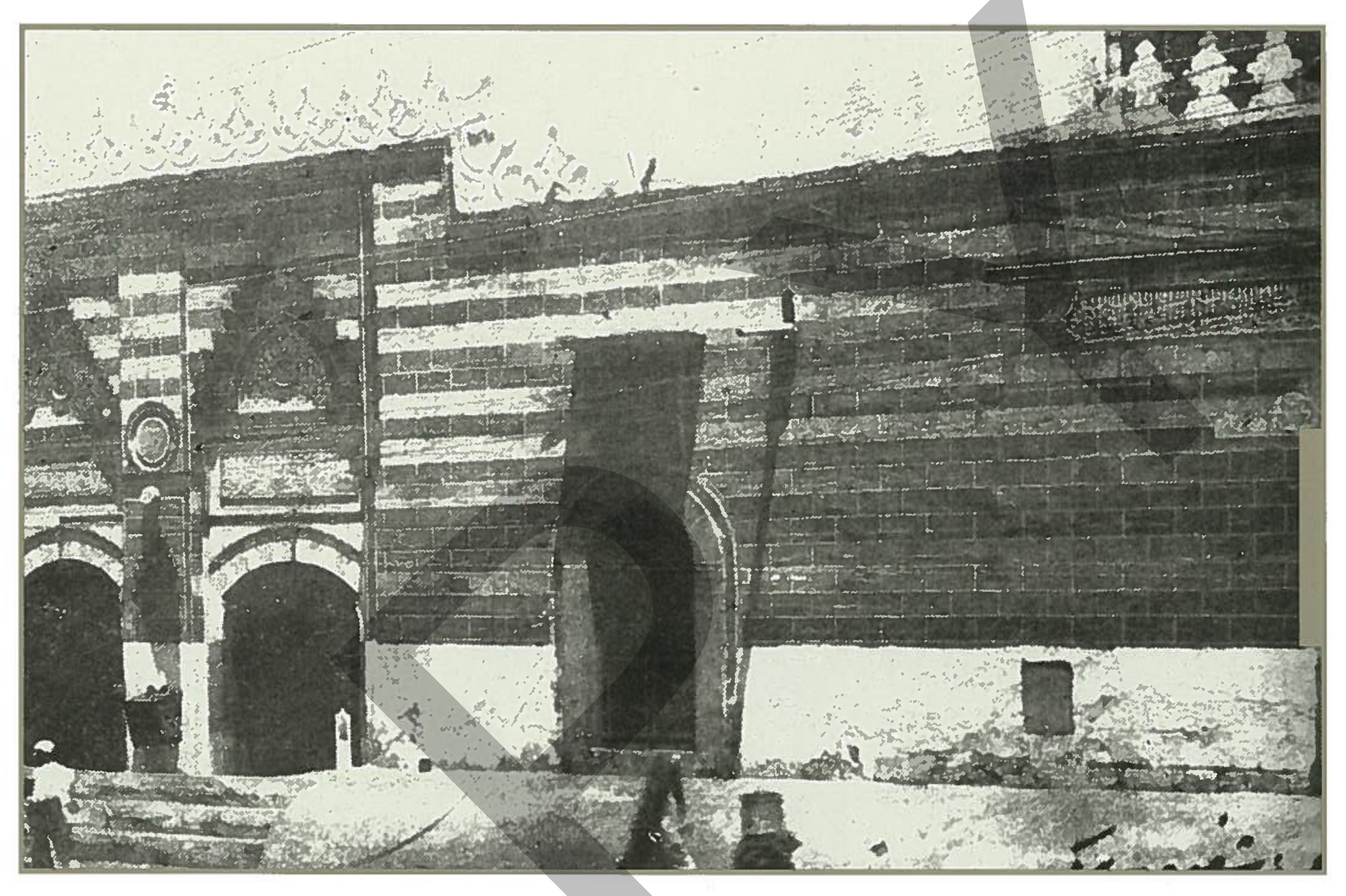
▲[منظر مخفر الصفا (أسفل يمين الصورة) والمنازل الملاصقة له من الخلف التي تفصل الشارع العام عن المسعى من جهة الصفا. وبمقارنة شبك بلكونة المخفر مع الصور التي التقطت في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، يتضح أن هذه الصورة قد التقطت في هذه الفترة موضع الدراسة. و يظهر إلى يسار الصورة، المنازل المقامة على يسار الصاعد إلى الصفا. و تظهر في أعلى الصورة المنازل المقامة على يمين الخارج من باب الصفا قاصداً جبل الصفا. (مجموعة خاصة)].



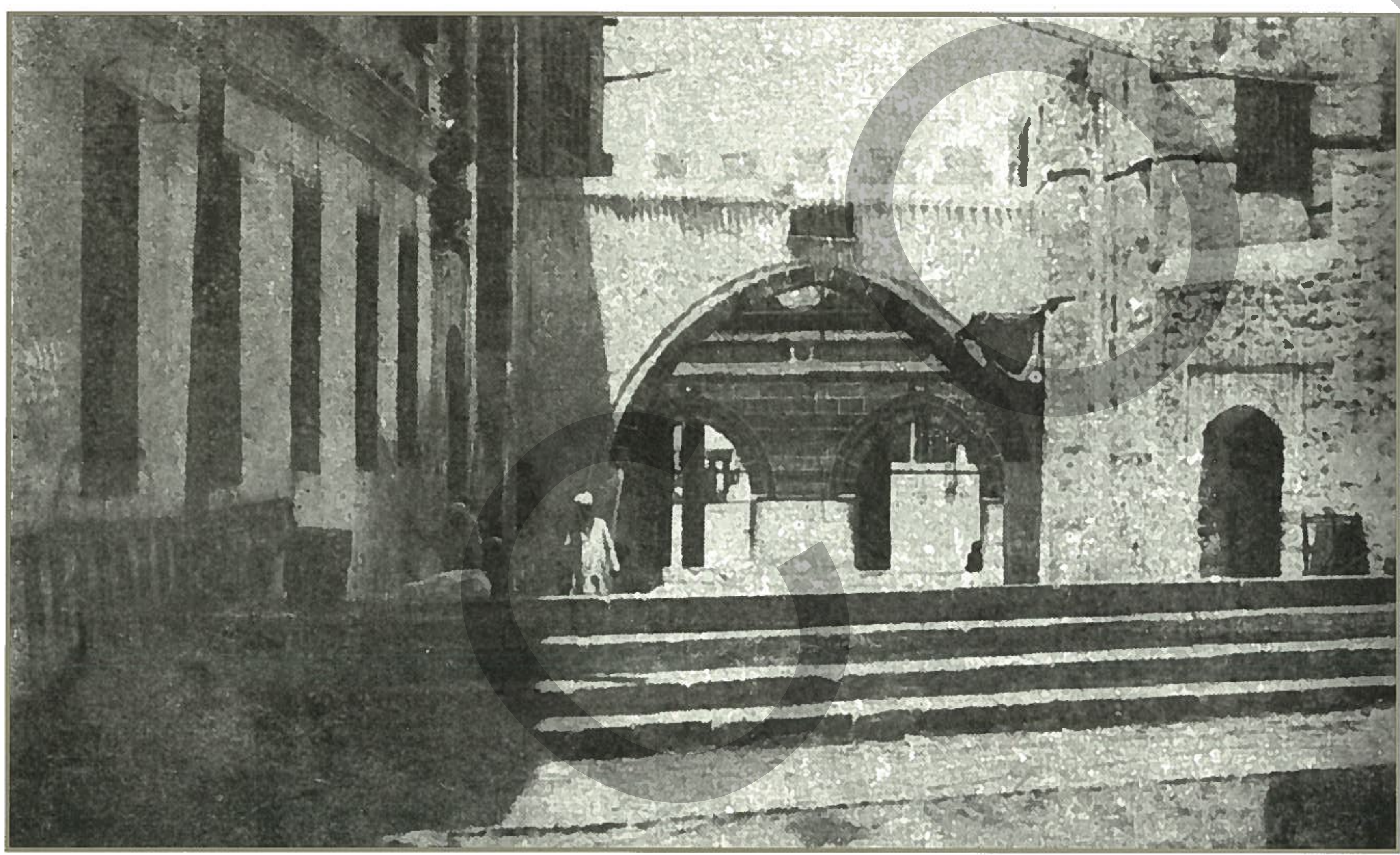
▲[كان المصور محمود عرب قرلي دقيقاً في التقاط صوره لأرجاء المسجد الحرام وأبوابه الخارجية. وتبين الصورة العقود الثلاثة الداخلية لباب السلام التي أنشأها السلطان سليمان خان، واسمه ظاهر بعلو الباب. وبالمناسبة فإن العقود المذكورة مازالت محفوظة كما هي بعد التوسعة السعودية الكبرى].







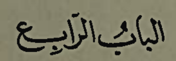
◄ [إلى اليمين: باب "بازان" المواجه لحفر الصفا. و في أقصى اليمين يظهر طرف أحد الأعلام الخضراء التي تبين مبدأ منطقة الهرولة أثناء السعي ومنتهاها. ويظهر أسفل الصورة إلى اليمين توقيع المصور شفيق. والواقع أن الذي التقطها والده محمود عرب قرلي].



◄ [إلى اليسار: باب الوداع، ويظهر العقدان الداخليان له، ثم الرحبة التي تليهما بالنسبة للخارج من المسجد الحرام، ثم عقد كبير واحد. ويظهر على يسار الصورة المبنى الذي كانت تشغله إدارة التلغراف والبريد منذ انشأها الوالي عثمان نوري عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م) ثم إدارة الإسعاف فيما بعد. وهذه أيضا من صور محمود عرب قرلي التي نشرها باسلامة في كتابه " عمارة المسجد الحرام " (ص. ١٢٥)].



▲[الشارع العام بمكة المكرمة الذي يمر منه الحجاج في طريقهم إلى المشاعر، وعودتهم منها. وهو يفصل بين الطرف الجنوبي الشرقي للمسجد الحرام، ومبنيي الحكومة (الحميدية) والتكية المصرية. والصورة، مكونة أصلاً من ثلاثة إطارات منفصلة التقطها المصور وهو واقف على "السلاملك" الخاص بمبنى التكية، وارتفاعه حوالي المتر من سطح الشارع وقد قمنا بتوصيل الإطارات باعتبار المباني الثابتة وأبواب المسجد الحرام دون المارة. وهي تبين موكباً للحجاج عند نزولهم من منى، ويبدو أن الموكب يمثل كبار الحجاج القادمين من وسط الجزيرة العربية، وربما يكون هو موكب الأمير محمد بن عبدالرحمن شقيق السلطان عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود الذي حج عام ١٣٣٥هـ (١٩١٧م) وفي معيته بعض الأمراء ومجموعة من حجاج





نجد حسبما ورد في مخطوطة إفادة الأنام لعبدالله الغازي المؤرخ المكي وللأسف فإننا لا نعرف اسم المصور الذي التقط هذه الصورة. الموجودة أصلاً ضمن مجموعة "رتر" في لندن وقد نشرها هوينكروفت مفرقة وقال إنها تعود إلى حوالي عام ١٣٣٠هـ (١٩١٢م). ونرجح أنها من تصوير محمود عرب قرلي عام ١٣٣٥هـ (١٩١٧م). وتبين الصورة ١- إلى اليمين باب أجياد الصغير وهو الباب الذي يلي باب الصفا. ٢- باب أجياد (الكبير) وهو المواجه تماماً للشارع المؤدي إلى وسط حارة أجياد. ٣- باب التكية ويسمى أيضاً باب عجلان وهو الباب المواجه للمدخل الرئيس للتكية].



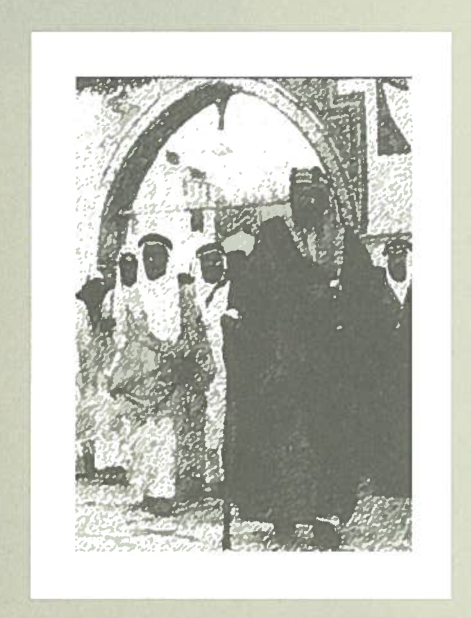
▲[من الصور النادرة لهذه الفترة الاحتفالات التي كانت تقيمها أحياء مكة المكرمة حوالي ١٣٣٥هـ (١٩١٦م). وغالباً ما تبدأ الاحتفالات بعد صلاة العشاء. لكن التصوير الليلي لم يكن متيسراً لذلك اكتفى المصور الذي نرجح أنه محمود عرب قرلي بأن يسجل صور الزينات والصواوين أثناء النهار. فتظهر في الصورة العليا الزينة التي أقامها أهالي حارة النقا. لاحظ شكل الصيوان الضخم وأدوات الإضاءة التي تسمى لالات وقد وضعت على طربيزات من المرمر وسط الصيوان. ويقف بعض أهالي الحي في صفين.(مجموعة خاصة)].



▲[الزينة التي أقامها أهالي حارة الشامية. في أحد الاحتفالات حوالي عام ١٣٣٥هـ (١٩١٦م) لاحظ اصطفاف الأرائك في صدر المكان وكراسي الخيزران. وقد تجمع أطفال الحي عند المدخل ليظهروا في الصورة التذكارية. ويلحظ في هذه الصورة والصورة السابقة لحفل أهالي النقا نمط الملابس المكية في ذلك العهد. حيث يلبس الأعيان المشلح على الكتف والعمامة على الرأس. وبعضهم يلبس الصديري فوق الثوب. أما العامة فلا يرتدون المشلح ولا الصديري. ويظل الحزام العريض في الوسط لمعظم الطبقات (مجموعة خاصة)].



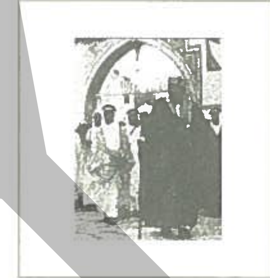
▲[تظهر الصورة الزينة التي أقامها أهالي حارة القشاشية في نفس الفترة (مجموعة خاصة)].



٥

مكة المكرمة

خلال عهد الملك عبد العزيز آل سعود



مقدمة:

شهدت مكة المكرمة خلال فترة الملك عبدالعزيز رحمه الله (١٣٤٣-١٣٧٣هـ / ١٩٢٤-١٩٥٣م) تطورات بارزة ونهضة شاملة، فنجد في هذه الفترة التوسع في توثيق خطوات التطور ورصدها بالصور الفوتوغرافية الساكنة والمتحركة. ومن المصورين المحليين المشهورين في عهد الملك عبدالعزيز، المصور شفيق بن محمود عرب قرلي، و أحمد صبري بن عبدالله بشناق الذي كان معمله للتصوير بحي القشاشية، وكذلك أخوه الأصغر جميل الذي كان له معمل تصوير بجوار قهوة "القبو" المتفرعة من سويقة القديمة في الزقاق المؤدي إلى حي القرارة، وكان يمارس التصوير من منتصف القرن الهجري الرابع عشر، كما أن أخاه الأكبر أقدم منه في المهنة. ولا تتوافر لدينا معلومات أخرى عن تواريخ دقيقة لفتح معامل التصوير في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، كما أن آل البشناق فيما يبدو قد اقتصر عملهم على الصور الشخصية بعكس شفيق ووالده محمود عرب قرلي، حيث كانت لهما نشاطات خارجية لتصوير الأحداث المهمة بمكة المكرمة، إضافة إلى التصوير الشخصي.

وعند اطلاعنا على مجموعة الصور النادرة التي يحتفظ بها الأستاذ أنيس بشير شودري، لفت أنظارنا إلى وجود مصور فوتوغرافي مكي آخر بعد شفيق هو عبدالله آشي، وأوضح لنا أن المذكور كان من المهتمين بتصوير الأحداث والمناسبات في كل من مكة المكرمة وجدة والطائف والمدينة المنورة، ولم يكن له معمل معروف للتصوير، مما يرجح أنه كان يمارس التصوير الفوتوغرافي هاوياً وليس محترفاً. وقد انتشرت معامل التصوير في أواخر عهد الملك عبدالعزيز، مثل معمل "زبير" بأجياد، والشاولي بالقشاشية، وآل البشناق، إلى جانب معمل شفيق بأجياد وغيرها الكثير جداً في مكة المكرمة وجميع المدن السعودية، كما تم تسجيل أحداث هذه الفترة أيضاً من قبل العديد من المصورين الأجانب، وأهمهم فلبي الذي احتوت كتبه على العديد من الصور لمكة المكرمة والمشاعر وكافة أجزاء المملكة طوال هذه الفترة. وفي عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) تم تصوير فلم سينمائي كامل عن حج الملك عبدالعزيز، وفي أواخر هذا العهد تم التقاط أول صور ملونة لمكة المكرمة والمشاعر بواسطة المصور الأمريكي المسلم عبدالغفار شيخ الذي زار الأراضي المقدسة في حج عام ١٣٧١هـ (أغسطس ١٩٥٢م)، ثم نشر تحقيقاً مطولاً عن رحلته في المجلة الجغرافية الوطنية الأمريكية في العام التالي[٧٧]. لقد أصبحت الصحف والمجلات بل الكتب العربية لا تهتم بذكر اسم المصور ولا تاريخ التقاط الصورة إلا في ما ندر، لذا فإننا سنهتم في هذا الباب بما تعكسه الصور من تطور كبير في مكة المكرمة عامة والمسجد الحرام والمشاعر خاصة، وسنقسم هذا الباب إلى ستة أقسام كالآتي:

أولاً – الكعبة المشرفة و المسجد الحرام.
ثانياً – المظلات في المسجد الحرام والمسعى، ورصف أرضيات الأروقة والمسعى.
ثالثاً – إضاءة المسجد الحرام.
رابعاً – المياه والصحة وتوسعة الشوارع.
خامساً – الدوائر الحكومية حول الحرم.
سادساً – المواصلات و طرق الحج.

أولاً – الكعبة المشرّفة و المسجد الحَرام:

كان اهتمام الملك عبدالعزيز بالمسجد الحرام مستمراً منذ دخوله مكة المكرمة، فقد أمر في عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) بإجراء ترميمات شاملة وإعادة دهان كافة الأبواب والشبابيك والأروقة، ثم أمر بترميمات أوسع في عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٦م). وفي عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) أمر بتشكيل لجنة للنظر في احتياجات المسجد الحرام، وجرت عمليات ترميم شاملة للمطاف والأروقة والأبواب والأرضيات، ونبدأ بإلقاء الضوء على كسوة الكعبة المشرفة.

أ- لمحة تاريخيّة عَن كسوة الكعبَة المشرّفة:

تشير المصادر التاريخية أن أسعد أبا كَرِب الحميري الملقب بتبع، هو أول من كسا الكعبة، وكان ذلك قبل الهجرة بحوالي ألف سنة (٤٠٠ ق.م)، وقد كساها الأنطاع، أي الجلد، ثم كساها ثياباً من "الحبرة"، وجعل للكعبة باباً. ولا توجد أخبار دقيقة عن كسوة الكعبة قبل الإسلام سوى روايات بأن الكعبة كانت تكسى مرة بالخز (الحرير الأخضر) ومرة بالجلد، ومرة بالخيش الرقيق، وربما تعددت أنواع الكسوة الواحدة، وكان أبو ربيعة ابن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم يقوم بكسوتها بمفرده سنة، وتقوم قريش كلها بكسوتها في السنة الأخرى. والمقصود بالكسوة في هذه اللمحة، الكسوة الخارجية وليس الكسوة الداخلية التي أحدثت فيما بعد.

وتشير المصادر أن الرسول ﷺ، كساها ثياباً يمنية، واستمر الخلفاء الراشدون بكسوتها بالثياب اليمنية والقباطي (وهو قماش مصري رقيق أبيض)، واختلفت الروايات في أول من كساها الديباج هل هو معاوية بن أبي سفيان؟ أو عبدالله ابن الزبير، أو يزيد بن معاوية، أو عبدالملك بن مروان، وعلى أي حال فقد كانت تكسى يوم عاشوراء. وظل لون الكسوة يتردد في العهد الأموي وأول العصر العباسي عموماً بين اللونين الأخضر والأسود، لكن كسيت أيام الفاطميين الديباج الأبيض، وكساها محمد بن سبكتكين ديباجاً أصفر، وكساها الناصر العباسي ديباجاً أخضر، ثم ديباجاً أسود. ثم استقر اللون الأسود إلى يومنا الحاضر. عدا مرات محدودة.

٧٧- National Geographic Magazine, July 1953, p.1-60



أما موعد ارتداء الكعبة للكسوة الجديدة فيبدو من كلام الأزرقي أنه كان يوم عاشوراء، وكان معاوية يكسوها مرتين: يوم عاشوراء وآخر يوم في رمضان، وكساها بعض الخلفاء ثلاث مرات في العام بإضافة كسوة يوم أول رجب، ثم استقر الأمر على كسوة واحدة حسبما يذكره ابن عبد ربه (توفي عام ٣٢٨هـ) في العقد الفريد يوم النحر.

أما مكان صناعة الكسوة فقد كان يتردد بين مصر وخراسان واليمن، ولما ضعف أمر العباسيين كانت الكسوة ترسل مرة من مصر، ومرة من اليمن، ثم استقر إرسالها من مصر سنوياً، حتى عام ١٢١٨هـ.

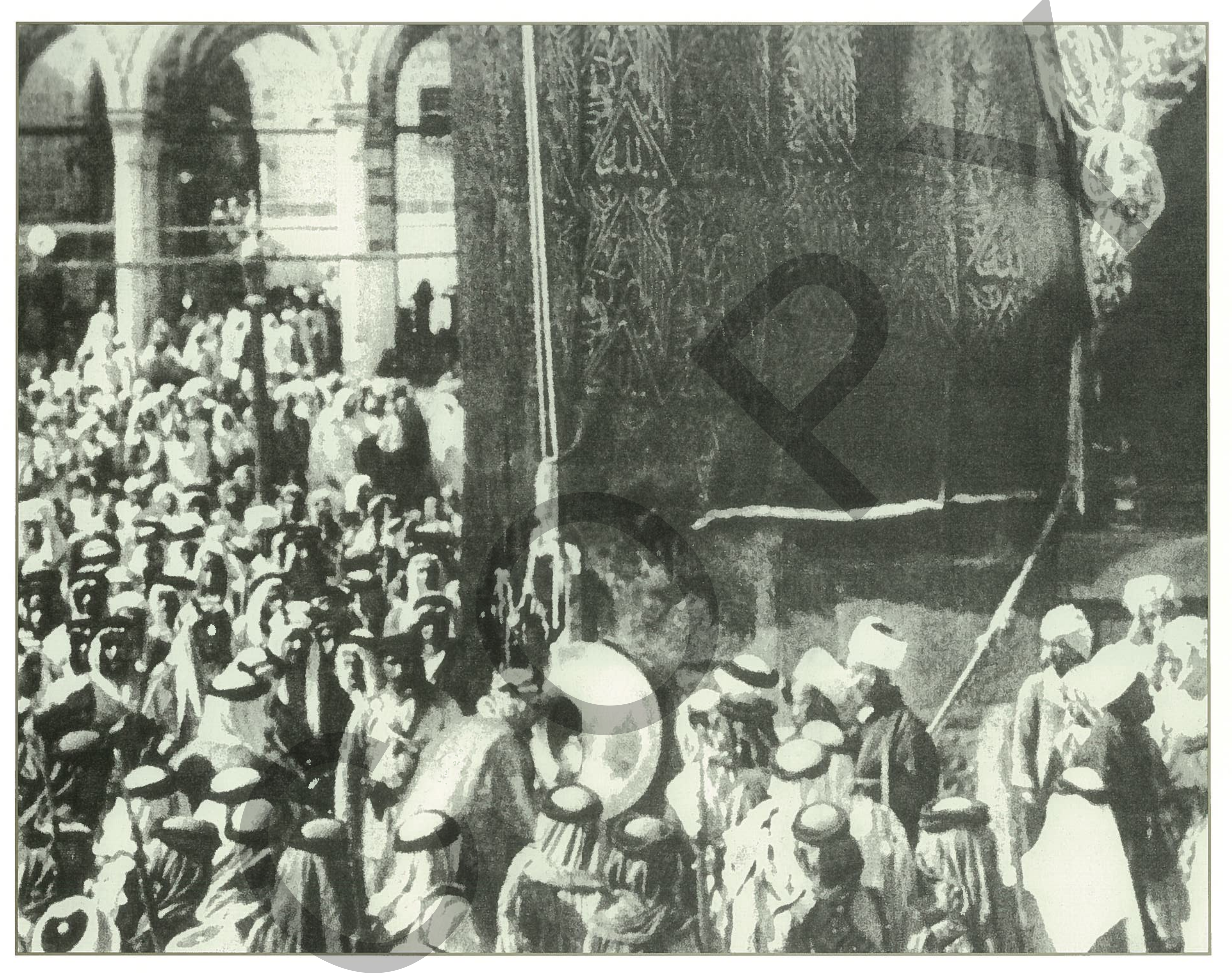
ولما دخل الإمام سعود الكبير مكة انقطعت مصر عن إرسال الكسوة، فكساها الإمام عام ١٢٢١هـ القز الأحمر، ثم كساها في الأعوام التالية الديباج والقيلان (القيلان ثياب يمنية فاخرة)، وجعل إزارها (حزامها) وكسوة بابها (البرقع)، من الحرير الأحمر المطرز بالذهب والفضة. ثم عادت مصر إلى إرسال الكسوة حتى عام ١٣٤٠هـ، وكانت العادة المتبعة إلى عام ١٣٣٢هـ أن يكتب اسم السلطان العثماني على الحزام فقط. وفي آخر ذي القعدة عام ١٣٤١هـ، نشب خلاف بين الشريف حسين ومصر بسبب رفض الشريف دخول البعثة الطبية المصرية، فرجع المحمل وعليه الكسوة، وكانت هناك كسوة محفوظة بالمدينة، كانت قد أرسلتها تركيا عام ١٣٣٤هـ مع الشريف علي حيدر لكسوة الكعبة إذا ما استرد مكة المكرمة من الشريف حسين، ولم يحصل ذلك فبقيت الكسوة في المدينة المنورة سبع سنوات حتى جلبها الشريف حسين وكسا بها الكعبة يوم عيد الأضحى عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م). ويشير الشيخ حسين باسلامة[٧٨] إلى أن الشريف عمل بعد ذلك كسوة من القيلان نسجت في العراق احتياطا لما عساه يقع إذا أتت سنة ١٣٤٢هـ ولم يحل الخلاف مع مصر، لكن الخلاف حل، وأرسلت مصر الكسوة ذلك العام وبقيت الكسوة المنسوجة في العراق محفوظة.

٧٨- حسين باسلامة، تاريخ الكعبة المعظمة، ص ٢٩١.

[الملك عبدالعزيز آل سعود يطوف بالبيت العتيق. وقد وضعت علامة تحت صورته. وهي من تصوير شفيق محمود عرب قرلي في أواخر الأربعينيات من القرن الرابع عشر الهجري (أواخر العشرينيات من القرن العشرين الميلادي)، ونشرها باسلامة في كتابه تاريخ الكعبة المشرفة (الطبعة الاولى، ص ٩٢). وتظهر المصابيح الكهربائية داخل البرم الزجاجية المعلقة حول المطاف]



▲[تبين هذه الصورة منظراً نادراً للملك عبدالعزيز ممتطياً جواده، بعد خروجه من المسجد الحرام متوجهاً إلى دار الحكومة "الحميدية". التقطتها عدسة المصور شفيق محمود.ـــ وقد أخبر المصور الأستاذ أنيس بأنه التقط الصورة من أحد نوافذ مبنى التكية المقابلة للحرم الشريف قريباً من باب أجياد عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) بعد حوالي شهرين من دخول الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة، وبذلك تعد هذه اللقطة من أوائل الصور لجلالته في مكة المكرمة، إن لم تكن الأولى. ويظهر في الصورة عدد من أفراد الحاشية راكبين أحصنتهم، وبعض الحراس مشاة، يحملون بنادقهم. كما يظهر باب أجياد، وإلى يساره مبنى المدرسة - ذو الشبابيك الحديدية - التي أصبحت مقراً لكاتب عدل مكة المكرمة فيما بعد].



▲[الملك عبدالعزيز وهو يهم بتقبيل الحجر الأسود. ويظهر خلفه الأمير سعود ولي العهد وعدد من الأمراء والحرس. وقد التقطت في حج عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٩م) بواسطة أستديو مصر لإنتاج الأفلام السينمائية].

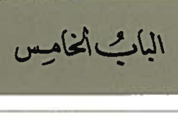




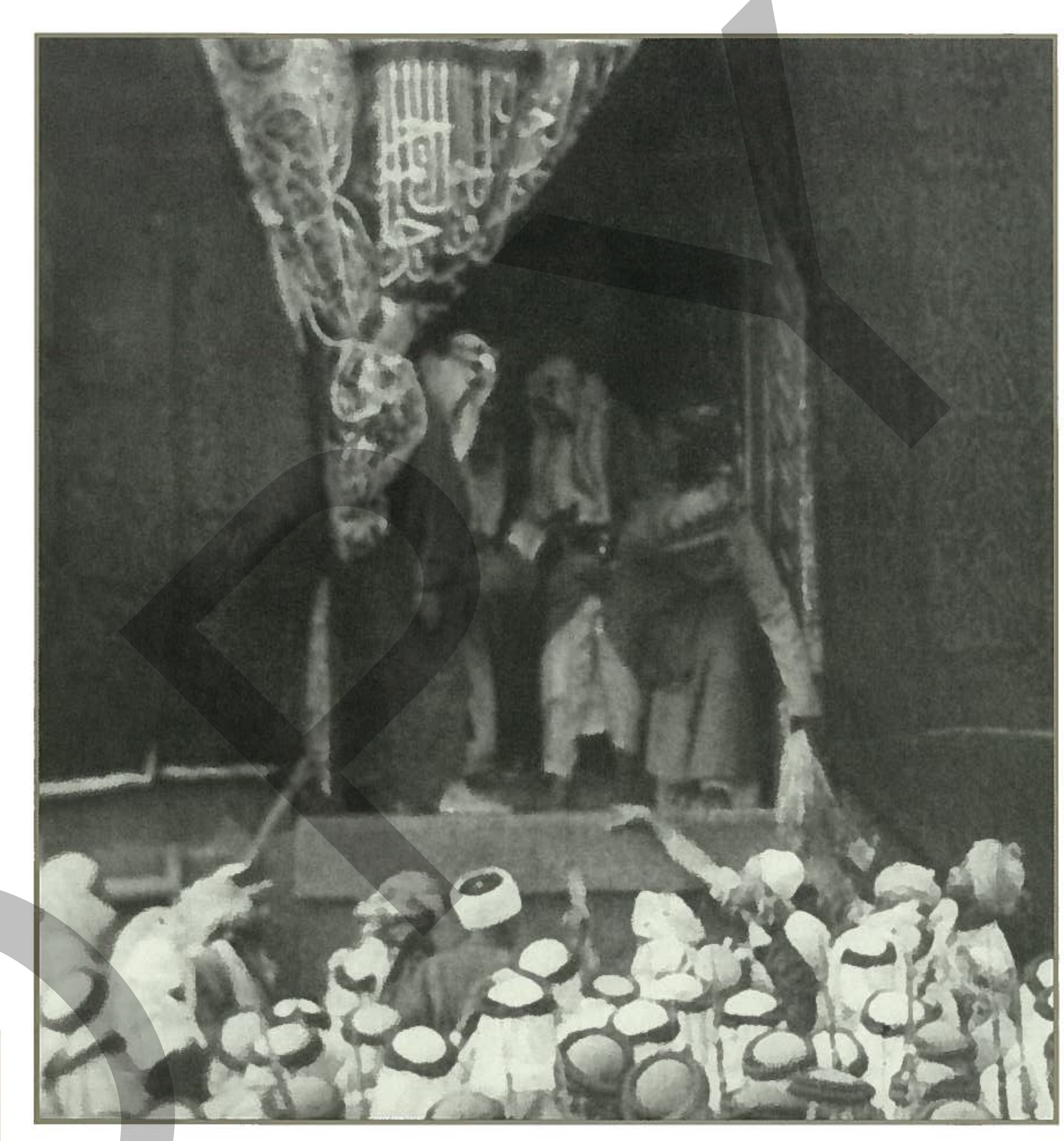
▲[لقطة تذكارية لأعضاء الوفد السعودي المشارك في أول مؤتمر إسلامي عقد في مكة المكرمة في٢٠ من ذي القعدة ١٣٤٤هـ (١ يونيو ١٩٢٦م) بمبنى الحكومة بأجياد (المالية فيما بعد). ويتوسط الأمير فيصل بن عبدالعزيز أعضاء الوفد وعلى يمينه إلى الخلف فؤاد حمزة، ثم أمين فودة، (ذو الغترة البيضاء)، و خالد الأيوبي (بالزي العسكري). وإلى يسار سموه: السيد الإدريسي، ويوسف ياسين، و شفيق كمالي، ومحمد مغيربي و لم يظهر في الصورة الشيخ عزيز بغدادي الذي كان يقف خلفه. التقط الصورة شفيق بن محمود عرب قرلي وهو الذي ذكر أسماء الوفد للأستاذ أنيس بشير شودري، والصورة من مجموعته الخاصة].



▲[لقطة نادرة للملك عبدالعزيز بملابس الإحرام أثناء حج عام ١٣٥٣هـ (مارس ١٩٣٥م). نشرت في مجلة اللطائف المصورة المصرية في صفحتها الأولى بالعدد١٠٥٣، ١٥ أبريل ١٩٣٥م. وإلى يمينه (١)، الأمير سعود (٢)، فؤاد حمزة وكيل وزارة الخارجية(٣)، رشدي الصالح ملحس مدير جريدة أم القرى].







▲[الملك عبد العزيز وولي عهده الأمير سعود وهما يشاركان في غسيل الكعبة المشرفة، بماء زمزم الممزوج بالورد، واللقطة من فلم أستديو مصر الذي سجل حجة الملك عبدالعزيز عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٩م)].

▼[الملك عبد العزيز داخلاً من باب بني شيبة متجهاً إلى الحجر الأسود ليبدأ الطواف (حوالي عام ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م) - المصدر: مؤسسة التراث: مجموعة الأستاذ محمد مرشد الزغبي].

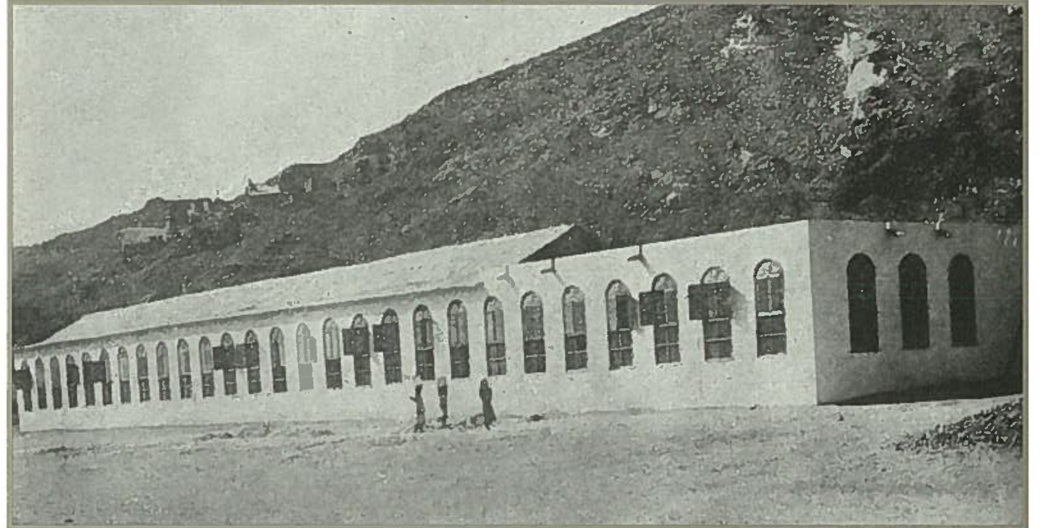




ب- كسوة الكعبَة المشرفّة في عَهد الملك عبد العزيز آل سعود:

وفي العام التالي ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) دخل الملك عبدالعزيز مكة المكرمة، وحاصر قوات الشريف علي بجدة، وامتنعت مصر من إرسال الكسوة، فكساها الملك عبدالعزيز الكسوة القيلان التي تقدم ذكرها. وفي حج عام ١٣٤٤هـ (يونيو ١٩٢٦م) أرسلت مصر الكسوة، ووقعت ليلة عرفات حادثة المحمل، واستطاع الملك عبدالعزيز بحكمته السيطرة على الموقف. وفي العام التالي ١٣٤٥هـ (١٩٢٧م)، عندما حان موعد مجيء الكسوة منعت الحكومة المصرية إرسالها، ولم تشعر الحكومة السعودية بذلك إلا في غرة شهر ذي الحجة، كما يقول الشيخ باسلامة[٧٩]. "فصدرت إرادة جلالة الملك عبدالعزيز المعظم بعمل كسوة للكعبة بغاية السرعة". وتم عمل كسوة من الجوخ الفاخر، مبطنة بالقلع القوي، وعمل حزام الكعبة، وستارة الباب بآلة التطريز، وكتبت الآيات القرانية عليهما بالقصب الفضي المموه بالذهب، كل ذلك في بضعة أيام، وارتدت الكعبة كسوتها يوم النحر كالمعتاد.

ثم صدرت إرادة الملك عبدالعزيز في شهر المحرم ١٣٤٦هـ (يوليو ١٩٢٧م) بإنشاء دار خاصة لصنع الكسوة، فأقيمت بأجياد أمام مبنى وزارة المالية، على مساحة نحو ١٥٠٠ متر مربع، وتمت العمارة في نحو ستة أشهر... فكانت هذه أول دار أسست خصيصاً لحياكة ثوب الكعبة المعظمة في مكة المكرمة في عصر جلالة الملك عبدالعزيز منذ أن كسيت الكعبة في العصر الجاهلي إلى اليوم الحاضر. ويستطرد حسين باسلامة في تقديم تفاصيل وافية عن كيفية طلب العمال المهرة من الهند حيث وصلوا ومعهم الخامات اللازمة في شهر رجب، (يناير ١٩٢٨م) وأسندت إدارة معمل الكسوة للشيخ عبدالرحمن مظهر الذي كان يعمل مترجماً بوزارة الخارجية ورئيس مطوفي الحجاج القادمين من شبه القارة الهندية فيما بعد، وكان عدد النساجين والمطرزين أربعين يساعدهم عشرون آخرون. وتم عمل الكسوة والحزام في شهر ذي القعدة.



◄ [هذه صورة أول معمل لإنتاج كسوة الكعبة المشرفة الذي أنشئ بأمر الملك عبدالعزيز عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) بأجياد أمام مبنى الحكومة (وزارة المالية فيما بعد) واللقطة من تصوير شفيق محمود عرب قرلي ونشرها باسلامة في تاريخ الكعبة المعظمة، صفحة ٢٩٠].

وفي العام التالي ١٣٤٧هـ (١٩٢٨/١٩٢٩م) عين محمد خان مديراً لدار الكسوة، "وقام بتعليم أبناء الوطن عمل النسيج والتطريز وصنوف الحياكة حسبما اشترطت عليه الحكومة. ثم في سنة ١٣٥٢هـ (١٩٣٣/١٩٣٤م) تم تعيين الشيخ أحمد سالم الجوهري مديراً لمعمل الكسوة، وهو جد الشيخ عبدالعزيز عباس أحمد سالم الجوهري التاجر المعروف في مكة اليوم، ولما جاء موسم عام ١٣٥٢هـ (مارس ١٩٣٤م) كسيت الكعبة المعظمة بكسوة حيكت ونسجت وطرزت بيد أبناء الوطن فكانت في غاية الجمال والإتقان.

واستمر مصنع الكسوة حتى عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٦م) أي أنه صنع الكسوة لتسعة أعوام متتالية، وفي هذه الأثناء تحسنت العلاقات مع مصر، ويقول عبدالحميد الخطيب في كتابه "الإمام العادل"[٨٠]: "فكرت مصر في العودة إلى كسوة البيت في عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٧م) فلم يشأ جلالة الملك أن يحرمها من شرفٍ اكتسبته من قديم الزمن". واستمر مجيء الكسوة من مصر حتى عام ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م) عندما أنشئت وزارة الحج والأوقاف، فقامت بتحديث آلات مصنع الكسوة القديم، وابتدأ العمل بصنع كسوة عاجلة لتحل محل الكسوة التي مزقتها الرياح الشديدة ذلك العام، فتمت كسوة الكعبة ثوباً جديداً من صنع مكة المكرمة في ٢٦ رمضان عام ١٣٨٢هـ (٢٠ فبراير ١٩٦٣م)، ثم ألبست الكعبة ثوباً آخر يوم عيد النحر كالمعتاد، واستمر المصنع في حياكة ثوب الكعبة حتى يومنا الحاضر، وقد أدخلت عليه تحسينات متوالية.

وبالمناسبة فإن ثوب الكعبة المشرفة يتكون من ٤٧ قطعة مستطيلة، كل قطعة عرضها متر واحد وطولها ١٤ مترا، وبذلك تكون مساحة مسطح الثوب ٦٥٨ متراً مربعاً، أما حزام الكعبة فطوله حوالي ٤٥ متراً يحيط بالكعبة المشرفة من جهاتها الأربع، وعرضه ٩٥ سم ويتكون من ١٦ قطعة. وتلي الحزام - من جهة باب الكعبة - لوحة يكتب فيها تاريخ صنع الكسوة واسم رئيس الدولة التي صنعت الكسوة في عهده، وقد أضاف المصنع السعودي الحديث ١٦ مربعاً من اللوحات التي كتبت عليها آيات قرآنية بالقصب تزين كل جهات الكعبة تحت الحزام.

أما كسوة الكعبة الداخلية فلا نعرف على وجه الدقة بدايتها، وإن كان قد أشار إليها ابن جبير في رحلته عام ٥٧٨هـ (١١٨٢م)، والمؤكد أن الكسوة الداخلية لم تكن تجدد إلا في مناسبات خاصة مثل تولية السلطان، أو قدم الكسوة السابقة، واستمر الأمر في الدولة العثمانية كذلك حتى زمن السلطان عبدالعزيز خان ابن السلطان محمود الثاني، حيث أرسل كسوة داخلية حمراء للكعبة عام ١٢٧٧هـ (١٨٦١م)، ولم ترسل بعده حتى زوال الدولة العثمانية، وظلت الكسوة الداخلية ٧٨ عاما حتى عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) حيث صنعت لها كسوة جديدة، ثم أمر الملك عبدالعزيز عام ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م) بصنع كسوة داخلية جديدة من الحرير الأحمر. وفي عهد الملك خالد ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) صنعت كسوة داخلية جديدة من الحرير الأخضر.

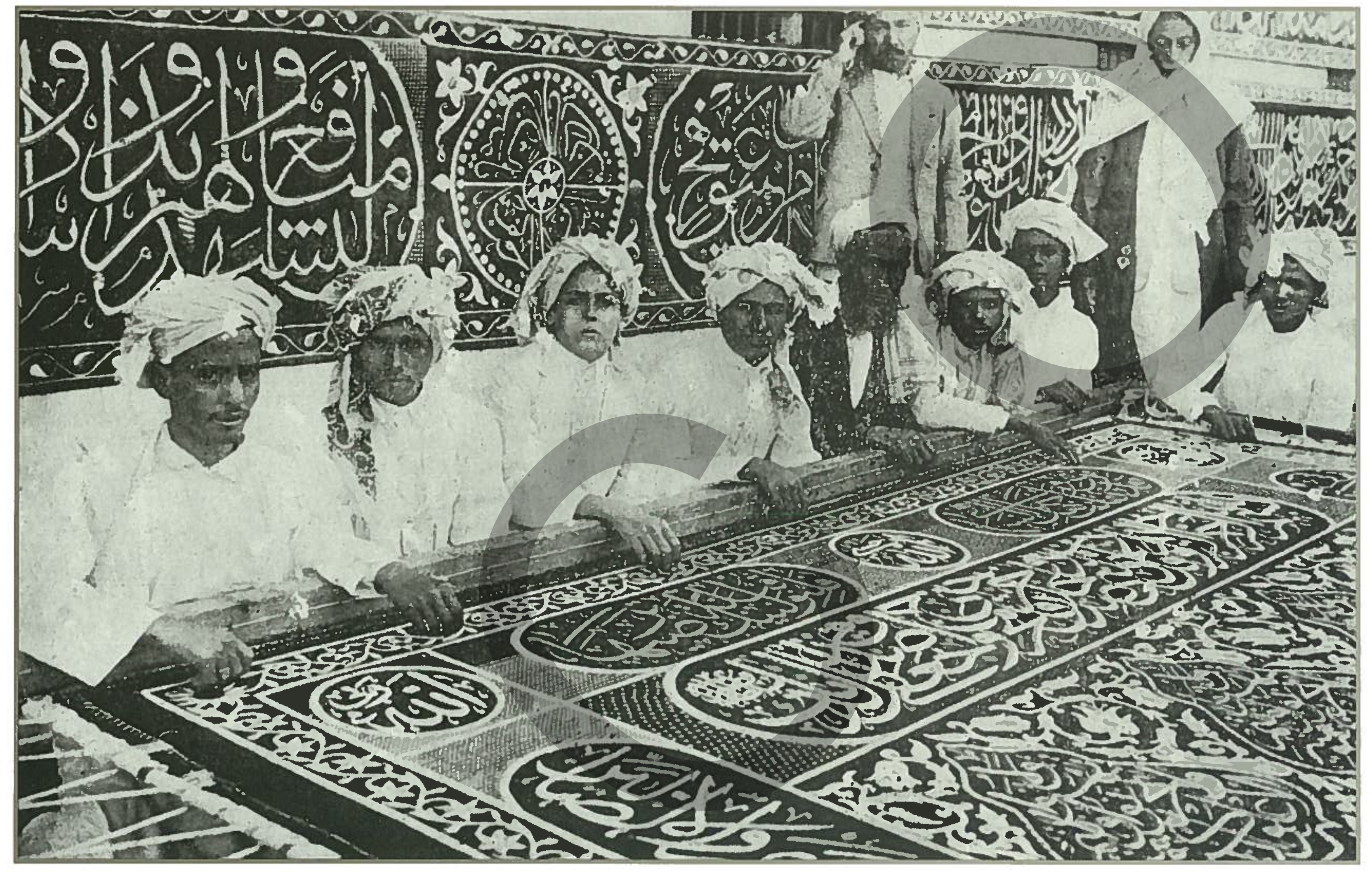
٧٩- حسين باسلامة. تاريخ الكعبة المعظمة مرجع سابق. ص ٢٩٢.

٨٠- عبدالحميد الخطيب. الإمام العادل. ج٢ ص ٨٥.





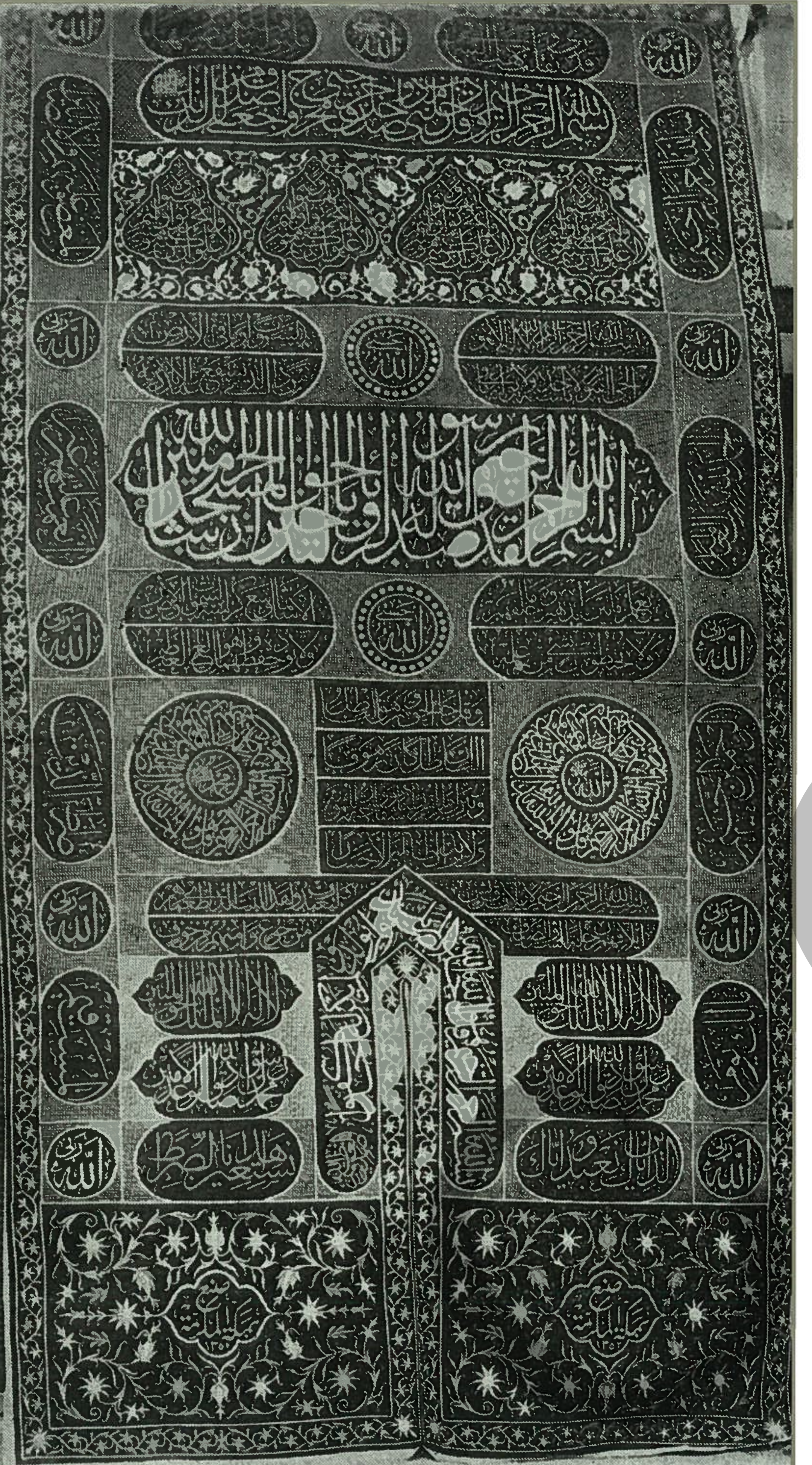
[إلى اليمين: الشيخ أحمد سالم الجوهري مدير دار الكسوة وبجانبه قطعة من الكسوة نقش عليها تاريخ صنعها سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٦م). (تصوير عبدالله آشي)].



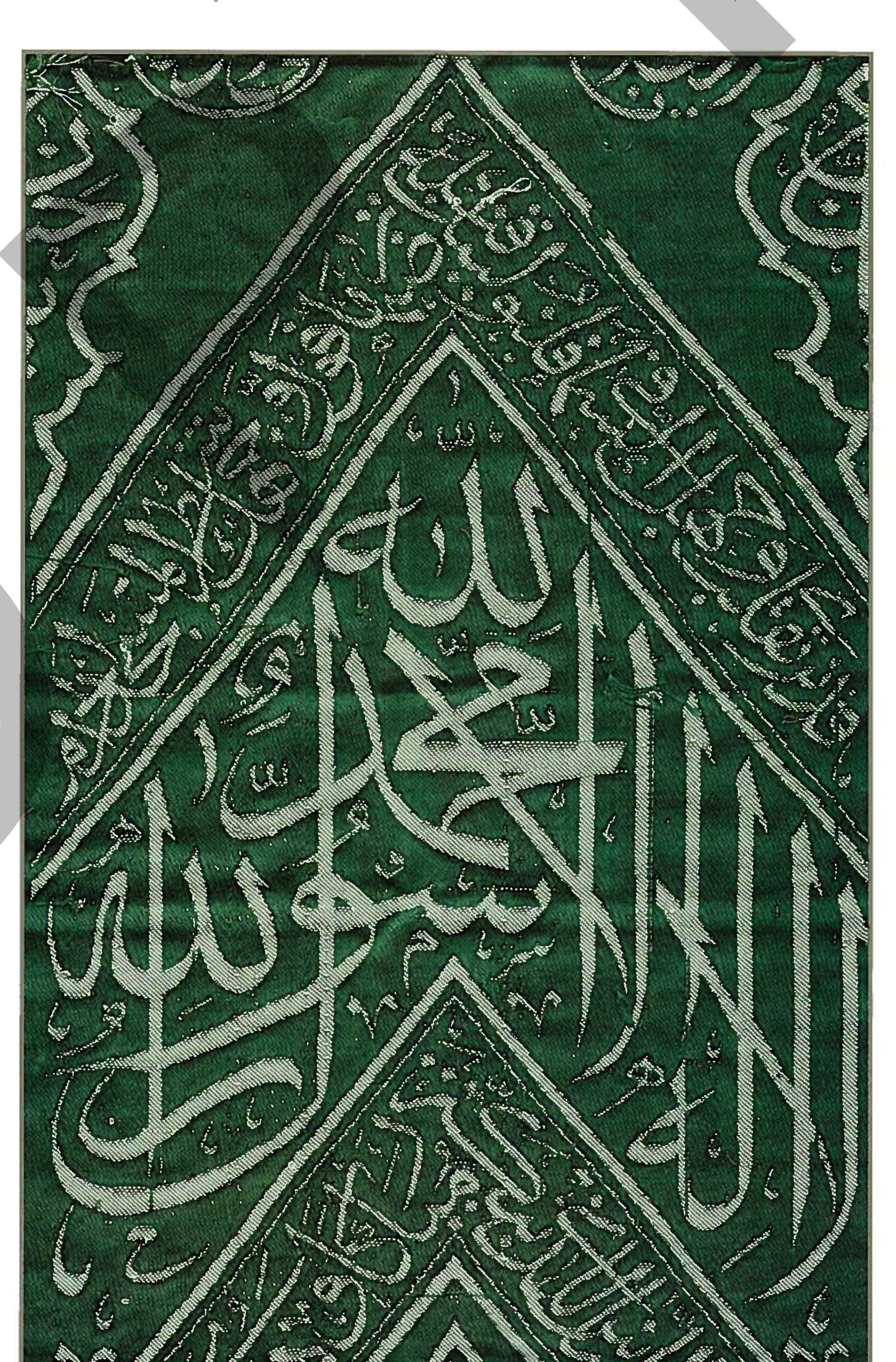
[وإلى اليسار: الفنيون السعوديون الذين تم تدريبهم على صنع الكسوة الشريفة وأمامهم قطعة من ستارة باب الكعبة أثناء تطريزها. و يظهر خلفهم يظهر جزء من الحزام. والواقفون في الصورة من اليمين: الشيخ أحمد سالم الجوهري مدير دار الكسوة وإلى جانبه كبير الفنيين عبد الرحيم أمين. والفنيون الجالسون هم من اليمين: ناصر قاري، أحمد سحرتي، أحمد سقطي، عبدالله أزبك، حسن كوشك، جميل علي بيه، زكريا ديوان، محمد شلبة، والمنظر من تصوير عبدالله آشي حوالي عام ١٣٥٢هـ (١٩٣٤م) ونشرها باسلامة في تاريخ الكعبة المعظمة ص ٣٠٠. والأصل موجود ضمن مجموعة الأستاذ أنيس شودري. وقد حصل على أسماء العاملين من الشيخ عبدالرحيم أمين في مقابلته له يوم ٨ رجب ١٤١١هـ (٢٣ يناير ١٩٩١م) في منزله قرب دوار كدي بالمسفلة بمكة المكرمة]. التقطت الصورة حوالي عام ١٣٥٢هـ (١٩٣٤م).



[تبين الصورة حزام الكعبة المشرفة المصنوع بمكة المكرمة وعليه عبارة "صنعت هذه الكسوة المباركة في مكة المعظمة بأمر خادم الحرمين الشريفين جلالة الملك الإمام عبدالعزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود". (تصوير عبدالله آشي)].



[ستارة باب الكعبة المشرفة المصنوع بمكة المكرمة بأيدٍ وطنية عام ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م) كما هو واضح في أسفل الصورة. (تصوير عبدالله آشي. مجموعة الأستاذ أنيس بشير شودري)].



[قطعة من الكسوة الداخلية للكعبة المشرفة، وهي من الحرير الأخضر، التي أمر بصنعها الملك خالد بن عبدالعزيز عام ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م)، لتحل محل الكسوة الداخلية الحمراء التي أمر بصنعها الملك عبدالعزيز عام ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م)].



جـ - بَاب الكعبَة المشرّفَة:

مر بنا أن تبعاً أسعد أبا كَرِب الحميري هو أول من كسا الكعبة وأول من صنع لها باباً. والأبواب المعروفة بعد ذلك هي كالآتي:

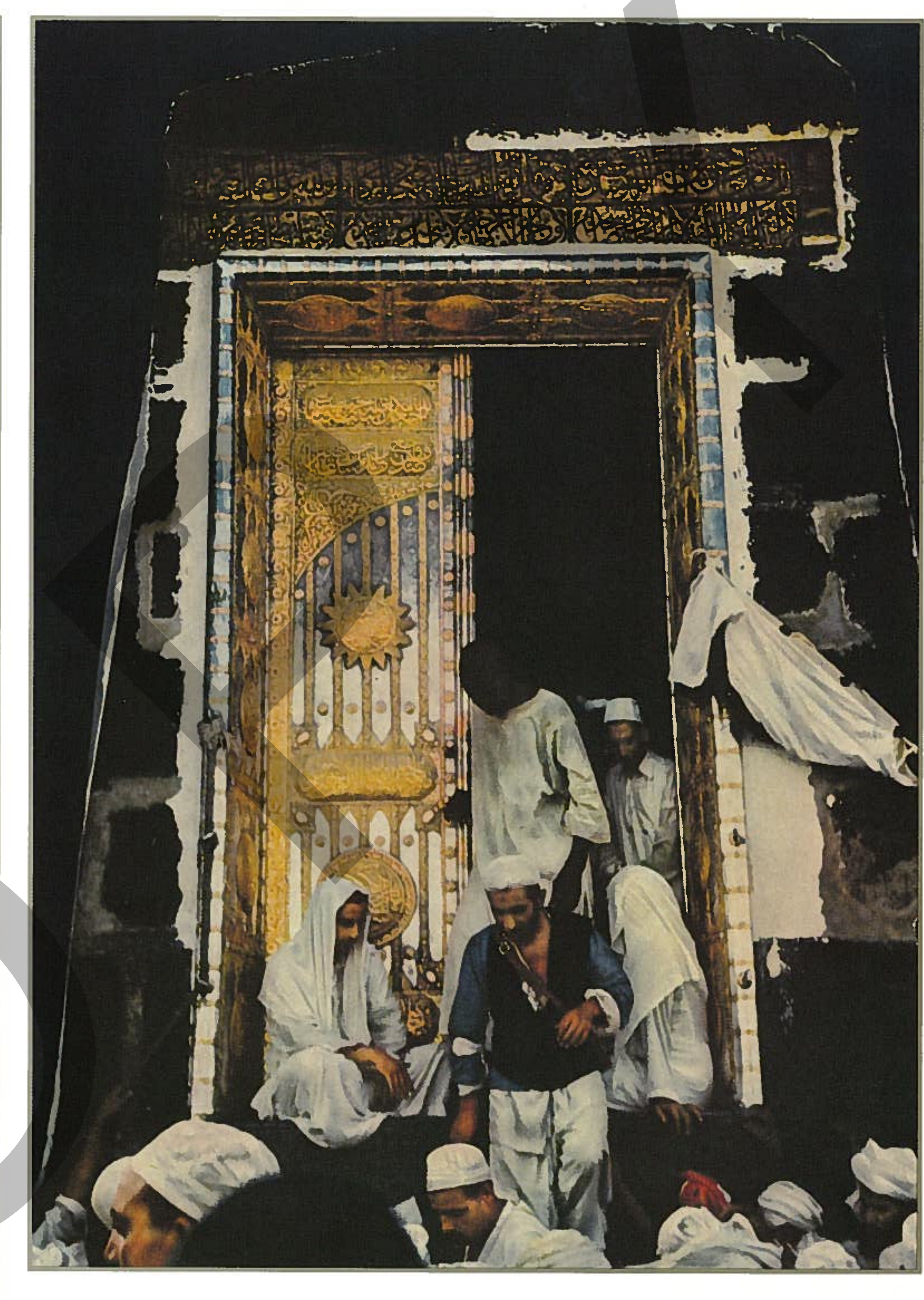
باب صنعته قريش بمصراعين. ثم صنع ابن الزبير بابين لاصقين بالأرض لكل منهما مصراعان. ثم عمل الحجاج باباً بعد نقضه عملَ ابنِ الزبير. ثم الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله، حيث صنع باباً مصفحاً بالذهب والفضة عام ٥٥١هـ. ثم الملك المظفر صاحب اليمن، صنع باباً عليه صحائف الفضة زنتها ستون رطلاً وذلك عام ٦٥٩هـ (١٢٦١م). ثم الناصر محمد بن قلاوون صنع باباً وحلاه بخمسة وثلاثين ألف درهم عام ٧٣٣هـ (١٣٣٣م). ثم ابنه حسن الذي صنع باباً من خشب الساج عام ٧٦١هـ (١٣٦٠م). وبعد بناء السلطان العثماني مراد الرابع الكعبة إثر سقوطها في السيل الذي دهم المسجد الحرام عام ١٠٣٩هـ، صنع باباً عليه من الحلية الفضية ما زنته ١٦٠ رطلاً، ومن الذهب البندقي ما قيمته ألف دينار، وركب الباب عام ١٠٤٥هـ (١٦٣٥م)[٨١].

وفي عام ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م) أمر الملك عبدالعزيز بصنع باب للكعبة من الفضة المحلاة بكتابة آيات قرآنية بأحرف ونقوش من الذهب، وعملت حلقتا الباب من الذهب أيضا، وقام ولي العهد الأمير سعود – نيابة عن والده – بحضور الحفل الذي تم فيه إزاحة الستار عن الباب الجديد يوم الخميس ١٣٦٦/١٢/١٥هـ (١٩٤٧/١٠/٣٠م) وليس كما جاء في "التاريخ القويم"[٨٢]، من أن ذلك حدث عام ١٣٧٠هـ والحقيقة أنه تم تركيب كتوف (حَلَق) الباب ذلك العام وقد كتب أسفل مصراعيه ما نصه: "أمر بصنع هذا الباب جلالة الملك عبدالعزيز ابن عبدالرحمن آل سعود ملك المملكة العربية السعودية سنة ١٣٦٣هـ".

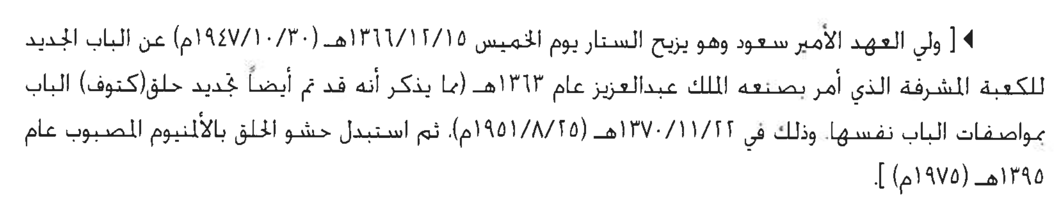
٨١- حسين باسلامة. تاريخ الكعبة المعظمة.مرجع سابق. ص١٩٨ - ٢٠٣.

٨٢- محمد طاهر كردي. التاريخ القويم. ج٥. ص ٥٢.

[باب الكعبة الذي أمر بصنعه السلطان مراد الرابع عام ١٠٤٥هـ (١٦٣٦م). واستمر إلى أن تم استبداله في زمن الملك عبدالعزيز آل سعود عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) وهو معروض اليوم في المتحف الوطني في مركز الملك عبدالعزيز التاريخي بالرياض. ويظهر إلى جوار الباب ستارة باب الكعبة المصنوعة بمكة المكرمة].



▲[باب الكعبة الذي أمر بصنعه الملك عبدالعزيز عام ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م) وهو مصنوع من الفضة المحلاة بآيات قرآنية ونقوش من الذهب. والمنظر من تصوير المجلة الجغرافية الوطنية الأمريكية. والباب معروض اليوم في متحف الحرمين بمكة المكرمة].



◀[ولي العهد الأمير سعود وهو يزيح الستار يوم الخميس ١٣٦٦/١٢/١٥هـ (١٩٤٧/١٠/٣٠م) عن الباب الجديد للكعبة المشرفة الذي أمر بصنعه الملك عبدالعزيز عام ١٣٦٣هـ (مما يذكر أنه قد تم أيضاً تجديد حلق(كتوف) الباب بمواصفات الباب نفسها. وذلك في ١٣٧٠/١١/٢٢هـ (١٩٥١/٨/٢٥م). ثم استبدل حشو الحلق بالألمنيوم المصبوب عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م)].



ثانياً - المظلاّت ورَصف أرضيّات الأروقـة والمسعَى:

أ - المظلاّتُ في المسجد الحَرَام:

بعد أن استتب الأمن في الأراضي المقدسة بعد دخول الملك عبدالعزيز تزايد عدد الحجاج، وبلغ عددهم عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٧م) حوالي ٣٤٠ ألفاً منهم ١٩٠ ألف حاج من خارج المملكة، فأمرت الحكومة بنصب سرادقات ضخمة في حصوات المسجد الحرام، تقي أكثر من عشرة آلاف مصل من حرارة الشمس وقت صلاة الظهر والعصر.

وقبل حج العام التالي ١٣٤٦هـ (١٩٢٨م) أمر الملك عبدالعزيز بعمل مظلات ثابتة، وننقل فيما يأتي ما كتبه الشيخ حسين باسلامة[٨٣]: "صدرت إرادة الملك عبدالعزيز على وزير المالية بعمل مظلات قوية ثابتة على دائرة الحصوة مما يلي أروقة المسجد الحرام من الجهات الأربع؛ لأنه ظهر أن الرياح قد عبثت بالسرادقات التي نصبت عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٧م) فقام وزير المالية بعمل مظلات قوية قوامها من الخشب الجاوي الثخين على شكل جملون، وكسا ذلك الجملون بالقماش القوي الثخين المنسوج بالقطن الأبيض المسمى بالقلع. وقد حصلت من هذه المظلات منفعة عظيمة للحجاج. واستظل تحتها بضعة عشر ألف حاج، وأنفق عليها مبلغ لا يستهان به".

ويبدو أن الرياح الشديدة أعاقت استمرار هذا النوع من المظلات أيضاً، فنلحظ اختفاء المظلات في السنوات التالية، حتى فكرت الحكومة في إنشاء مظلات متحركة من الأشرعة السميكة المثبت طرفها الأول في واجهة الأروقة، ويمتد طرفها الآخر إلى أعمدة حديدية تبعد عن الرواق أكثر من عشرة أمتار، ويتم فردها وقت الظهيرة، ثم تطوى لتتجمع عند الأروقة، وذلك عام ١٣٦٦هـ. وقد أثبتت هذه الطريقة منفعتها بسبب سهولة طيها، وإمكانية تغيير أي شراع أصابه التمزق بفعل الرياح، واستمرت هذه الأشرعة سنوات طويلة حتى تمت التوسعة الضخمة للمسجد الحرام، وأصبحت الأروقة الجديدة ذات دورين تستوعب أضعافا مضاعفة من المصلين.

ب - مظلّة المسعَى:

عرفنا مما سبق عند استعراض الفترة السابقة للملك عبدالعزيز أن الشريف حسين أقام مظلة "جملون" على المسعى من ناحية المروة حتى باب علي، وظل الجزء الآخر الممتد من باب علي إلى الصفا بدون مظلة. ولم تصمد تلك المظلة للعوامل الجوية وأصابها الصدأ، وأصبحت بها ثقوب عديدة، فأمر الملك عبدالعزيز بإزالتها تمهيدا لعمل مظلة ضخمة تغطي كامل المسعى.

وننقل فيما يأتي مختصراً لتعليق لطيف لأحد القراء نشرته جريدة أم القرى[٨٤]: "هذه مظلة المسعى التي صاحبت المشعر الحرام ربع قرن من الزمان، والتي كانت يوم أنشئت شيئاً مذكوراً، ثم دال بها العهد، وقدم الزمن، واكتهلت مع مرور الأيام حتى ثقلت على الأنظار، وارتجفت سوقها المرتعشة. هاهي ذي قد أزيلت ليحل محلها شيء آخر، من طراز آخر، يساير الجيل الحاضر ويعاصر المستقبل. ولقد أعلنت أمانة العاصمة أنها بسبيل تجديدها، بل إنشاء مظلة جديدة تحل محلها، وكنا من أوائل من طالب بذلك وصفق له طويلا. أما اليوم وقد انقشعت المظلة وتراءى الطريق للمنازل المشرفة عليه، فقد تغير منظر الشارع العام، وتغيرت نظرة الناس إليه من عل، ورأى سكان الشارع السماء ونور السماء والشمس الضاحية والهواء العليل، فهل لأمانة العاصمة من وقفة تتريث بها لترى الرأي الأخير قبل الإقدام على عمل المظلة الجديدة فتوفر على نفسها آلاف الجنيهات وتوفر للناس بهجة وضوءاً، مع تزويد الشارع والدكاكين بمظلات يدوية متحركة نظيفة".

لكن الأوامر صدرت في العام نفسه ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) بضرورة إقامة مظلة حديدية ضخمة ذات ارتفاع سامق و سقف مزدوج من المواد العازلة للحرارة، توفر الظل والإضاءة. واستمرت هذه المظلة سنوات عديدة حتى بداية مشروع التوسعة السعودية الأولى للمسجد الحرام عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) حيث تم تفكيكها واستخدام أجزاء كبيرة منها لتظليل شارع المدعى الجودرية، ولا تزال صامدة حتى أزيلت تماماً عام ١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م).

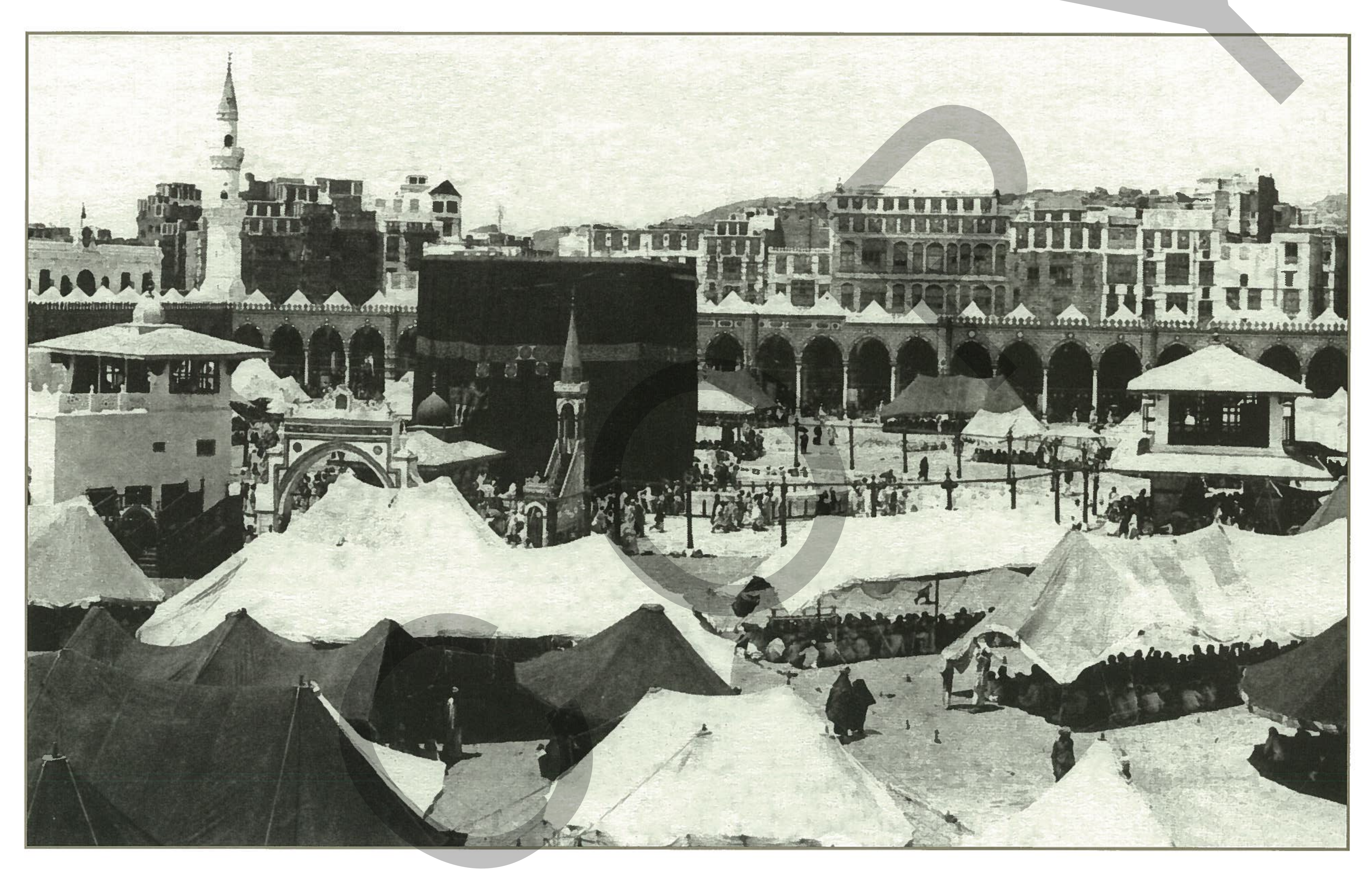
جـ - رَصف المسعَى:

من الأعمال المهمة التي شهدتها هذه الفترة رصف أرضية مشعر المسعى، من الصفا إلى المروة، فقد صدرت أوامر الملك عبدالعزيز عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٧م)، وتشكلت لجنة برئاسة أمين العاصمة السيد عبدالوهاب بن أحمد نائب الحرم لتنفيذ المشروع. ويصف الشيخ حسين باسلامة تفاصيل المشروع بقوله[٨٥]: "وتقرر فرش شارع المسعى بالحجر الصوان المربع، وأن يبنى بالنورة، ويكون الصرف ابتداء من صندوق أمانة العاصمة مؤقتاً ثم يسدد من المالية العمومية. وابتدأ العمل بالرصف من الصفا، وعمل لذلك احتفال عظيم حضره صاحب السمو الملكي النائب العام الأمير فيصل بن عبدالعزيز المعظم حفظه الله ووضع الحجر الأساسي بيده الشريفة. وكان القائم بصرف أجر العمال معاون أمين العاصمة الشيخ محمد سرور الصبان، وكان انتهاء رصف شارع المسعى في أواخر ذي القعدة من سنة ١٣٤٥هـ فكان هذا الشارع هو أول شارع رصف بمكة المكرمة على الإطلاق، وأول مرة رصف فيها شارع المسعى من الصفا إلى المروة منذ فرض الله على المسلمين الحج، بل منذ سكن الحجاز. وكان جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود المعظم أول ملك اعتنى برصفه".

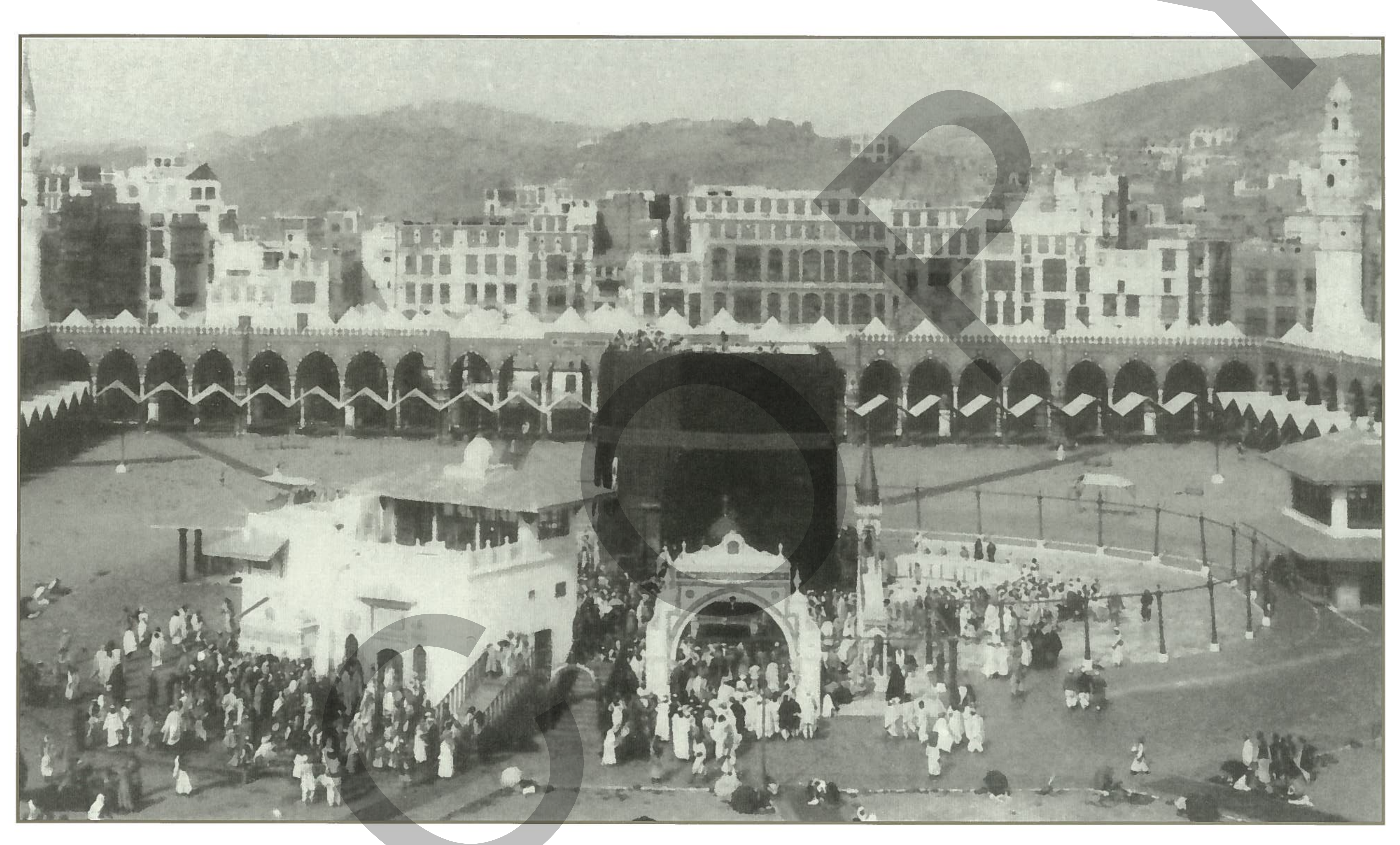
٨٣- حسين باسلامة. تاريخ عمارة المسجد الحرام. مرجع سابق.ص ٢٩٠.

٨٤- صحيفة أم القرى. العدد ١١٤٠. ١٠ صفر ١٣٦٦هـ (الموافق ٣ يناير ١٩٤٧م). ص٣.

٨٥- حسين باسلامة. تاريخ عمارة المسجد الحرام. مرجع سابق. ص ٢٩٥.



▲[السرادقات الضخمة التي نصبت داخل ساحة المسجد الحرام في حج عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٧م). وهي من تصوير شفيق محمود عرب قرلي. ونشرت في تاريخ عمارة المسجد الحرام لباسلامة صفحة ٢٨٩].



▲[المظلات الجملون. المغطاة بالقلع السميك التي نصبت أمام أروقة المسجد الحرام ١٣٤٦هـ (١٩٢٨م). وتبدو في الصورة الشابات التي تربط الأروقة بالمطاف. وقد تم تغطيتها ببساط سميك مستطيل لحماية أقدام الناس من شدة الحرارة. ويبدو على سطح الكعبة عدد من المختصين يقومون بتثبيت الكسوة الجديدة على الكعبة يوم النحر (مجموعة محمد أسد .[Saudi Aramco World] عدد ذي الحجة ١٤٢٢هـ (يناير/ فبراير ٢٠٠٢م). صفحة ٢١].



▲[هكذا كانت تبدو عقود الصفا الثلاثة بعد رصف أرضية المسعى عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م). ونلاحظ أنه بقيت بعد الرصف درجتان للصعود تليهما فسحة عريضة ثم أربع درجات قبل الوصول إلي جبل الصفا. ولقد أقيمت الأعمدة التي تحمل العقود بعد الفسحة مخترقة الدرجة الأولى من الدرجات الأربع. ويظهر إلى يمين الصورة قسام لتوزيع ماء عين زبيدة. وخلفه إلى اليمين الزقاق المؤدي إلى جبل أبي قبيس. وتظهر في بداية الزقاق الشباري المخصصة لسعي المرضى. كما يظهر إلى يسار أعمدة الصفا مدخل يؤدي إلى فناء أحد الدور. ويليه مدخل - لم يظهر في الصورة - يؤدي إلى دار الأرقم].



▲[تبين الصورة عقد المروة الضخم، و هو يأتي أولاً ثم تليه خمس درجات (منذ رصف أرضية المسعى عام ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م) ثم بسطة واسعة، ثم دكة يرتاح عليها الساعون. ثم خلف ذلك جدار سميك يفصل نهاية جبل المروة عن البيوت المشرفة عليه. (نشرت في مجلة المستمع العربي، العدد ١٨، عام ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م والتي كانت تصدر عن الإذاعة البريطانية بلندن)].



▲[مظلة المسعى باتجاه المروة، وتظهر اللوحة التي تسجل تاريخ إنشائها (١٣٦٦هـ/١٩٤٧م). ويظهر إلى يسار الصورة: باب علي، وتبدو الدكاكين والدور المطلة على جانبي المسعى.(المصور مجهول، مجموعة فيصل عراقي)].



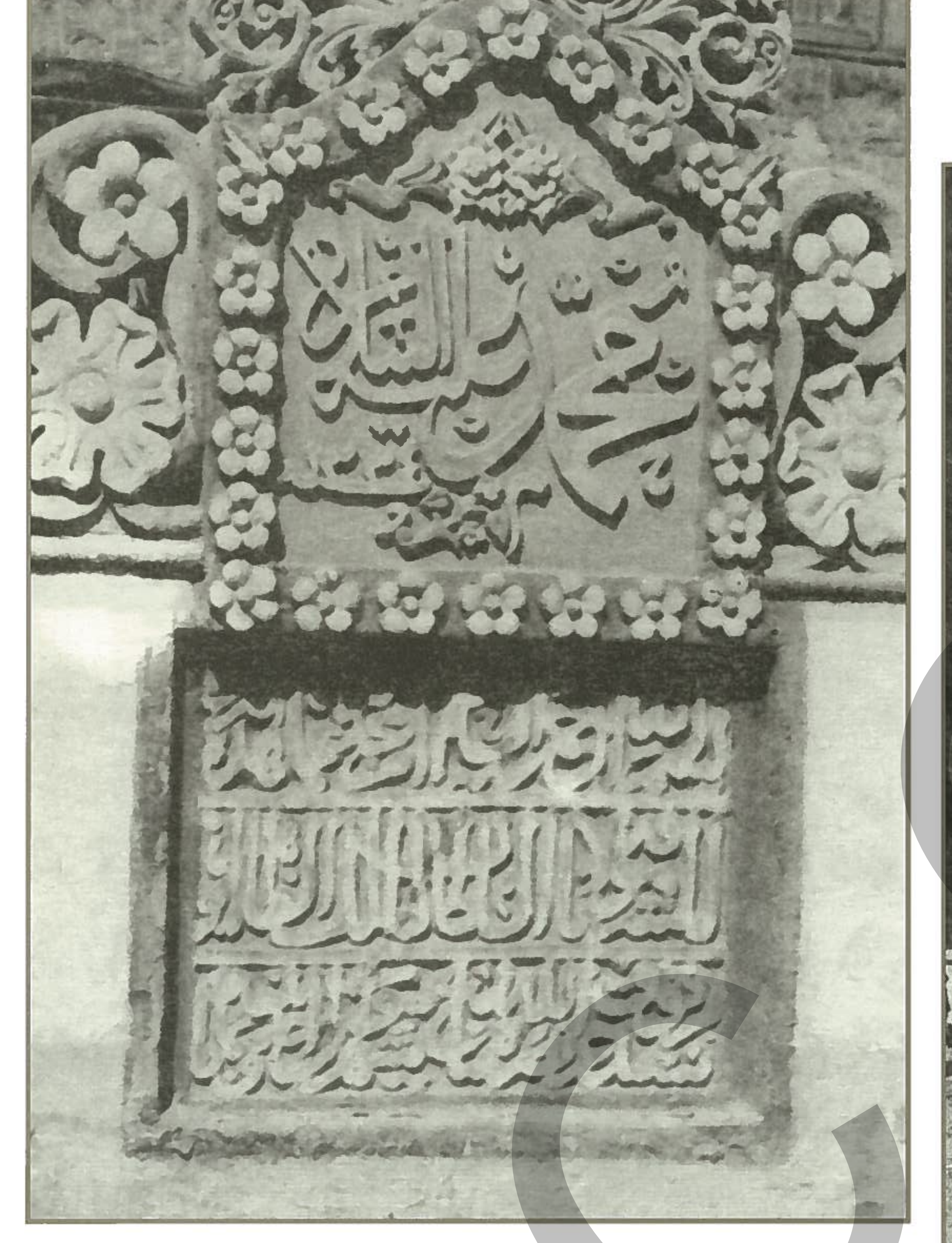
[مظلة المسعى من جهة الصفا، وتظهر إلى اليسار الدور المطلة على المسعى في تلك الجهة، وهي من اليسار: بيت الأشراف ذو البلكونة البارزة المتصلة بالأرض، ويظهر بلصق البلكونة الميل الأخضر الذي يمثل بداية الهرولة في السعي للنازل من الصفا، يليه بيوت الخاسكية وهي البنايات المتجانسة بدون بلكونات أرضية، ثم زقاق ضيق يؤدي إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم (مقر دار الحديث المكية في هذا العهد). كما يظهر في وسط المسعى أول حاجز تم إقامته للفصل بين الساعين الصاعدين والهابطين عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م). ولا يظهر مخفر الصفا لأنه قد أزيل قبل ذلك عام ١٣٧٠هـ (١٩٥١م). (تصوير أستديو زبير بمكة المكرمة وهي من مجموعة الأستاذ محمد غالب عطرجي)].



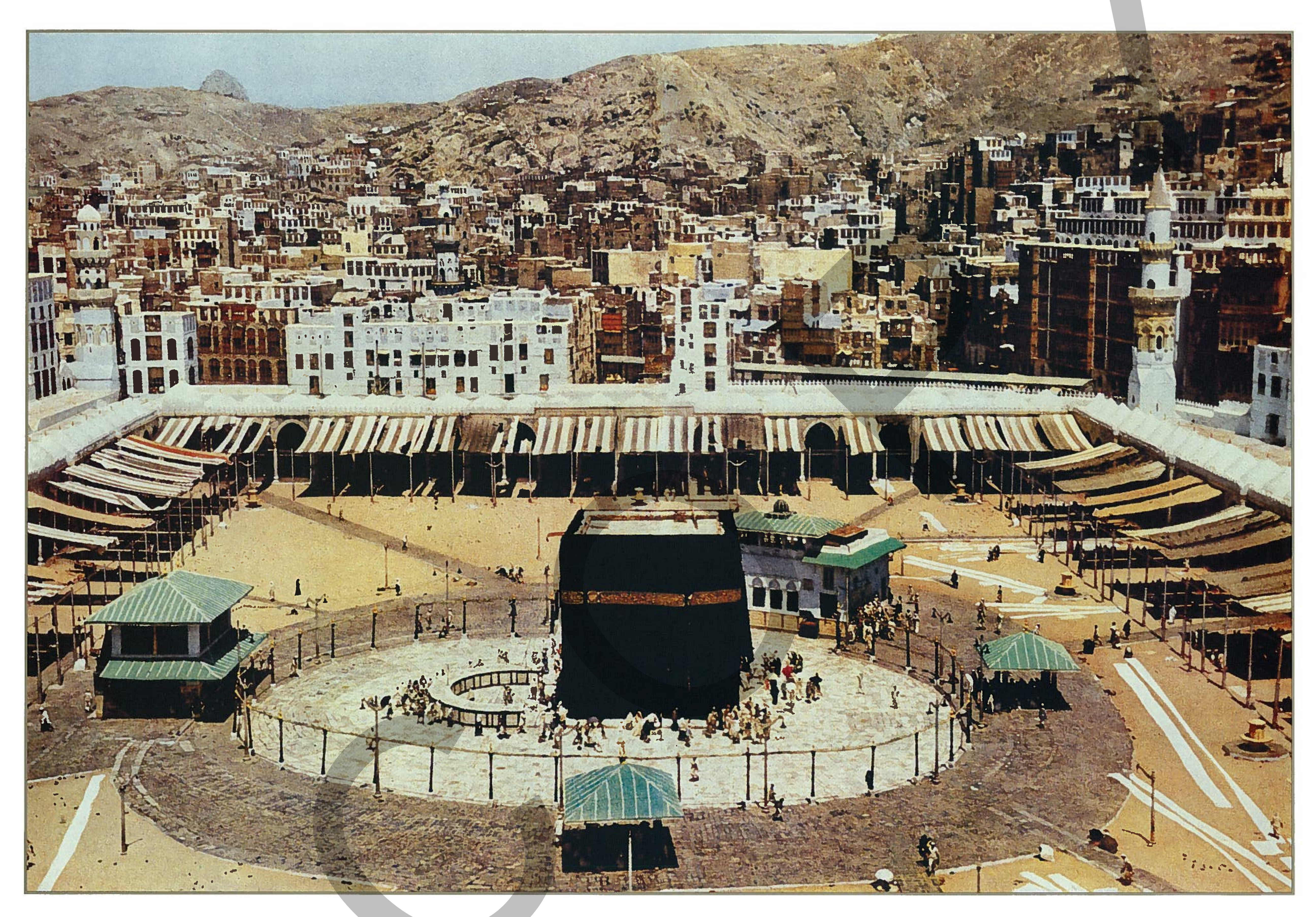
وقد تم إصلاح أرضية أروقة المسجد الحرام عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥م). ثم جرى بعد ذلك في عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) تجديد لرصف أرضية المسعى... و مازالت الصيانة تتوالى عليه حتى بدأ مشروع توسعة الحرم الشريف عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م)، وفي عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) تم عمل حاجز في المسعى يفصل بين الساعين الصاعدين إلى المروة والساعين الهابطين منها.



◄ [إلى اليسار أرضية المسعى وقد رصفت بأحجار الصوان عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م). ونلحظ أن الصورة التقطت من أمام باب علي باتجاه الصفا. ويظهر جدار المسجد الحرام ومئذنة باب علي إلى اليمين. ثم مخفر الصفا. وتظهر عقود الصفا في صدر الصورة وإلى اليسار المنازل المطلة على المسعى. وقد التقط هذه الصورة شفيق محمود عرب قرلي. وعليها توقيعه. ونشرها باسلامة في كتاب "تاريخ عمارة المسجد الحرام". صفحة ٢٩٥].



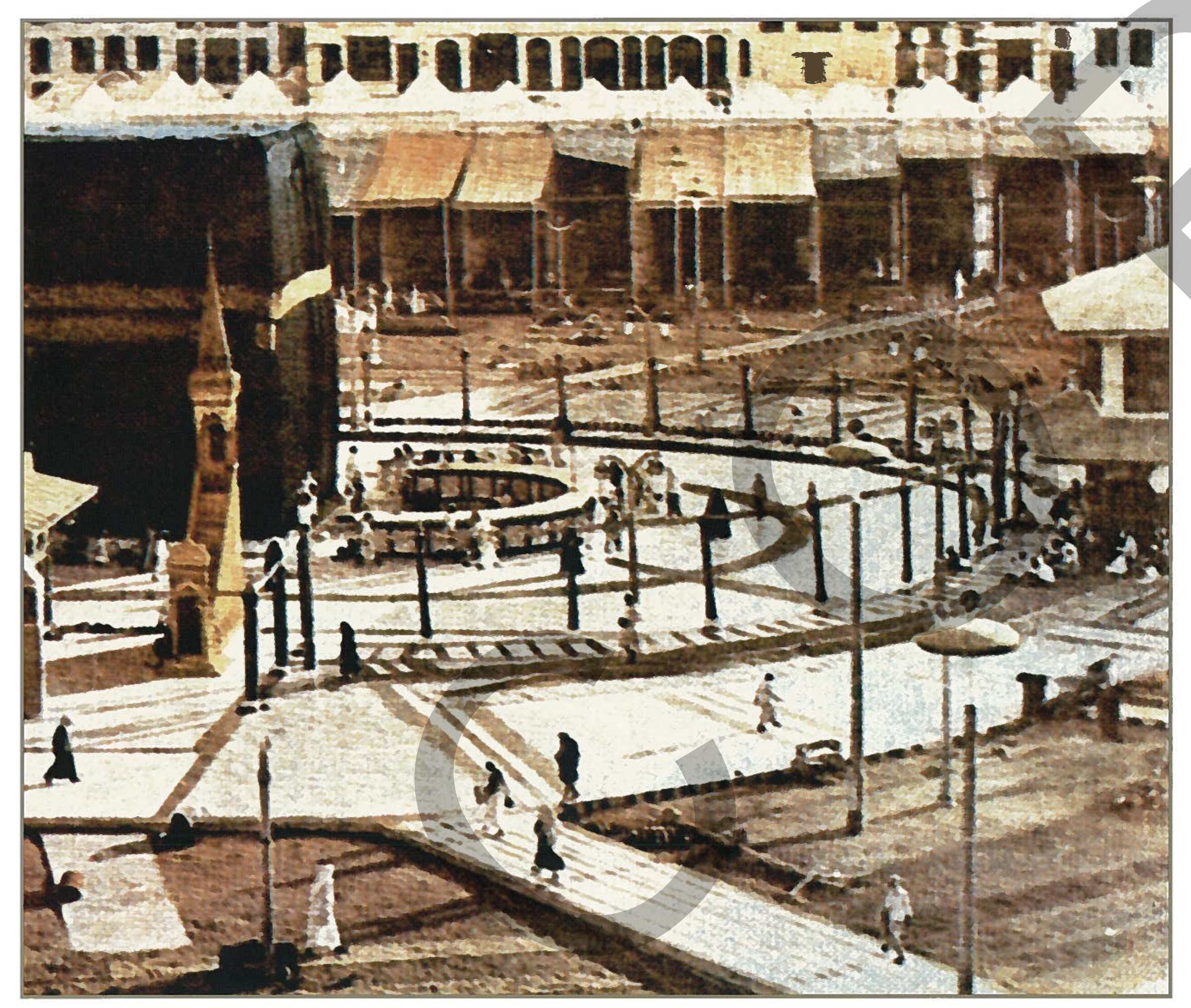
▲[اللوحة المقامة في أعلى عقد المروة. وعليها تاريخ تجديده عام ٨٠١ هـ (١٣٩٨م). في عهد الملك الظاهر برقوق (التاريخ القويم ٣٤٦/٥)].



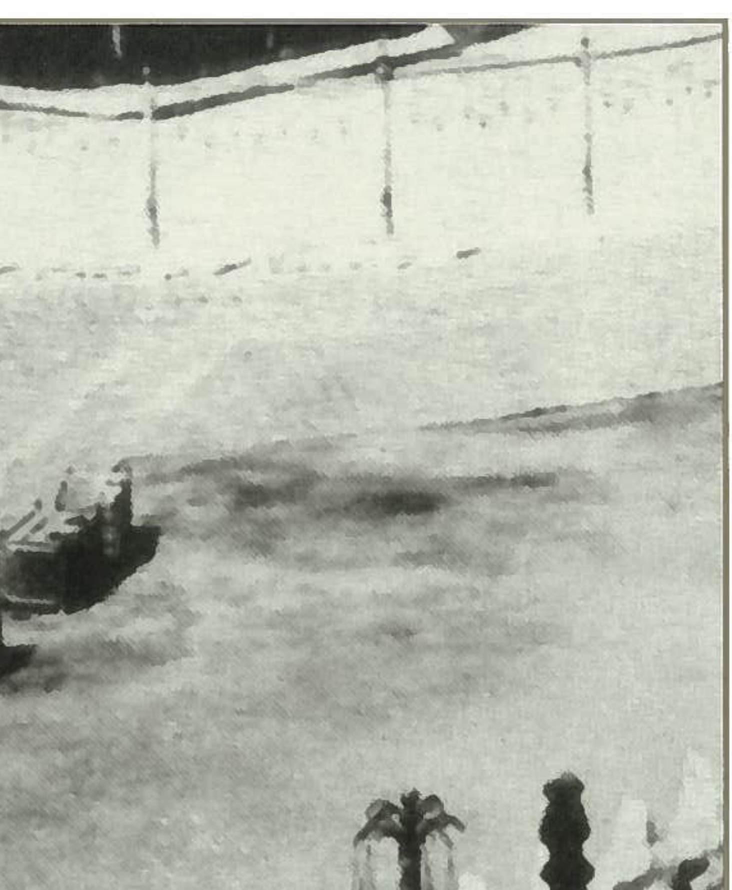
▲[أول صورة فتوغرافية ملونة للمسجد الحرام التقطتها عدسة المجلة الجغرافية الوطنية الأمريكية عام ١٣٧١هـ (١٩٥٢م). ويبين تلوين الصورة أن فرش أرضية المطاف كان من الرخام الأبيض بدون أي تخطيط. بينما الإطار المستدير حوله والمشايات المؤدية إلى الأروقة مفروشة جميعها بأحجار الصوان قبل تجديدها عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م). وتبين الصورة بوضوح المظلات المصنوعة من القلع (الأشرعة) المقامة على أطراف الأروقة. كما تبين كامل الرواق الشمالي الشرقي. بدءاً من منارة باب علي إلى اليمين وتليها عمائر المدارس الخمس ثم تظهر أطراف مظلة المسعى. ثم رباط قايتباي. ثم ردهة باب السلام ومنارته. وتظهر منازل مكة في حارة القشاشية وسوق الليل والغزة. وفي أعلى الصورة من اليسار قمة جبل النور وبه غار حراء حيث كان يتعبد الرسول ﷺ].

د- تجديد فرش المطاف والأروقة بالرخام:

وفي عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) جرى تجديد فرش المطاف بالرخام ووضع خطوط توضح الأركان الأربعة للكعبة، كما جرى رصف الدائرة التي حول المطاف التي تضم المقامات ومبنى زمزم، والمشايات، والأروقة بالرخام. وكانت الدائرة التي حول المطاف قد فرشها السلطان سليم بالحجر الصوان حوالي عام ٩٦٠هـ (١٥٥٣م).



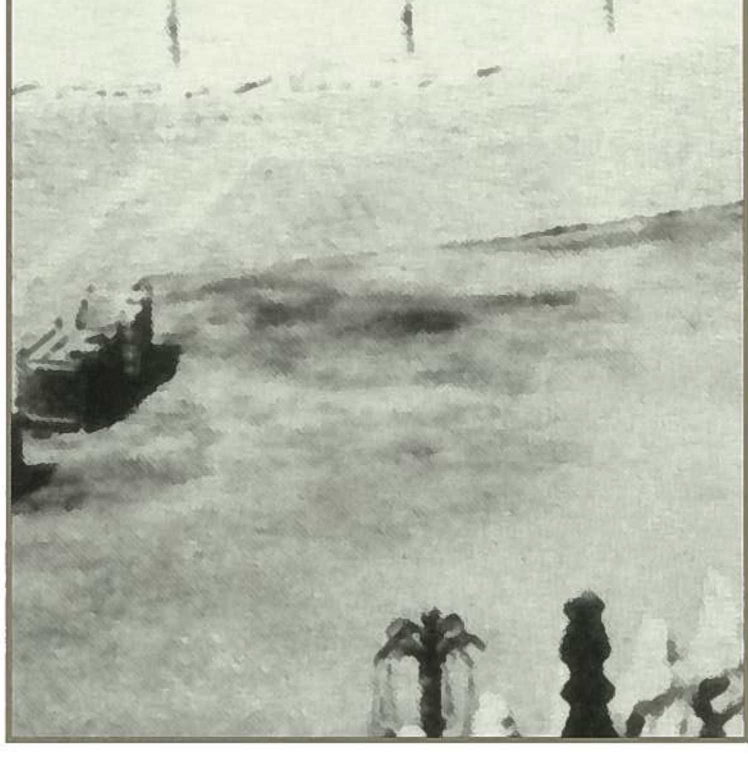
[تبين الصورة الرخام الجديد الذي فرشت به دائرة المطاف وكذا الدائرة الخارجية المحيطة به والمشايات والأروقة عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م)].



ثالثاً - إضاءة المسجد الحرام:

كانت الإضاءة في المسجد الحرام تتركز حول المطاف، وتعتمد على قناديل الزيت العادية والشموع، وقد أهدت والدة السلطان عبدالحميد في عام ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) ستة أعمدة معدنية، وفي رأس كل عمود نخلة من النحاس تتدلى من فروعها ستة قناديل، ونصبت في ساحات المسجد (الحصوات)، وأقيمت عوارض حديدية بين الأساطين الأمامية للأروقة، تعلق في أعلاها القناديل، وقد أحصى الشيخ حسين باسلامة[٨٦] عدد القناديل ووجدها ١٤٢٢ قنديلاً عدا ما جعل في المنائر، وكانت المقامات الأربعة تضاء بالشمعدانات النحاسية إضافة إلى القناديل، كما يضاء باب الكعبة بشمعدان من معدن أبيض.

وكما سبق أن أوضحنا في الباب السابق فقد تم استخدام الأتاريك في المسجد الحرام عام ١٣٣٥هـ (١٩١٧م)، وفي عام ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م) أُضيئت دائرة المطاف بالكهرباء لأول مرة، وقد وضع المولد الكهربائي (بقوة ٣ كيلووات) في مدرسة أم هاني أمام دار الحكومة (الحميدية)، وفي عام ١٣٤٠هـ (١٩٢٢م)، تم إنشاء مقر خاص لكهرباء الحرم في أجياد خلف الحميدية، في المكان الذي كان يسمى "الفرن الميري"، وأضيف مولِّد آخر قوة ١٣ حصاناً (١٠ كيلووات).

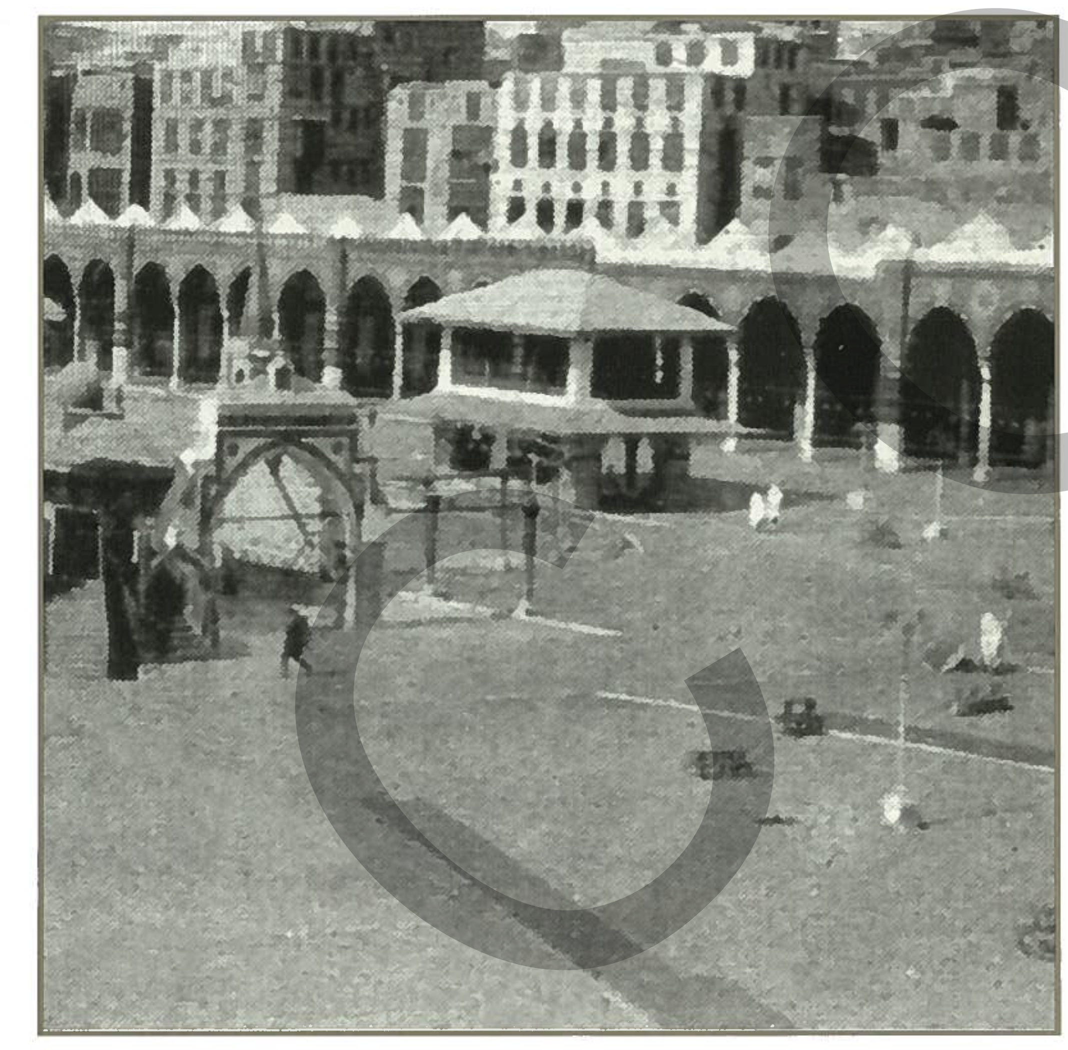


[تظهر في أسفل الصورة الأعمدة الشجرية التي أهدتها والدة السلطان عبدالحميد عام ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) وقد ظهر رأس العمود تتدلى منه القناديل في أسفل الصورة].

وقد أمر الملك عبدالعزيز بزيادة إضاءة المسجد الحرام وتحسينها، فتم ذلك في شهر شعبان ١٣٤٧هـ (يناير ١٩٢٩م)، ووصل عدد اللمبات إلى ألف لمبة بدلاً من ثلاثمائة، وأصبحت تغطي المطاف والأروقة، إضافة إلى ٣٠ إتريكا قوة ٣٠٠ شمعة لاستكمال إضاءة بعض الجوانب والمداخل من المسجد الحرام.

وفي عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م)، أمر الملك عبدالعزيز بإحضار مولد جديد للكهرباء قوة ١٣ حصاناً، وبتركيبه زادت الإضاءة في المسجد الحرام. وفي هذا العام أيضاً وضعت لأول مرة ستة شمعدانات على حجر إسماعيل، كما نصبت في ساحة الحرم (الحصوات) ست وعشرون إسطوانة إسمنتية على شكل شجرة لطيفة ارتفاعها ثلاثة أمتار لتعليق المصابيح الكهربية عليها.

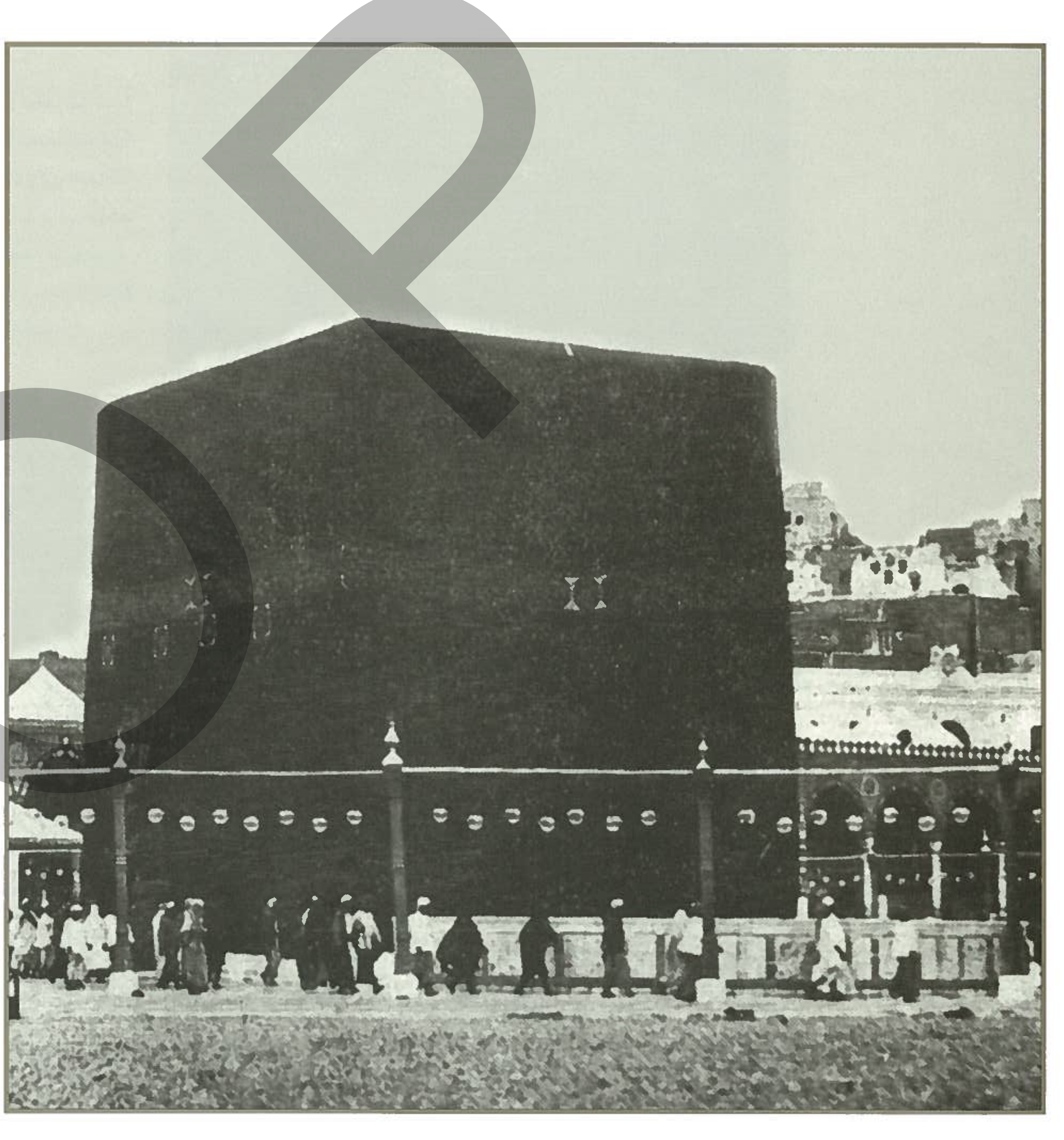
وقد جاء في جريدة أم القرى، العدد ٦٣٦، ١/ ١٢/ ١٣٥٥هـ (١٢ فبراير ١٩٣٧م) أن الملك عبدالعزيز أهدى في ذلك التاريخ مولداً للكهرباء من إنتاج "كروسلي"، وأمر بعمل أعمدة رخامية في ردهات المسجد الحرام لتعلق عليها المصابيح. وبالمناسبة قامت أمانة العاصمة منذ شهر شعبان ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م) باستخدام الأتاريك لإضاءة الشوارع الرئيسة في مكة المكرمة، بدلاً من فوانيس الغاز (الكيروسين). وكانت قد بدأت في الظهور في هذه المدة مولدات كهربائية تابعة لبعض الأفراد في عدد من حارات مكة، وكان لكل مولِّد جهد (فلطية) يختلف عن الآخر. لكن سرعان ما صدر مرسوم ملكي في ١٠/ ٦/ ١٣٦٩هـ (١٩٥٠/٣/٢٨م)، بإنشاء الشركة السعودية للكهرباء بمكة المكرمة، وأعطيت امتياز إنارة مكة المكرمة والمسجد الحرام، بدلاً من أصحاب المولدات الصغيرة المتفرقة في الأحياء، وقد افتتح سمو الأمير سعود ولي العهد المحطة في التنعيم في منتصف شهر صفر عام ١٣٧٣هـ (أواخر أكتوبر ١٩٥٣م).



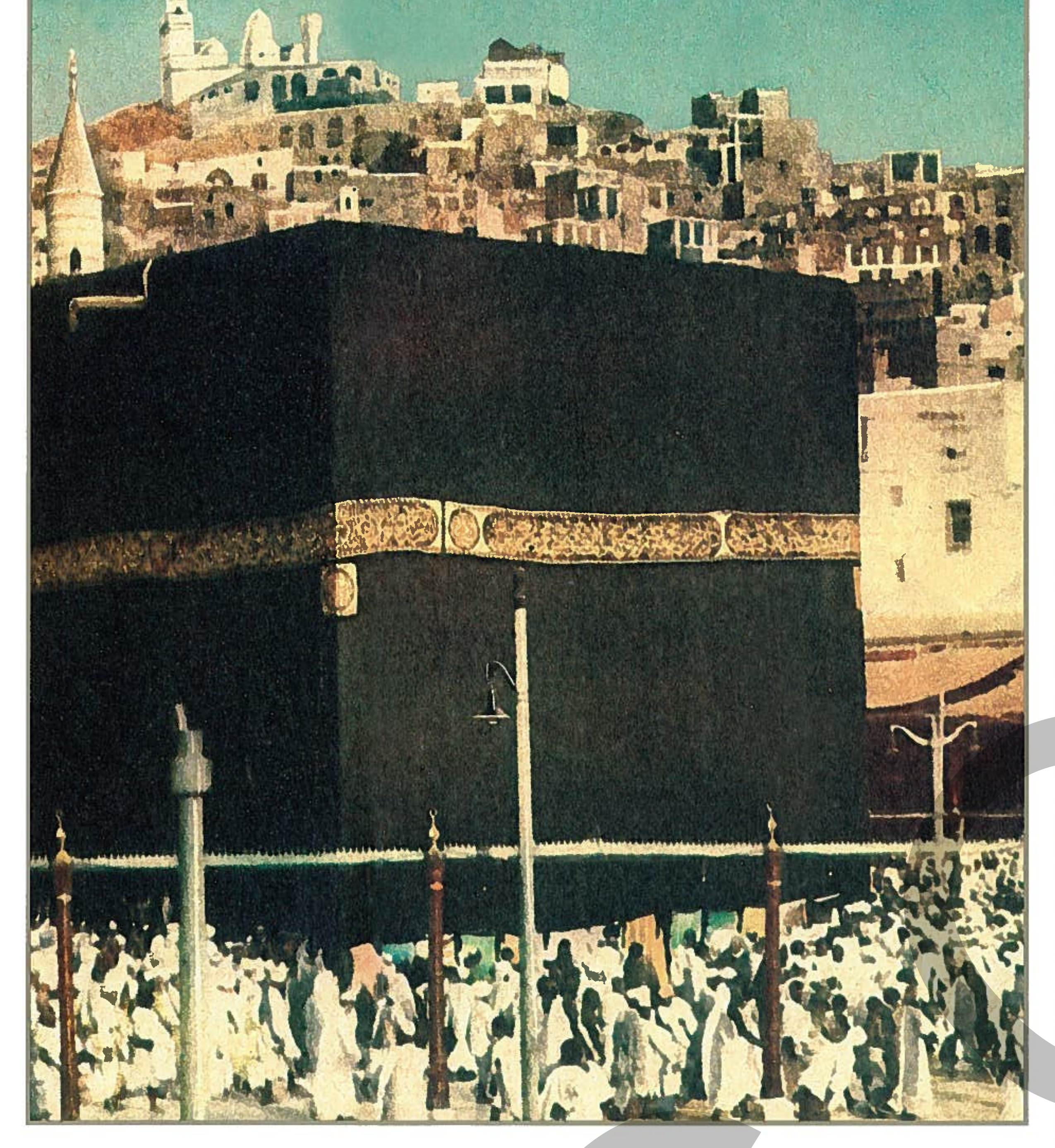
[تبين الصورة العوارض الحديدية الموجودة بين الأساطين الأمامية للأروقة التي كانت تعلق عليها القناديل. وكذلك الأعمدة الحديدية الطويلة التي كانت تعلق عليها الأتاريك ثم خلفتها الأسطوانات الإسمنتية الرفيعة التي علقت عليها المصابيح الكهربائية].

٨٦- حسين باسلامة. تاريخ عمارة المسجد الحرام. مرجع سابق. ص ٢٤٥.

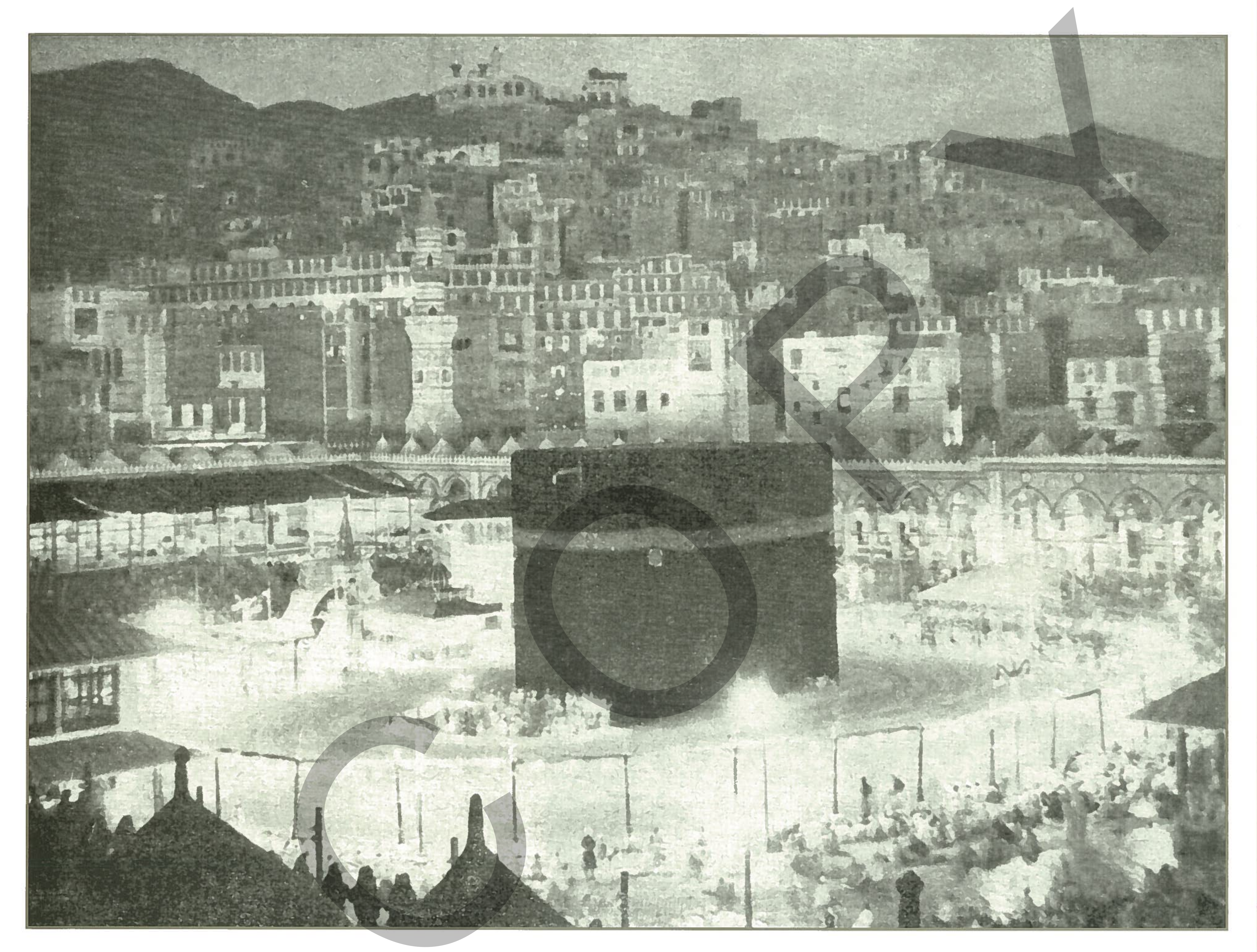




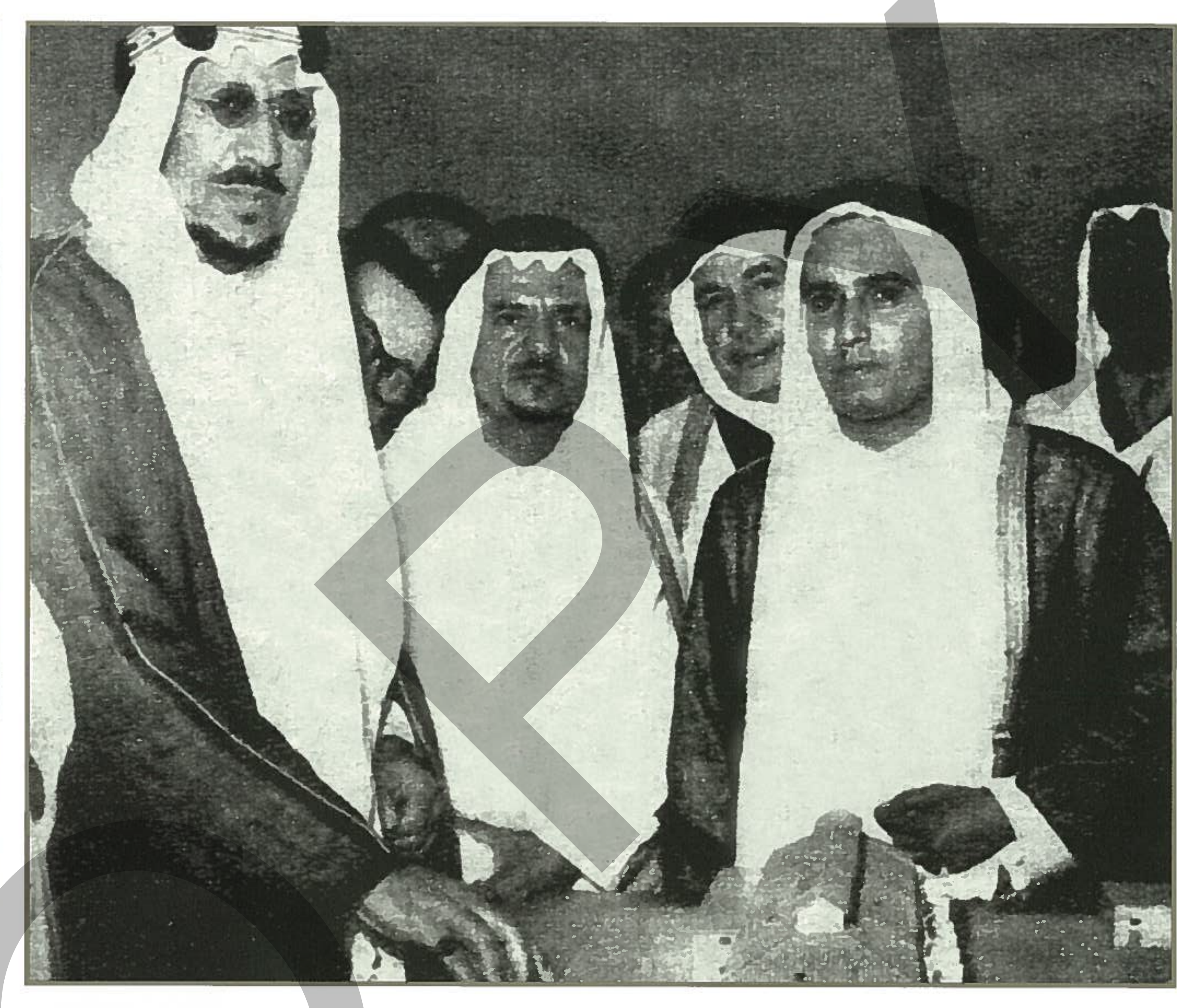
▲[عند بداية دخول الكهرباء إلى المطاف كانت توضع اللمبات داخل البرم الزجاجية نفسها التي كانت توضع فيها الشموع وكان هناك (٧) برم زجاجية بين كل عمودين من الأعمدة المحيطة بدائرة المطاف. (باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، صفحة ٢٠٤)].



▲[في هذه الفترة ازدادت اللمبات الكهربائية بأنواعها وظهرت أنواع متعددة من الأعمدة الإسمنتية لحمل اللمبات، وتبين الصورة ثلاثة أنواع من أعمدة الإضاءة (مجلة المصور، عدد خاص عن العالم الإسلامي المحرم ١٣٧٥هـ/ أغسطس ١٩٥٥م)].



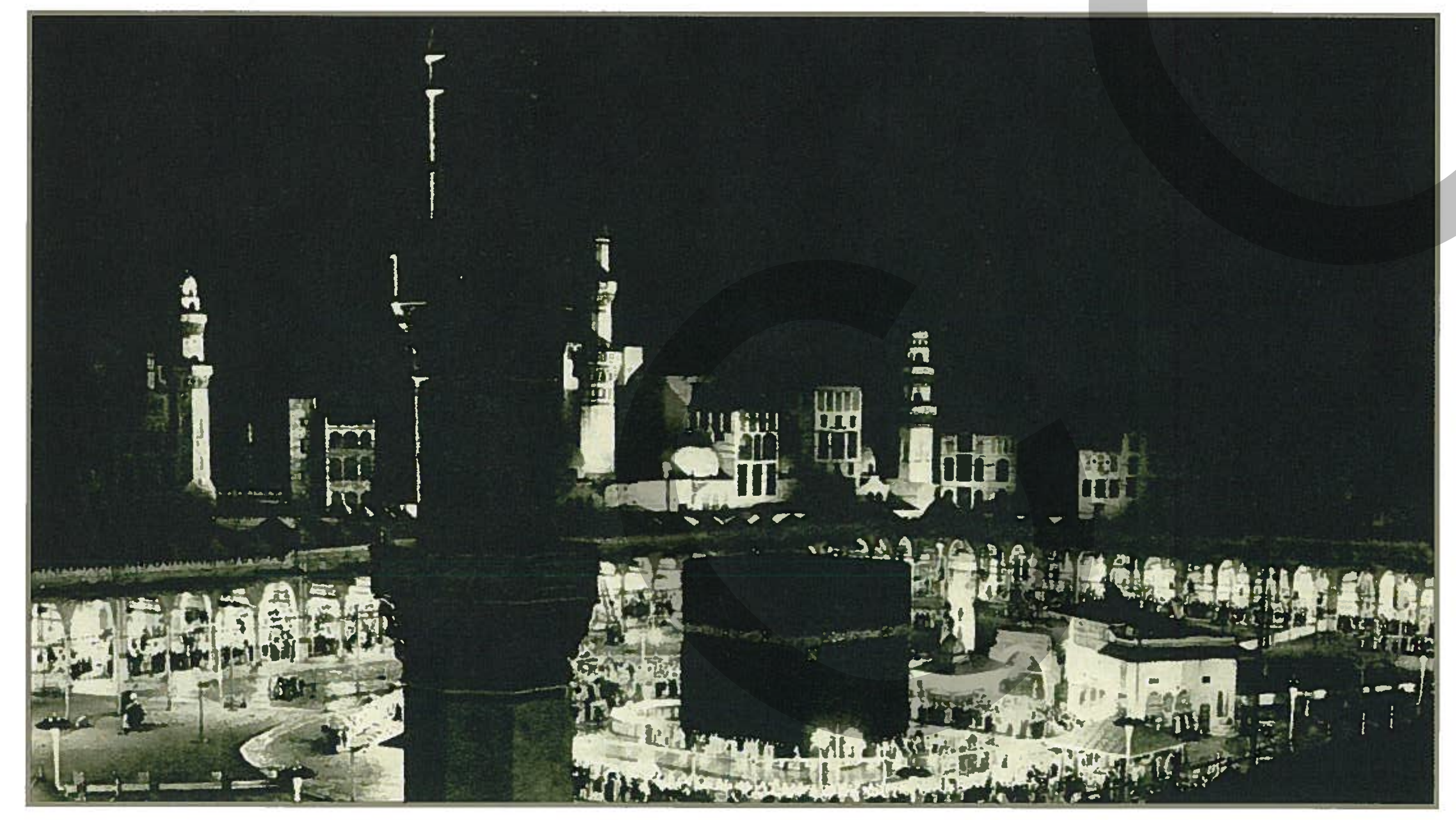
▲[منظر ليلي يعود إلى ما قبل عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م) بقليل عندما كان يضاء المسجد الحرام بواسطة مولدات كهربائية خاصة به. (مجموعة خاصة)].



▲[تبين الصورة العليا إلى اليمين الأمير سعود بن عبدالعزيز ولي العهد آنذاك، يضغط زر انطلاق التيار الكهربائي لأول مرة في يوم الخميس ١٤ صفر ١٣٧٣هـ (٢٢ أكتوبر ١٩٥٣م) من الشركة السعودية للكهربية بمكة المكرمة بالتنعيم التي قامت بتزويد المسجد الحرام بالمئات من اللمبات والثريات والكشافات الكهربائية المختلفة. ويظهر إلى يسار سموه الشيخ عبدالله بلخير وخلفه اللواء طلعت وفاء مدير الأمن العام ثم الشيخ علي الجفالي العضو المنتدب لمجلس إدارة شركة الكهرباء بمكة المكرمة].



▲[الصورة العليا: أروقة المسجد الحرام كما تبدو ليلاً حوالي عام ١٣٧٣هـ (مجلة المصور المصرية، عدد خاص عن المملكة شعبان ١٣٧٣هـ/أبريل ١٩٥٤م)].



◀[و إلى اليسار الصورة السفلى: المسجد الحرام كما يظهر ليلاً وقد أضيئت جنباته بمختلف وسائل الإضاءة، وظهرت المنائر متلألئة بانعكاس أنوار الكشافات الكهربية القوية عليها].

رابعاً – المياه والصحّة وتوسعة الشوارع:

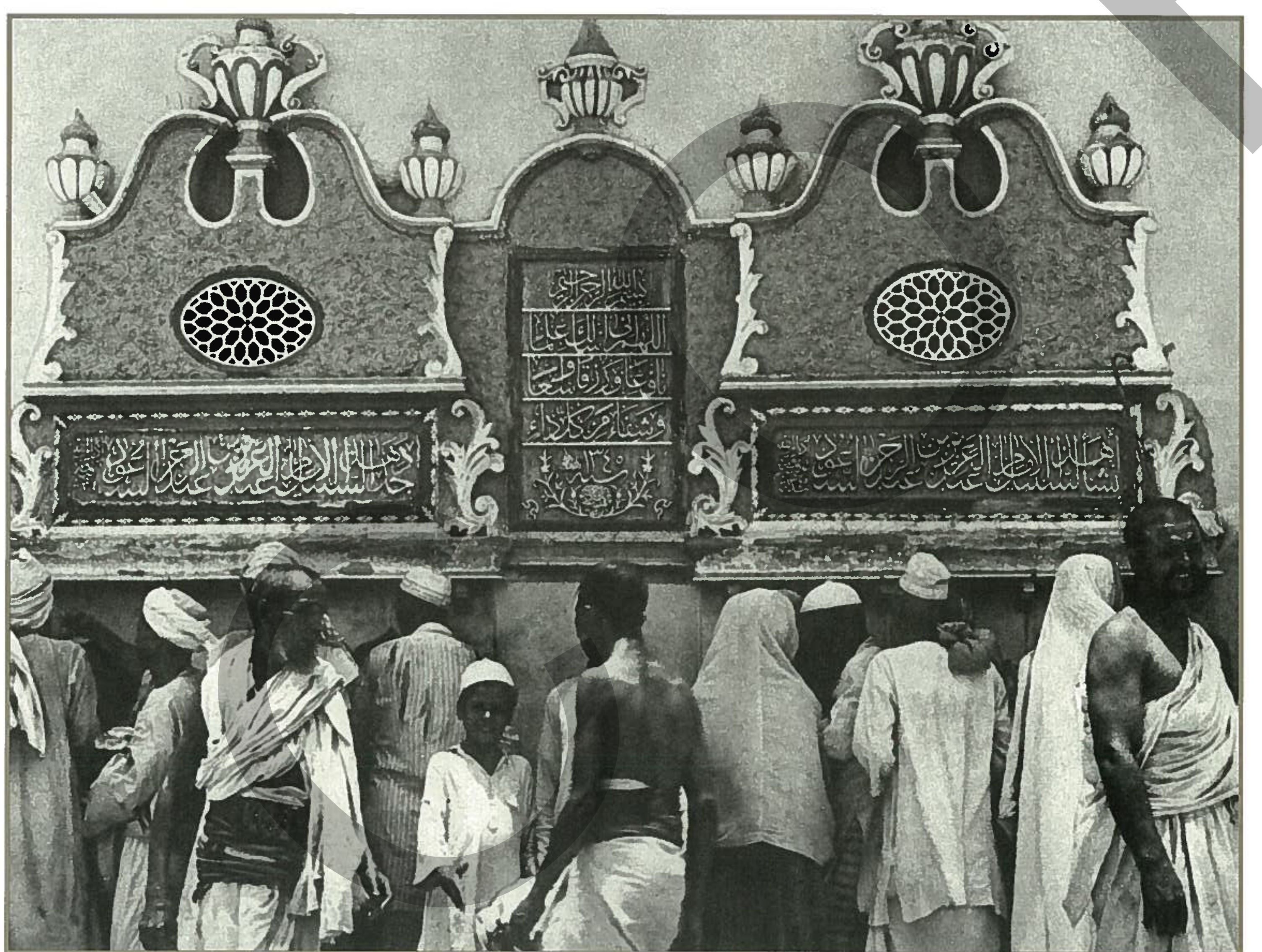
أ- الأسبلة في المسجد الحَرام والمسعَى:

كانت سقاية العباس ﷺ أول سبيل لسقيا الحجاج داخل المسجد الحرام، بين الركن وزمزم، وفي عام ٦٥هـ (٦٨٥م) قام عبدالله بن الزبير بتوسعة المسجد الحرام من الناحية الشمالية الشرقية، وقام بنقل السقاية إلى شرق البناء الذي كان مقاماً على البئر، وجعل قبتها من خشب، ثم عمرت بالحجر زمن الخليفة العباسي المعتمد أحمد بن المتوكل عام ٢٥٩هـ (٨٧٣م). ثم جرت عليها عمارات عديدة آخرها عام ١١٢٦هـ (١٧١٤م) وأصبحت مثمنة الشكل بعد أن كانت مربعة، ولها أربعة شبابيك، ويفتح بابها على الجهة الشمالية من المسجد الحرام. أما القبة المجاورة لها، (وهي التي تفصل بينها وبين المبنى المقام على بئر زمزم) فتسمى قبة الفراشين، فقد نقل باسلامة عن كتاب الأوائل للسيوطي(٨٧) أن الذي عملها هو الخليفة المهدي العباسي حوالي ١٦٠–١٦٥هـ (٧٧٧–٧٨٢م) وقد جددها الناصر العباسي أواخر القرن السادس (أواخر القرن ١٢ الميلادي)، ثم جددت عام ١٠٧٣هـ (١٦٦٣م).

وقد أحدثت حجرة صغيرة مستطيلة خلف قبة العباس مما يلي الرواق الجنوبي الشرقي حوالي عام ١٠٢٠هـ (١٦١١م)، واستخدمت لحفظ زيت الوقود وتوضع فيها أيضاً الشمعدانات. وبمرور الأيام بطل استخدام السقاية واتجه الناس إلى تبريد الماء في الدوارق، وأصبحت القبة تستخدم لحفظ المصاحف والكتب الموقوفة على طلبة العلم، ثم أمر السلطان العثماني عبدالمجيد عام ١٢٥٩هـ (١٨٤٣م)، بوضع مكتبة كاملة للعلماء وطلبة العلم في قبة السقاية وجعل للمكتبة ناظراً ومعاونين، وكانت هذه نواة لما عرف فيما بعد بمكتبة الحرم المكي الشريف، كما أمر بوضع ساعات فلكية في القبة المجاورة المسماة قبة الفراشين ووضع لها موقتاً ومعاوناً، وقد أصبحت تعرف في ذلك الحين باسم قبة الساعة.

وفي عام ١٢٨٨هـ (١٨٧١م)، بدأ التفكير في إزالة القبتين المذكورتين لمضايقتهما المصلين ومنعهما رؤية الكعبة لمن يصلي خلفهما، لكن الدولة العثمانية لم تبت في الأمر حتى تولى عثمان نوري باشا ولاية الحجاز فقام في شهر صفر ١٣٠٠هـ الموافق ديسمبر ١٨٨٢م بإزالة القبتين وجرى نقل المكتبة إلى إحدى المدارس السليمانية الأربع الواقعة بالرواق الشمالي للمسجد الحرام عند باب الدريبة، وأصبحت تعرف بالكتبخانة السليمانية، كما سبق في وصف إبراهيم رفعت لها.

وفي عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) أمر الملك عبدالعزيز بأن يُعمل على حسابه الخاص سبيلان لماء زمزم، وأن يُجدد السبيل العثماني القديم الذي كان مقاماً في الضلع المواجه لباب الصفا من المبنى المقام على بئر زمزم، وقد أوكل العمل للشيخ عبيد الله الدهلوي الذي قام بالإشراف على التنفيذ، و أقام السبيل الجديد إلى جوار السبيل العثماني، و جعل له ثلاثة منافذ، وعمله بشكل بديع. وفي العام التالي ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م)، تم عمل السبيل الثاني على يسار الداخل إلى المبنى المقام على بئر زمزم، أي من الجهة الشرقية، وله سبعة منافذ، وتم طلاء الألواح المكتوبة على السبل بالذهب والألوان الجميلة الشرقية، وصارت سقاية للحجاج والمواطنين لشرب ماء زمزم. ويقول الشيخ حسين باسلامة في



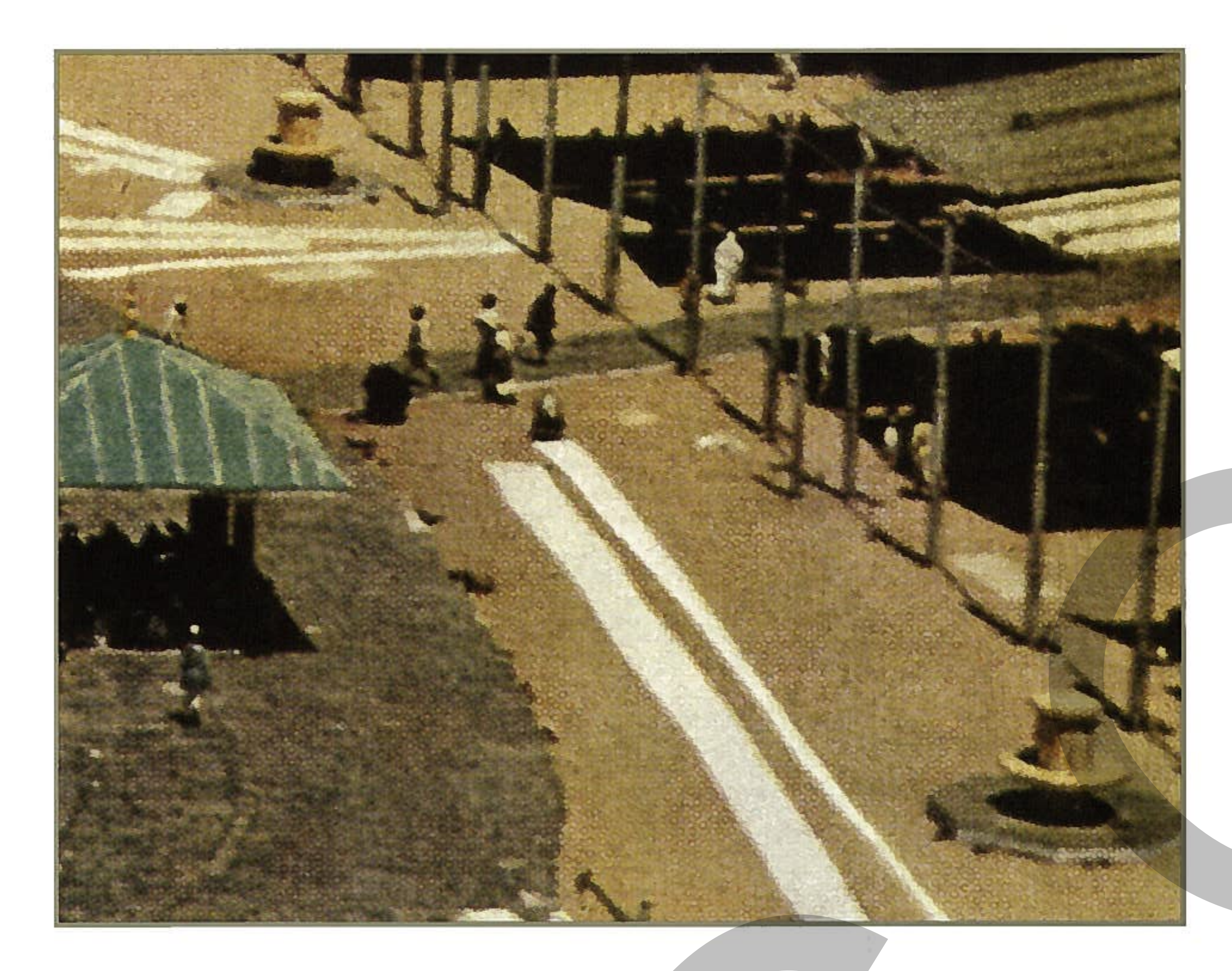
◄ [تبين الصورة السبيل الذي أنشأه الملك عبدالعزيز عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م). في الضلع الجنوبي الشرقي للمبنى المقام على بئر زمزم، وبجواره السبيل العثماني الذي تم تجديده، وكتب على الأول "أنشأ هذا السبيل الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ١٣٤٥هـ". وكتب على الذي يليه "جدد هذا السبيل الإمام عبدالعزيز ابن عبدالرحمن آل سعود". وقد وضعت رخامة مستطيلة بينهما كتب عليها "بسم الله الرحمن الرحيم: اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاء من كل داء". سنة ١٣٤٥هـ].

٨٧- حسين باسلامة. تاريخ عمارة المسجد الحرام. مرجع سابق. ص١٩٤؛ ولم نجد ذلك في كتاب السيوطي – الأوائل.



تاريخه لعمارة المسجد الحرام: إن ما صرف على إنشاء هذه السبل يربو على ٣٠٠ جنيه ذهبي. وفي أوائل السبعينيات من القرن الرابع عشر الهجري (منتصف القرن العشرين الميلادي) أنشئت ثمانية أسبلة لماء زمزم في ساحة المسجد الحرام (الحصاوي)، وكل منها مزود بعدد من الصنابير.

▼[تبين الصورة سبيلين من الأسبلة الثمانية التي أنشئت في أواخر عهد الملك عبدالعزيز في ساحات (حصوات) المسجد الحرام ويظهر إلى اليسار طرف المقام الحنبلي - تصوير المجلة الجغرافية الوطنية الأمريكية].

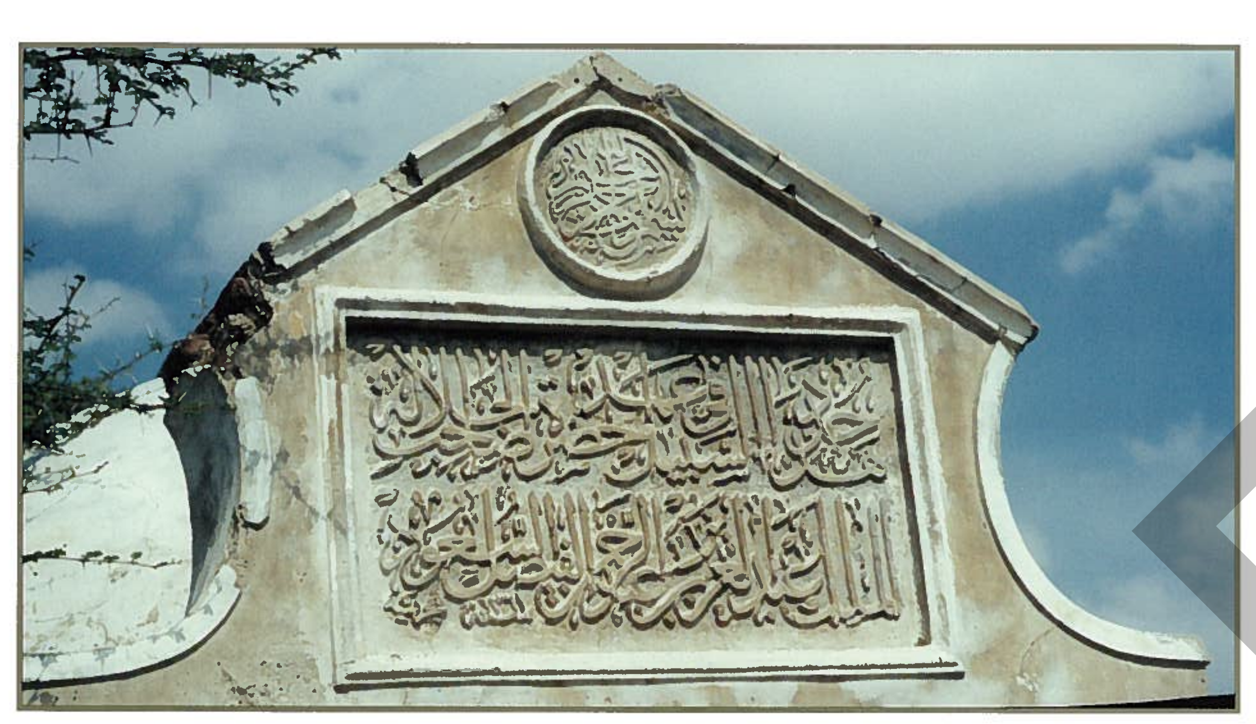


▲[السبيل الذي أنشأه الملك عبدالعزيز على يسار الداخل إلى بئر زمزم عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م). وقد كتب عليه: "هذا السبيل أنشأه الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود"].



ب - اهتمام الملك عَبدالعَزيز بتوفير المياه:

كانت المياه بمكة المكرمة شحيحة في الفترة السابقة لدخول الملك عبدالعزيز نظراً لضعف صيانة مجاري عين زبيدة من وادي نعمان، وتعرضها للخراب إثر السيول، لذلك كان أول أعمال الملك عبدالعزيز في مكة المكرمة أن أصدر أمره في شعبان ١٣٤٣هـ (مارس ١٩٢٥م) بتنظيف مجاري العين، فازداد تدفق المياه في نواحي مكة المكرمة، وفي شهر ذي القعدة من العام نفسه، استخدمت مضخة جديدة لدفع المياه من مجرى عين زبيدة في "دقم الوبر" (المفجر بحي العزيزية) إلى منى لتوفير الماء للحجاج أيام الحج. وكان الملك عبدالعزيز قد أمر حافظ وهبة مستشاره الخاص بمتابعة العمل في تنظيف مجاري عين زبيدة وإصلاح الخرزات، ومراقبة الآبار الأخرى التي تغذي المشاعر بالمياه، ولم يأت حج عام ١٣٤٣هـ (يونيو ١٩٢٥م) إلا وقد أنجز جزء كبير، وأصبحت المياه ميسرة للحجيج.



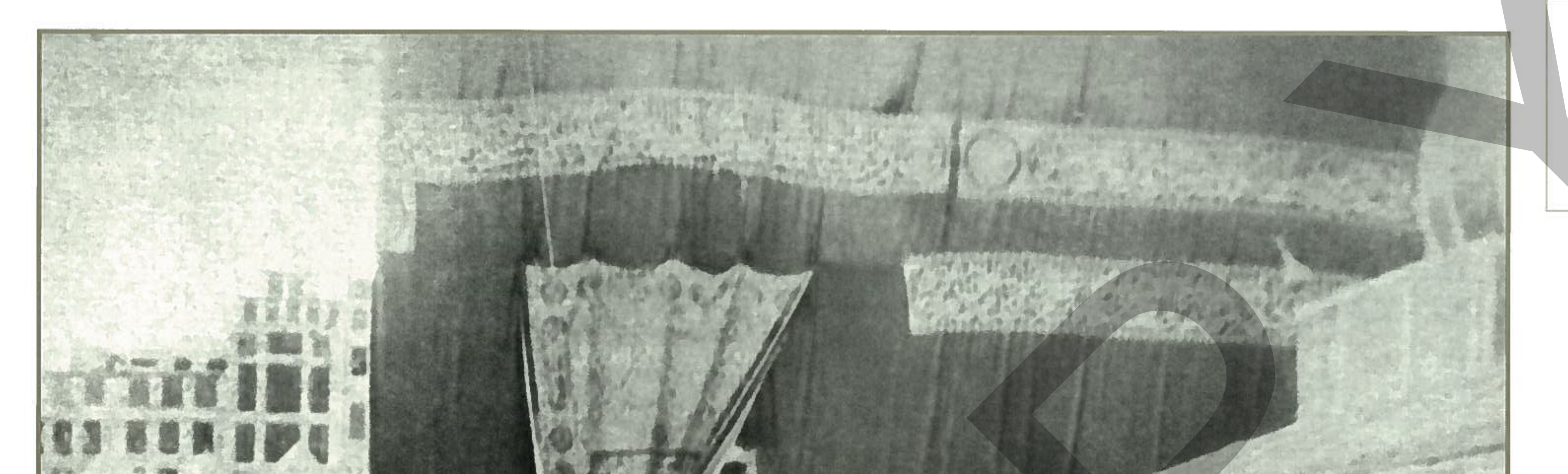


▲[صورة حديثة لأحد السبل التي أمر بتجديدها الملك عبدالعزيز عام ١٣٦١هـ عند مداخل مكة المكرمة بجوار أعلام الشميسي. وقد كتب في اللوحة بعد البسملة " جدد هذا السبيل في عهد حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز عبدالرحمن الفيصل آل سعود سنة ١٣٦١هجرية"].

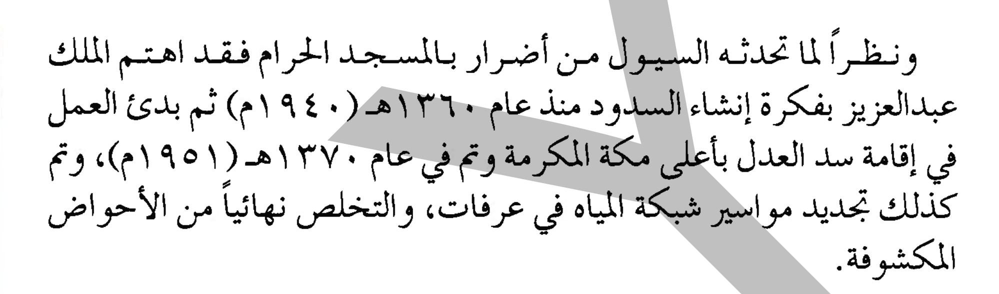
واستمرت خلال العام التالي ١٣٤٤هـ (١٩٢٦/٢٥م) عمليات صيانة مجاري عين زبيدة، وقد طرأت تلفيات جديدة إثر هطول أمطار غزيرة في شهر ربيع الأول، وانقطع الماء عن بعض البازانات في مكة، فأمر الملك عبدالعزيز بتكثيف الجهود لتلافي الأضرار، وقام بنفسه بزيارة منطقة نعمان لمتابعة عمليات الصيانة، وعادت المياه إلى كل أحياء مكة في شهر جمادى الأولى (نوفمبر ١٩٢٥م). وكان الاهتمام متوالياً بتوفير المياه، فقد صادق نائب الملك في الحجاز الأمير فيصل في رمضان ١٣٤٥هـ على مشروع تمديد مواسير لمياه عين زبيدة في عرفات لتوفير مياه الشرب للحجيج، وليتم التخلص من الأحواض المكشوفة هناك. كما تم حفر أول بئر إرتوازية في حديقة دائرة الصحة بمكة المكرمة الواقعة أمام رباط الأحمدية في صفر ١٣٤٦هـ (أغسطس ١٩٢٧م). وفي جمادى الآخرة من العام نفسه، وصلت كنداسة جديدة إلى جدة لتحلية المزيد من مياه البحر لسكان جدة، كما تم تركيب كنداسة في ينبع في شهر ذي القعدة ١٣٤٧هـ (أبريل ١٩٢٩م). وفي رجب ١٣٤٨هـ (ديسمبر ١٩٢٩م) تم إنشاء خزان جديد للمياه بمحلة المسفلة بمكة المكرمة، وقام الملك بزيارة تفقدية للمفجر في دقم الوبر ليطمئن على سير عمليات الصيانة بنفسه، وكما تقول جريدة أم القرى(٨٨): إن الحكومة فكرت في استخدام "طواحين الهواء" لدفع الماء من آبار جدة إلى أحيائها المختلفة. وقد شهد عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) إنشاء مورد جديد للماء بحي الشبيكة لخدمة سكان جبل عمر، وكان الاهتمام يمتد إلى توفير المياه بجدة، حيث بدئ في مشروع ضخم لمد المواسير من عيون وادي فاطمة، وقد أقيم احتفال ضخم بوصول الماء إلى جدة في الخامس من المحرم عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٧/١١/١٨م) رأسه ولي العهد. وبذلك أغلقت الكنداسة نهائياً.

٨٨- صحيفة أم القرى. العدد ٣٥٢. ٢٨ ربيع الثاني ١٣٥٠هـ (الموافق ١١/ ٩/ ١٩٣١م ص٢).





▲[صورة للسيل الذي داهم المسجد الحرام يوم الجمعة ١٣ شوال عام ١٣٦٩هـ (٢٨ يوليو ١٩٥٠م). (تصوير فلبي ونشرها في كتاب "الذكرى الذهبية")].



ونظراً لما تحدثه السيول من أضرار بالمسجد الحرام فقد اهتم الملك عبدالعزيز بفكرة إنشاء السدود منذ عام ١٣٦٠هـ (١٩٤٠م) ثم بدئ العمل في إقامة سد العدل بأعلى مكة المكرمة وتم في عام ١٣٧٠هـ (١٩٥١م)، وتم كذلك تجديد مواسير شبكة المياه في عرفات، والتخلص نهائياً من الأحواض المكشوفة.

جـ - الاهتمام بالصّحّة في البلد الحَرَام:

كان الاهتمام بالصحة – وخاصة أيام الحج – أحد الاهتمامات الرئيسة للدولة، فقد ذكر الزركلي[٨٩] أن الملك عبدالعزيز أمر سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٥م) بإنشاء "مصلحة الصحة العامة" بمكة المكرمة على الطراز الحديث. ثم أوردت صحيفة أم القرى[٩٠] خبر صدور أمر ملكي بالتصديق على ميزانية الصحة العامة بما فيها إنشاء عدد من المستشفيات. وصدر في العام التالي نظام خاص بها، وتم تأليف المجلس الصحي العام. وأعيد تشغيل مستوصف القبان عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م). وفي ٢/ ٣/ ١٣٥٤هـ (٤/٦/١٩٣٥م) تأسست جمعية الإسعاف الخيرية، وفي المحرم ١٣٥٥هـ وضع ولي العهد حجر الأساس لإنشاء جناح سموه بمستشفى أجياد، وفي أول رمضان عام ١٣٥٦هـ (نوفمبر ١٩٣٧م) أعيد افتتاح مستشفى القبان بعد تطويره، وتم في ١٣٦٥/٢/٢٩هـ (١٩٢٦/٢/١١م) وضع حجر الأساس لإنشاء مستشفى الملك عبدالعزيز بالزاهر تخليداً لذكرى عودته من زيارة مصر، وفي عامي ١٣٦٥ و١٣٦٦هـ (١٩٤٧/٤٦م) افتتح مستوصفان في كل من جرول والمعابدة، وتم في عام ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م) تطوير مستشفى أجياد حتى أصبح يتسع لـ (١٣٥) سريراً، كما تم تطوير مستشفى منى حتى أصبح يتسع لإيواء (٢٠٠) مريض في العام نفسه.

وفي ١٣٧٠/٨/٢٦هـ (١٩٥١/٦/٢م) صدر مرسوم بتحويل إدارة الصحة العامة إلى وزارة، ويتولاها الأمير عبدالله الفيصل. وقد استكملت بعض الإنشاءات في مستشفى أجياد هذا العام أيضاً. وفي يوم الاثنين الثاني من المحرم عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢/٩/٢٢م) افتتح ولي العهد مستشفى الولادة والجراحة النسائية بجرول، وكان الوجيهان صدقة وسراج كعكي قد تبرعا بإنشاء هذا المستشفى وتقديمه هدية لوزارة الصحة. كما قام ولي العهد في ١٦ المحرم (٦ أكتوبر) هذا العام، بافتتاح مستشفى الملك عبدالعزيز (مستشفى الزاهر) بعد أن تم بناؤه وتجهيزه.



◀ [موكب ولي العهد عند اقترابه من بوابة مستشفى أجياد لافتتاح الجناح الجديد الذي تمت إضافته إلى المستشفى عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م). وهي من تصوير شفيق محمود عرب قرلي (مجموعة أنيس شودري)].

٨٩- خير الدين الزركلي: شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز. ص٤٠٢.

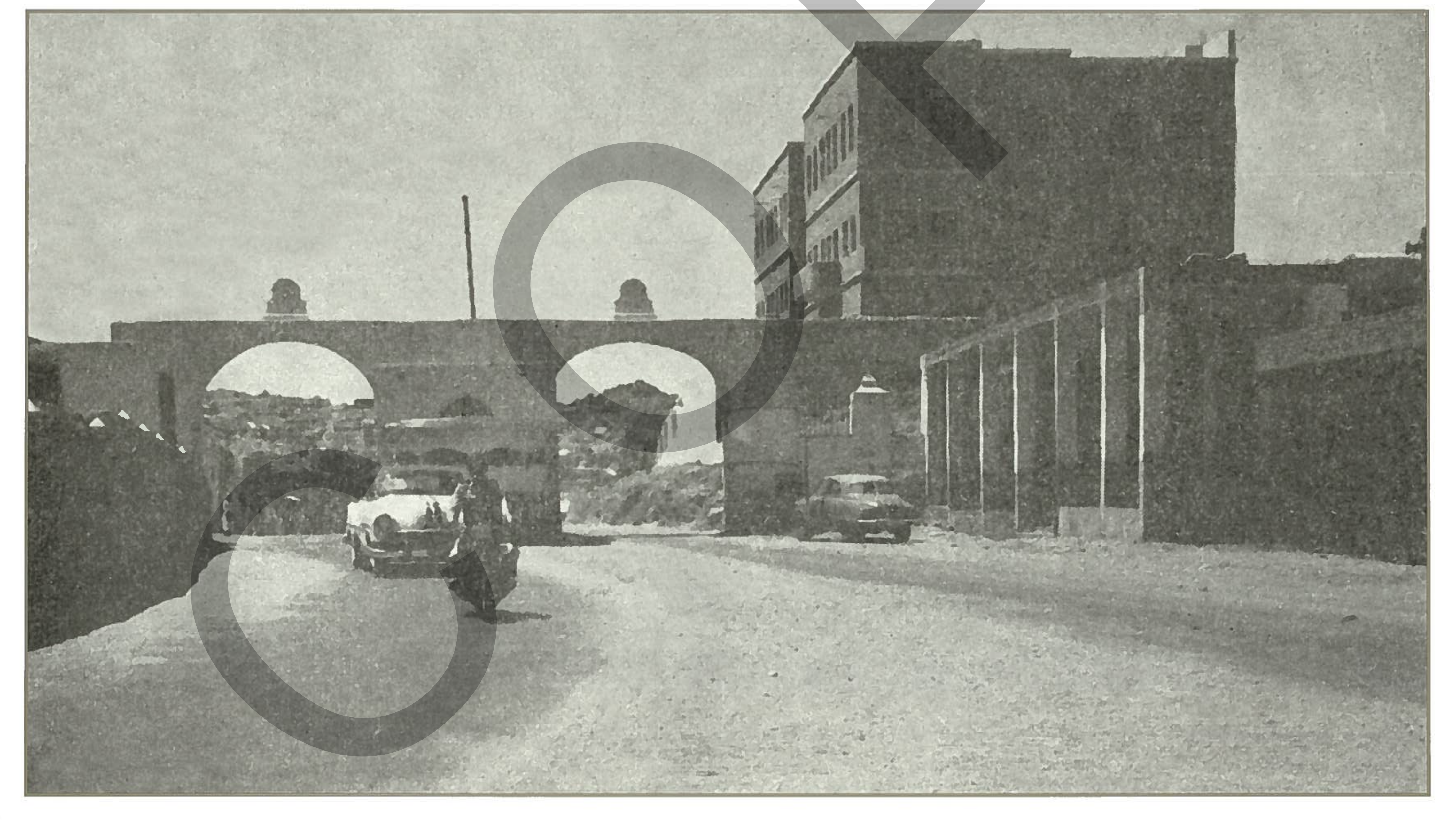
٩٠- صحيفة أم القرى. العدد ٦٣. المؤرخ ٢٧ / ٨/ ١٣٤٤هـ (الموافق ١٢/ ٣/ ١٩٢٦م). ص٣.



▲[مستشفى الزاهر (الملك عبدالعزيز) بحي الزاهر بمكة المكرمة بعد إتمامه عام ١٣٧٠هـ (مجلة آخر ساعة المصرية العدد ٩٧٧ تاريخ١٥/ ٧/ ١٩٥٣م. صفحة ٤٣)].

د - توسعة الشوارع:

كان من أوائل مشروعات توسعة شوارع مكة في عهد الملك عبدالعزيز إزالة بوابة مكة المكرمة المقامة في جرول (البيبان)، وذلك عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٧م)، وجرت في الأعوام التالية توسعة طريق (ريع) الحجون وريع الكحل وتمهيدها، وتمهيد ريع العبادي. وفي عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م) نشر أحد الصحفيين المصريين الذي أدى الحج ذلك العام أن الحكومة السعودية تفكر في إنشاء ممر علوي بالمسعى لمرور السيارات، حتى لا تقاطع الساعين الذين كانوا يعانون الأمرين، خاصة عند تقاطع المسعى مع الشارع العام المؤدي إلى القشاشية. وكانت الحكومة مهتمة بدراسة عدد من البدائل، فقد طرحت فكرة إنشاء شارع خلف الصفا لتحويل الشارع العام إليه حتى لا يتقاطع مع السعي، ولكن صعوبة المشروع، وصلابة جبل الصفا جعلت المسؤولين يفكرون في أسلوب آخر، فسارعت الحكومة في عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م) بإزالة المبنى الضخم المسمى بيت باناجة والأحوشة التي خلفه، ليتسع الشارع في هذه النقطة الحرجة. وتم بعد ذلك إزالة مخفر الصفا فاتسع الشارع العام من جهة، واتسع المسعى من جهة أخرى. وكانت هناك فكرة في عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م) لفتح شارع من المروة إلى المدعى حتى لا يتقاطع المارة مع الساعين، وتم في هذه الفترة فتح شارع المنصور بحي الطندباوي عام ١٣٧١هـ (١٩٥٢م)، ثم فتح في عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) طريق كدي المؤدي من شارع المنصور إلى منى. أما عمليات سفلتة الشوارع بمكة المكرمة فقد بدأت منذ شهر شعبان ١٣٦٦هـ (يونيو ١٩٤٧م)، وكانت البداية رصف الشارع العام من وسط مكة المكرمة إلى الزاهر.



◄ ["البيبان" هي هذان العقدان المقامان عند مدخل مكة بجرول. وقد تمت إزالتهما عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) ويظهر إلى اليمين، من الداخل بعض الدكاكين، ومن الخارج العمارة التي كانت تشغلها إدارة التعليم بمكة المكرمة بعد ذلك التاريخ. وإلى يسار الصورة، خلف البيبان الزقاق المؤدي إلى مطابع قريش للشيخ أحمد السباعي. (نشرها الكردي في التاريخ القويم مج ٢، صفحة ١٩)].



▲[ربع الحجون بعد تمهيده حوالي عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م). ويظهر على جانبيه سور مقبرة المعلاة، في ذلك الوقت. لاحظ في صدر الصورة، يظهر الشارع العام المؤدي إلى المعابدة، وتبدو في وسط الصورة إلى اليسار القبتان القائمتان على بازان المعلاة (مجلة المصور المصرية عدد خاص عن المملكة شعبان ١٣٧٣هـ /أبريل ١٩٥٤م، صفحة ٣٧)].



▲[صورة للشارع العام قرب تقاطعه مع المسعى. و يظهر من اليمين جدار منارة باب علي وعليه العلم الأخضر. ثم باب بازان. ثم أحد البيوت الملاصقة لرواق المسجد الحرام. ثم الشارع العام المتجه جنوباً. ثم البيوت المواجهة لباب الصفا. ثم مخفر الصفا. الذي أزيل عام ١٣٧٠هـ (١٩٥٠م). ثم طرف المسعى المتجه إلى الصفا ومن الواضح أن الصورة التقطت في منتصف القرن الرابع عشر الهجري / حوالي ١٩٣٠م. (مجموعة خاصة)].





▲[صورة من منتصف القرن الرابع عشر الهجري (الثلث الأول من القرن العشرين الميلادي). توضح ضيق الشارع العام الذي يقطع المسعى عند مدخل القشاشية. الجهة الشمالية. حيث يقع بيت باناجة من الجهة اليسرى. والعمائر الخمس التي كانت فيها مديرية المعارف وغيرها من المعاهد التعليمية من الجهة اليمنى. فكانت أول توسعة في هذا العهد إزالة بيت باناجة. وما خلفه عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م). (تصوير مجلة المستمع العربي العدد ١٨- عام ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م. صفحة٢٤)].

◀[صورة ملونة نشرتها مجلة الجمعية الجغرافية الوطنية الأمريكية. التقطت عام ١٣٧١هـ (١٩٥٢م) تبين نقطة التقاء الشارع العام بشارع المسعى من الشمال إلى الجنوب. بعد التوسعة وإزالة بيت باناجة وملاحقه من الجهة الشمالية. وإزالة مخفر الصفا من الجهة الجنوبية. ويظهر في يمين الصورة طرف مظلة المسعى من جهة الصفا. ثم طرف المظلة من جهة باب علي إلى اليسار. والمنارة الظاهرة هي منارة باب علي. لاحظ وسط الصورة. فقد وضع سياج خشبي يفصل الشارع العام الذي أصبح مستقيماً. عن حوش رباط العباس. يلي ذلك من أعلى الصورة عمارة البريد (بيت ألبو)].

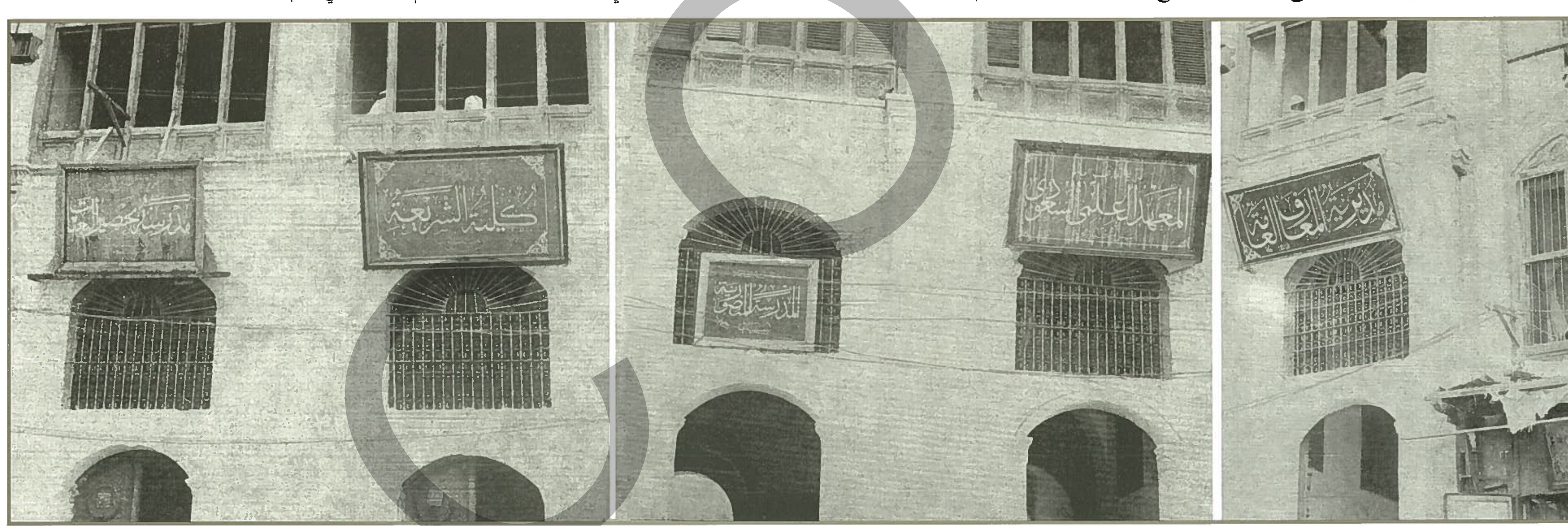
خامساً - الدوائر الحكوميّة حول الحرم:

اهتم الملك عبدالعزيز بالتعليم النظامي في وقت مبكر، فأنشأ مديرية المعارف العمومية عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م)، برئاسة الشيخ صالح بكر شطا، ولم تكن هناك سوى أربع مدارس ابتدائية في مكة المكرمة. ثم تولى مديرية المعارف المشايخ كامل قصاب عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م)، ماجد كردي ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م)، حافظ وهبة ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م)، محمد أمين فودة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م)، إبراهيم الشوري١٣٥٢هـ (١٩٣٣م). وأصبح عدد المدارس الابتدائية ٢٣ مدرسة في عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م)، وتولى إدارة المعارف في هذا العام الشيخ محمد طاهر الدباغ. وكان مقر مديرية التعليم في إحدى العمائر الخمس التي أنشأها شريف مكة المكرمة علي بن عبدالله بجوار المسعى عام ١٣٣٧هـ (١٩١٩م)، على يمين الصاعد إلى القشاشية.

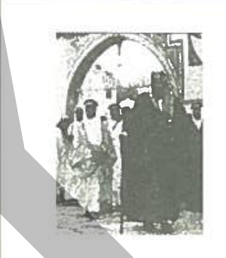
وصدر في عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) نظام جديد لمديرية المعارف أعطاها دفعة جديدة، وجعلها مشرفة على التعليم في جميع أنحاء المملكة وليس على مدارس الحجاز فقط، وبدأت المديرية في فتح "معتمديات" لها في المنطقة الشرقية عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م)، ونجد عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م)، وأبها عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م) والقصيم ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م)، وجازان ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م). واستمر الشيخ محمد طاهر الدباغ مديراً للمعارف حتى عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) حيث تولاها الشيخ محمد بن مانع الذي استمر في منصبه إلى أن أنشئت للمعارف وزارة مستقلة عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م). وكان أول وزير لها الأمير آنذاك فهد بن عبدالعزيز.

وفي آخر عهد الملك عبدالعزيز كان عدد المدارس الابتدائية قد وصل إلى ٣٠٦ مدارس، إلى جانب ١٧ مدرسة للمراحل المتقدمة والليلية. أما الدراسات التالية للمرحلة الابتدائية فقد بدأت عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) بإنشاء المعهد العلمي السعودي، وهو عبارة عن مدرسة ثانوية لتخريج مدرسين للمراحل الابتدائية. ثم أنشئت مدرسة تحضير البعثات في ١٣٥٥/٥/١٩هـ (١٩٣٦/٨/٧م) لإعداد الطلاب للدراسة بالكليات في الخارج، وكانت مدة الدراسة فيها خمس سنوات، أي أنها تضم ما يعرف اليوم بالمرحلتين المتوسطة والثانوية، وقد تخرجت أول دفعة منها عام ١٣٦٠هـ (١٩٤١م). ثم أدخلت تعديلات لتطوير مناهج هذه المدرسة، لتصبح الدراسة بها ست سنوات، نصفها لشهادة الكفاءة ونصفها لشهادة الثانوية. وفي عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٤م) أنشئت دار التوحيد بالطائف، ومستواها يلي المرحلة الابتدائية، ويغلب على منهجها العلوم الدينية واللغة العربية.

وقد بلغ عدد المبتعثين عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م) أكثر من ١٦٣ طالباً منهم ٢٨ طالباً في الأزهر، و٩٦ في جامعة فؤاد الأول، و٢٣ طالباً في جامعة الإسكندرية، و١٦ ابتعثوا إلى الولايات المتحدة في مختلف التخصصات. ثم أنشئت في عام ١٣٦٩هـ



▲ [ثلاث صور متسلسلة التقطت حوالي عام ١٣٧١هـ (١٩٥٢م) للعمائر الخمس بأول القشاشية، وكانت تضم إلى يمين الصاعد من المسعى: أولاً مديرية المعارف، ثم المعهد العلمي السعودي، ثم المدرسة المنصورية، ثم كلية الشريعة، ثم مدرسة تحضير البعثات. مع ملاحظة أن مدرسة الفلاح كانت تشغل العمارتين الأخيرتين منذ عام ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) وحتى انتقالها إلى مبناها بالشبيكة عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م). (مجلة صوت الشرق، العدد ١٤، عام ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م، صفحة ١٧)].



(١٩٥٠م) كلية الشريعة بمكة المكرمة، وهي أول لبنة في صرح التعليم العالي المنتظم، تلتها كلية المعلمين عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م).

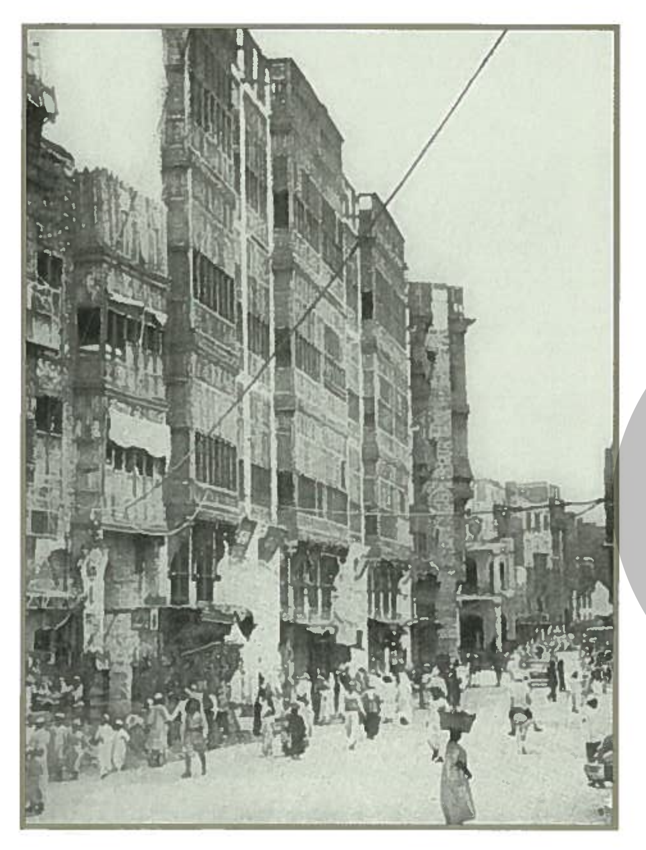
وبالنسبة للمكتبات، فقد لاحظنا من وصف إبراهيم رفعت – في الربع الأول من القرن الرابع عشر – وجود مكتبتين: الكتبخانة السليمانية (وتسمى أيضا المجيدية) عند باب دريبة، والمكتبة الشروانية عند باب أم هاني، والذي حدث بعد ذلك هو أنه جرى في عام ١٣٣٦هـ (١٩١٨م)، ضم مكتبة أوقفها الشيخ عبد الحق الهندي إلى الكتبخانة السليمانية، وبعد دخول الملك عبد العزيز مكة اهتم بالمكتبات وأصدر أمراً بتعيين محمد سياد داغستاني قيماً للكتبخانة السليمانية. وفي عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) تم نقل المكتبة الشروانية من باب أم هاني لتنضم إلى مكتبة الحرم. وفي عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م)، صدر أمر سام بالموافقة على طلبات ولوازم مكتبة الحرم المكي، وبموجب هذا الأمر أصبح اسم المكتبة رسمياً "مكتبة الحرم المكي الشريف"، وقبل نهاية هذا العام (١٣٥٧هـ) أصدرت المكتبة بياناً نشرته جريدة أم القرى تنوه بعملها فهرساً للمكتبة. وفي عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) ضمت إليها مكتبة الشيخ عبد الستار الدهلوي.

ومن جهة ثانية صدرت موافقة الملك عبدالعزيز في شهر جمادى الأولى عام ١٣٧٠هـ (فبراير ١٩٥٠م) للشيخ عباس يوسف قطان أمين العاصمة الأسبق ببناء مكتبة ضخمة يؤمها طلاب العلم ورواده في المكان الذي ولد فيه الرسول ﷺ بشعب علي (شعب أبي طالب) بمكة المكرمة، وبدأ التنفيذ فوراً، لكن الشيخ القطان توفي في ١٦ رجب (٢٣ أبريل) من العام نفسه فأتم البناء ابنه الشيخ أمين، وكانت نواتها الأولى مكتبة الشيخ ماجد كردي الضخمة التي نقلت إليها[٩١].

٩١- ولد الشيخ ماجد كردي بمكة المكرمة عام ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م). وتلقى العلم على أيدي علماء المسجد الحرام وحفظ القرآن الكريم. نشأ محباً للعلم. وأنشأ أول مطبعة أهلية بمكة المكرمة عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) بمحلة الفلق وأسماها مطبعة الترقي الماجدية (المطبعة الماجدية فيما بعد). وقد استمرت في نشر الكتب بعد وفاته عام١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) حوالي عشرين عاماً. وللشيخ ماجد أغنى مكتبة خاصة بمكة المكرمة. وبلغ عدد الكتب المطبوعة التي نقلت منها إلى مكتبة مكة أكثر من ٤٧٠٠ كتاب مطبوع وحوالي ٨٠٠ مخطوط. (انظر عباس طاشكندي: الطباعة في المملكة؛ وعبدالوهاب أبو سليمان: مكتبة مكة المكرمة؛ وخير الدين الزركلي: الأعلام ١٦ /٧). و محمد باجودة: نثر القلم في تاريخ مكتبة الحرم.



▲[جانب من جوانب الاهتمام بالأماكن التاريخية الإسلامية. حيث أمر الملك عبدالعزيز ببناء مكتبة عامة مكان الدار التي ولد فيها الرسول ﷺ وأطلق عليها اسم مكتبة مكة المكرمة وهي الآن تطل على الساحة الشرقية للمسجد الحرام].



◀[تبين الصورة كامل العمائر الخمس التي تضم مديرية المعارف والمعهد العلمي والمدرسة المنصورية وكلية الشريعة ومدرسة تحضير البعثات (انظر الصورة السابقة التي توضح لوحات هذه المؤسسات التعليمية). ويظهر في صدر الصورة مخفر الصفا. كما تبدو في أقصى اليسار بعض المنازل المجاورة باتجاه القشاشية والمنازل أقل ارتفاعاً من المدارس. وتتميز مباني المدارس برواشينها الضخمة التي تبدأ من الدور الثاني. و قد التقطت الصورة حوالي عام ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م بعد هدم بيت باناجة. (مجموعة خاصة)].



من ناحية أخرى كانت هناك حول الحرم الشريف مجموعة من المباني الحكومية المهمة مثل مبنى الحكومة المسمى "الحميدية"، وكان قد أنشأه الوالي العثماني عثمان نوري باشا عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م) وهو مكون من دورين. وفي عهد الملك عبدالعزيز كان هذا المبنى يضم مجلس النائب العام الأمير فيصل وإدارة الأمن العام التي أنشئت عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م)، والمحكمة المستعجلة وغيرها من الإدارات. وإضافة إلى ذلك فقد أمر الملك عبدالعزيز بتأمين ساعة ضخمة في عام ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م) لتقام فوق المبنى المذكور حتى يراها الناس من كل جهة، فأحضرها وزير المالية الشيخ عبدالله السليمان، وعهد إلى أمين العاصمة عباس قطان بإنشاء قاعدة لها فوق المبنى، وقام بالتنفيذ عضو المجلس البلدي محمد سعيد بن عبدالرحمن باسلامة، وبنى قاعدة ارتفاعها ١٥ متراً عن سطح المبنى، أي أن ارتفاعها عن أرض الشوارع المحيطة، حوالي ٢٥ متراً. وللساعة وجهان، أحدهما مطل على الحرم الشريف والمسعى، والآخر مطل على أجياد، وتسمع دقاتها من مسافات بعيدة، وتضاء ليلاً بالكهرباء. و ظلت الساعة تعمل حتى هدم مبنى الحميدية عام ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م) و هي الآن معروضة في متحف الحرمين بأم الجود، الملاصق لمصنع الكسوة من الناحية الغربية بمكة المكرمة.

▲[المدارس السليمانية. وقد رمزنا لقبابها بالأرقام من ١ إلى ٤. تسبقها إلى اليمين منارة باب السلام (التي لم تظهر في الصورة). وتتوسط بين القبتين الثالثة والرابعة منارة السليمانية بجوار باب المحكمة. وهي تضم في المدرسة الأولى مكتبة الحرم المكي. فيما بين عام ١٣٠٠هـ وعام ١٣٨٢هـ (١٨٨٣ - ١٩٦٢م) في الثانية رئاسة القضاء وفي الثالثة والرابعة. مقر المحكمة الشرعية الكبرى. و تظهر منارة باب الزيادة بعد القبة الرابعة].



ومن المباني الحكومية المهمة آنذاك حول المسجد الحرام: مخفر الصفا الذي أنشأه الوالي العثماني عثمان نوري باشا عام ١٣٠١هـ (١٨٨٤م)، أمام باب "بازان" على ناصية تقابل الشارع العام وشارع المسعى. واستمر استخدامه طوال هذه الفترة إلى أن تقرر إزالته لتوسعة الشارع العام عام ١٣٧٠هـ (١٩٥١م) ومبنى المحكمة الشرعية الكبرى، ومقرها في المدرستين الثالثة والرابعة من المدارس السليمانية المطلة على واجهتين: أولاهما الرواق الشمالي للمسجد الحرام، والأخرى على زيادة باب الزيادة.

أما كتابة العدل فقد تولاها أولاً الشيخ عرابي سجيني في شهر ربيع الأول ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م)، وكان مقرها في المدرسة الملاصقة للمسجد الحرام، على يمين الخارج من باب أجياد، وقد ظلت هناك طوال هذه الفترة.

ومن المباني القريبة جداً من الحرم الشريف دار التلغراف والبريد على يسار الداخل إلى باب الوداع، وقد أنشأها الوالي العثماني عثمان نوري باشا عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م) ثم انتقلت إلى مبنى إدارة البريد العامة في القشاشية عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م)، على يسار الصاعد إلى الغزة من الشارع العام على بعد حوالي مئة متر من المسعى، وهذا المبنى هو أحد العمائر الضخمة التي أمر بإنشائها شريف مكة عون الرفيق لجليسه "علي بو". ومما يذكر أن هذه العمائر قد أنشئت على الطرف القريب من المسجد الحرام في الساحة التي أزيلت منازلها بالقشاشية، في عهد الشريف عون على أمل إقامة دار للضيافة بدلاً من المبنى الذي أقيم في جرول، وأصبح معروفاً باسم القشلة.

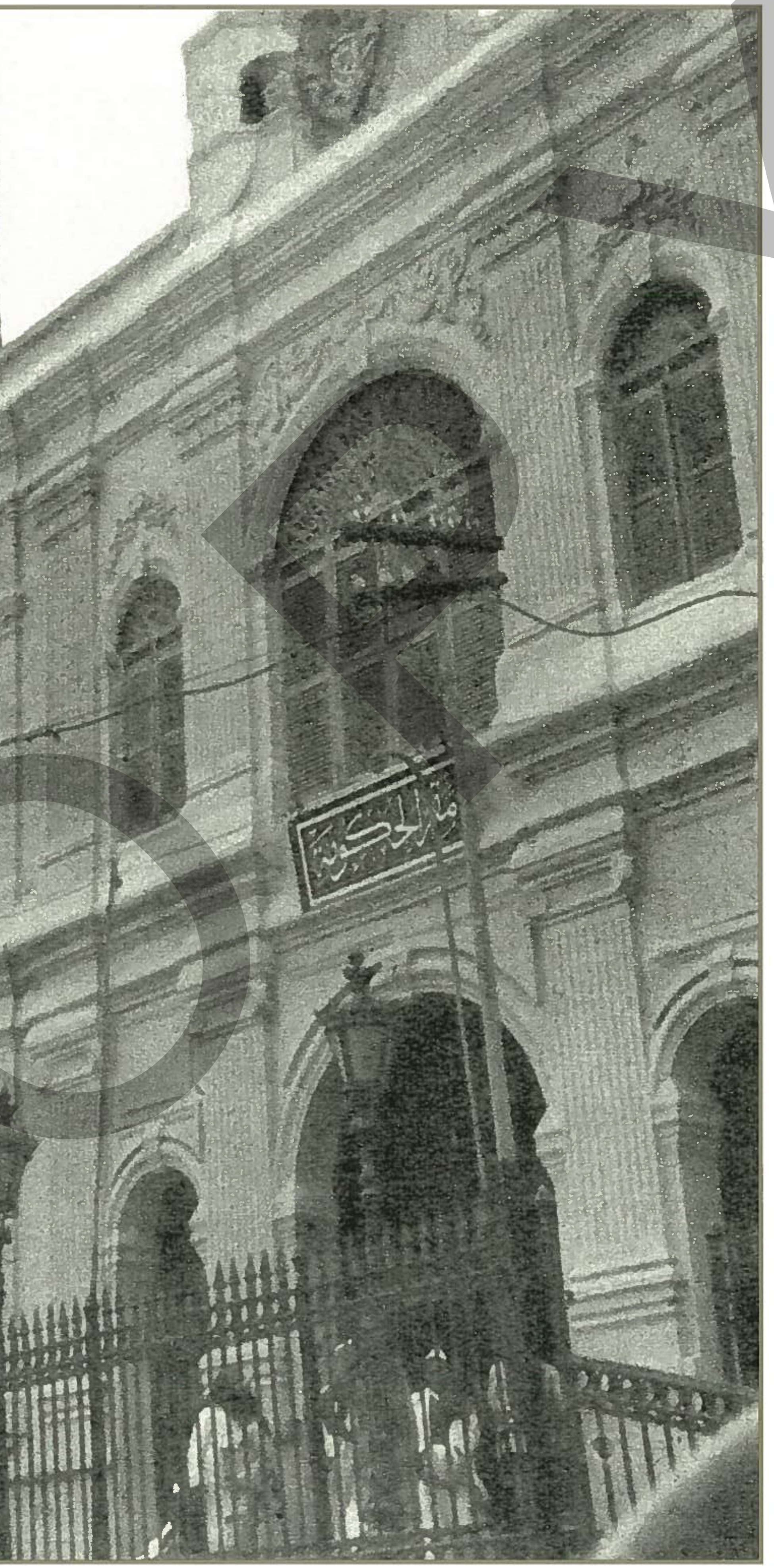
ومن المباني المهمة الأخرى مبنى أمانة العاصمة في وسط المسعى أمام باب السلام الكبير على يمين الصاعد إلى المروة، ومبنى إدارة هيئة عين زبيدة (ويطلق عليه اسم الكمسيون) في شارع المسعى أيضاً، وهو مبنى مقام على مورد عين زبيدة المسمى بازان المسعى، ويطل المبنى على المسعى من جهة وعلى شارع المدعى من جهة أخرى.

▲[تبين الصورة مقر الحكومة "الحميدية". يرفرف عليه العلم السعودي. وهو المبنى الذي أنشأه الوالي عثمان نوري ١٣٠١هـ (١٨٨٤م). وأصبح في العهد السعودي مقراً للحكومة. وهو مكون من دورين وبدروم تحت الأرض. وواجهته الرئيسة تطل على الشارع العام والمسجد الحرام. والخلفية على أجياد. وبأعلاه الساعة. ذات الواجهتين التي أمر بوضعها الملك عبدالعزيز على سطح المبنى. ويلاصقه من الناحية الشرقية مبنى التكية المصرية الذي أنشئ ١٢٨٣هـ (١٨٦٣م). وتبين الصورة المصغرة وجه الساعة الخلفي المطل على أجياد].

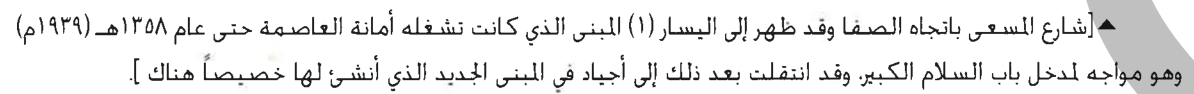


▲[صورة نشرت في كتيب أصدره مكتب الدعاية للحج بمكة المكرمة عام ١٣٦١هـ (١٩٤٢م). تظهر سمو الأمير فيصل بن عبدالعزيز النائب العام. وهو يصعد درجات مبنى الحكومة. والشعب يملأ الشارع العام لتحيته. وقد ظهر في يمين الصورة الجدار الخارجي للمسجد الحرام عند باب أم هاني. وفي صدر الصورة تظهر المساكن والدكاكين التي تطل واجهاتها على الشارع العام. جهة باب الوداع. ويفصل هذه المساكن عن مبنى الحكومة شارع الحميدية المؤدي إلى المطبعة وزقاق البخارية. وإلى أقصى اليسار يظهر طرف التكية المصرية. (ويلحظ من الختم الذي على الصورة أنها نشرت مقلوبة. وقد صححنا وضعها هنا) . و هو يشير إلى كلمة (طبع في مصر)].









▲[شارع المسعى باتجاه الصفا وقد ظهر إلى اليسار (١) المبنى الذي كانت تشغله أمانة العاصمة حتى عام ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م) وهو مواجه لمدخل باب السلام الكبير. وقد انتقلت بعد ذلك إلى أجياد في المبنى الجديد الذي أنشئ لها خصيصاً هناك].

◀ [منظر مقرب لمقر الحكومة يبين واجهتها الرئيسة المطلة على الشارع العام والمسجد الحرام. وتظهر بوضوح النقوش التي تحلي واجهة المبنى. ويلحظ أن أرضية المبنى ترتفع عن مستوى الشارع بأكثر من متر. لذا أقيمت أمامه درجة "سلاملك" تفتح إلى اليمين وإلى الشمال على طول المبنى. ويحيطها سياج حديدي مزخرف. (مجلة المصور عدد خاص عن الجزيرة العربية شوال ١٣٧٥هـ (مايو ١٩٥٦م). صفحة ١١٣)].



سادساً - المواصلاتُ وطرقُ الحَج:

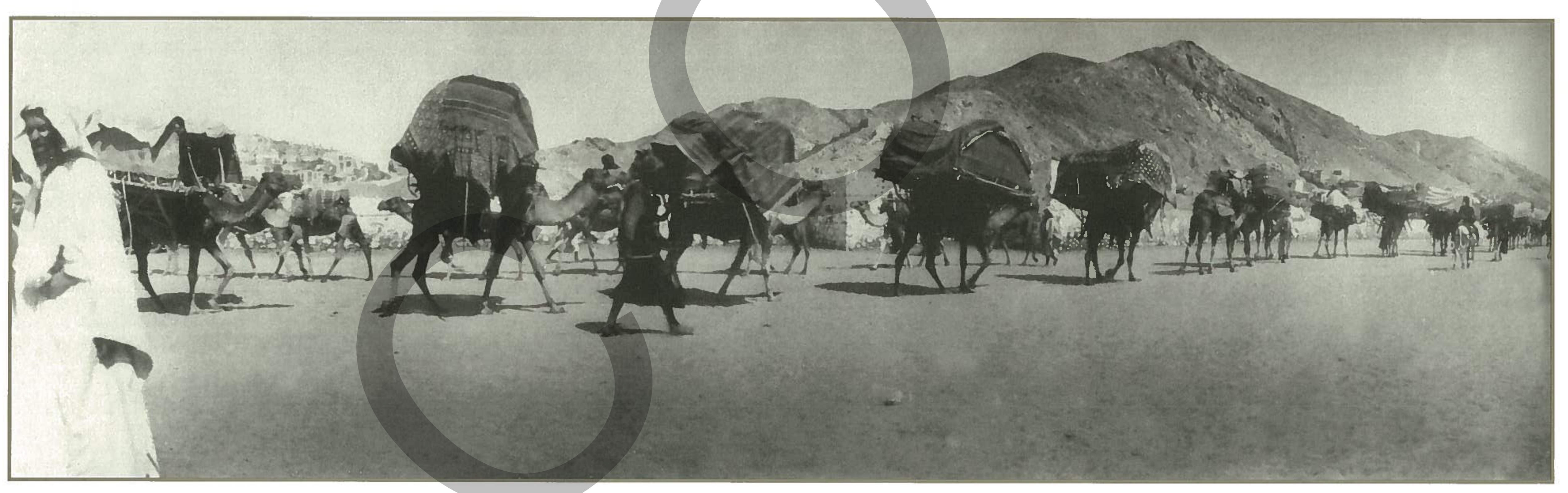
اهتم الملك عبدالعزيز في وقت مبكر بأمور المواصلات وتعبيد طرق الحج وإقامة الموانئ البحرية والجوية. وقد تم رصف الطريق بين مكة وجدة بطول ٧٣ كيلومتراً في عام ١٣٦٠هـ الموافق ١٩٤١م، وكذلك تم فتح أول طريق مسفلت بين مكة وعرفات بطول ٢٠ كيلومترا، وتمت إعادة سفلتته عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م)، وقد تمت في العام التالي سفلتة الطريق بين مكة ومنى، وتعبيد بعض الطرق والشوارع المهمة في المشاعر. وفي أواخر هذه الفترة تم إنشاء خط مسفلت جديد بين مكة وعرفات، وتم فتح طريق "مجر الكبش" خلف العقبة بمنى توسعة للطريق. وتم كذلك إنشاء مظلات للحجاج في عرفات ومزدلفة ومنى، وفي المجزرة وفي مجر الكبش.

أما بالنسبة للميناء البحري بجدة الذي كان يستقبل حجاج البحر، فيقع أمام شارع قابل، وكان يسمى "البنط"، و لم تكن السفن تستطيع الرسو فيه بل تقف بعيداً، وتقوم السنابيك الصغيرة بنقل الحجاج والبضائع إلى الميناء، وقد أجريت فيه بعض الإصلاحات، وتوسعة الساحات عام ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م) ثم جرت توسعة إضافية للساحات المحيطة بالميناء، وعمل رصيف جديد عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) ثم قرر الملك عبدالعزيز إنشاء ميناء حديث يستطيع استقبال السفن مباشرة، وفعلا بدئ العمل بهمة ونشاط من أول المحرم عام ١٣٦٦هـ (نوفمبر ١٩٤٦م) لإنشاء الميناء الحديث، وتم افتتاحه عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م)، ورست فيه أول سفينة في شهر جمادى الآخرة ١٣٦٩هـ (مارس ١٩٥٠م)، وكان الميناء مكوناً من رصيف واحد يتسع لرسو باخرتين على طرفيه، وكان الرصيف في البداية مزوداً برافعة تستطيع نقل خمسين طناً، وتم مد خط مسفلت من داخل الميناء إلى قلب جدة، كما أنشئت جزيرة صغيرة مساحتها ٢٦ ألف متر مربع في منتصف الميناء لإنزال البضائع عليها.

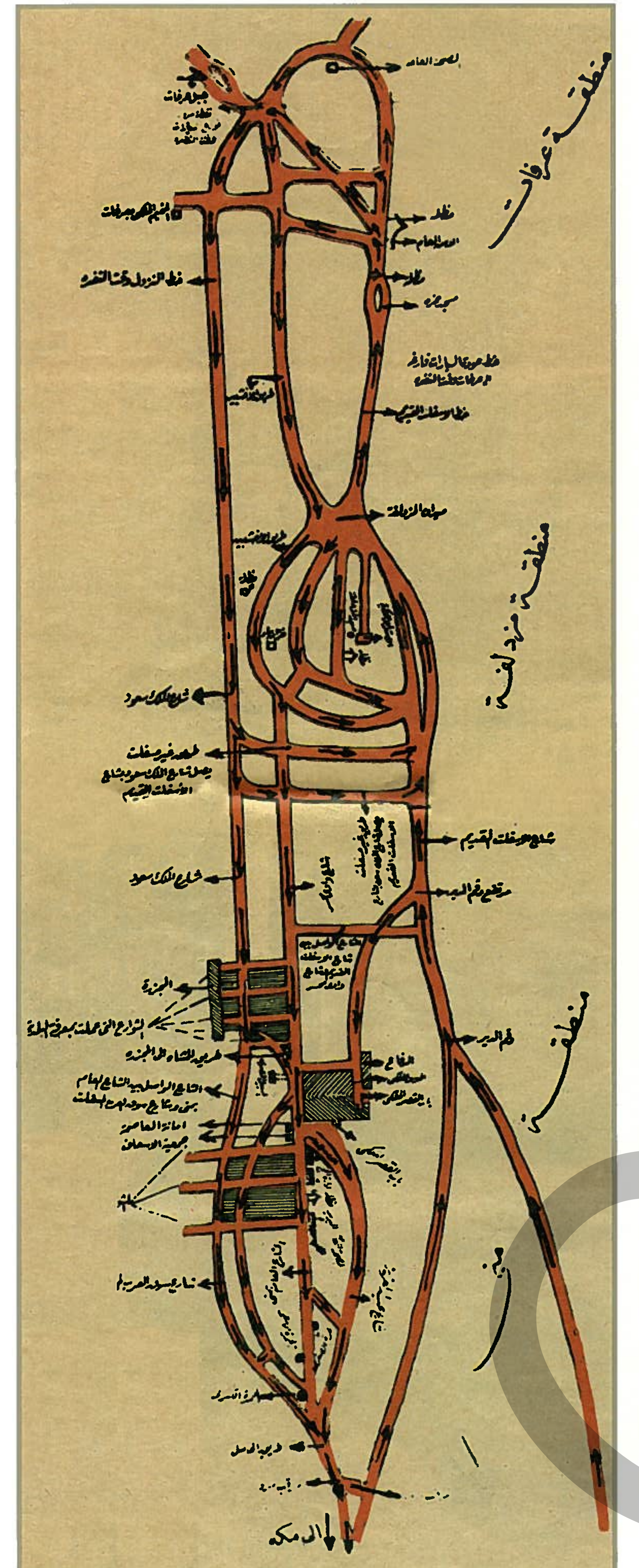
ويذكر الشيخ عبد القدوس الأنصاري[٩٢] "أن الميناء منذ إنشائه كان يدار من قبل بيت زينل، وهو بيت تجاري كبير في جدة"، تحت إشراف وزارة المالية، وتقوم هذه الشركة التجارية بالإنفاق على إدارة الميناء من وارداته نظير تقديم مبلغ سنوي معين للحكومة، واستمر الوضع كذلك حتى عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) وفي عام ١٣٨١هـ (١٩٦١م) تم ربط إدارة الميناء بإدارة الموانئ العامة بالرياض التي تتبع بدورها وزارة المواصلات. أما بالنسبة للموانئ الجوية فقد أنشئ أول مطار في المملكة بمدينة جدة، ثم تبعه مطار الحوية بالطائف، ثم الرياض، ثم الخرج، ثم الأحساء، ثم الظهران، ثم رأس مشعاب، ثم المدينة المنورة، وهذه تعد مطارات مركزية مزودة بمحطات لاسلكية، وأنشئ عدد آخر من المطارات المحلية الصغيرة، وكانت الحكومة قد اشترت عام ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) أربع طائرات من ذوات المحرك الواحد، ويورد الزركلي[٩٣] وصفاً ممتعاً لتطور النقل الجوي، وكيف أن الطائرات السعودية قامت أول الأمر برحلات داخلية، وأن الملك عبدالعزيز أمر في عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) بإرسال بعثة

٩٢- عبد القدوس الأنصاري: مرجع سابق. ص ٣٠٥.

٩٣- خير الدين الزركلي: شبه الجزيرة. مرجع سابق ص ٧٥٥.



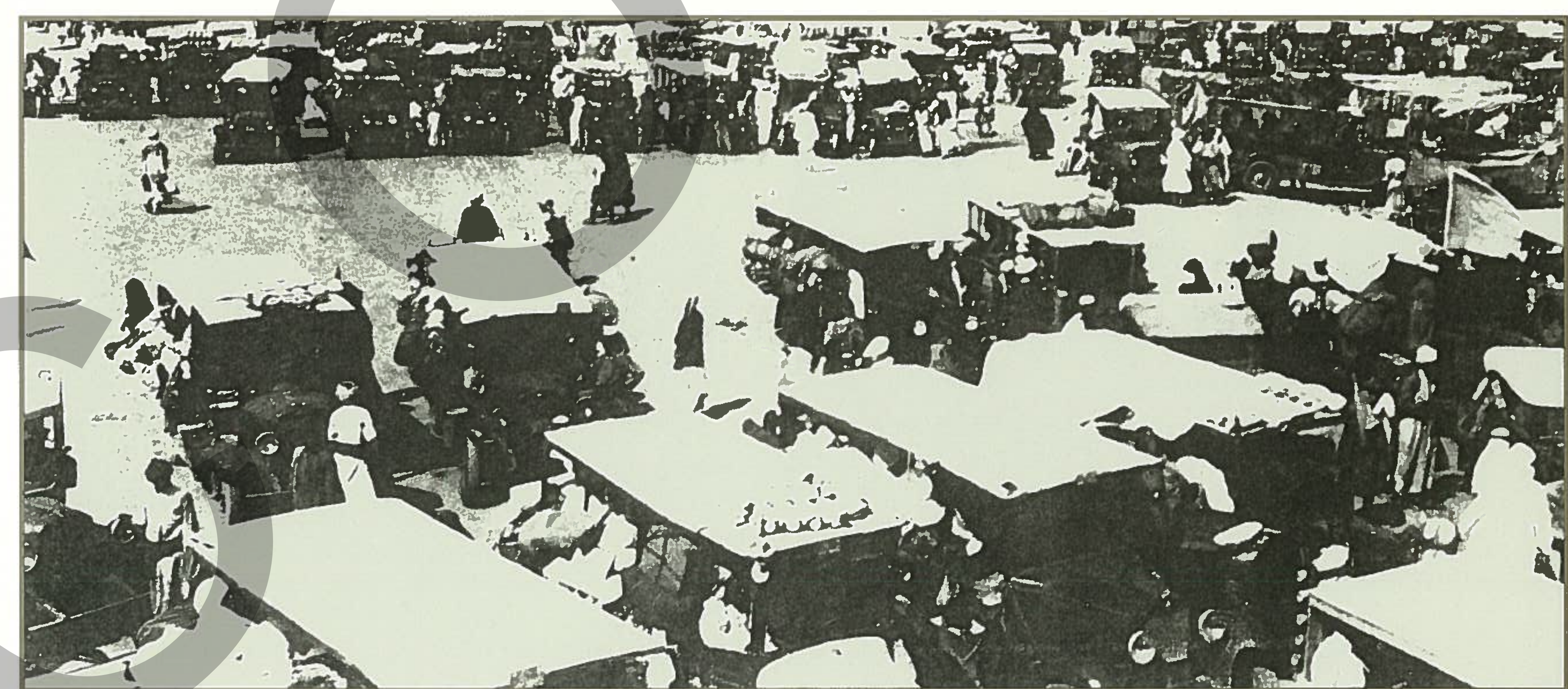
▲[الشقدف وسيلة المواصلات الرئيسة لنقل الحجاج عبر التاريخ حتى منتصف القرن الرابع عشر الهجري. وقد صورت عدسة فيلبي هذه القافلة في اواخر عهد الشقادف عام ١٣٦١هـ (١٩٤٢م). مجموعة فيلبي في كلية سان أنطوني بأكسفورد].



[وتبين الصورة خريطة للمشاعر المقدسة حوالي عام ١٣٧٠هـ (١٩٥١م) ويظهر خط الإسفلت القديم إلى عرفات ثم خط الأخشبين ثم الخط المسفلت الجديد بسار عرفات. كما تبين موقع المظلات ومراكز الصحة العامة والجزرة، وشوارع منى المسفلتة، واتجاهات السير عليها (الصورة من مجلة القوات المسلحة المصرية، شهر ذي الحجة ١٣٧٤هـ/يوليو ١٩٥٥م صفحة ٢٤)].



[وتبين هذه الصورة الشقدف وهو مكون من شقين (سريرين)، يركب في كل شق منه شخص واحد ويستطيع أن ينام فيه].



[تبين الصورة منظراً للجيل الأول من السيارات التي بدأت تشارك في نقل الحجاج إلى المشاعر منذ ستينيات القرن الرابع عشر الهجري، وهي من مجموعة أنيس شودري].



إلى إيطاليا من عشرة شبان لتعلم الطيران، فتخرجوا وعادوا، ثم أوفد عدداً منهم إلى مصر لزيادة التدرب، وأنشئت للطيران إدارة خاصة سميت (إدارة طائرات الخطوط السعودية) وهي تابعة لوزارة الدفاع. وازدادت العناية بأمر الطيران في أواخر الحرب العالمية الثانية، وتم شراء خمس طائرات من طراز داكوتا، ثم أضيفت إليها تسع طائرات من الطراز نفسه، وخمسٌ من طراز بريستول.

وبدأت عملية نقل الحجاج جواً، في شهر ذي القعدة عام ١٣٥٥هـ (يناير ١٩٣٧م) بين جدة والمدينة المنورة، ثم توالت التحسينات، ومُدَّت مدرجات جديدة مسفلتة للمطارات، وازداد عدد الخطوط الأجنبية التي تستخدم مطار جدة لنقل المسافرين والحجاج، و لم يأت عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) إلا وقد أصبح ميناء جدة الجوي يستقبل عشرات الألوف من الحجاج القادمين من خارج المملكة. ويبين الجدول الآتي عدد الحجاج القادمين من خارج المملكة من عام ١٣٦٨هـ إلى عام ١٣٧٢هـ (١٩٤٩ – ١٩٥٣م) بمختلف الوسائل:

ولا يفوتنا هنا أن ننوه بصدور مرسوم ملكي في شعبان ١٣٧١هـ بإلغاء رسوم الحجاج نهائياً ابتداءً من هذا العام (١٣٧١هـ).

عدد الحجاج القادمين من خارج المملكة العربية السعودية

العام	بحرا	جواً	براً	المجموع
١٣٦٨هـ (١٩٤٩م)	٨٠٢٧١	١١١٨٩	٧٦٠٩	٩٩٠٦٩
١٣٦٩هـ (١٩٥٠م)	٨٣٩٣٦	١٣٦٥٩	١٠٨٣٤	١٠٨٤٢٩
١٣٧٠هـ (١٩٥١م)	٨٣٥٥٢	١٢٦٨٧	٤٣٣٩	١٠٠٥٧٨
١٣٧١هـ (١٩٥٢م)	١١١٤٧٦	٢٧٨٥٥	٩١٨٤	١٤٨٥١٥
١٣٧٢هـ (١٩٥٣م)	١١٨٢٠٠	١٦٩١٧	١٤٧٣٤	١٤٩٨٤١

[الصورة التقطت من البحر لميناء جدة القديم الممتد من أمام شارع قابل إلى مبنى وزارة المواصلات الحالي جنوباً. بعد إجراء عدد من توسعات الساحات الداخلية للميناء، وعمل عقود لواجهته البحرية، وقد أمر بها الملك عبدالعزيز، نظراً لتزايد عدد الحجاج القادمين بحراً، وذلك من عام ١٣٥٦هـ حتى عام ١٣٦٦هـ (١٩٣٨ - ١٩٤٧م). قبل إنشاء الميناء الحديث. (سانجر: الجزيرة العربية)].



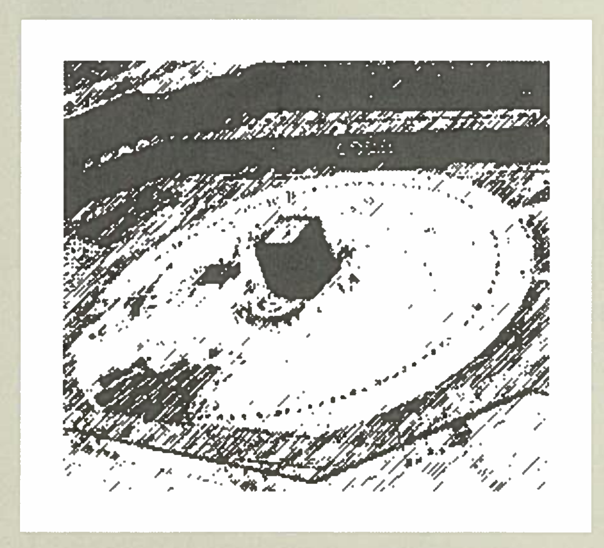
▲[الميناء البحري الجديد الذي أمر بإنشائه الملك عبدالعزيز، وبدأ باستقبال سفن الحجاج والسفن التجارية منذ عام ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م). ويظهر في الصورة الرصيف (الإسكلة) وعلى جانبه الأيسر سفينة تجارية تفرغ حمولتها (صورة نشرها ساجر في كتابه شبه الجزيرة العربية ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م)].



▲[الميناء البحري الجديد في عام ١٣٧١هـ (١٩٥٢م) حيث أصبح الحجاج ينزلون مباشرة من الباخرة إلى الرصيف (تصوير المجلة الجغرافية الوطنية الأمريكية)].



▲[صورة من مطار جدة في العام نفسه ١٣٧١هـ (١٩٥٢م) وقد نزل الحجاج مباشرة من الطائرة إلى ساحة المطار. (تصوير المجلة الجغرافية الوطنية الأمريكية)].



المسجد الحرام ومكة المكرمة

من عهد الملك سعود بن عبد العزيز

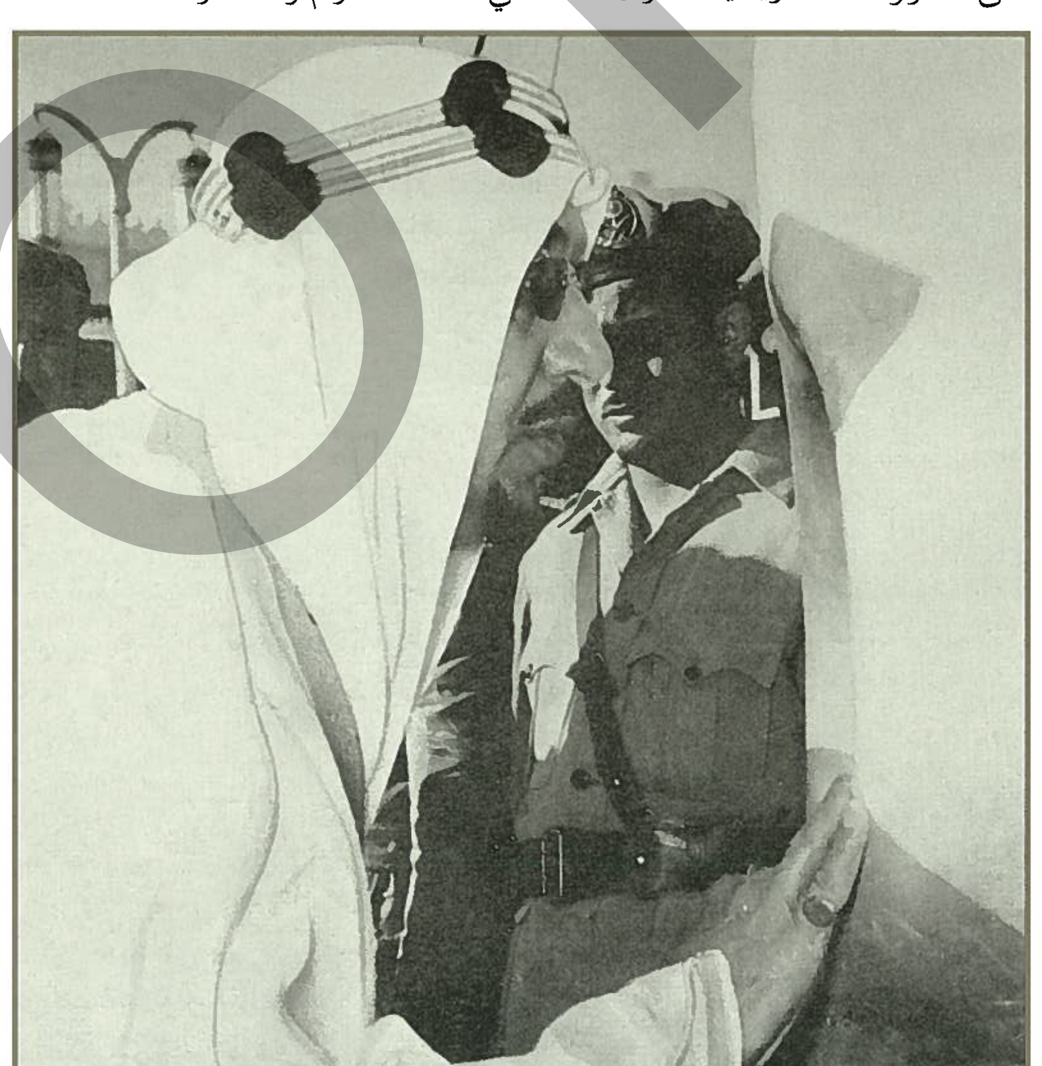
حتى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود

٦

مُقدّمَة:

استعرضنا في الأبواب السابقة رسوم مكة المكرمة والمسجد الحرام خلال القرون الماضية، ثم الصور الفوتوغرافية للبلد الحرام منذ عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) حتى نهاية مدة حكم الملك عبدالعزيز رحمه الله عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م)، والحقيقة أن ما شهدته مكة المكرمة بعد ذلك على أثر مشروع توسعة المسجد الحرام من تطورات معمارية كبرى، وفتح شوارع جديدة، وتمهيد للطرق الجبلية، وفتح الأنفاق المتعددة لتربط بين الأحياء التي كانت منعزلة عن بعضها، والتحسينات العديدة التي أدخلت على المشاعر والطرق المؤدية إليها كي تستوعب الأعداد المتزايدة من حجاج بيت الله الحرام، والمعتمرين طوال العام لهي أكبر وأوسع مما يسمح به حجم كتابنا هذا ودراسته للصور التاريخية. لقد ظهر العديد من الكتب والمصورات المتخصصة التي تصور أوجه التطور المستمر، ولا تزال تظهر.

لذا فإننا سنقتصر في هذا الباب على بعض اللمحات لهذا التطور الضخم ونركز على المشروعات التاريخية الكبرى خاصة في المسجد الحرام والمشاعر المقدسة.



[في اليوم السابق لوضع حجر أساس مشروع التوسعة الكبرى للمسجد الحرام قام الملك سعود يوم الأربعاء ٢٢ شعبان ١٣٧٥هـ (٤ أبريل ١٩٥٦م) بتركيب الطوق الفضي الجديد الذي أمر بصنعه للحجر الأسود. ويظهر في الصورة وهو يهم بتقبيله].

أوّلاً - مَشروع التّوسعة الكبرى للمَسجد الحَرام في عَهد الملك سعود بن عبد العزيز ١٣٧٣- ١٣٨٤هـ (١٩٥٣- ١٩٦٤م):

في الثالث والعشرين من شهر شعبان عام ١٣٧٥هـ (٥ أبريل ١٩٥٦م)، وضع الملك سعود بن عبدالعزيز في حفل مهيب حضره مندوبو كثير من الدول الإسلامية حجر الأساس لمشروع توسعة المسجد الحرام، وبدئ العمل بهمة ونشاط للتنفيذ. ولإعطاء القارئ فكرة عن حجم المشروع لا بد أن نعطي لمحة تاريخية عن التوسعات السابقة.

كانت مساحة المسجد الحرام في عهد الرسول ﷺ وعهد أبي بكر رضي الله عنه حوالي ٢١٠٠ متر مربع، وهي مساحة المطاف المعروف قبل التوسعة السعودية، وبازدياد عدد المسلمين وشدة الزحام رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرورة توسعة المسجد الحرام، فاشترى الدور المجاورة وأضاف إلى مساحته حوالي ألفٍ وخمسمائة متر مربع، لتصبح مساحته الإجمالية ٣٦٠٠ متر مربع، وقد تمت هذه الزيادة الأولى عام ١٧هـ (٦٣٨م)، تلتها توسعة عثمان بن عفان رضي الله عنه عام ٢٦هـ (٦٤٧م)، متخذاً أروقة للمسجد الحرام، وأصبحت المساحة الإجمالية ٤٤٨٢ متراً مربعاً.

وفي عام ٦٥هـ (٦٨٤م) قام عبدالله بن الزبير رضي الله عنه بتوسعة المسجد الحرام، لتصبح مساحته الإجمالية ٧٤٦٥ متراً مربعاً، تلاه في العهد الأموي الوليد بن عبدالملك عام ٩١هـ (٧١٠م) فأضاف ٢٨٠٠ متر مربع. وفي العصر العباسي قام أبو جعفر المنصور بزيادة مساحة المسجد الحرام عام ١٣٧هـ (٧٥٤م)، أكثر من ٥٠٠٠ متر مربع، لتصبح المساحة الإجمالية ١٥٤٩١ متراً مربعاً، وتلاه الخليفة العباسي المهدي الذي أجرى توسعة أولى عام ١٦٠هـ، والثانية عام ١٦٤هـ (٧٨١م)، ولم تكتمل إلا في عهد ابنه موسى الهادي بعد خمس سنوات ليتخذ المسجد الحرام شكله المعهود حتى بداية التوسعة السعودية الكبرى فيما عدا الزيادتين الخارجيتين اللتين سنذكرهما فيما بعد، وكانت مساحة التوسعة في المرحلتين ١٢٥٠٠ متر مربع، فأصبحت المساحة الإجمالية ٢٨٠٠٣ أمتار مربعة، وهو الذي جلب الأعمدة الرخامية من الشام التي لا يزال كثير منها باقياً حتى عصرنا الحاضر. وفي عام ٢٨١هـ (٨٩٤م) قام الخليفة المعتضد بتوسعة صغيرة في الجهة الشمالية الغربية، حيث أدخل دار الندوة إلى المسجد الحرام، وهي التي تعرف بزيادة باب الزيادة. ثم قام الخليفة العباسي المقتدر بزيادة جزئية خارجية أيضاً من الجهة الجنوبية الغربية للمسجد الحرام عام ٣٠٧هـ (٩١٩م)، وهي التي تعرف بزيادة باب إبراهيم. فأصبحت المساحة الإجمالية للمسجد الحرام ٢٩١٢٧ متراً مربعاً، وكلها من دور واحد فقط. وظل المسجد الحرام على وضعه بدون أي زيادة تماماً لأكثر من ألف عام. وكانت تجرى عليه الكثير من الترميمات، حتى جاء عهد السلطان العثماني سليم خان الذي أعاد بناء المسجد



الحرام بكامله، بين عامي ٩٨٠-٩٨٤هـ (١٥٧٢-١٥٧٦م) واستبدل بالأسقف الخشبية للأروقة القباب التي يقف معظمها حتى اليوم في الجزء القديم من المسجد الحرام بعد التوسعة السعودية الكبرى.

نعود الآن إلى مشروع التوسعة الكبرى الذي افتتحه الملك سعود رحمه الله، فقد بدأت الهدميات في أوائل جمادى الأولى ١٣٧٥هـ (منتصف ديسمبر ١٩٥٥م) بإزالة الدور والدكاكين من المسعى وأجياد، وفي شعبان من نفس العام (أبريل ١٩٥٦م) تم وضع حجر الأساس وبدأت الإنشاءات على قدم وساق بدءاً من إنشاء المسعى بدوريه. ومن جهة أخرى كان هناك مشروع توسعة منى حيث صدر الأمر بإزالة الجبل الملاصق لجمرة العقبة[٩٤] الذي كان عليه من قبل مسجد البيعة الأولى توسعة للطريق، وأعيد بناء جدار خلف شاخص الجمرة، وتم ذلك في شهر جمادى الأولى ١٣٧٦هـ (ديسمبر ١٩٥٦م).

٩٤- محمد طاهر كردي: التاريخ القويم مرجع سابق ج٦ /ص١٨.

▲[جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز رحمه الله يضع حجر الأساس لمشروع التوسعة الكبرى وذلك يوم الخميس ٢٣ من شعبان عام ١٣٧٥هـ (٥ من أبريل ١٩٥٦م). ويظهر إلى يمينه محمد بن لادن المكلف بتنفيذ المشروع. ثم الشيخ محمد طاهر كردي المؤرخ المكي وعضو اللجنة المشرفة على المشروع. (البلاد السعودية عدد خاص عن العلاقات بين سورية والمملكة عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م)].



▲[جمرة العقبة بمنى قبل إزالة الجبل الملاصق لها، ويظهر خلف علم الرجم الجدار المقام لمنع الرمي من الجهة المعاكسة، وعليه كشك للمراقبة وخلفه معسكر للحراسة. وقد أزيل الجبل وأعيد بناء الجدار عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م). وتبدو بعض السيارات التي تقل كبار الضيوف إلى منطقة الجمرات. لاحظ موديل السيارات (تصوير شفيق محمود عرب قرلي - مجموعة أنيس شودري)].



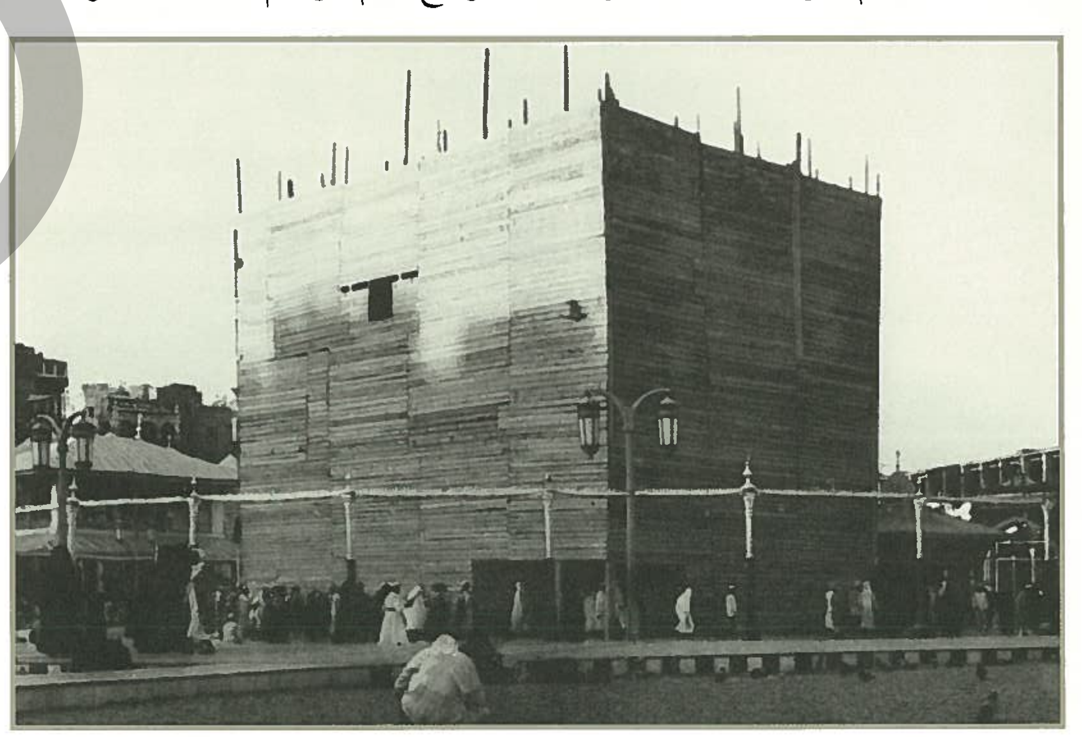
وقبل نهاية عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٧م) تم صنع مدرج جديد للصعود إلى الكعبة مغلف بالفضة ومنقوش بالذهب. وفي ١٨ رجب عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٢/٢/٨م) بدأ العمل في ترميم وإصلاح الكعبة المشرفة وتجديد سقفها، وقام ولي العهد آنئذ الأمير فيصل بن عبدالعزيز بوضع اللبنة الأولى في عملية الترميم التي استمرت ستة أسابيع وانتهت يوم ٢٨ شعبان ١٣٧٧هـ (١٩٥٨/٣/١٨م).

وقد تمت حتى عام ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م) معظم الهدميات اللازمة لمشروع التوسعة، كما تم إنشاء الأروقة الجديدة بدوريها من جهات المسجد الحرام الأربع.

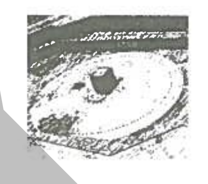
أما بالنسبة للمطاف وتوسعته في هذه المرحلة فلا بد من الإشارة إلى أن شكل المطاف كان بيضاوياً بمحور كبير من جهة حجر إسماعيل من الشمال إلى الجنوب ٥٠ متراً طولياً، والمحور الأصغر من الشرق إلى الغرب ٤٠ متراً، مبلطاً بالرخام الأبيض، ثم جدد عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) برخام أبيض عليه خطوط تشير إلى الأركان، و تقوم فيه مقصورة مقام إبراهيم، وباب بني شيبة والمنبر، ويقوم على الدائرة التي حوله المقام الحنفي وبه المكبرية الرئيسة، والمقام المالكي، والمقام الحنبلي، ومبنى بئر زمزم، وفوقه مقام الشافعي.

اقتضت توسعة المسجد الحرام، توسعة المطاف، فأزيل المقامان المالكي والحنبلي يوم ٢١/٨/ ١٣٧٧ هـ (١٩٥٨/٢/١١م)، ثم أزيل المقام الحنفي بتاريخ ٨/ ١٠ / ١٣٧٧هـ (١٩٥٨/٤/٢٦م)، وكانت هناك فكرة لتأخير موضع مقام إبراهيم إلى الخلف لتوسعة





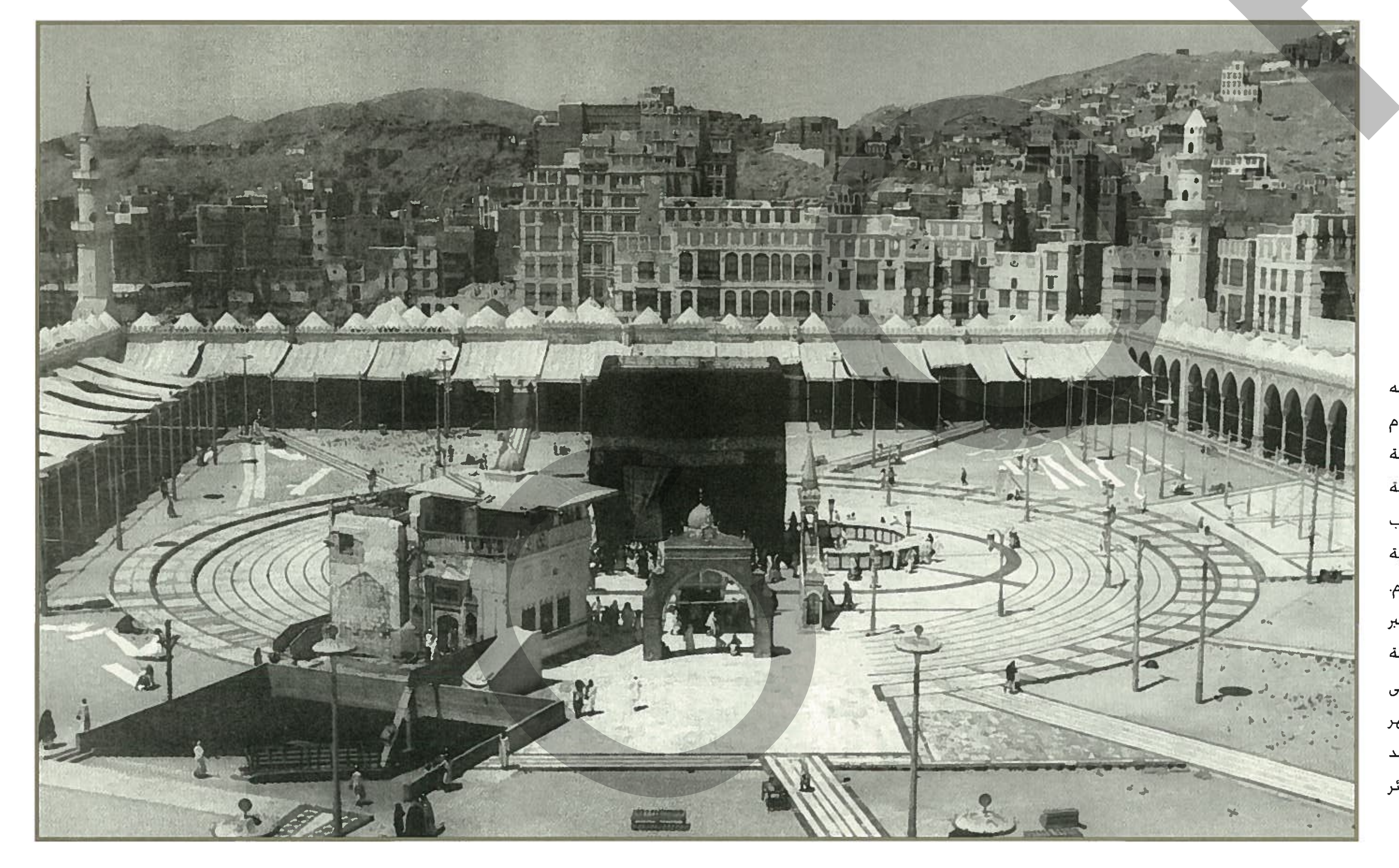
▲[في رجب عام ١٣٧٧هـ (فبراير ١٩٥٨م) قام صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبدالعزيز ولي العهد بوضع اللبنة الأولى في مشروع ترميم الكعبة المشرفة. (إلى اليسار). وكانت الكعبة قد أحيطت بساتر خشبي حتى تتم عمليات الترميم في الداخل دون إزعاج للطائفين (الصورة إلى اليمين)].



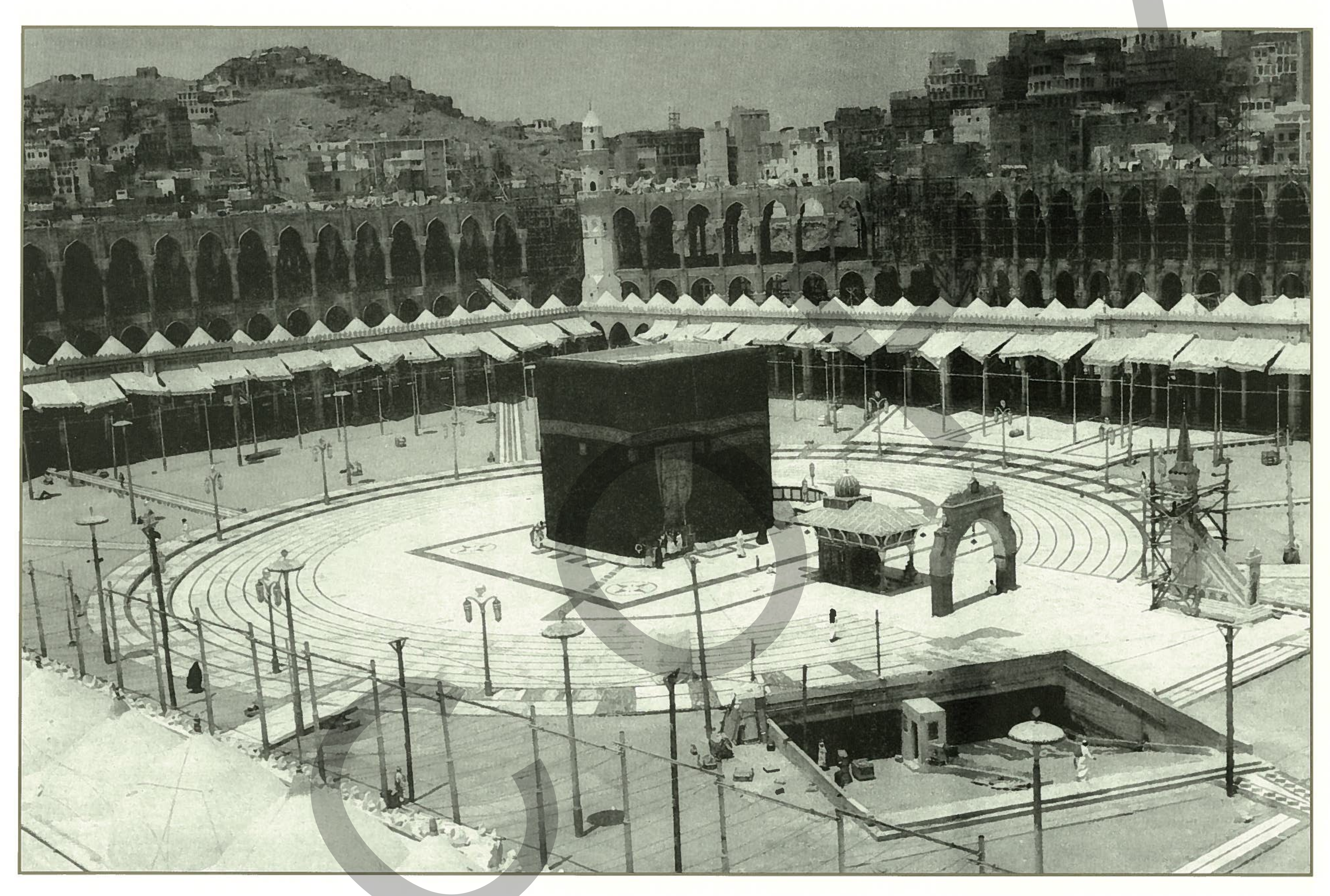
المطاف أمام باب الكعبة حيث يشتد الزحام، فأنشئت مقصورة جديدة خلف المقصورة القديمة ببضعة أمتار، لكن الرأي استقر على إبقاء مقام إبراهيم في موضعه فأزيلت تلك المقصورة فوراً. وفي عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) جرى تأخير المنبر الرخامي الذي أهداه السلطان سليمان القانوني للمسجد الحرام عام ٩٦٦هـ (١٥٥٩م) سبعة أمتار إلى الخلف. ثم أزيل المبنى المقام على بئر زمزم، ويستحسن أن نقدم وصفاً للبئر والمبنى قبل إزالته.

يبعد بئر زمزم بذاته عن الكعبة حوالي خمسة عشر متراً، شرقاً بميل عشر درجات إلى الشمال من الحجر الأسود، ويتراوح قطر فوهة البئر ما بين ١٤٦ إلى ٢٠٠ سم وعمقه حوالي خمسة عشر متراً حتى سطح الماء، وكان قبل التوسعة الكبرى يحيط بفم البئر إطار من الرخام الأبيض، ارتفاعه ١٥٠ سم، فوقه "درابزين" من الحديد، وكانت الدلاء تستخدم في استخراج ماء زمزم، وأضيف عليها عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م) مضخة كهربية، تدفع الماء إلى خزان علوي، ومنه إلى الصنابير الموزعة حول البئر. ويحيط بالبئر بناء صغير مؤلف من غرفة البئر، والأرضية مفروشة بالمرمر الفاخر، ولها ثلاث نوافذ إلى الغرب، وثلاث إلى الشمال، واثنتان إلى الشرق وبه الباب، وهناك ثلاث كوات إلى الجنوب، وهي التي تفصل هذه الغرفة عن غرفة أخرى مجاورة أصغر منها تخزن فيها الدوارق، وبجوارها درج للصعود إلى السطح، والسطح مقسم إلى جزأين، جزء هو مقام الشافعي وعليه قبة صغيرة قائمة على ثمانية أعمدة قصيرة، والقسم الآخر يضم مزولتين ضخمتين من المرمر لتحديد أوقات الصلوات، وهناك درج آخر في الطرف الجنوبي يؤدي إلى الدور العلوي بجزأيه، والمساحة الإجمالية لهذا المبنى ٨٨ متراً مربعاً، وارتفاع المبنى بدوريه إلى أعلى نقطة في القبة ١٤ متراً.

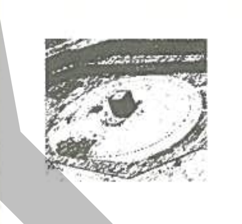
وفي عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م) جرى إنشاء مبنى تحت الأرض شرق بئر زمزم بعمق ثلاثة أمتار تقريباً ليتصل بالبئر، يتم النزول إليها من الجهة الشرقية بدرج ينقسم إلى فرعين أحدهما للرجال والآخر للنساء، وقد تم في الثامن من شعبان ١٣٨٣هـ (١٩٦٣/١٢/٢٤م) إزالة المبنى المقام على سطح الأرض بكامله، وخفضت فوهة البئر إلى أسفل أرض المطاف.



[المسجد الحرام تتوسطه الكعبة المشرفة كما بدا في نهاية عام ١٣٧٧هـ (منتصف ١٩٥٨م) بعد إزالة المقامات وقبل هدم المنطقة الجنوبية الغربية الممتدة من باب الملك إلى باب العمرة والمنطقة الشمالية الغربية الممتدة من باب العمرة إلى باب السلام. ونلحظ أنه حتى الآن لا يزال المنبر والمقصورة الخشبية القديمة المقامة على مقام إبراهيم والمبنى المقام على بئر زمزم، في أمكنتهم القديمة. ويظهر أسفل الصورة إلى اليسار المبنى الجديد المقام تحت الأرض الذي يصل إلى بئر زمزم].



▲[صورة للمطاف النقطت عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٤م) بعد إزالة المبنى المقام على بئر زمزم، وتقديم المنبر سبعة أمتار من موقعه السابق. ويلحظ أن العمل جار في تركيبه؛ ولا يزال مقام إبراهيم بمقصورته الخشبية وباب بني شيبة قائمين. ويظهر المدخل الجديد المؤدي إلى بئر زمزم تحت الأرض].



ثانياً - المسجدُ الحَرام ومكّة المكرمة في عَهد المَلك فيصَل بن عبدالعزيز ١٣٨٤- ١٣٩٥هـ (١٩٦٤- ١٩٧٥م):

منذ أن تولى جلالة الملك فيصل الملك في ٢٧ / ٦/ ١٣٨٤هـ (١٩٦٤/١١/٢م) كان يوالي الاهتمام بإنجاز مشروع التوسعة الكبرى، وكان يقوم بزيارات متوالية لتفقد تفاصيل الإنشاءات المتبقية، وعمليات التكميل (التشطيب) وتركيب الرخام في جميع أجزاء التوسعة. وجرت في هذه الفترة أيضاً عملية ربط المبنى العثماني القديم بالمشروع الجديد، وقد استمرت عمليات البناء والتكميل حتى عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م)، حيث أصبحت مساحة المسجد الحرام أكثر من خمسة أضعافه لتصل إلى ١٦٠ ألف متر مربع. وقد تم أيضاً في هذه المدة اتخاذ القرار بتوسعة المطاف وإزالة المقصورة الخشبية الضخمة القديمة التي كانت على مقام إبراهيم واستبدال قبة بلورية مناسبة بها لا تعيق الطائفين في موضع المقام نفسه القديم تعطى فرصة لرؤية آثار قدمي سيدنا إبراهيم عليه السلام، وتم إنشاء مظلة جديدة خلف موقع المقام بحوالي سبعة أمتار مساحتها ٣,٦٥ ×٦,٥ متراً بجوار المنبر في موضعه الجديد، وتقوم هذه المظلة على ١٢ عموداً لطيفاً، يؤدي تحتها الطائفون ركعتي سنة الطواف. وتم كذلك إزالة عقد باب بني شيبة نهائياً. ونقدم أولاً نبذة تاريخية عن مقام إبراهيم وباب بني شيبة.

أ- مقام إبراهيم:

مقام إبراهيم هو الحجر الذي وقف عليه إبراهيم الخليل عليه السلام في أثناء بنائه الكعبة ووقف عليه حين أذن في الناس بالحج، وهو كما يصفه الأزرقي [٩٥] مؤرخ مكة بأنه حجر رخو يشبه السنان (السنان هو الحجر الذي تسن عليه المدى والسكاكين)، وقد ظل المقام عبر الأجيال من زمن إبراهيم مثبتاً في موقعه بدون غطاء واقٍ عليه، حتى اقتلعه سيل "أم نهشل"، إلى أسفل مكة في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عام ١٧ من الهجرة (٦٣٨م)، فقدم الخليفة من المدينة فزعاً، وأعاد الحجر إلى موضعه بعد أن استوثق من الصحابة في تدقيق موضعه، وأحكم وضع المقام إحكاماً، ثم أمر بتوسعة المسجد الحرام فتم ذلك على الفور، وجعل للمسجد حائطاً (سوراً) ارتفاعه دون القامة، وهو أول من أحاط المسجد الحرام بسور. ثم قام بعمل الردم بأعلى مكة المكرمة، من المدعى إلى الجودرية لحماية المسجد الحرام من السيول.

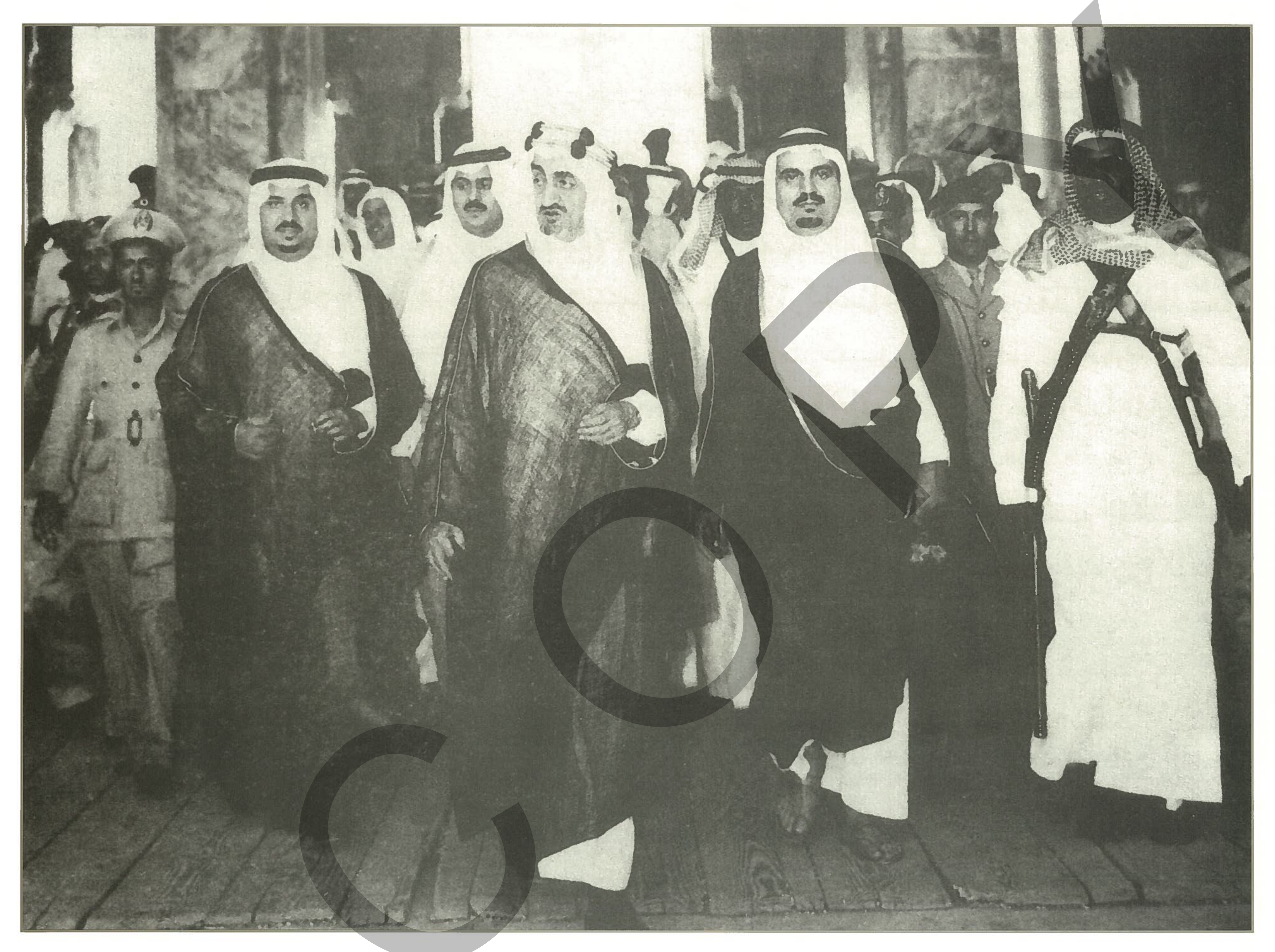
ويصف لنا الأزرقي كيف أن عبيد الله بن عثمان الحجبي حمل المقام إلى دار الندوة ليشاهده الخليفة المهدي عند قيامه بالحج عام ١٦٠هـ (٧٧٧م)، فسر الخليفة بذلك وشرب فيه ماء زمزم، ثم أضاف قائلاً: إن حجر المقام قد انثلم في عهد المهدي، فضبب أسفله وأعلاه بالذهب، ثم قام الخليفة جعفر المتوكل عام ٢٣٦هـ (٨٥٠م) بصب طبقة من الذهب فوق التضبيب السابق، لكن عامل مكة جعفر بن الفضل احتاج عام ٢٥١هـ (٨٦٥م) إلى المال لقتال إسماعيل بن يوسف العلوي، فقلع الذهب عن المقام، وضربها دنانير، وقد أدى ذلك إلى تشقق الحجر، وأصبح سبع قطع، فأمر عامل مكة علي بن الحسن العباسي عام ٢٥٦هـ (٨٧٠م) بعمل طوقين من الذهب والفضة عليه. ويضيف الأزرقي أن المقام موضوع بعد ذلك في حوض من ساج (نوع من الخشب) مربع حوله رصاص ملبس به، وعلى الحوض صفائح رصاص ملبس بها، ويوضح أن حجر المقام منغرس في الحوض بمقدار إصبعين، وعلى ذلك صندوق ساج مسقف، ووراءه ملبن (الملبن عارضة تستعمل للتعليق عليها أو التثبيت بها) – ساج (نوع من الخشب) في الأرض، في طرفيه سلسلتان تدخلان أسفل الصندوق، ويقفل فيهما بقفلين. ويقول ابن جبير في رحلته إلى مكة عام ٥٧٩هـ (١٠٨٨م) إن على المقام قبة خشبية طول العام، ثم تستبدل بها في فترة الحج قبة من الحديد.

وممن قاس حجم حجر المقام الأزرقي عام ٢٤٠هـ (٨٥٤م) و ابن جبير عام ٥٧٩هـ (١١٨٤م) والقاضي العز بن جماعة عام ٧٥٣هـ (١٣٥٢م)، بيد أن مقاساتهم تلك كانت باستخدام الذراع والإصبع مما لا يعطينا مقياساً دقيقاً، ثم يسر الله الشيخ محمد طاهر كردي مؤرخ مكة المكرمة ومؤلف "التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم"، فحصل في عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م) على إذن من الأمير سعود ولي العهد (آنئذ) بالدخول إلى المقصورة، لتقديم قياس دقيق لحجر المقام فقال: "فتح السادن الثاني الشيخ عبدالله بن عبدالقادر الشيبي المقصورة يوم الأحد ٢٧ من شهر شعبان عام ١٣٦٧هـ (٤ من يوليو ١٩٤٨م)، فوجد صندوقاً خشبياً على هيئة الهرم الرباعي، ارتفاعه نحو القامة وله باب، ففتح. وقد وجد أن حجر المقام مثبت فوق قاعدة صغيرة من الرخام المرمر الأبيض بقدر قياس المقام طولاً وعرضاً، وارتفاعها ١٣ سم. وقد استمسك المقام بهذه القاعدة بواسطة الفضة التي تحيط بالمقام نفسه مع جزء من هذه القاعدة حتى أصبح المقام ثابتاً ثبوتاً قوياً لا يمكن تحريكه قط. وقد ثبتت هذه القاعدة الصغيرة بإحكام وسط قاعدة كبيرة مربعة من الرخام المرمر الأبيض تشبه الحوض، طول كل ضلع متر واحد، وارتفاعها من الأرض ٣٦ سم. ويحيط بكل ذلك الصندوق الخشبي، وهو ملبس من ظاهره بصفائح الفضة، وقد كتب عليها آية قرآنية بخط الحافظ "إسماعيل زهدي الأدرنوي خوجة" عام ١٢٢٨هـ (١٨١٣م)، ويكسى هذا الصندوق الخشبي بكسوة من الحرير، آخرها تلك التي صنعت بدار الكسوة بمكة المكرمة عام ١٣٤٨هـ (١٩٣٢م) وعليها آيات قرآنية كتبت بيد الشيخ الكردي نفسه." [٩٦]

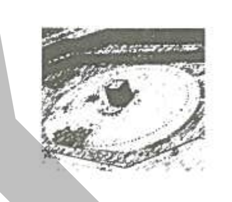
ويصف الشيخ الكردي حجر المقام بذاته فيقول: "المقام حجر ليس بصوان، لونه ما بين الصفرة والحمرة، وهو إلى البياض أقرب، ويمكن أن يحمله أضعف الرجال، وهو يشبه المكعب، ارتفاعه ٢٠ سم، وطول كل ضلع من أضلاعه الثلاثة من جهة سطحه ٣٦ سم، وطول الضلع الرابع ٣٨ سم، أي أن محيطه من جهة السطح ١٤٦ سم، وأسفل المقام أوسع بقليل من أعلاه، فيكون مقدار محيطه ١٥٠ سم.، وغاصت قدما خليل الله إبراهيم إلى نصف ارتفاع الحجر، فعمق أحد القدمين ١٠ سم والثانية ٩ سم. ولم نشاهد أثراً لأصابع القدمين مطلقاً، فقد انمحى من طول الزمن ومسْح الناس بأيديهم، أما موضع العقبين فلا يتضح إلا لمن دقق النظر وتأمل ... وحافة أحد القدمين الملبستين بالفضة أوسع من بعضهما ربما من كثرة ما

٩٥- محمد بن عبدالله الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٣٦- ٣٨

٩٦- محمد طاهر كردي، مرجع سابق ج٤، في الصفحات ١٦ - ٢١.



▲[الملك فيصل بن عبدالعزيز ويظهر معه صاحب السمو الملكي الأمير مشعل بن عبدالعزيز أمير منطقة مكة المكرمة وصاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز وزير الدفاع والطيران، والأمير تركي بن عبد العزيز لتفقد الأعمال الجارية لإكمال التوسعة الكبرى للمسجد الحرام عام ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م)].



يمسها الناس بأيديهم، وطول كل قدم – من سطح الحجر والفضة – ٢٧ سم وعرض كل منهما ١٤ سم. أما قياسهما من باطن القدمين من أسفل الفضة النازلة فيهما فطول كل واحدة منهما ٢٢ سم، وعرض كل واحدة منهما ١١ سم. ويفصل بين القدمين فاصل بسمك ١سم.

ويعتقد الكردي أن دقة الفاصل بين القدمين واتساع طول القدمين وعرضهما من أعلاهما يعود إلى كثرة التمسح بها في الأزمان السابقة. ويقول: "ومع أنه قد مر على حجر المقام الشريف أكثر من أربعة آلاف سنة، فإن معالمه وهيئة القدمين واضحة بينة، لم تتغير ولم تتبدل".

ويلاحظ الكردي أيضاً أن حجر المقام كله ملبس بالفضة الخالصة، فلا تظهر حقيقة الحجر إلا من باطن حفرة القدمين وجوانبهما، وأن باطن حفرة القدمين غير مستو، بل فيهما نتوءات صغيرة، وقد كتب على الفضة آية قرآنية، ثم كلمة "أمر بتجديد صحيفة القدم الشريف السلطان مصطفى خان بن محمد خان سنة ١١١٣ هـ (١٧٠١م)"، ويوجد على الفضة شيء من النقش، أما ما نزل من الفضة في حفرة القدمين فليس عليه شيء لا من الكتابة ولا من النقش.

ويضيف: "لما كان المقام الشريف ملبساً كله بالفضة، وثابتاً ثبوتاً قوياً لا يتحرك، لم يظهر لنا هل فيه شطب وكسر أم لا؟ "ويظهر أن هذا آخر تجديد للطبقة المحيطة بحجر المقام، سواء كانت من الذهب أو الفضة حسب تغير الأزمان".

أما المقصورة الخارجية المقامة على المقام، فهي عبارة عن شبك حديدي مربع الشكل، طول ضلعه ثلاثة أمتار، يحيط بصندوق المقام السابق ذكره، وخلف الشبك مظلة مفتوحة من ثلاث جهات مربعة الشكل، طول كل ضلع منها ثلاثة أمتار أيضا يؤدي تحتها الطائفون ركعتي الطواف، ويقوم على الشبك والمظلة سقف له مقدمة (رفارف) من الجهات الأربع، و عليه قبة صغيرة (انظر الصورة أسفل على اليمين).

إزالة مقصورة مقام إبراهيم:

وفي الحادي عشر من رحب ١٣٨٧هـ (١٤ أكتوبر ١٩٦٧م) تمت إحاطة المقصورة بساتر خشبي من كل الجهات، وجعلوا لها باباً للدخول، وتم في اليوم التالي إزالة المقصورة حتى بلغ العمال "الأساس القديم". وقد قدم لنا الكردي وصفا تفصيلياً[٩٧] فقال :

٩٧- محمد طاهر كردي: مرجع سابق، ج٤، ص ٥٩ -٦٠.

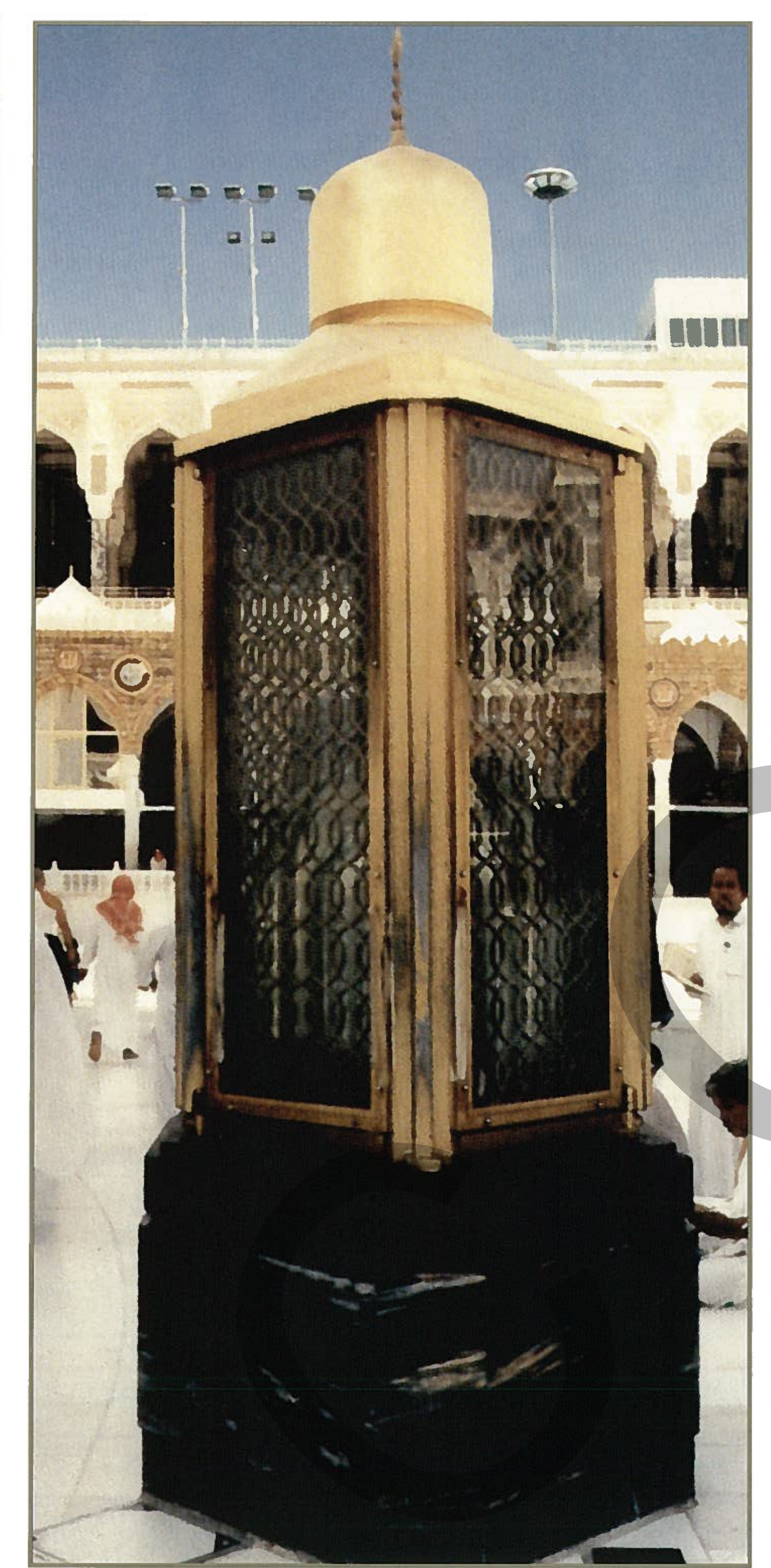


[المقصورة التي كانت على مقام إبراهيم قبل إزالتها ووضع القبة البلورية].



[صورة نادرة لمقام إبراهيم وهو ملبس بالفضة داخل الصناديق التي تحيط به. راجع الشرح في النص المرفق].

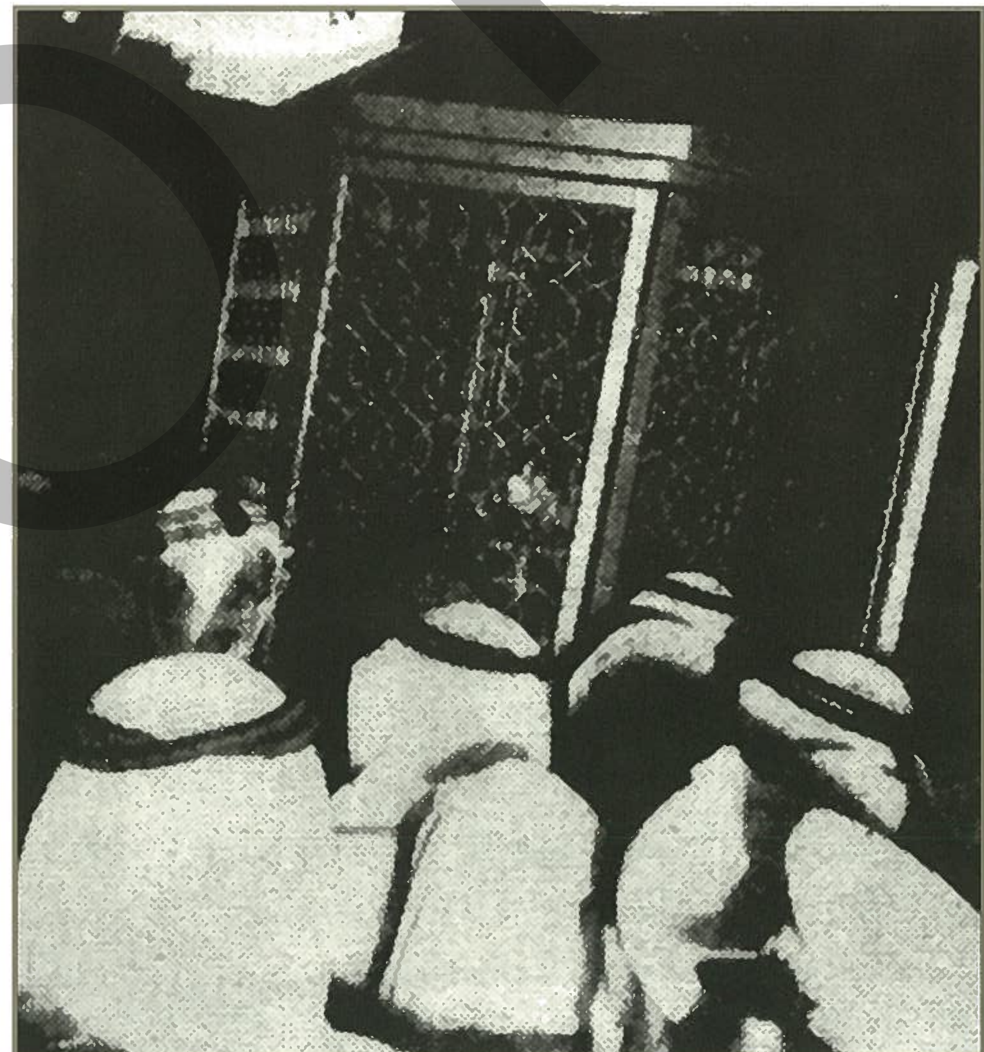




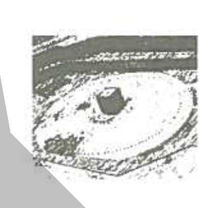
◀[المقصورة البلورية على مقام إبراهيم عام ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م)].

" توجد تحت الرخام الأبيض المربع الذي سبق وصفه قاعدة من الحجر المربع ٥٠ × ٥٠ سم، وتنزل عن سطح الأرض ٥٠ سم أيضا، " مثبتة بأربعة أسافين من الحجارة الضخمة، تثبيتاً لها حتى لا تتزحزح عن مكانها، فلم يمس العمال هذا الحجر بسوء، بل لم يزل في مكانه. ويظن الذي يرى هذا الحجر أنه من وضع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه والله – تعالى– أعلم، فقولنا (حتى بلغوا الأساس القديم) أي بلغوا جوانب الأساس من غير أن يمسوا الأساس نفسه ومن غير أن يحركوا حجر المقام الكريم نفسه، فكل شيء قديم بقي على ما هو عليه ... ثم عملوا حول المقام الكريم من الأرض إلى أعلاه قاعدة من الرخام تحيط به، وهي على شكل سداسي تقريباً، طولها ١٦٠ سم وعرضها ١١٠ سم، وارتفاعها ٧٥ سم، ووضعوا قاعدة نحاسية مدورة مثقوبة من وسطها زنتها ٦٠٠ كيلو غرام، والثقب على قدر ما يظهر المقام الكريم فقط، وقطر الثقب ٤٠ سم، وفوق القاعدة النحاسية وضع الغطاء الزجاجي على المقام الكريم نفسه، ثم ركبوا عليه المقصورة الحديدية الجديدة وهي الشبابيك، وارتفاعها إلى الهلال العلوي ثلاثة أمتار (انظر الصورة إلى اليسار).

ويبلغ ارتفاع الغطاء الزجاجي ١٣٠ سم وسمكه ٢٠ سم من كل الجهات وقطره من أسفله من الداخل ٤٠ سم ومن الخارج ٨٠ سم، ومحيط دائرته من أسفله ٢٥١ سم، ووزنه ٧٥٠ كيلو جراماً، وله



◀[الملك فيصل يزيح الستار عن الغطاء البلوري الجديد لمقام إبراهيم في المسجد الحرام يوم ١٨ رجب عام ١٣٨٧هـ].



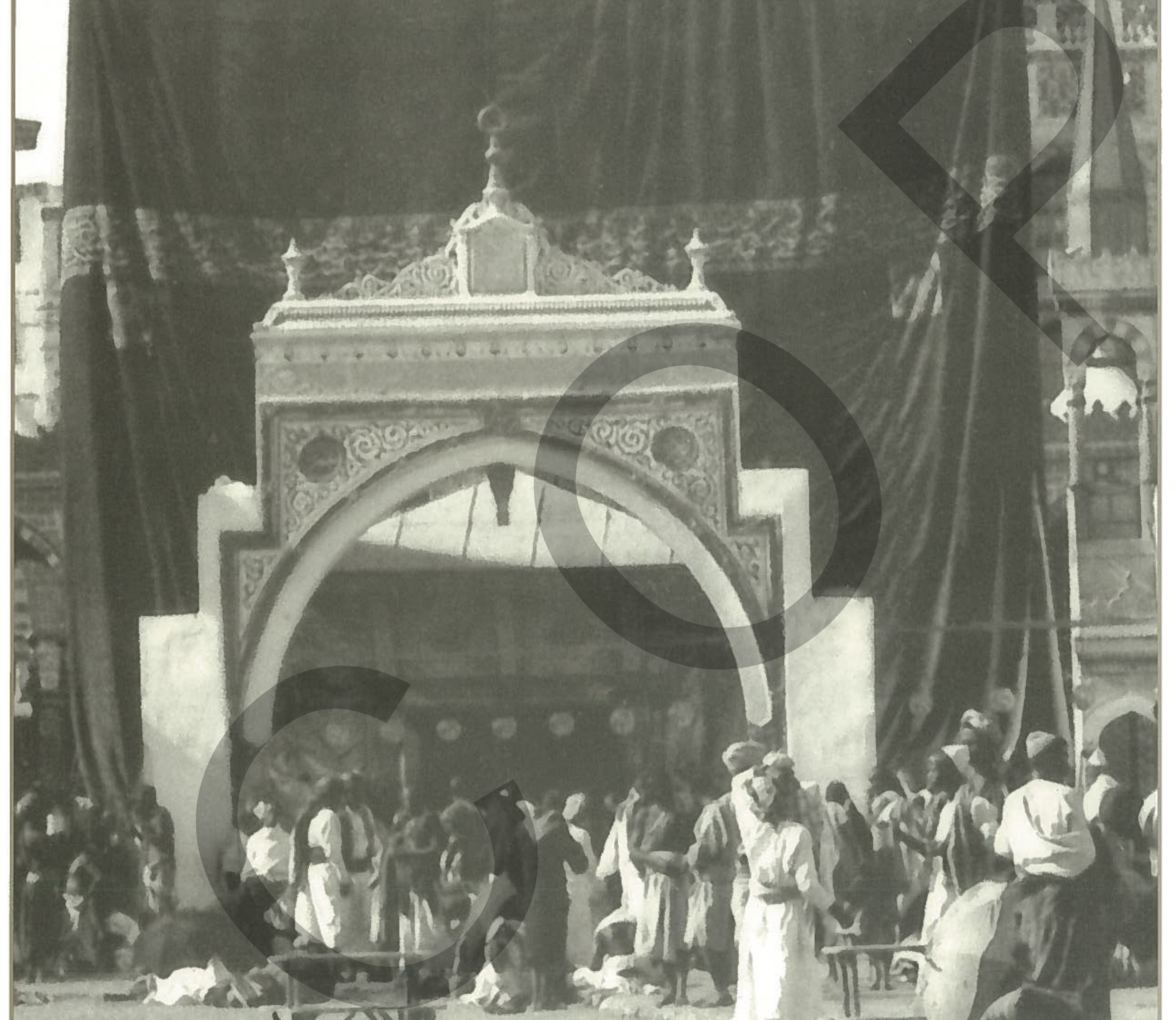
[هكذا بدا صحن المطاف عام ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م) بعد إزالة باب بني شيبة، وإزالة المقصورة الخشبية التي كانت على مقام إبراهيم، واستبدال القبة البلورية بها، وتأخير المنبر، وبناء مظلة جديدة بجواره].



قاعدة نحاسية خاصة مثقوبة من الوسط، موضوعة على قاعدة بيضاوية الشكل، مكسوة بالرخام الأسود، ثم وضع هذا الغطاء البلوري فوق القاعدة النحاسية زيادة في تثبيته وتقويته، وقد صنع الغطاء البلوري في معمل للكريستال في فرنسا.

وقد قام جلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز في عصر يوم االسبت ١٨ من رجب سنة ١٣٨٧هـ (٢١ أكتوبر ١٩٦٧م) بإزالة الستار عن المقصورة البلورية في حضور العديد من الشخصيات الإسلامية.

و ظل هذا العقد في مكانه لأجيال حتى عام ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م)، حتى تمت إزالته يوم السبت ١١ رجب عام ١٣٨٧هـ (١٤ أكتوبر١٩٦٧م) من أجل توسعة المطاف القديم، ووضع مكانه على الأرض – في البداية – رخام أسود إشارة إلى مكانه. لكن المراحل التالية لتجديد فرش المطاف لم تترك إشارة له. وبالنسبة لبئر زمزم فقد تم تمديد شبكات مواسير للبئر، واستخدمت المضخات لسحب ماء زمزم، وتم الاستغناء نهائياً عن الدلاء في عام ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م).



◄ [باب بني شيبة قبل إزالته و يبدو إلى يمينه المنبر وخلفه مقصورة مقام إبراهيم ثم الكعبة المشرفة].

ب- باب بني شيبة:

أحد مداخل المسجد الحرام منذ ما قبل الإسلام، حيث كانت سعة المسجد لا تتجاوز المطاف القديم، وكان القرشيون قد جعلوا منافذ بين كل دارين إلى بيت الله الحرام، فكان مكان هذا العقد السكة النافذة من دار شيبة بن عثمان الحجبي سادن الكعبة، وكان يطلق عليه أيضا اسم "باب السلام". وفي عهد الرسالة كان رسول الله ﷺ يدخل المسجد الحرام من هذا الباب ويخرج منه إلى داره، فلما جرت توسعة المسجد الحرام زمن الخليفة العباسي المهدي عام ١٦٤هـ (٧٨١م)، أزيلت دار شيبة، وظل الاسم عليه، وأصبح يطلق على الباب الخارجي في ركن الرواق الشمالي باب السلام.

وباب بني شيبة عبارة عن عقد نصف دائري قائم على عمودين مربعين، وموقعه خلف مقام إبراهيم، وارتفاعه ثمانية أمتار حتى أعلى نقطة في الذروة، وكان مكتوباً تحت الهلال – بالنسبة للداخل – "ادخلوها بسلام آمنين" وفوق العقد: "رب أدخلني مدخل صدق الآية"، وكتب عليه من الجهة الداخلية المواجهة للكعبة "الله سبحانه وتعالى" ثم "سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين" ثم "محمد عليه السلام"[٩٨]

٩٨- حسين باسلامة. تاريخ عمارة المسجد الحرام. مرجع سابق. ص ٢٢٣.



ثالثاً - المسجدُ الحَرام ومكّة المكرمة في عَهد المَلك خالد بن عبدالعزيز ١٣٩٥-١٤٠٢هـ (١٩٧٥-١٩٨٢م):

في عهد جلالة الملك خالد بن عبدالعزيز، كانت العناية مستمرة بالمسجد الحرام، وتطوير مكة وفتح شوارع جديدة بها ونحت الأنفاق المتعددة، وتطوير طرق الحج وإنشاء الطرق السريعة بين مكة وجدة والمدينة المنورة، إضافة إلى طرق المشاعر المقدسة. ونظراً لتزايد عدد الحجاج، فقد صدر الأمر الملكي عام ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) بتوسعة دائرة المطاف توسعة شاملة، فتمت إزالة المنبر الرخامي نهائيا، وجرى تفكيك قطعه وحفظه في مستودعات المسجد الحرام، واستبدل به منبر خشبي صغير، يسهل دفعه إلى جوار الكعبة المشرفة عند خطبة الجمعة والعيدين، وتمت، كذلك، إزالة المظلة التي أقيمت خلف مقام إبراهيم بجوار المنبر، وجرى تجديد فرش المطاف بالرخام الأبيض العاكس للحرارة ليشمل كامل رحبة المسجد الحرام القديم، فتم بذلك إلغاء الحصوات والمشايات التي كانت تربط دائرة المطاف القديمة بالأروقة، كما تمت إزاحة مدخل بئر زمزم تحت الأرض، إلى الخلف، قريباً من باب علي القديم.

نبذة عن تاريخ المنبر:

لم يكن هناك منبر في المسجد الحرام على عهد رسول الله ﷺ ولا على عهد الخلفاء الراشدين، وفي عهد معاوية، اصطحب معه منبراً خشبياً من الشام مكوناً من ثلاث درجات ليخطب عليه[٩٩]. وظل هذا المنبر إلى عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، فصُنع منبر من خشب مكون من تسع درجات. وفي القرون الثمانية التالية إلى عام ٩٦٦هـ (١٥٥٩م)، بلغ عدد المنابر التي أهديت للمسجد الحرام أحد عشر منبراً، وجميعها من الخشب، وكان بعضها مقاماً على عجلات حيث يدفع إلى صدر الكعبة ليقوم عليه الخطيب، ثم يُجر إلى موضعه أمام باب الكعبة، إلى يسار المصلي خلف مقام إبراهيم، أو بعيدا عند باب السلام.

وفي عام ٩٦٦هـ (١٥٥٩م)، بعث السلطان العثماني سليمان خان بن سليم خان، (سليمان القانوني) منبراً من الحجر الرخام الناصع البياض، وعليه نقوش بديعة وزخرفة محفورة على الرخام، وهو مكون من ١٤ درجة، ويبلغ طوله أفقياً ٥٨٠ سم، وعرضه عند قاعدته ١٨٦ سم، أما ارتفاعه عن أرض المطاف إلى الحلية المثبتة في أعلاه، فتبلغ ١٢ متراً تقريباً. وقد نصب المنبر منذ يوم وصوله إلى يمين مقام إبراهيم عليه السلام بحيث يبعد - طرفه الخلفي - عن شاذروان الكعبة ١٤ متراً، وظل في هذا المكان ٤١٨ عاماً، حتى عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م)، حيث كانت تجري توسعة المطاف، فتم تفكيك قطع المنبر الرخامية بكل دقة، ثم أعيد نصبه على بعد سبعة أمتار عن موقعه القديم، وأصبحت مؤخرة المنبر تبعد عن الشاذروان ٢١ متراً تقريباً.



▲[تبين الصورة عملية تبليط المطاف وساحة المسجد الحرام، بالرخام الأبيض العاكس للحرارة، بعد إزالة المنبر والمظلة التي أقيمت خلف مقام إبراهيم، وتأخير فتحة بئر زمزم تحت الأرض، وإلغاء الحصاوي، وكذلك إزالة المكبرية التي كانت أقيمت في حصوة باب الصفا والاكتفاء بمكبرية صغيرة داخل الرواق].

٩٩- محمد بن عبدالله الأزرقي: مرجع سابق، ج١، ص ١٠٠.

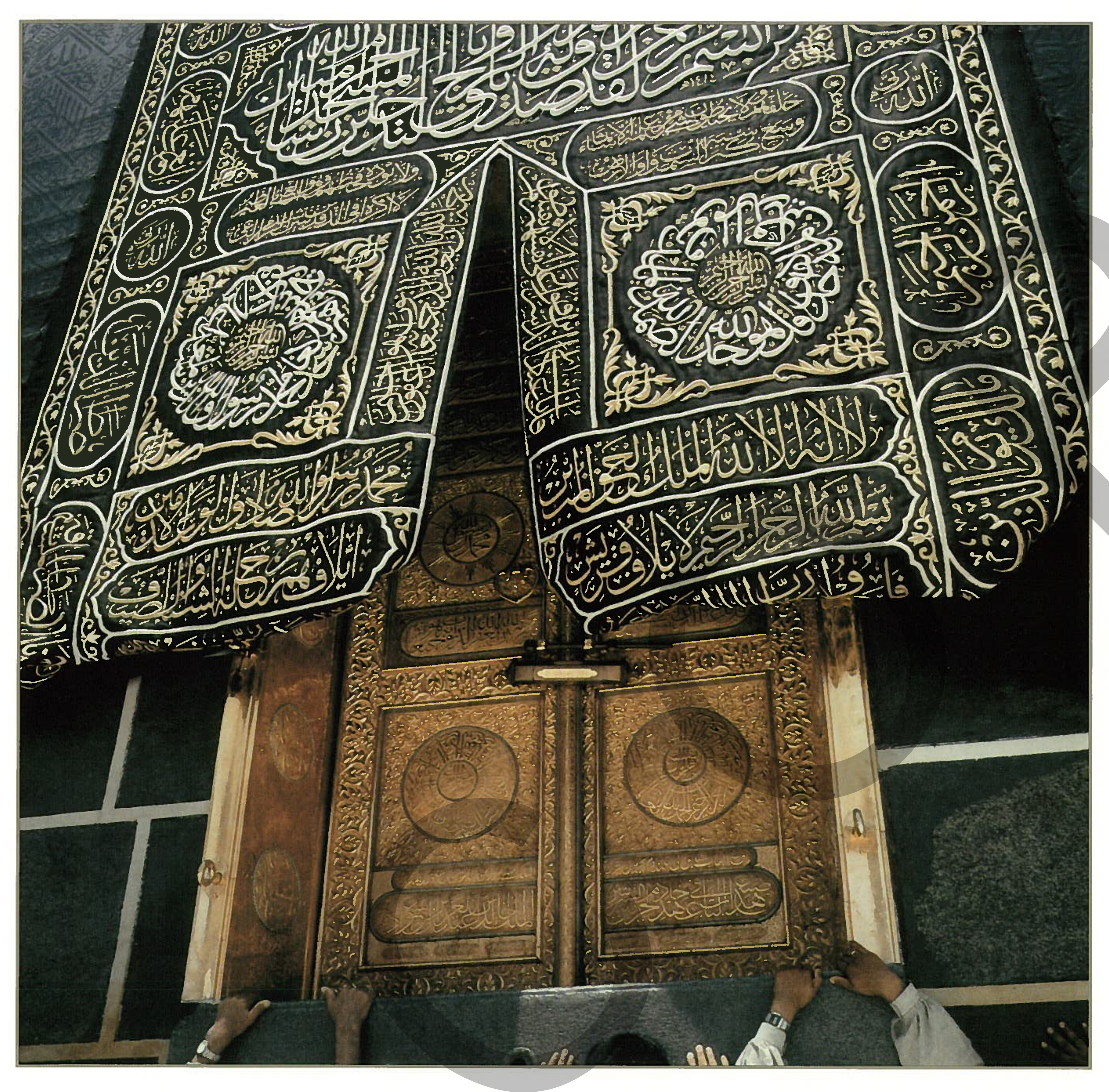
وظل في موضعه الجديد حتى أزيل نهائياً عام ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).

باب جديد للكعبة:

وفي العام نفسه ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) أمر الملك خالد بصنع باب جديد من الذهب الخالص للكعبة المشرفة، وكذلك عُمِلَ قفل جديد مماثلٍ لمواصفات القفل القديم، وكذلك صُنع باب جديد بدلاً من الباب الداخلي للكعبة المؤدي إلى سطحها قرب الركن الشمالي. وقد تم عمل كل ذلك في مصنع الشيخ أحمد إبراهيم بدر للمصوغات الذهبية بمكة المكرمة، وفي العام التالي أمر بتجديد الطوق الفضي الذي يحيط بالحجر الأسود.

المؤتمر الإسلامي بالمسجد الحرام:

ومن الأحداث التاريخية في هذه المدة انعقاد المؤتمر الثالث للقمة الإسلامية، تحت شعار "دورة فلسطين والقدس الشريف"، وذلك بدعوة من الملك خالد بن عبدالعزيز، بمكة المكرمة في المدة بين ١٩ و٢٢ من ربيع الأول ١٤٠١هـ (٢٥ -٢٨ من يناير ١٩٨١م)، وقد حضرته ٣٨ دولة إسلامية. و تميز هذا المؤتمر، بعقد جلسته الافتتاحية، في رحاب المسجد الحرام وبجوار الكعبة المشرفة، حيث افتتحت الجلسة الساعة الخامسة وعشرين دقيقة من عصر يوم الأحد،١٩ /٣ /١٤٠١هـ (١٩٨١/١/٢٥م) ثم استؤنفت الجلسات بالطائف، وقد صدر عن الاجتماعات بلاغ مكة، إلى جانب إقرار وثيقتين تتناول الأولى برنامج العمل الإسلامي لمواجهة العدو الصهيوني، والثانية قراراً بشأن قضية فلسطين والشرق الأوسط. ويمكن للقارئ مراجعة النصوص الكاملة لهذا المؤتمر الإسلامي وغيره من المؤتمرات الإسلامية في كتاب "القمة الإسلامية بين الآمال والنتائج" الذي أصدره صالح مهدي السهيلي، بمكة المكرمة ١٤٢١هـ (٢٠٠٠م).



▲[في الصورة باب الكعبة الجديد المصنوع من الذهب الخالص. وقد كتب عليه: صنع هذا الباب في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود].

▲[الملك خالد بن عبدالعزيز بعد خروجه من الكعبة المشرفة ومعه بعض ضيوف المملكة الذين حضروا مؤتمر القمة الإسلامي الثالث عام ١٤٠١هـ (١٩٨١م)].

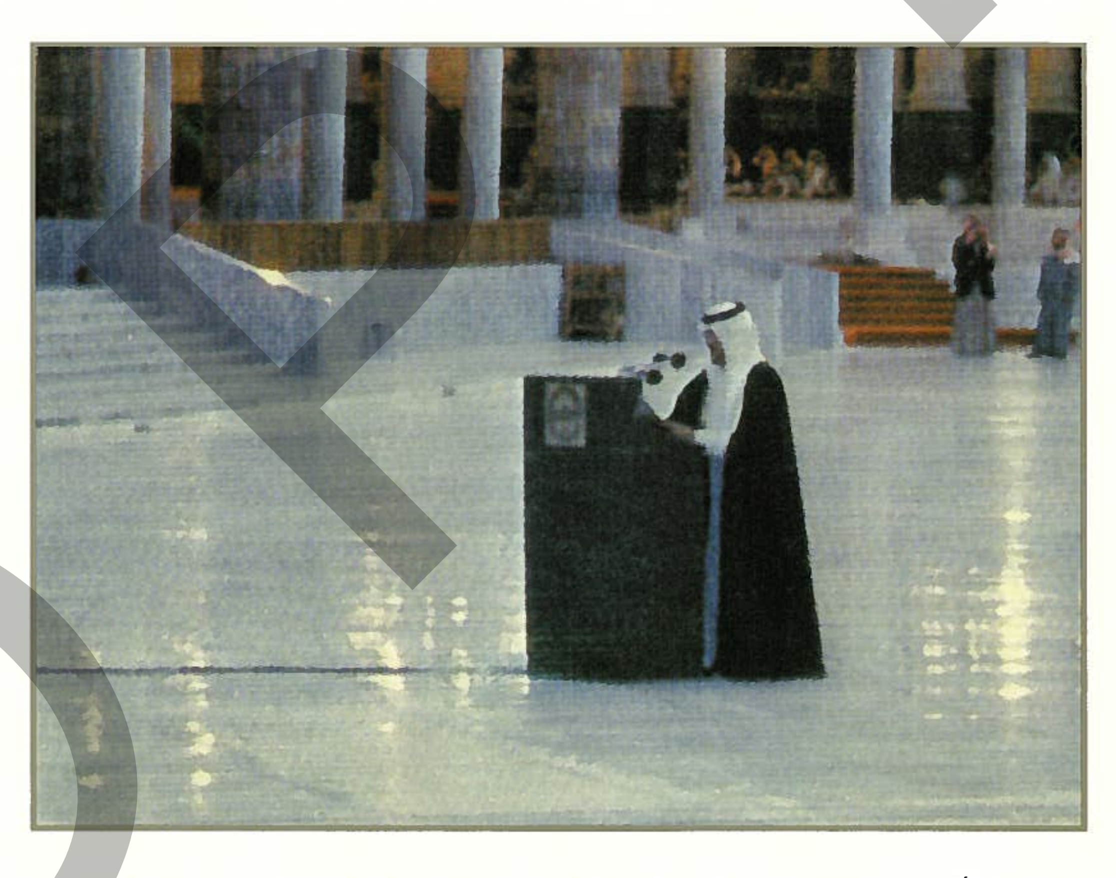


▲[الملك خالد بن عبدالعزيز وهو يهم بتقبيل الحجر الأسود بعد تجديد الطوق الفضي المحيط بالحجر عام ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م)].



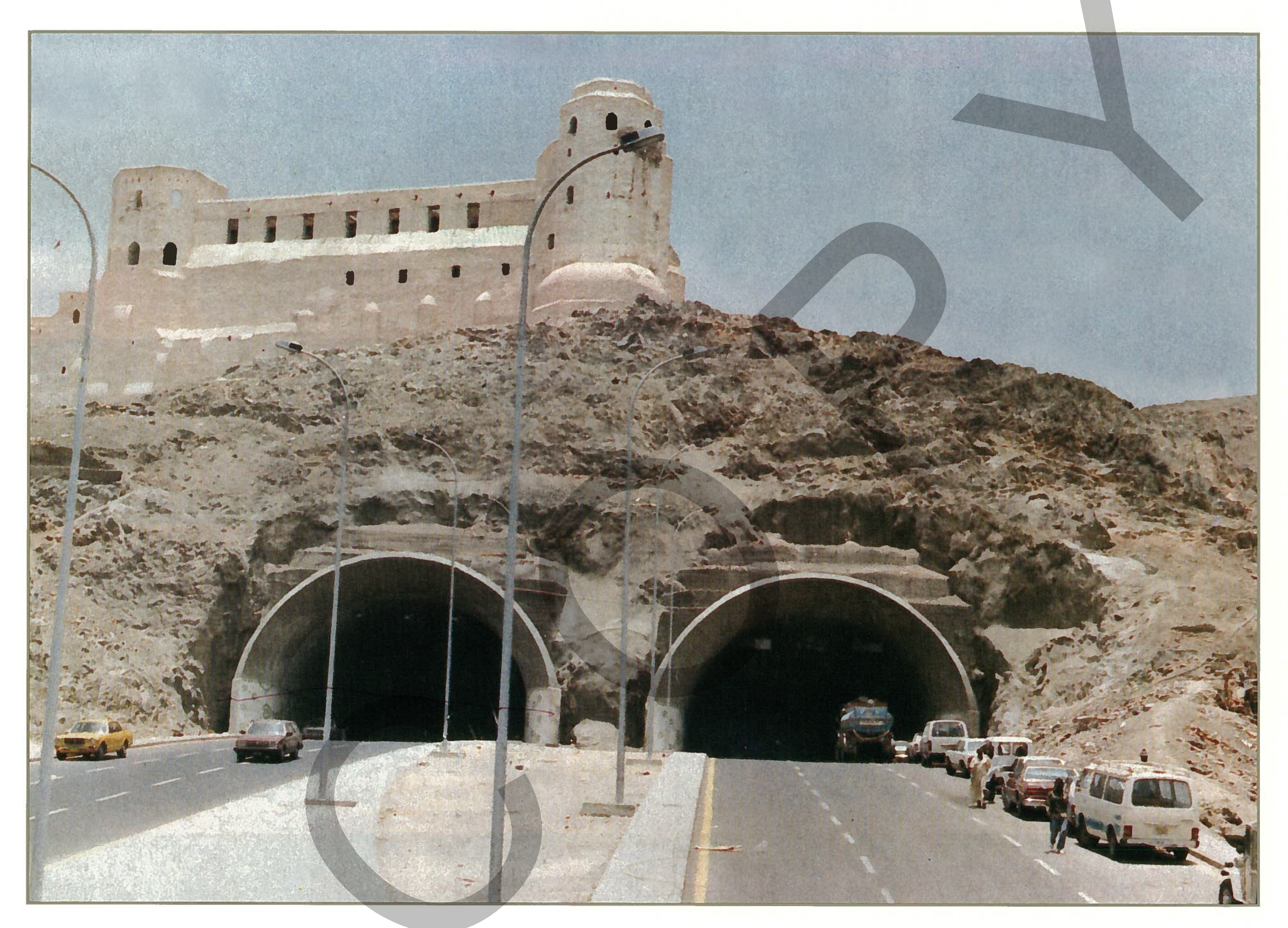
▲[ملوك ورؤساء الدول الإسلامية أثناء جلسة افتتاح مؤتمر القمة الإسلامي الثالث بالمسجد الحرام يوم الأحد الموافق ١٩/ ٣/ ١٤٠١هـ (٢٥ يناير ١٩٨١م). ويظهر في مقدمة الصورة الملك خالد بن عبدالعزيز - رحمه الله - وهو يفتتح الجلسة وبجواره ولي العهد آنذاك خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله - وخادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز حفظه الله. (صورة من مجموعة مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض)].



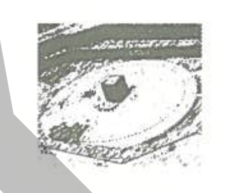


▲[الأمير فهد بن عبدالعزيز، ولي العهد آنذاك يلقي في ساحة المطاف بالمسجد الحرام بالنيابة عن الملك خالد خطاب جلسة الافتتاح وذلك قبل مغرب يوم الأحد ١٤٠١/٣/١٩هـ (الموافق ١٩٨١/١/٢٥م)].

◄[ملوك ورؤساء الدول الإسلامية يؤدون صلاة المغرب جماعة في المسجد الحرام بعد جلسة الافتتاح لمؤتمر القمة الإسلامي الثالث ١٤٠١/٣/١٩هـ].



▲[شهدت هذه المرحلة نحت عدد من الأنفاق. منها النفق الذي يربط أجياد بالمسفلة مخترقاً الجبل تحت قلعة أجياد. وتبين الصورة العمل وهو يجري على قدم وساق لإتمامه].



رابعاً - توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز للمسجد الحرام وبناء الكعبة المشرّفة:

قام خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله، في يوم الثلاثاء ٢ من صفر ١٤٠٩هـ (١٩٨٨م) بوضع حجر الأساس لتوسعة كبرى جديدة للمسجد الحرام من الجهة الغربية، وهي بذلك تعد التوسعة السعودية الثانية، فأضيفت مساحة ٥٧ ألف متر مربع للمسجد الحرام، وأدخلت الكثير من التحسينات على جميع أجزاء المسجد الحرام فأنشئت سلالم كهربائية تنقل المصلين إلى الدور الثاني والسطح، كما أن الميادين والساحات المحيطة بالمسجد الحرام أصبحت مهيأة للمصلين، مما يسمح بأداء الشعائر لمليون مصل في أدوار المسجد الحرام وساحاته المحيطة به، وقد تمت التوسعة بنهاية عام ١٤١٣هـ (١٩٩٣م)، وتلا ذلك من الأعمال البارزة أمر خادم الحرمين الشريفين بتجديد ما وهى من بناء الكعبة، وتغيير بابها والميزاب. ولقد صدر الكثير حول هذه التوسعة ونوجه نظر القارئ إلى كتاب "قصة التوسعة الكبرى" الذي نشرته مجموعة ابن لادن السعودية، وكتاب "الحرمان الشريفان" الذي أصدرته رئاسة الحرمين. وسنقدم أولاً نبذة تاريخية عن بناء الكعبة.

بناء الكعبة المشرفة:

من المعلوم أن الكعبة المشرفة قد بناها سيدنا إبراهيم عليه السلام ومعه ابنه إسماعيل، وكانت مستطيلة الشكل؛ لأنها تضم أيضاً ثلاثة أمتار من حجر إسماعيل الحالي، وكان ارتفاعها حوالي أربعة أمتار ونصف وليس لها سقف ولها باب بدون مصراع. ويقال: إن أول من بنى الكعبة الملائكة ثم أبو البشر آدم ثم ابنه شيث، ثم ضاعت معالمها حتى بوأها الله جل جلاله للخليل إبراهيم عليه السلام. والثابت أيضاً أن قصي الجد الرابع للنبي صلى الله عليه وسلم قد بناها بنياناً قوياً قبل البعثة بحوالي ١٣٠ عاماً وجعل لها سقفاً من خشب الدوم وجريد النخل ووضع على بابها مصراعاً لإغلاقه، وكان قريباً من الأرض. ولاشك أن الفترة من بناء إبراهيم عليه السلام إلى قصي تمتد حوالي ثلاثة آلاف عام، وتشير الروايات إلى بناء الكعبة المشرفة بواسطة قبيلة جرهم، والعمالقة، وخزاعة، وليس هناك تفاصيل عن هذه البنايات، لكن طول الفترة الزمنية يؤكد ضرورة تجديد بنيان الكعبة مرات عديدة، خاصة وأن بنيانها كان مجرد رضم غير مجصص.

ثم قامت قريش، قبل البعثة بخمس سنوات، ببناء الكعبة المشرفة، وكان عمر النبي صلى الله عليه وسلم ٣٥ عاماً على أرجح الروايات، وقد شارك صلى الله عليه وسلم في نقل الأحجار للبناء وكان الحَكَم الفصل في وضع الحجر الأسود في مكانه بعد اختلاف زعماء قريش على من يتشرف بوضعه، كما هو معلوم. وقد زادت قريش في ارتفاع الكعبة إلى الضعف فأصبح ارتفاعها تسعة أمتار، لكن قصرت عليهم النفقة، فتركوا حوالي ثلاثة أمتار مما يلي حجر إسماعيل، فأصبحت الكعبة أقرب إلى التربيع في مساحتها، كما أن ارتفاعها يجعلها مكعبة الشكل تقريباً، وقاموا برفع الباب كما هو وضعه اليوم.

وفي عام ٦٥هـ (٦٨٤م) قام عبدالله بن الزبير بنقض الكعبة بعد تخلخلها إثر حصار الأمويين له بمكة المكرمة، وأعاد بناءها على قواعد إبراهيم عليه السلام بإدخال ما تركته قريش من حجر إسماعيل على أحسن وضع، وزاد في ارتفاعها لتصبح حوالي ١٣ متراً، وخفض الباب وجعل لها باباً آخر جهة الغرب، حسبما كان يتمناه الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث عائشة رضي الله عنها الذي رواه الإمام مسلم. ولكن تغلب الأمويين على ابن الزبير وقتله، جعلهم يقررون إلغاء ما فعله فهدم الحجاج عامل الأمويين على مكة الجزء الذي أدخله ابن الزبير في البناء من جهة حجر إسماعيل، ورفع بابها الأمامي وأغلق بابها الخلفي. واستمر هذا البنيان حتى عام ١٠٣٩هـ (١٦٣٠م)، عندما داهم سيل ضخم المسجد الحرام في ذلك العام، وهدمت الكعبة، فأمر السلطان العثماني مراد الرابع بإعادة بنيانها دون أي تغيير في مساحتها أو ارتفاعها أو ارتفاع بابها. هذا بالنسبة للبنيان الكامل، أما الترميمات، خاصة للسقف الذي كثيراً ما يتضرر بالأمطار فقد جرت عدة مرات عبر السنين، ولابد من الإشارة إلى أن سُمك جدار الكعبة المشرفة أقل قليلاً من المتر، وهو عبارة عن جدارين متلاصقين أحدهما الخارجي الذي يشاهده الناس، والآخر جدار داخلي.

ترميم و تجديد الكعبة المشرّفة:

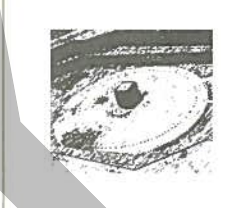
بدأ ترميم الجدار الخارجي للكعبة المشرفة عام ١٤١٥هـ (١٩٩٤م)، ترميماً شاملاً، حيث تمت إزالت المونة من بين أحجار الجدار ووضع مونة جديدة خاصة قوية واستغرق ذلك العمل من شهر محرم إلى شهر شعبان ١٤١٥هـ (يونيو إلى ديسمبر ١٩٩٤م)، وقد تم ذلك باستخدام السقايل المكشوفة دون وضع سواتر حاجزة حول الكعبة المشرفة. وفي العام التالي جرت دراسات دقيقة للجدار الداخلي للكعبة والعوارض الخشبية والأعمدة وجرت كذلك عمليات حفر اختبارية فوجد أن من الضروري فك الجدار الداخلي. ونظراً لقرب موسم الحج فإن العمل تأجل إلى العام التالي.

وبدأ العمل يوم الإثنين العاشر من محرم ١٤١٧هـ (٢٧/٥/١٩٩٦م)، حيث أحيطت الكعبة المشرفة و حجر إسماعيل بساتر خشبي مطلي باللون الأبيض بإرتفاع يتجاوز قليلاً سطح الكعبة ويترك بينه وبين جدار الكعبة مسافة تسمح بالعمل، وبحيث لا يظهر إلا ما يحتاجه الطائفون من استلام الحجر الأسود فقط.

وأزيل سقفا الكعبة والأعمدة الثلاثة الحاملة له، ثم أزيلت اللياسة الكاسية لوجه الجدار الداخلي ونزعت المواد القديمة الماسكة للأحجار. وجرى ترقيم كافة الأحجار تمهيداً لفكها ثم إعادتها. وقد أزيلت الشدات الخشبية لتضررها بالفطريات والرطوبة وجرى التفكيك بشكل منتظم بدءاً من الجهة العليا على شكل شرائح بعرض مترين تقريباً على مراحل حتى منسوب الأرضية الداخلية للكعبة، ثم أزيلت الأرضية بكاملها



▲[على بركة الله خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله يضع حجر الأساس لمشروع توسعة وعمارة المسجد الحرام و إلى جواره خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز وولي عهده الأمير سلطان بن عبدالعزيز وذلك في يوم الثلاثاء الثاني من صفر عام ١٤٠٩هـ (١٩٨٨/٨/١٣م). وتبين الصورة المصغرة اللوحة التذكارية بهذا المناسبة].



إلى مستوى أرضية المطاف، واستكمل فك الأحجار حتى أسفل منسوب المطاف بحوالي نصف متر. ثم جرت دراسة الأساسات السفلى إلى عمق أربعة أو خمسة مداميك فوجد أنها من الأحجار الصلبة المماثلة لأحجار الجدار العلوية وهي متراصة فوق بعضها دون مونة، وسليمة جداً ولا تحتاج إلى أي معالجة. ولوحظ أن الأساس يبرز قليلاً عن الجدار الذي يعلوه.

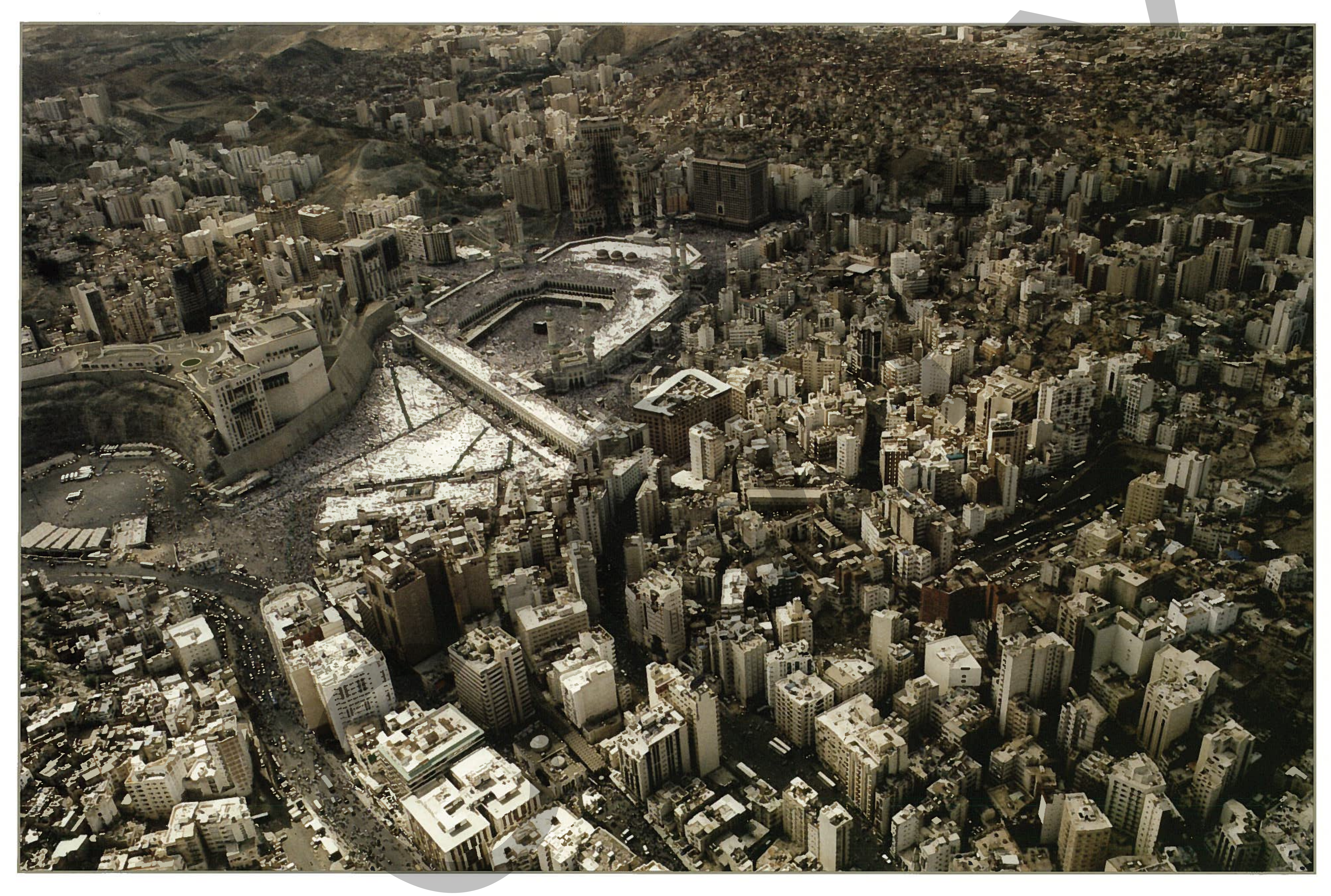
وهكذا بدأ البنيان بإعادة الأحجار القديمة إلى نفس موقعها بعد تنظيفها وغسلها، واستخدمت مواد ماسكة ذات قدرة عالية جداً للإلتصاق، وحقنت الفراغات بمواد إسمنتية ذات مواصفات خاصة من شدة التماسك وعدم التقلص، وغرست فيما بينها قطع معدينية طويلة لتربط بين أحجار الجدار الداخلي والأحجار الداخلية. وهكذا حتى تم بناء الجدار الداخلي بجوانبه الأربعة. ثم جرى إقامة الأعمدة الجديدة على قواعد من الخرسانة المسلحة بدلاً من القواعد الصخرية القديمة، على مسافات متساوية. ثم جرى إنشاء سقفي الكعبة (المسافة الصافية بينهما ٩٧،٥سم)، كل ذلك من خشب التيك المزروعة أصلاً في غابات بورما بجمهورية ميانمار. ثم وضعت فوق السقف العلوي طبقة من المواد العازلة وغطيت بالرخام. وبعد ذلك تم تركيب الميزاب الذهبي الجديد الذي صنع بنفس المقاسات والكتابات القديمة لكنه أقوى وأمتن من سابقه.

وقد أزيل الرخام القديم لجدران وأرضية حجر إسماعيل وكذلك رخام الشاذوروان واستبدل برخام أبيض جديد، وأنشئت مصطبة (حوالي ٥٠×٧٥سم وارتفاع متر) في منطقة الملتزم يرقى عليها جندي لحراسة الحجر الأسود. كما اسبدلت القاعدة الرخامية السوداء للقبة البلورية التي تضم مقام إبراهيم قاعدة من الرخام الأبيض لتكون متجانسة مع رخام الشاذروان وحجر إسماعيل. وقد تمت كافة الأعمال قبل شهر رمضان ١٤١٧هـ (ديسمبر ١٩٩٦م).



▲[صورة تبين أن العمل في مشروع توسعة خادم الحرمين الشريفين للمسجد الحرام. جار على قدم وساق حوالي عام ١٤١٢هـ (١٩٩١م). لإتمام التوسعة السعودية الثانية، توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله].

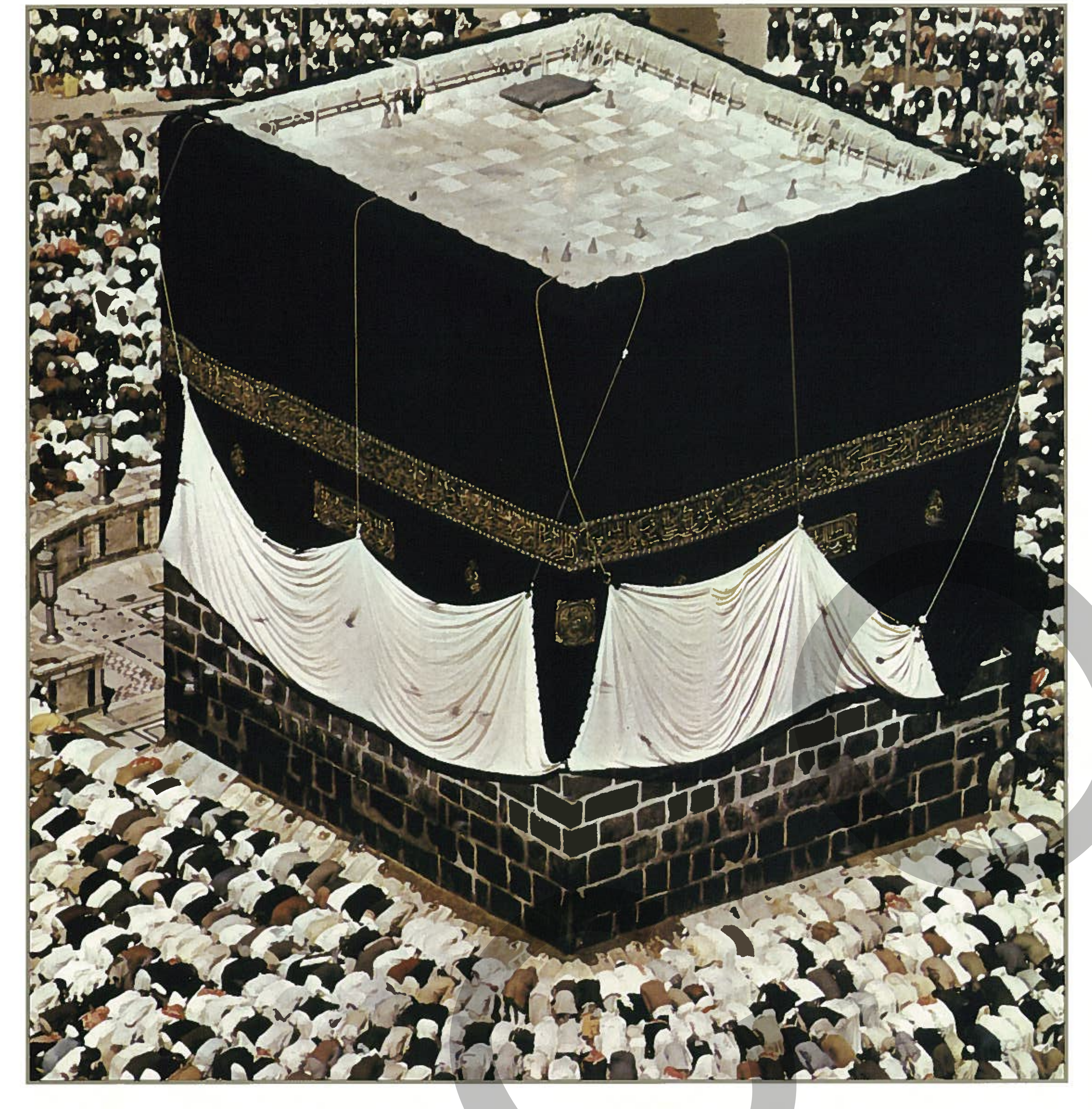
وبالمناسبة فقد جرى تجديد الطوق الفضي المحيط بالحجر الأسود بتاريخ ١١/٣/١٤٢٢هـ (٣/٦/٢٠٠١م). والحقيقة أن مكة المكرمة، قد شهدت خلال هذه

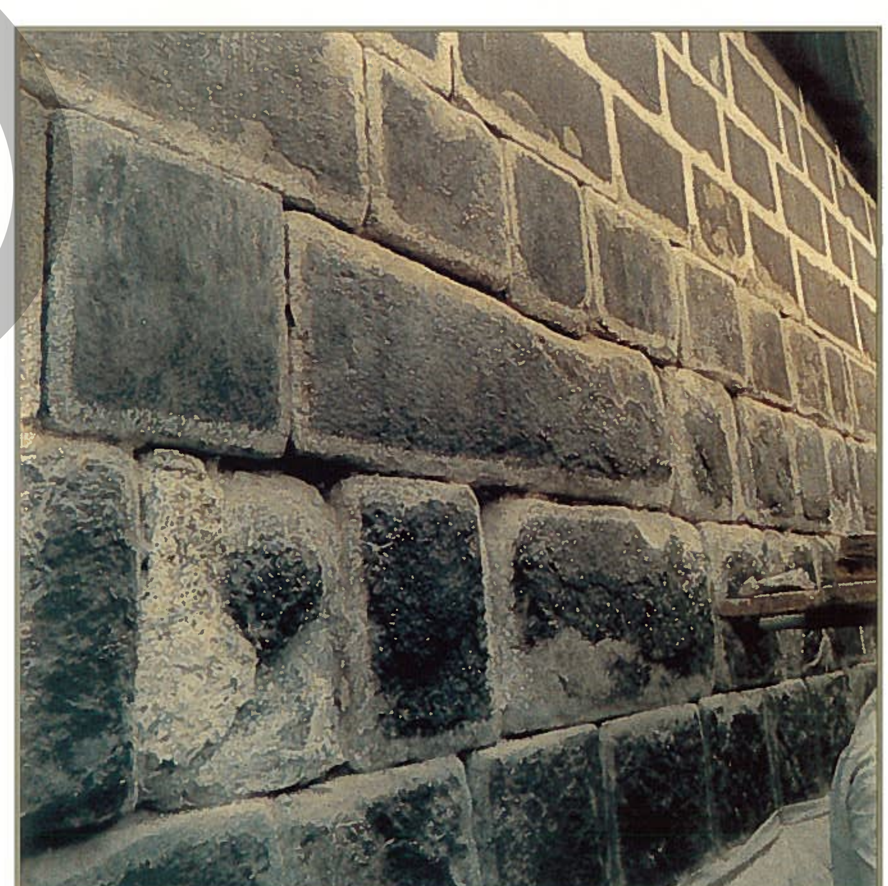


▲[صورة جوية للمسجد الحرام باتجاه الجنوب وقد ظهرت توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله بعد إتمامها وتتميز بقبابها الثلاث والمنارتين. التقطت الصورة في موسم حج عام ١٤٢٣هـ (٢٠٠٣م)].



المدة تطوراً هائلاً، فقد استكمل فتح العديد من الأنفاق والطرق الدائرية، وجرى تنظيم موقع عرفات بمد خط دائري جديد يحيط بحدودها النهائية، مما يسمح باستيعاب أعداد هائلة من الحجاج، كذلك الأمر بالنسبة لمنى فقد جرى تطوير منى وأزيلت جميع المباني، وأقيمت الخيام المضادة للحريق في كل أجزائها، وتم عمل جسر الجمرات، بحيث يستطيع الحجاج الرمي من الدور العلوي أيضاً. ومع مطلع عام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م) صدر الأمر السامي بتوسعة صحن المطاف حول الكعبة المشرفة وتهيئة الدور الأول من الرواق القديم والسطح للراغبين في الطواف أوقات الذروة بعيداً عن الزحام. وبذلك تم إلغاء المبنى المقام تحت الأرض والمتصل ببئر زمزم وتم عمل نفق للدخول إلى البئر من خارج المسعى لأغراض الصيانة فقط، وتم عمل نافورات لشرب ماء زمزم عند الرواق الشرقي للرجال وخلف الرواق للنساء. وهكذا أصبح صحن المطاف متاحاً بكامله للطائفين بدون عوائق.





▲[تبين الصورة الكعبة المشرفة قبل عملية التجديد التي بدأت عام ١٤١٥هـ (١٩٩٤م). وتبين الصورة إلى اليمين الجدار الخارجي للكعبة بعد تفريغ المونة القديمة من بين الأحجار دون تحريك أي حجر من موضعه]



▲[الكعبة المشرفة محاطة بساتر خشبي أبيض. لا يبين سوى الحجر الأسود. وذلك في أثناء عملية التجديد والترميم التي أجريت للكعبة المشرفة عام ١٤١٧هـ (١٩٩٦م). (تصوير د. معراج مرزا)].





▲[الكعبة المشرفة بعد إتمام الترميم للواجهة الخارجية للجدار. وتجري الاستعدادات لوضع الثوب الجديد عليها. لاحظ أن عدد صفوف أحجار الكعبة المشرفة - وتسمى مداميك - هو ٢٦ صفاً من أرض المطاف إلى أعلى السطح. وأن المدماك الخامس عشر رفيع جداً ويشير إلى ارتفاع الكعبة قبل بناء عبدالله بن الزبير لها عام ٦٥هـ (٦٨٤م). حيث جعل ارتفاعها ٢٧ ذراعاً بدلاً من ١٨. كما يلحظ أن المدماك ٢١ فيه ثلاث فتحات للعوارض الخشبية الضخمة الثلاث التي يقوم عليها السقف الداخلي (السفلي) للكعبة المشرفة وتمتد من الجدار الغربي إلى الجدار الشرقي الذي به الباب. وتبين الصورة العليا إلى اليمين المواد التي استخدمت لملء الفراغات بين الأحجار لتزيد من تماسك الأحجار ببعضها. وتبين الصورة السفلى إلى اليمين اللوحة التي ثبتت في جدار الكعبة الداخلي مع بقية اللوحات التاريخية التي تسجل عمليات البناء والترميم التي تمت في الكعبة المشرفة عبر التاريخ].

المنبر المتحرك:

أمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز بصنع منبر للمسجد الحرام؛ وقد تم تنفيذه عن طريق مؤسسة وطنية متخصصة، وبدئ في استخدامه خلال شهر رمضان ١٤٢٣هـ (نوفمبر ٢٠٠٢م)، وقد صُنِع أساس هذا المنبر من الصلب غير القابل للصدأ (ستينلس ستيل)، وهو مكسو برخام مزخرف من نوع كرارة، ويقوم على عجلات مجهزة بإطارات مطاطية، ومزود بمحرك كهربائي لدفعه إلى قرب الكعبة المشرفة، والمنبر مزود أيضاً بوحدة للتبريد وقد بلغت تكاليفه خمسة ملايين وسبعمائة وخمسين ألف ريال.



◄[الصورة إلى اليمين: تبين مقام إبراهيم بعد وضع القاعدة الرخامية البيضاء مكان القاعدة السوداء السابقة عام ١٤١٧هـ (١٩٩٦م)].

▲[وتبين الصورة العليا: ميزاب الكعبة الذهبي الجديد الذي ثبت في نهاية عملية التجديدات والترميمات عام ١٤١٧هـ (١٩٩٦م)].

◄[وتبين الصورة السفلى إلى اليسار: المنبر الرخامي المتحرك الجديد الذي صنع عام ١٤٢٣هـ (٢٠٠٢م). ويظهر إلى يمينه جدار حجر إسماعيل المكسو بالرخام الأبيض].



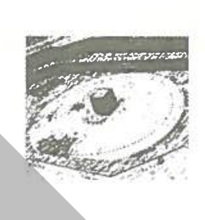
وقف الملك عبد العزيز للحرمين الشريفين:

صدر الأمر السامي بوقف المنطقة المشتملة على قلعة أجياد وما حولها على جبل خليفة، المقابل لباب الملك عبدالعزيز كوقف لصالح الحرمين الشريفين تحت اسم وقف الملك عبدالعزيز. وقد جرى تهيئة المنطقة وأزيلت القلعة في شهر شوال ١٤٢٢هـ (يناير ٢٠٠٢م)، ثم قام الأمير عبدالله بن عبد العزيز ولي العهد آنذاك، نيابةً عن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز في يوم الجمعة ٢٤ من رمضان ١٤٢٣هـ (٢٢ نوفمبر ٢٠٠٢م) بوضع الحجر الأساس للمشروع الاستثماري الذي سيقام على الموقع، وتقدر تكاليفه بملياري ريال، ويهدف المشروع إلى إنشاء أربعة أبراج سكنية تضم ٥٥٠٠ وحدة سكنية تستوعب ٢١ ألف شخص، وفندق يضم ١٣٣٢ غرفة ومطاعم ومواقف سيارات تستوعب ١٤٠٠ سيارة ومصلى لأكثر من ٥٠ ألف شخص ومساحات مفتوحة. وقد أسند المشروع إلى مستثمر يقوم بتنفيذه واستثماره، وفي نهاية العقد سيعود المشروع بكامله إلى إدارة الوقف.

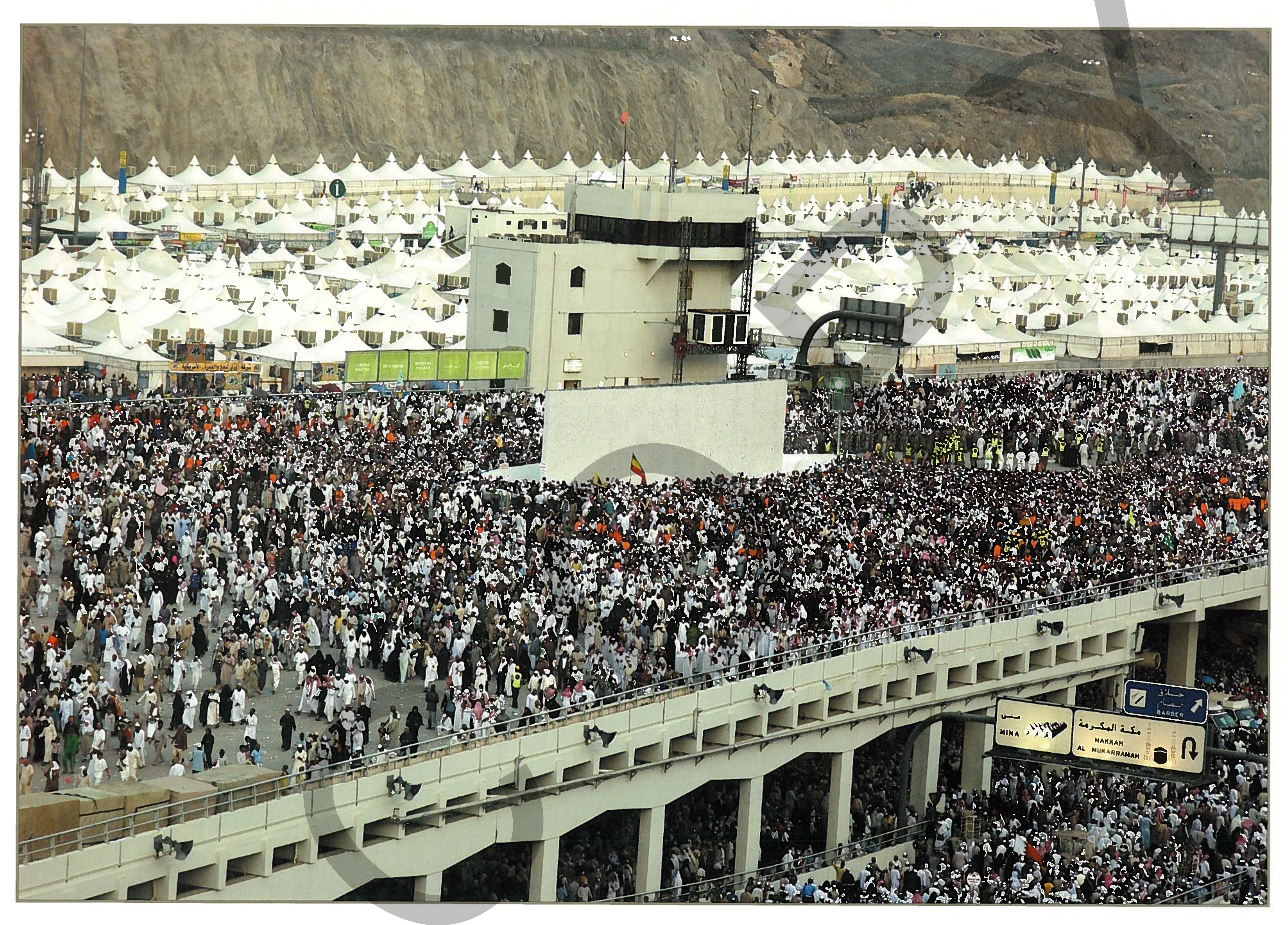
▲[صورة فضائية التقطت من القمر الصناعي الأمريكي إيكونوس الساعة الحادية وعشرين دقيقة صباح يوم عيد الأضحى الجمعة الموافق ١٤٢٢/١٢/١٠هـ (٢٠٠٢/٢/٢٢م) ويظهر فيها المسجد الحرام مع توسعة الملك فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله - والساحات المحيطة ويظهر على يمين الصورة جبل خليفة وقد أزيلت القلعة التي كانت عليه تمهيداً لإنشاء وقف الملك عبدالعزيز للحرمين الشريفين].



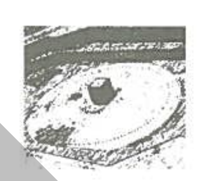
▲[صورة جوية لجبل الرحمة بعرفات وقد ازدحم والساحات المحيطة به بالحجاج في يوم عرفة من حج عام ١٤٢٣هـ (٢٠٠٣م)].



▲[صورة جوية لمنى التقطت يوم النحر حج عام ١٤٢٣هـ (٢٠٠٣م) باتجاه القبلة (الغرب). ويظهر فيها جسر الجمرات والساحات والطرقات مكتظة بالحجاج ويظهر في الوسط والأطراف الخيمات الحديثة المقاومة للحريق ويظهر من الطرف السفلي الأيسر مسجد الخيف].



▲[صورة من منى في حج عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م) تبين شاخص الجمرات الجديد وقد أنشئ قبل حج عام ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م) حائط طويل - عشرون متراً وارتفاع أربعة أمتار - بدلاً من الشاخص العامودي وأصبح الحوض الذي يتلقى الحصى بيضاوي الشكل لتسهيل عملية الرجم].



خامساً: المشاريع التطويرية للمسجد الحَرام ومكة المكرمة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود:

منذ أن تولى خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز وهو يوالي اهتمامه بأعمال تطوير المسجد الحرام والمشاعر المقدسة، ومكة المكرمة، وقد استهل عهده الميمون بزيارة المسجد الحرام والطواف حول الكعبة المشرفة والصلاة فيه يوم الجمعة ٧ رجب ١٤٢٦هـ (١٢/٨/٢٠٠٥م)، وتابع عمليات الإنشاء في مشروع وقف الملك عبدالعزيز بمنطقة أجياد، وبقية المخططات لتطوير المنطقة المركزية حول المسجد الحرام والمشاعر المقدسة.

وقام خادم الحرمين الشريفين بعد ظهر الجمعة ١٤٢٦/٧/٢١هـ (٢٠٠٥/٨/٢٦م) بزيارة تفقدية لمشروعات تطوير منطقة الجمرات وإقامة جسر جديد متعدد الأدوار، واطلع على سير العمل بالمشروع، واستمع إلى شرح مفصل عما يشتمل عليه المشروع من جسور ومنشآت وطرق وأنفاق وما تضمنه من طاقة استيعابية أكبر، سوف تؤدي –بإذن الله– إلى إنهاء مشكلة ازدحام الحجاج حول الجمرات والساحات بمنى. كما استمع خادم الحرمين الشريفين إلى شرح عن مشروع امتداد الأنفاق من جسر الملك خالد إلى المعيصم وإلى جهة مستشفى النور مع التقاطعات والجسور التي سوف تؤدي بمشيئة الله إلى تسهيل حركة المرور من وإلى منى.

ومن جهة أخرى دعا خادم الحرمين الشريفين لعقد مؤتمر قمة إسلامي استثنائي في مكة المكرمة لمناقشة قضايا المسلمين عامةً وقد عقد المؤتمر يوم الأربعاء والخميس الخامس والسادس من شهر ذي القعدة ١٤٢٦هـ (٧و٨ ديسمبر ٢٠٠٥م)، وقد صدر عن المؤتمر بيان ختامي و "بلاغ مكة المكرمة" وبرنامج العمل العشري وتبين الصور المرفقة تطورات كل هذه الأحداث.

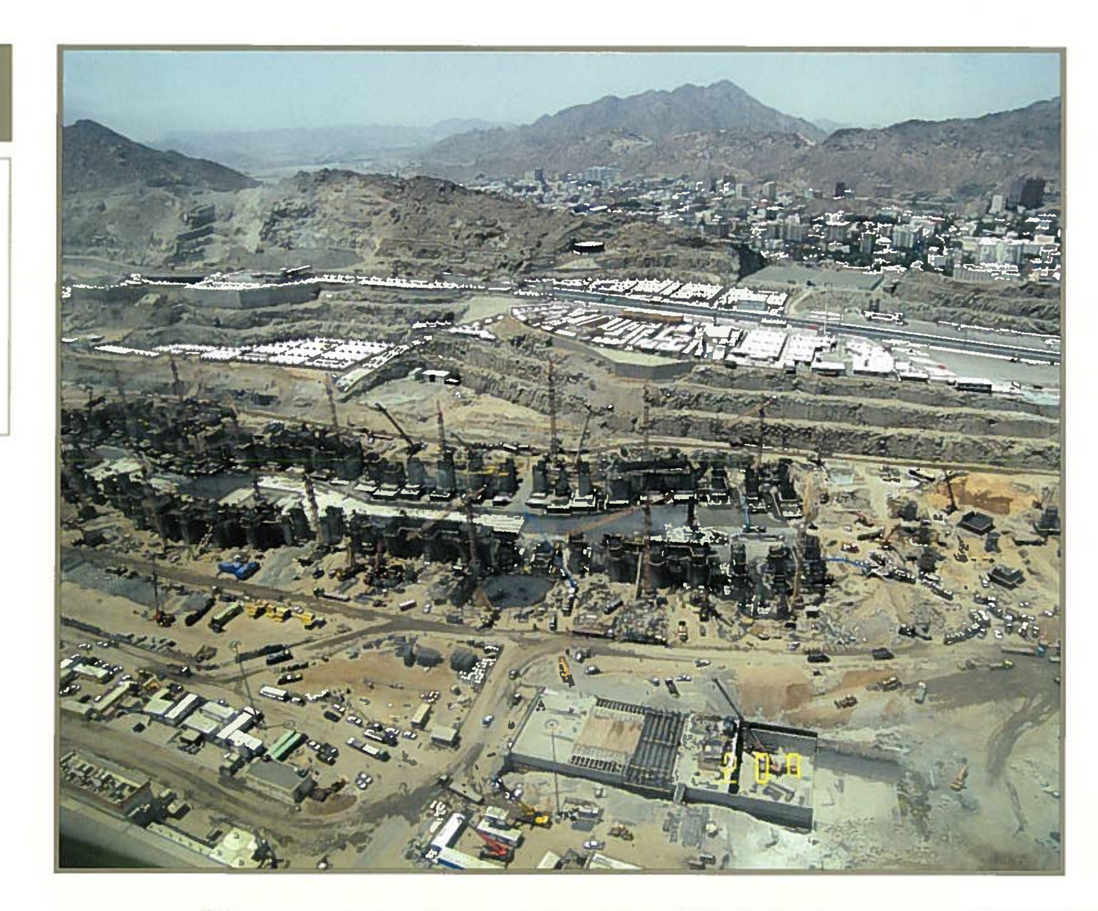


▲[خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز وهو يهم بتقبيل الحجر الأسود في أثناء أدائه الطواف بالكعبة المشرفة في السابع من شهر رجب ١٤٢٦هـ (١٢/٨/٢٠٠٥م)].

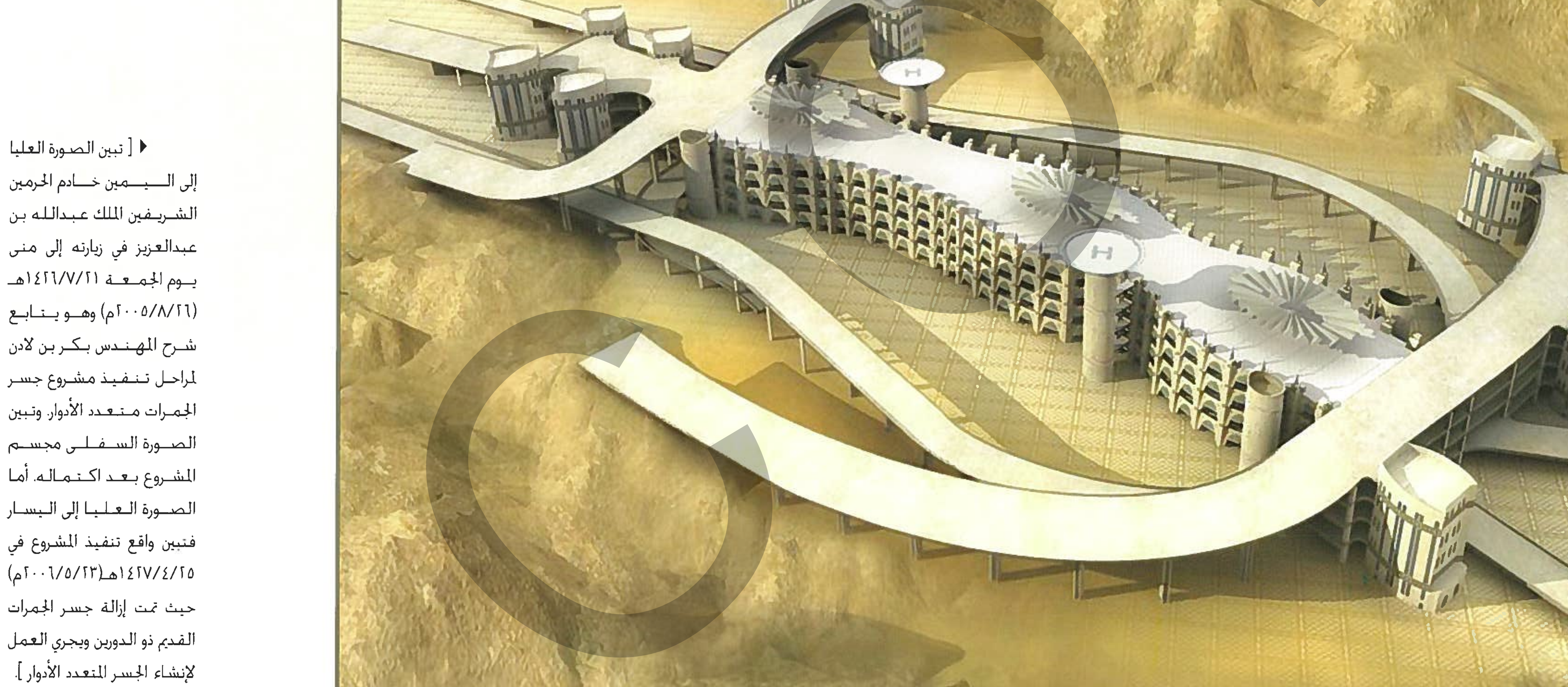


▲[صورة جوية التقطت في شهر ربيع الآخرة ١٤٢٧هـ (مايو ٢٠٠٦م) تبين الكعبة المشرفة وسط ساحة المسجد الحرام وتوسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله - وتظهر في الصورة سبع من منائر المسجد الحرام. وعلى يسار الصورة البرج الأمامي في مشروع وقف الملك عبدالعزيز وقد شارف على الإنتهاء (حوالي ٦٠ دوراً) وخلفه البرج الرئيس الذي سيكون ارتفاعه حوالي ٩٠ دوراً. والعمل جارٍ في إنشاء البرجين الثالث والرابع].

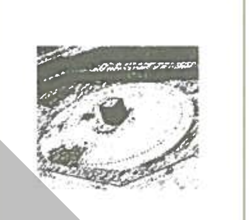




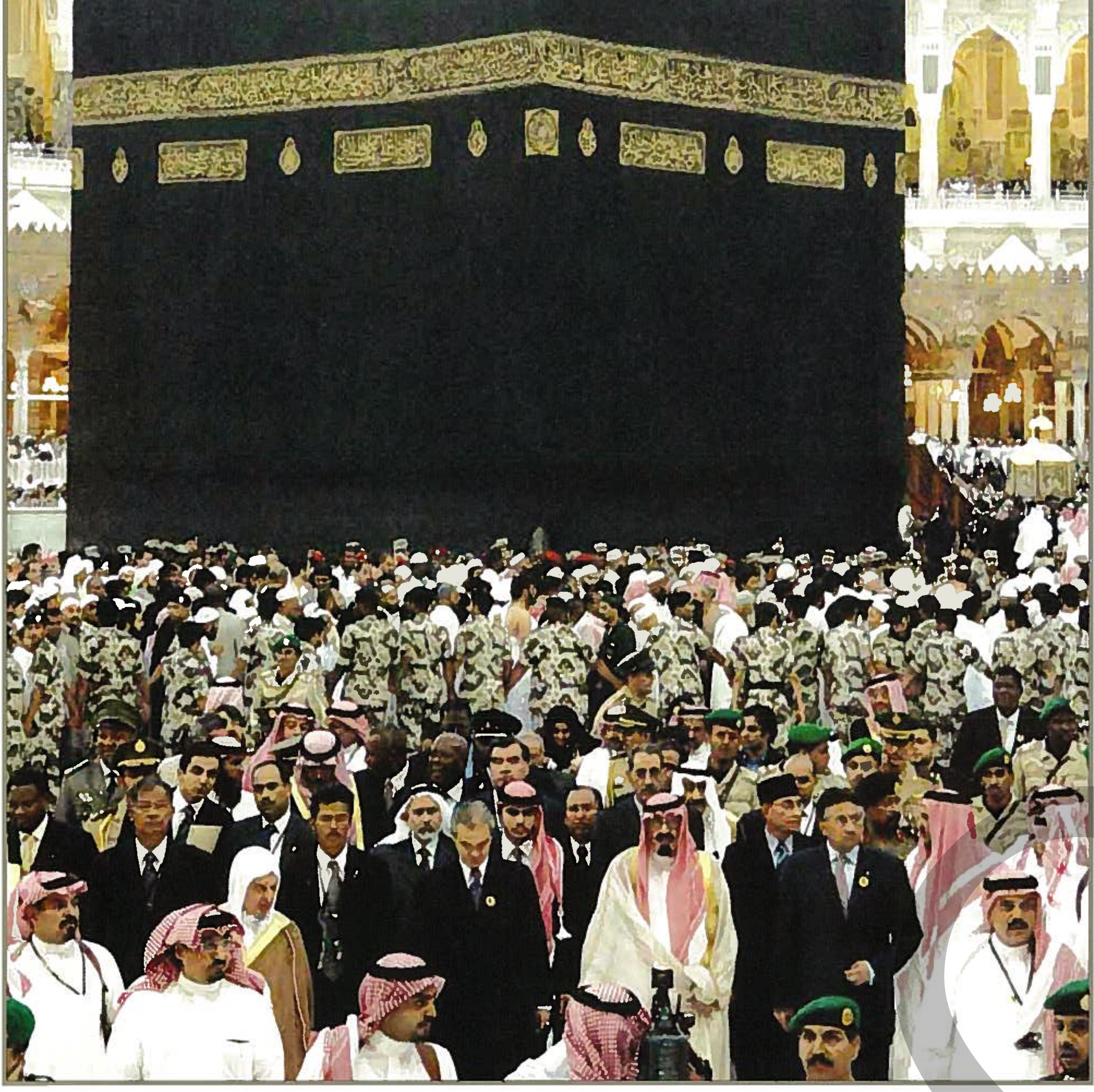


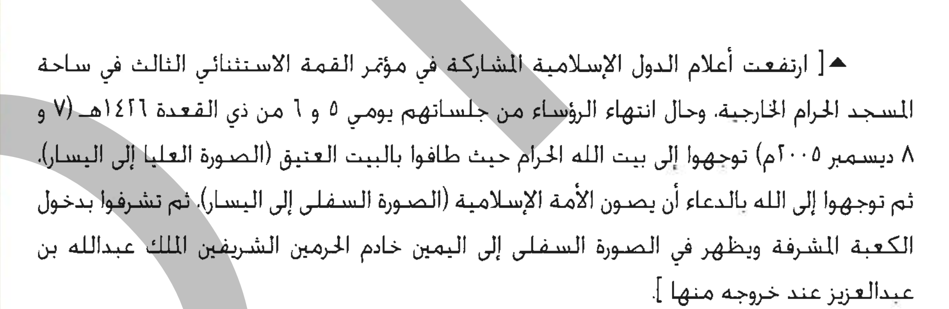


[تبين الصورة العليا إلى اليمين خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز في زيارته إلى منى يوم الجمعة ١٤٢٦/٧/٢١هـ (٢٠٠٥/٨/٢٦م) وهو يتابع شرح المهندس بكر بن لادن لمراحل تنفيذ مشروع جسر الجمرات متعدد الأدوار. وتبين الصورة السفلى مجسم المشروع بعد اكتماله. أما الصورة العليا إلى اليسار فتبين واقع تنفيذ المشروع في ١٤٢٧/٤/٢٥هـ(٢٠٠٦/٥/٢٣م) حيث تمت إزالة جسر الجمرات القديم ذو الدورين ويجري العمل لإنشاء الجسر المتعدد الأدوار].









▲[ارتفعت أعلام الدول الإسلامية المشاركة في مؤتمر القمة الاستثنائي الثالث في ساحة المسجد الحرام الخارجية. وحال انتهاء الرؤساء من جلساتهم يومي ٥ و ٦ من ذي القعدة ١٤٢٦هـ (٧ و ٨ ديسمبر ٢٠٠٥م) توجهوا إلى بيت الله الحرام حيث طافوا بالبيت العتيق (الصورة العليا إلى اليسار). ثم توجهوا إلى الله بالدعاء أن يصون الأمة الإسلامية (الصورة السفلى إلى اليسار). ثم تشرفوا بدخول الكعبة المشرفة ويظهر في الصورة السفلى إلى اليمين خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز عند خروجه منها].

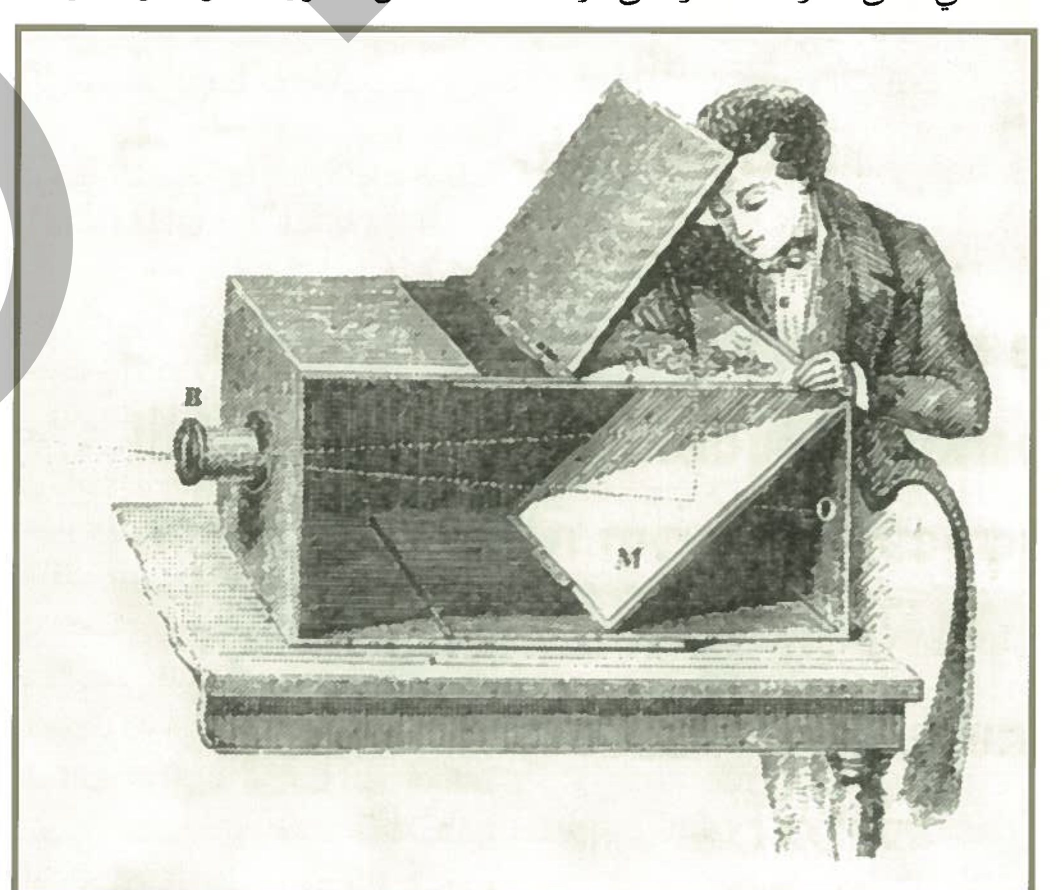




يرتكز التصوير الفوتوغرافي على ركائز ثلاث: الأولى جهاز ضوئي لحفظ الصورة والثانية مادة كيماوية تستجيب لتغير الإضاءة، والثالثة وجود وسط لتثبيت هذا التغير في الإضاءة.

لقد كانت أول خطوة في تطور التصوير الفوتوغرافي هي فكرة "الغرفة المظلمة" وهي عبارة عن صندوق محكم لا ينفذ الضوء إليه إلا من خلال ثقب صغير في مقدمته فيمكن مشاهدة ظل المنظر الخارجي معكوساً على لوحة مثبتة في الطرف الآخر من الصندوق.

وقد عرف أرسطو قبل أكثر من ألفي عام، مبادىء الإضاءة ثم طورها العالم العربي المسلم أبو علي الحسن بن الهيثم المتوفى عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م)، ثم قام ليوناردو دافنشي، الإيطالي بتطبيق الفكرة حوالي عام ٨٩٦هـ (١٤٩٠م)، محاولاً رسم الصورة المنعكسة من الثقب، ولكن عمله ظل مغموراً إلى أن استطاع الألماني "جوهان زان" عام ١٠٩٧هـ (١٦٨٥م) وضع أبعاد محددة للصندوق المظلم وشرح كيفية التحكم في مساحة الظل المنعكس، فأصبح من الممكن وضع عدسة على الثقب فتنعكس صورة الشيء على الطرف الآخر على مرآة مائلة فتنعكس الصورة المقلوبة مرة أخرى على



[الغرفة أو الصندوق المظلم، أول المحاولات لتثبيت الصورة].

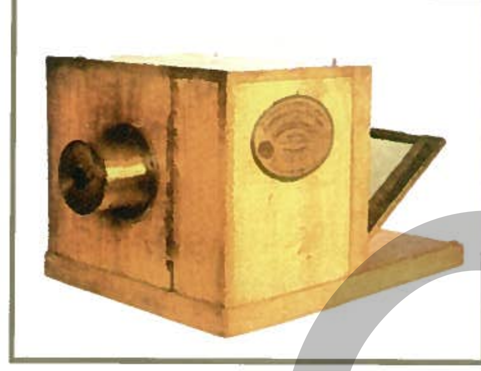
سطح الصندوق حيث يضع الرسام ورقة شفافة ويرسم الشيء بقلمه، كما يظهر في الصورة المصاحبة.

وفي عام ١١٧٢هـ (١٧٥٨م) اخترع "جون دولاند" ما يسمى بالعدسة اللالونية. وفي بداية القرن التاسع عشر تطورت صناعة العدسات المحدبة والمقعرة وكذلك تطورت صناعة العدسات غيراللونية وظهر" الفانوس السحري" وهو بداية مبسطة لأجهزة إسقاط الصور الحديثة التي توضع عليها الشفافيات لعرضها على شاشة كبيرة. ومن جهة أخرى بدأت الكيمياء الحديثة في التطور، ومنذ بداية القرن السابع عشر ازدادت معارف الكيماويين بالمواد التي تتأثر بالضوء مثل كلوريد الفضة، وعرفوا أن النشادر يجعل كلوريد الفضة المسودة غير قابل للذوبان، بمعنى أن النشادر مادة مثبتة، ثم اكتشفت حساسية مركبات الفضة الأخرى يوديد الفضة وبروميد الفضة للضوء وتم إستخدام ذلك في التصوير.

المرحلة الأولى - بداية التصوير الفوتوغرافي ١٢٥٥ - ١٢٦٧هـ (١٨٣٩- ١٨٥٠م):

نجح المخترع الهاوي الفرنسي "نيبس" في عام ١٢٣٧هـ (١٨٢٢م) في تثبيت الرسومات، بنسخ الرسم المحفور على الحجر أو الزجاج أو الزنك، بوضع لوح مطلي بمادة حساسة للضوء على الرسم وتعريضه لضوء الشمس. ثم أدخل بعض التحسينات فاستخدم" الغرفة المظلمة" لكي يضع بداخلها اللوح المطلي ويضع الرسم أمام ثقب الغرفة المظلمة في ضوء الشمس، وكان زمن التعريض يصل إلى ثماني ساعات. وأطلق على هذه العملية اسم: الحفر الشمسي.

من جهة أخرى كان الرسام الفرنسي المتهن "لويس جاكس داغير" قد سمع بجهود "نيبس"، فاتصل به، وقويت العلاقة بينهما واشتركا من عام ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م) في عملية تحسين اختراع الحفر الشمسي وتطويره، لكن "نيبس" مات عام ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م)، دون التوصل إلى نتائج ملموسة.

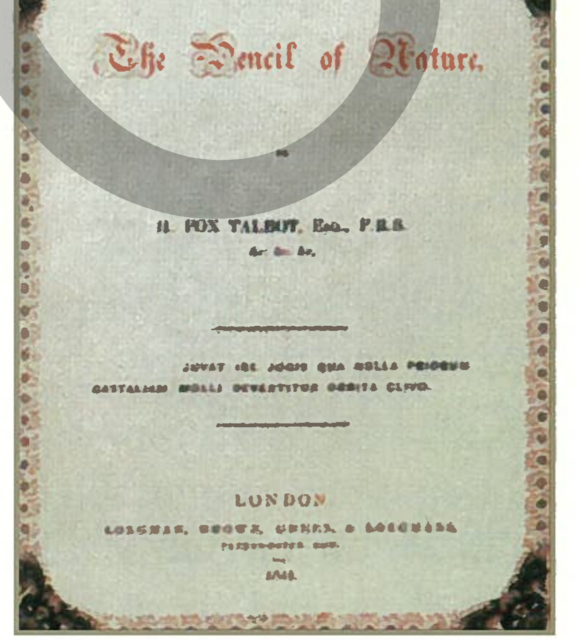


[كاميرا داغير تايب -بدون فلم- عام ١٨٣٥م].

وفي عام ١٢٥١هـ (١٨٣٥م) اكتشف "داغير" إمكانية إظهار الصورة من الألواح المطلية في نصف ساعة فقط إذا عرضت لبخار الزئبق، لكن الصورة لا تصمد للضوء بعد ذلك، وسرعان ما تسود. واستمرت محاولاته حتى استطاع بعد عامين تثبيت الصورة باستخدام محلول من ملح الطعام. وعنها أطلق على طريقته اسم "داغير تايب"، وهذا يعني عدم إمكانية عمل نسخ أخرى من الصورة؛ لأن العملية لا ترتكز على إنتاج



سلبية "عفريتة". وتبدو في الصورة السابقة، أول كاميرا لهذا التصوير الشمسي. وفي ذي القعدة ١٢٥٩هـ (يناير ١٨٣٩م) تبلغت أكاديمية العلوم والفنون الجميلة بباريس بخبر الاختراع الجديد. واتفقت الحكومة الفرنسية مع "داغير"، وابن "نيبس" على شراء حقوق اختراع الحفر الشمسي وال "داغير تايب" مقابل راتب سنوي يدفع لهما مدى الحياة، وأباحت نشر الاختراع للجميع فأصدر "داغير" كتيباً يشرح كل التفاصيل الفنية حتى ظهرت منه ٣٩ طبعة وترجمة خلال العام ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) نفسه، في بريطانيا، كان هناك منافس آخر يسمى "ويليام هنري تالبوت" وهو عالم متخرج في جامعة كيمبردج، و لم يكن على علم بما حققه "داغير" في فرنسا، وقد بدأ تجاربه منذ عام ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م) لإنتاج ورق مطلي بمادة حساسة للضوء. لكن تثبيت الظل على الورق لم يكن كافياً حتى اقترح عليه العالم جون هيرشل، في ذي الحجة ١٢٥٤هـ (فبراير ١٨٣٩م) استخدام "الصوديوم ثايوسولفات"، لتثبيت الظل ثم وضع طبقة من الشمع عليه قبل الطبع، ثم توضع السلبية الناتجة – الفلم كما سيعرف فيما بعد – على ورق معالج في حمام ملحي بارد، فتنطبع صورة موجبة يتم غسلها بالماء ثم تجفيفها، وأطلق على عمليته هذه اسم "كالو تايب" وقد استطاع "تالبوت" بعد ذلك سريعاً تحسين المواد المستخدمة حتى ينخفض الوقت اللازم لتعريض الورق من حوالي ساعة كاملة إلى أقل من الدقيقة الواحدة، ثم قام أيضاً بإنتاج أول كاميرا سهلة النقل لاستخدامها أثناء السفر. ولكن طريقته لم تنتشر بين الناس لفترة من الزمن لتشدده في حفظ حقوقه لهذا الاختراع. ثم أصدر عام ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م) أول كتاب عن التصوير أسماه "مرسمة الطبيعة"، وضم الكتاب صوراً التقطت بهذه الطريقة وألزقت بالغراء على الصفحات، وطبع من هذا الكتاب ١٥٠ نسخة فقط.



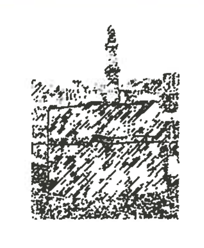
▲[غلاف أول كتاب يضم صوراً فوتوغرافية عام ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م)].

وبالموازنة، فإن الاختراع الفرنسي يعطي صورة أكثر دقة من الطريقة الإنجليزية، وإن كانت الطريقتان لا تسجلان الألوان الطبيعية. ونظراً لنشر التفاصيل الفنية لعملية التصوير الفرنسية، فقد أصبحت أكثر انتشاراً، وإن كانت لا تعطي إلا صورة موجبة واحدة. وعلى أي حال فلقد أحدث ظهور الاختراعين "داغير تايب" و"الكالوتايب" في فترة متقاربة الاهتمام لدى الكثيرين لتطوير عملية التصوير وتسهيلها، وسارع آخرون إلى إنشاء معامل تصوير، فقد ظهر أول معمل تصوير في العالم في مدينة نيويورك في المحرم ١٢٥٦هـ (مارس ١٨٤٠م)، ثم في لندن عام ١٢٥٧هـ (١٨٤١م)، ثم تلاه ظهور المعامل في فيلادلفيا وباريس وبرلين وهامبورغ. وقبل نهاية عام ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) كان السياح قد رجعوا بصور "داغير تايب" للمعالم المشهورة في مصر وفلسطين واليونان وأسبانيا، ومنها كان يتم عمل صور محفورة حتى يمكن طبعها في كتاب، وفعلاً ظهر أول مجلدين يضمان الصور المحفورة للشرق عام ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م). ونظراً لصعوبة طبع كتب تضم صوراً فوتوغرافية بذاتها، فقد بدأ نشرها أولاً في ألبومات، وهنا تكون طريقة البريطاني تالبوت "كالوتايب" أكثر مناسبة، لوجود فلم يستخرج منه عدد كبير من الصور، وفعلاً ظهر أول ألبوم لمصور يسمى "غوستاف فلوبرت لاجري"، عام ١٢٦٨هـ (١٨٥٢م) يضم صوراً التقطها زميله "ماكسيم دي كامب" في مصر والنوبة وفلسطين وسوريا عندما زار تلك المناطق خلال السنتين السابقتين.

واستمرت عمليات تحسين التصوير الفوتوغرافي، فقد اكتشفت أنطوان كلودي في بريطانيا أن اللون الأحمر لا يؤثر في الألواح الحساسة، وبذلك أمكن استخدام الضوء الأحمر بأمان في الغرف المظلمة، وحدثت تحسينات مهمة على العدسات عام ١٢٥٧هـ (١٨٤١م) بواسطة ثلاثة من النمساويين، فأنتج أحدهم العدسات اللالونية، وأنتج آخر صندوقاً رشيقاً للكاميرا يمكن نقله مع السياح بدلاً من الصندوق الخشبي غير المتقن، ونشر الثالث تفاصيل طريقة تعجيل كيماوية لزيادة حساسية الألواح خمس مرات. وأدى كل ذلك إلى تخفيض الوقت اللازم للتعريض إلى حوالي ٢٠ أو على الأكثر ٤٠ ثانية فقط.

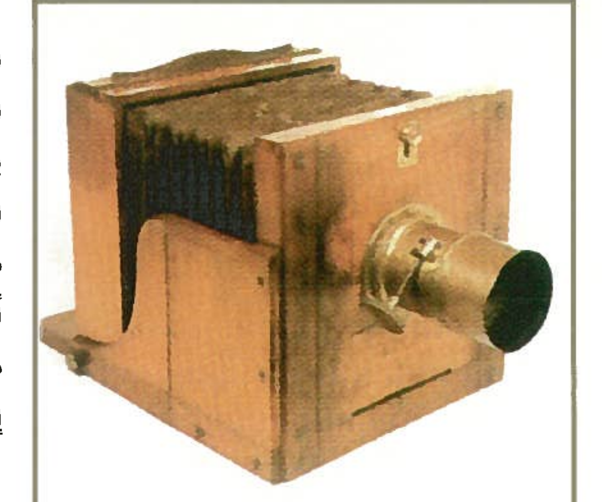
المرحلة الثانية - ظهور الألواح الرطبة " الغروية" ١٢٦٦ - ١٢٩٥هـ (١٨٥٠ - ١٨٧٨م):

دخل التصوير الفوتوغرافي مرحلة جديدة، في منتصف القرن التاسع عشر، عندما أصبح إنتاج الأفلام الرطبة على ألواح الزجاج شائعاً وحل محل الطرق السابقة. وقد بدأت فكرة إنتاج هذه الألواح عام ١٢٦٢هـ (١٨٤٦م)، عندما قام نحات بريطاني يسمى "فريدريك سكوت آرثر"، باختراع محلول غروي مصنوع من قطن البارود "نتروسيلولوز" المغمور في الكحول الأثيلي، تطلى به الألواح الزجاجية، فتتكون طبقة رقيقة "فلم" على سطح الزجاج، ثم يوضع اللوح الزجاجي قبل أن يجف في محلول نترات الفضة، ثم يوضع في الكاميرا وتلتقط الصورة، ثم تجري عملية التحميض آنياً والحصول على فلم يمكن استخدامه لإنتاج أي عدد من الصور على الورق فيما بعد. إن هذه الألواح الرطبة أسرع عشرين مرة من جميع الطرق السابقة، لذلك أصبحت هي السائدة لحوالي ثلاثين سنة قادمة. وكان الأمر في البداية يتطلب من المصور الذي يريد تصوير مناطق نائية إعداد خيمة مظلمة متنقلة تحوي المحاليل والألواح الزجاجية والمواد الكيماوية، بسبب ضرورة التحميض الآني للوح الزجاجي. ولا شك أن مجموع هذه الأدوات قد يصل وزنها إلى مئة كيلو غرام، مما يعكس صعوبة التصوير الخارجي آنذاك بهذه الطريقة.



وفي البداية كان يتم طبع الصور من الفلم الزجاجي على الورق الملحي الذي اخترعه تالبوت، ولكن ما أن جاء منتصف الخمسينيات من القرن التاسع عشر (حوالي ١٢٧٢هـ)، حتى تم إنتاج أول نوع من الورق المطلي بزلال البيض لطبع الصور الفوتوغرافية، بدون حاجة إلى محاليل كيماوية، لكن هذا الورق بحاجة إلى وقت طويل أمام الفلم حتى تنطبع الصورة عليه، ويعطي الزلال طبقة لامعة تحسن الصورة الملتقطة، لكن المشكلة هي ابيضاض الصورة المطبوعة بسرعة، وعدم صمودها كثيراً للضوء، ولكن عملية التطوير كانت مستمرة فتم إنتاج أصبغة الأنيلين وهي أصبغة زيتية لتزيد من كفاءة ورق التصوير وتصحيح عيوبه.

وبحلول عام ١٢٧٧هـ (١٨٦٠م)، نزلت إلى الأسواق الكاميرات القابلة للطي، وهي تستخدم الأفلام الرطبة. وفي العام نفسه ظهرت العدسات البانورامية أي ذات الزاوية المتسعة، حيث تم إنتاج عدسة كروية تملأ بالماء تستطيع عكس صورة بعرض ١٢٠ درجة. والحقيقة أن تصحيح عيوب العدسات لم يكتمل إلا في مرحلة تالية. لقد شهد عقد الستينيات من القرن التاسع عشر الميلادي افتتاح العديد من معامل التصوير في مصر والشام وتركيا، وعلى العموم فإن الفترة من منتصف القرن شهدت تسجيل الكثير من الأحداث السياسية والاجتماعية فوتوغرافياً في أنحاء العالم أجمع، لكن الغريب أن الصحافة – آنذاك – لم تكن الميدان المناسب للنشر؛ لأن الصور – كي تظهر على صفحات الجرائد – تحتاج إلى نقل على قوالب خشبية أو الطبع على الحجر مما يفقد الصورة كثيراً من مصداقيتها، والشيء نفسه يقال عن الكتب المطبوعة، وأصبحت عملية إصدار الصور مشكلة حادة حتى إن الجمعية الفوتوغرافية الفرنسية نظمت مسابقة عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٦م) فازت فيها طريقة إصدار الصور بالفحم، ثم أدخل على العملية تحسينات حتى أصبح من الممكن عام ١٢٨١هـ (١٨٦٤م) عمل ١٥٠٠ صورة في اليوم الواحد، لكن هذا لا يلبي طلب الصحف. ثم أدخلت تعديلات أخرى حتى ظهرت طريقة الـ "فوتو تايب"، وهي طريقة كيماوية تعتمد على خاصية Bichromated Gelatine الذي يوضع على لوح زجاجي، ثم يستخدم اللوح كقالب، يعرَّض تحت الإضاءة أمام الفلم، وأصبح بالإمكان إنتاج الصور التي أطلق عليها "هاف تون" والمقصود بالهاف تون هو تدرج الألوان في الصورة من الأسود إلى الأبيض بشكل دقيق. وفي عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) أدخلت عليها تحسينات جيدة، لكن مشكلة وضوح شبكية الصورة لم تحل إلا في المرحلة الثالثة.



◄ [أول كاميرا قابلة للطي. صنعت في بريطانيا ١٢٧٧هـ (١٨٦٠م)].

المرحلة الثالثة - ظهور الأفلام الجافة عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م):

دخل التصوير الفوتوغرافي عهده الحديث عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م) عندما تم إنتاج أفلام زجاجية جافة، في مصنع بكميات تجارية تباع على المصورين. وهذه الألواح أكثر حساسية بستين مرة من الألواح الرطبة، وقد تطورت الفكرة من اقتراح طبيب بريطاني يسمى ڤريتشارد ليتش مادوكس" عام ١٢٨٨هـ (١٨٧١م)، باستخدام بروميد الفضة مع مستحلب الجيلاتين لطلاء الألواح الزجاجية. وهكذا فقد سمحت السرعة الفائقة للأفلام الجديدة بتخليص الكاميرات من الحوامل ثلاثية القوائم، وتم صنع كاميرات صغيرة الحجم تمسك باليد، تسمح بالتقاط صور آنية.

وفي عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٩م)، تم حل مشكلة وضوح شبكية الصورة. وفي العام نفسه استطاع "كارل كليتش" تطوير طريقة الحفر الشمسي المسماة "هليوجرافي"، التي استخدمت مع طريقة الـ "فوتو تايب" للحصول على طبعات عالية الجودة من الكتب المصورة، ثم جاءت الطريقة الحاسمة لطباعة الصور للكتب والصحف عام ١٨٨١م على يد "جورج ميسنباخ" الذي اخترع طريقة الـ "أوتو تيب" التي مكنت من إنتاج الصور الـ "هاف تون" آنياً مع طباعة الحروف، فأصبح بالإمكان إنتاج عدد غير محدود من النسخ المصورة فوتوغرافياً.

وفي عام ١٣٠٤هـ (١٨٨٧م) ظهرت الأفلام الملفوفة على بكرة، وأنتجت شركة كوداك كاميرات تستعمل هذه الأفلام، فأصبح من الممكن التقاط عدد من الصور على الفلم الواحد والاستغناء عن الألواح الزجاجية المفردة والثقيلة. ثم أدخلت تحسينات واسعة على المواد الكيماوية المستخدمة للإظهار والتثبيت، فأصبحت عملية التحميض سهلة.

وفي عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) أنتجت شركة أكفا لمبة "فلاش" لورق النترات، ولم يظهر الفلاش الكهربائي السريع الذي يسمح بالتقاط صور متوالية إلا عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م). وفي عام ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م) ظهرت لأول مرة أفلام "الشرائح Slide" الملونة، لكن الأفلام الملونة التي يستطيع أن يستخدمها الهواة لم تظهر إلا عام ١٣٦١هـ (١٩٤٢م).

وتطورت طريقة التصوير الملون الآني في عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، وفي عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) ظهرت الكاميرات ذات التركيز البؤري الذاتي Auto-Focusing وفي عام ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م) ظهرت أول كاميرا ذاتية (أوتوماتيكية) Automatic بالكامل. وأخيراً ظهرت الكاميرات الرقمية (Digital Cameras) في عام ١٤١٢هـ (١٩٩١م).



أبو سليمان	عبدالوهاب إبراهيم (١٤١٦هـ/١٩٩٥م)
مكتبة مكة المكرمة: دراسة موجزة لموقعها وأدواتها ومجموعاتها، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.

الأزرقي	محمد بن عبدالله بن أحمد (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)
أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مكة المكرمة: دار الثقافة، ط٥.

الأنصاري	عبدالرحمن الطيب (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)
دراسات تاريخ الجزيرة العربية :الكتاب الأول: مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج١، الرياض: جامعة الرياض.

الأنصاري	عبد القدوس (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)
تاريخ مدينة جدة، جدة: دار الأصفهاني، ط١.

باجودة	محمد بن عبدالله (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)
نثر القلم في تاريخ مكتبة الحرم، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.

باسلامة	حسين عبدالله (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)
تاريخ الكعبة المشرفة، جدة: تهامة، ط٢.

باسلامة	حسين عبدالله (١٤٠٥هـ/١٩٨٤م)
تاريخ عمارة المسجد الحرام، جدة: تهامة، ط٤.

البتنوني	محمد لبيب (١٣٢٩هـ)
الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر. مصر: مطبعة الجمالية، ط٢.

الحاج	بدر (١٩٨٩م)
صور من الماضي:المملكة العربية السعودية: ط١، لندن: رياض الريس.

الحاج	بدر (١٩٩٧م)
المملكة العربية السعودية: صور من الماضي ١٨٦١-١٩٣٩م، ط٢، لندن: فوليوز.

الخطيب	عبدالحميد (١٣٧٠هـ/١٩٥١م)
الإمام العادل صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، سيرته – بطولته – سر عظمته.
القاهرة: شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١.

دحلان	أحمد بن زيني (١٣٠٥هـ)
خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النبي إلى وقتنا هذا بالتمام.
مصر: المطبعة الخيرية.

رفعت	إبراهيم (١٣٤٤هـ/١٩٢٥م)
مرآة الحرمين: القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.

رفيع	محمد عمر (١٤٠١هـ)
مكة في القرن الرابع عشر الهجري، مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي، ط١.

الزركلي	خير الدين (د.ت)
ما رأيت وما سمعت، الطائف: مكتبة المعارف.

الزركلي	خير الدين (١٩٨٠م)
الأعلام: قاموس تراجم، بيروت: دار العلم للملايين، ط٥.

الزركلي	خير الدين (١٩٨٥م)
شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، بيروت: دار العلم للملايين، ط٣.

زكي	بكباشي عبدالرحمن (١٩٤٧م)
أعلام الجيش والبحرية في مصر أثناء القرن التاسع عشر، ج١، القاهرة: مطبعة الرسالة.

سامي	أمين، باشا (١٣٤٦هـ/١٩٢٨م)
تقويم النيل، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ج٢.

سباعي	أحمد (١٤١٣هـ/١٩٩٥م)
تاريخ مكة، مكة: مكتبة الثقافة ، ط١، ١٣٧٣هـ، ط٧.

سنوك	هورخرونيه (١٤١٩هـ/١٩٩٩م)
صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة د.علي الشيوخ، د.محمد السرياني، د. معراج نواب مرزا، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز.

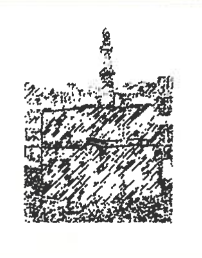
سنوك	هير جرونج (د.ت.)
مكة المكرمة منذ مائة عام: أو مجموعات ك. سنوك هير جرونج الرائدة، صاغها مع مقدمة جديدة آنجلو بيشة، تقديم غازي أحمد زيني، لندن: إيمل.

السهيلي	صالح مهدي (١٤٢١هـ)
القمة الإسلامية بين الآمال والنتائج، مكة: مطابع رابطة العالم الإسلامي.

صادق	محمد (١٢٩٤هـ)
نبذة في استكشاف طريق الأرض الحجازية من الوجه وينبع البحر إلى المدينة المنورة، وبيان خريطتها العسكرية. مصر: مطبعة عموم أركان حرب بديوان الجهادية.

صادق	محمد (١٢٩٨هـ)
مشعل المحمل: رسالة في سير الحج المصري براً. القاهرة: مطبعة وادي النيل.

صادق	محمد (١٣٠٣هـ)
كوكب الحج في سفر المحمل بحراً وسيره برا، مصر: المطبعة الأميرية ببولاق، ط١.



صادق — محمد (١٣١٣هـ)
دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج، مصر: المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق.

صبري — أيوب (١٣٠١هـ)
مرآت الحرمين (باللغة التركية)، إسطنبول: مطبعة سندة.

طاشكندي — عباس بن صالح (١٤٢٩هـ/١٩٩٩م)
الطباعة في المملكة العربية السعودية ١٣٠٠ - ١٤١٩هـ، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.

طوسون — الأمير عمر (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م)
البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد، الإسكندرية: مطبعة صلاح الدين.

عباس — حامد (١٤١٥هـ/١٩٩٥م)
قصة التوسعة الكبرى، جدة: مجموعة بن لادن السعودية، ط١.

عطا الله — سمير (١٩٩٤م)
قافلة الحبر: الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج (١٧٦٢-١٩٥٠م)، لندن: دار الساقي، ط١.

فلبي — عبدالله (د. ت.)
الذكرى العربية الذهبية، ترجمة د. مصطفى فايد ، القاهرة: مطبعة الإعتماد.

كردي — عبيد الله محمد أمين (١٤١٩هـ)
الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارة وتاريخاً، جدة: مجموعة بن لادن السعودية.

الكردي — محمد طاهر (١٣٨٥هـ)
التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، مكة: مكتبة النهضة.

ليوون — كارل فان ، وديري أوستدام وستيفن فينك (١٤١٩هـ/١٩٩٩م)
البعثة الهولندية في الجزيرة العربية سنة ١٣٠٠-١٣٧٠هـ، أمستردام: المعهد الملكي الهولندي لدراسات المدارية، باللغتين العربية والإنجليزية.

مجاهد — زكي محمد (١٩٩٤م)
الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية، بيروت: دار الغرب الإسلامي ج١، ط٢.

محمد علي — أحمد رجب (١٩٩٦م)
المسجد الحرام بمكة المكرمة ورسومه في الفن الإسلامي، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

مديرية الحج — مديرية الحج العامة بوزارة المالية (١٣٧٦هـ)
أضخم مشروع إسلامي في القرن الرابع عشر ، مكة: مديرية الحج العامة.

مركز الملك فيصل (١٤٠٥هـ)
وحدة الفن الإسلامي، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

مصطفى — محمد (شوال ١٣٧٥هـ/مايو ١٩٥٦)
المقدسات الإسلامية في الفن الإسلامي، مجلة المصور المصرية، عدد خاص عن الجزيرة العربية، ص ٦٤-٦٥.

مقادمي — فيصل عبدالله (١٤٠٤هـ)
التعليم الأهلي للبنين في مكة المكرمة: تنظيمه والإشراف عليه، مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي.

وزارة المالية — (د. ت.)
مشروع جلالة الملك عبدالعزيز لتوسعة وعمارة المسجد الحرام، إتحاد المهندسين الإستشاريين، (باكستان): وزارة المالية والإقتصاد الوطني بالمملكة العربية السعودية.

مغربي — محمد علي (١٤٠١/١٤١٤هـ)
أعلام الحجاز، جدة: تهامة وغيرها.

Allen William (1988)
Analysis of Abdul-Hamid's Gift-Albums, J.of Turkish Studies, Vol. 12, p.33-37.

Ambler et al Louise Todd (Editors) (1989)
The Invention of Photography and its Impact on Learning,
Cambridge, Mass: Harvard University Press.

Amer Mustafa (1932)
An Egyptian Explorer in Arabia in the 19th Century,
Bulletin de la Societe Royale de Geographie D'Egypte,
Vol.18/1, P 29 - 45.

Atasoy Nurhan (1988)
Sultan Abdulhamid II`s Photo-Collections in Istanbul,
J.of Turkish Studies V. 12, p. v - vi.

Baatz Willfried (1999)
Photography: A Concise History, Great Britain: Laurence King.

Badia Y Leyblich Domingo (1970)
Travels of Ali Bey, England: Gregg International, Republication of 1816.

Begum of Bhopal The Nawab Sikandar (1870)
A Pilgrimage to Mecca, London: W.H.Allen.

Burckhardt John Lewis (1968)
Travels in Arabia, London: Frank Cass, (Reprint of the 1829 Edition).

Burton Sir Richard (1964)
Personal Narrative of a Pilgrimage to Al-Madinah & Meccah,
New York: Dover Publications Inc., (Republication of the
Memorial Edition of 1893 by Tylston & Edwards).

D`Ohsson Agnatios (1787-1824)
Tableau General de L'Empire Othoman; Paris:De L'Imprimerie De Monsieur.

De Gaury Gerald (1951)
Rulers of Mecca, London: George Harrap.

Facey William (1996)
Saudi Arabia by the First Photographers, London:
Stacey International.

Gavin Carney E.S. & The Harvard Semitic Museum (Editors) (1988)
Imperial Self-Portrait: The Ottoman Empire as revealed in the Sultan
Abdul Hamid II's Photographic Albums, Journal of Turkish Studies, Vol. 12.

Halliburton Richard (1949)
Marvels of the East, London: Geoffrey Bles.

Hogarth D.G. (1904)
The Penetration of Arabia, New York: Frederick A. Stokes.

Hurgronje C. Snouck (1970)
Mekka in The Latter Part of The 19th Century,
Translated by J.H. Monahan, Leiden: E.J.Brill, Reprint.

Khidr Khalid (n.d.)
Makkah al-Mukarramah, n.p.

Leeuwen F.C. Van et al (1999)
Dutch Ednvoys in Arabia: 1880- 1950; Photographic Impressions,
The Netherland: Royal Tropical Institute.

Nawwab Ismail Ibrahim (Jan./Feb 2002)
Berlin to Makkah: Muhammad Asad`s Journey into Islam, Saudi Aramco World
Magazine, p 6 - 32.

Pesce Angelo (1986) (Editor)
Makkah a Hundred Years ago or C.S.Hurgronje's Remarkable Albums,
London: Immel Publishing.

Peters F.E. (1994a)
Mecca: A Literary History of the Muslim Holy Land , Princeton,
New Jersey: Princeton University Press.

Peters F.E. (1994b)
The Hajj: The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy Places,
Princeton, New Jersey: Princeton University Press.

Philby H.St. J. (1946)
A Pilgrim in Arabia, London: Robert Hale.

Ralli August (1909)
Christians at Mecca, London: William Heineman.

Reader's Digest The Last Two Million Years, (1981)
London: The Reader's Digest Association.

Sanger Richard H. (1954)
Arabian Peninsula, New York: Cornell University Press.

Sheikh Abdul-Ghafur (July 1953)
From America to Mecca an Airborne Pilgrimige, National Geographic
Magazine, Vol.CIV, No.7.p1 - 60.

Stewart Desmond (1980)
Mecca, New York: Newsweek 1980.

Strika P.Vincenzo (1979)
A Kaba Picture From Mosul,
Studies In the History of Arabia: V1, Sources for The History of Arabia, part-1,
Riyadh: Riyadh Univercity Press, p 145 - 149.

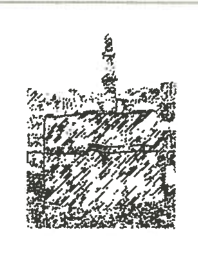
Sugich Shadiya (1988)
Living in Makkah, Morris Town, New Jersey: S.Burdett Press.

Tanindi Zeren (1983)
Islam Resminde Kutsa Kent Ve Yore Tasvirleri,
Journal of Turkish Studies Vo.7, p 407 - 437.

Wavel A.J.B (1912)
A Modern Pilgrim in Mecca and a Siege in Sanaa, London: Constable.

Wheatcroft Andrew (1982)
Arabia and the Gulf in Original Photographs 1880 - 1950,
London: Kegan Paul International, 1982.

المحتويات





ص.ب:٢٩٤٥ – الرياض ١١٤٦١ – المملكة العربية السعودية – هاتف: ٤٠١١٩٩٩ / ٤٠٨١٦٣٦ فاكس: ٤٠١٣٥٩٧
P.O.Box: 2945 - Riyadh 11461 - K.S.A. - Tel: 4011999/4081636 Fax: 4013597
البريد الإليكتروني: info@darah.org.sa - E-mail: info@darah.org.sa - موقع الإنترنت www.darah.org.sa